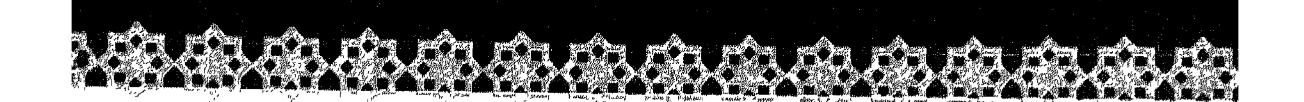
الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء الأربعون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — رواية عن الأرض المقدسة

كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م

٢ — وصف جون بولونير

للأرض المقدسة(١٤٢١م).

٣ — جولات الراهب

فيلكس فابري ورحلاته.

حوالي

(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون

دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

لقد لاحظنا فيما تقدم أن أحداث الحروب الصليبية قد تفجرت في ذروة العصور الوسطى في أوربا، وبعد توطد أركان النظم الاقطاعية، وكان للحروب الصليبية آثارها العظيمة على عقلية الانسان الأوربي حيث أخرجته من العزلة الاقطاعية إلى الانفتاح المحلي، فالأوربي فالعالمي، ومنذ ما قبل الحروب الصليبية قدم بعض الحجاج الأوربيين إلى فلسطين، لكن بعدما تأسس الفرنجة في القدس وفي دويلاتهم الأخرى ازداد تدفق الحجاج من أوربا، ولحسن الحظ أن عدداً لابأس به من هؤلاء الحجاج قد تركوا لنا أوصاف مشاهداتهم مع المعلومات التوراتية والانجيلية الجغرافية والتاريخية، وهذا أمر مفهوم الخلفيات، أوضحه عدد من الرحالة، وبينوا أن الهدف الأساسي لهم كان المطابقة بين مشاهداتهم وبين المعلومات الدينية المتوارثة، وأن هذه المطابقة تساعد على فهم النصوص الدينية وتمكن الأوربي الذي لم يزر الأرض المقدسة من تخيلها وتصور أماكن الزيارة فيها.

وارتبط النظام الاقطاعي في أوربا مع نظم الفروسية، وكان الملوك هم الذين ينعمون برتبة الفروسية على أتباعهم الاقطاعيين، لكن مع انحدار العصور الوسطى في أوربا، وسيرها نحو الانغلاق بقيام عصور النهضة، راج بين الأسر الاقطاعية الأوربية، أن الفروسية الحقة هي التي يتم نيلها في كنيسة القيامة على مقربة من الضريح المقدس داخل هذه الكنيسة.

هذا ورأينا من المجلدات الأخيرة التي حوت بعض المواد التي كتبت في القرن الرابع عشر بعد تحرير عكا، أن الحج إلى الأرض المقدسة لم

ينقطع، واعتمد على النقل البحري، الذي تولته البحرية التابعة لدولة البندقية، وقد تساهل المسلمون كثيراً بالسماح للحجاج بالقدوم إلى القدس وسواها، وقدمت الديرة في القدس الخدمات للحجاج، وكانت هناك ترتيبات مرعية بين السلطات الاسلامية والقائمين على الديرة، وعلى العموم توفر الأمن، ولم يهدد أحد سلامة الحجاج، لانعدام التعصب بين صفوف المسلمين.

وكنت فيما تقدم قدمت جل الرحلات الأوربية المعروفة، ونصوص هذه الرحلات بالغة الأهمية وأقوم الآن بتقديم آخر ما توفر لدي من كتب الرحالة، فسأقدم في هذا المجلد، وفي مجلدات ثلاثة تالية له رحلتين قصيرتين من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبعد ذلك رحلة فيلكس فابري، التي هي أوسع كتب الرحلات الأوربية قاطبة، جاءت في أربعة مجلدات، فكانت بذلك أشبه بالعمل الموسوعي.

وكان فيلكس فابري راهباً ألمانياً، معتداً بألمانيته، ومتعصباً لها، أكثر من اعتداده بالانتماء إلى رهبنة الدومينيكان، وقد قام برحلتين إلى فلسطين، كانت أولاهما قصيرة جرت في عام ١٤٨٠م، وكانت الثانية طويلة استغرقت عام ١٤٨٣، وقد أودع فابري في كتابه مشاهداته، مع ما قرأه وسمعه، ورحلة فابري هامة جداً، حيث أنها جاءت قبل اكتشاف أمريكا،وانتهاء العصور الوسطى في أوربا بعقد من الزمن، وتمت في أواخر العصر المملوكي، وقبيل استيلاء العثمانيين على بلاد الشام ومصر بحوالي الربع قرن من الزمن.

ومع الفراغ من مجلدات هذه الرحلة، أكون قد قدمت خمسة مجلدات متتابعة كل موادها رحلات، وسأمتلك بعد ذلك الفرصة لتقديم تاريخ متى الباريسي الذي هو آخر النصوص التاريخية اللاتينية الأصل لدي، وهو من أهمها على الاطلاق، وكتاب متى الباريسي نادر الوجود، عانيت كثيراً حتى حصلت على نسخة منه، وهو كبير جداً، ربما سألحق به

واحداً من أصوله الذي اسمه«ورود التاريخ».

وحين أفرغ من العمل بتاريخ متى الباريسي، تكون موسوعتنا هذه قد حققت الشطر الأعظم من أغراضها، وأكثره صعوبة لأن ما لدي من مصادر عربية، جلها — على كثرتها — جاهز للطباعة.

الله تعالى أسأل العون والسداد، وأن تكون موسوعتنا هذه فيها الفوائد المرجوة للقارىء والباحث، وفيها برهان على أن الأمة العربية، وإن تمزقت سياسياً، مابرحت تعطي حضارياً وثقافياً، وأن سورية الصمود، مايزال القلم فيها معانقاً للسيف، فهكذا كانت أرض الشام دوماً، وستظل هي أرض الحضارات والعطاء الذي لاينضب، والجهاد الصحيح الطاهر النقي.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٦ — ذي القعدة ١٤٢٠ هـ / ٩ شباط ٢٠٠٠م.

(١)

رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م

١ — على الذين يرغبون بمعرفة كيفية الحج إلى مدينة القدس المقدسة والمجيدة، وكذلك بقية الأرض المقدسة — كما أرى — السفر إلى الناصرة أولاً، لأن من المناسب أن نبدأ حجنا من هناك، أي من حيث كانت بداية خلاصنا.

٢ — وتقع مدينة الناصرة على بعد أربعة عشر ميلاً إلى الشرق من عكا، والأصح أن نسميها مدينة المخلص، لأن الحمل به كان بها، ، وبها نشأ وتربى، وهناك فيها عاشت العذراء مريم بعدما اقترنت بيوسف، وإليها أرسل الملاك جبرائيل من قبل الرب، ليحمل إليها بشائر خلاصنا.

وهذه هي المدينة المقدسة، والعزيزة على الرب، ففيها تحولت الكلمة إلى جسد، وأينعت الزهرة، التي هي أفضل من جميع الزهور، في رحم العذراء، ولهذا كان من الموائم ترجمة كلمة ناصرة إلى وردة، وهي تتفاخر بهذا الامتياز الخاص على جميع المدن الأخرى، ففيها أعدّ الرب بداية خلاصنا، وفيها تفضل وتنازل لأن ينشأ بها، وأن يكون خاضعاً لوالديه، وهو الذي أخضع له الأب كل شيء هو في السماء وفي الأرض.

٣ — ويوجد هناك عمود رخامي صغير، احتضنته العذراء، خشية منها من الرؤيا المفاجئة، وإلى جانب العمود هناك الموضع الذي وقف فيه الملاك جبرائيل وقال:«حييت، أيتها المليئة بالنعمة، الرب معك»الخ، وهناك خلاص من الألم والذنب.

٤ — وينبع في الناصرة هناك نبع صغير، اعتاد الفتى يسوع أن ينضح الماء منه، ومنه كان يزود أمه.

٥ — وعلى بعد ميل إلى الجنوب من الناصرة مكان اسمه«جبل قفزة»، وذلك حيث رغب اليهود برمي يسوع منه نحو الأسفل، وكذلك حسداً من والديه له على حكمته، وهناك اختفى من أمام

أنظارهم في لحظة.

٦ — وعلى بعد أربعة أميال من الناصرة توجد مدينة اسمها الصفورية، منها جاءت حنة، أم العذراء مريم، أم المسيح، ويوجد بينها وبين الناصرة نبع دائم التدفق بمياه وافرة، وهو يعرف باسم نبع الصفورية، الخ.

٧ — وعلى بعد ميلين من الصفورية، توجد قانا الجليل، التي حول الرب يسوع الماء فيها إلى خمرة، ومنها جاء سمعان القاني، وناتانئيل.

٨ — وعلى بعد ميل واحد إلى الجنوب من الناصرة، توجد يافا، وهي قرية فيها ولد جيمس ويوحنا ولدا زبدي.

٩ — وعلى بعد ستة أميال إلى الشرق من الناصرة، يوجد جبل الطور، وهو جبل عظيم الارتفاع، فعليه تغيرت هيئة الرب، وكان موسى وإيليا حضوراً، وكان ذلك أمام بطرس، وجيمس، ويوحنا، والياس، وبذلك أظهر مجد قيامته المستقبلية.

١٠ — وهناك جاء صوت من السماء قائلاً:«هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راض، استمعوا إليه».

١١ — وفي سبيل تشريف هذا المكان، وتقديم الاحترام اللائق به، بنى المسيحيون في العصور الخالية، ديراً هناك.

١٢ — وهو الذي هدم مؤخراً كلياً من قبل المسلمين، ويوجد هناك إعفاء كامل من الألم والذنب.

١٣ — وعند سفح هذا الجبل التقى مليكصادق إبراهيم، وهو عائد من قتل أمالك، وقدم إليه هدية خبز ونبيذ، مما رمز إلى مذبح المسيح تحت توزيع النعمة.

١٤ — وعلى بعد ميلين من الطور، توجد مدينة نين، وهي قائمة

عند سفح جبل عين دور باتجاه الجنوب، وعند بابها رد يسوع إلى الحياة ابن المرأة الأرملة.

١٥ — وعلى بعد ثمانية وثلاثين ميلاً إلى الجنوب من الناصرة، توجد سبسطية، التي كان اسمها من قبل السامرة، فهناك جرى دفن جسد يوحنا المعمدان، بين النبيين إيليا وعوبيدا، وذلك بعد نقله من مكور فيما وراء الأردن، حيث هو مدفون من دون رأس.

١٦ — وعلى بعد عشرة أميال عن سبسطية تقوم مدينة نابلس، التي كانت تعرف من قبل باسم شكيم، اشتقاقاً من اسم شكيم بن أمور، أو باسم شيكار، وذلك حسبما ورد اسمها في الانجيل، وذلك حيث دفنت عظام يوسف بن يعقوب بعدما جلبوها من مصر، وهناك أيضاً على بعد ميل واحد نحو الجنوب، خارج المدينة، يوجد جب يعقوب الذي جلس يسوع إلى جانبه، وهو متعب من سفره، وذلك عندما طلب الماء من المرأة السامرية، وهناك أيضاً الرابيتين أو الأكمتين، أي: دان وبيت إيل، حيث وضع يربعام العجلين الذهبيين، وأمر بعبادتهما قائلاً:«إن هذين هما إلهيكما يا بني إسرائيل، وهما اللذان أخرجاكم من مصر».

١٧ — والمسافة من نابلس إلى القدس هي خمسة وثلاثين ميلاً.

١٨ — والقدس هي المدينة الأقدس بين المدن المقدسة، وهي سيدة الأمم، والرئيسة على المقاطعات، واسمها مدينة الملك العظيم، وهي قائمة في وسط الأرض، وهي مركز العالم، لذلك من الممكن لجميع الأمم أن تتدفق عليها، وهي مقر البطارقة، وخاصة الأنبياء، ومعلمة الرسل، ومقر خلاصنا، وبلاد الرب، وأم الايمان، مثلما روما أم الصدق، اختارها الرب وقدسها، والمكان الذي وقف عليه الرب بقدميه، والمشرفة من قبل الملائكة، والتي تزورها كل أمة من الأمم تحت قبة السماء.

وقد بنيت فوق جبل مرتفع، مع تلال على كل جانب، وذلك في الجزء من سورية الذي اسمه اليهودية وفلسطين، حيث تتدفق الأرض بالحليب والعسل، وفيها وفرة من القمح، والخمرة، والزيت، وجميع البضائع الدنيوية، لكن هذه البلاد مفتقرة إلى الأنهار، لأنه لايوجد فيها سوى نبع واحد اسمه سلوان، ينبع تحت جبل صهيون، خلال وسط وادي شعفاط ، وهو الذي يقدم أحياناً كميات وافرة من المياه، لكن بشكل عام قليلاً من الماء أو لاشيء، ويوجد في داخل المدينة وخارجها عدد كبير من البرك من أجل جمع مياه الأمطار، ومياه هذه البرك كافية للناس وللبهائم للشرب وللأغراض الأخرى الضرورية.

١٩ — وهناك قناة جر مياه رائعة جداً، قادمة من مدينة اسمها مدينة القديس إبراهيم(الخليل)، قائمة في وادي حبرون، وتبعد عن القدس أربعة وعشرين ميلاً باتجاه الجنوب.

٢٠ — ولهذه المدينة أسماء كثيرة ومتنوعة صدرت عن أحداث تاريخها، وأطلقت عليها من قبل أمم مختلفة بلغات أيضاً مختلفة، فقد عرفت أولاً باسم يبوس، ثم سالم ، ومن مزج هذين الاسمين جاء اسمها الثالث وهو أورشليم، وعرفت أيضاً باسم هيروسوليما، وسوليما، ولوز ، وبيت إيل، كما عرفت أيضاً باسم إيلياء، اشتقاقاً من إيليوس الحاكم الروماني، الذي أعاد عمارتها في المكان القائمة فيه الآن، وكان ذلك بعد تدميرها من قبل تيتوس وفاسبسيان.

هذا ومدينة القدس، هي المدينة التي عرض الرب فيها وهو متجسد أسرار خلاصنا، ولهذا هي متفوقة على جميع الأماكن الأخرى والمدن في امتيازات قداستها، وعلو مجدها، ولهذا تجتذب كثيراً من رجال الدين إليها ذاتها، وذلك «بشم رائحة الحقل كله الذي باركه الرب»،[التكوين:٢٧/ ٢٧]، ويوجد على جهة اليمين منها صهيون، حيث هناك القلعة،وهي التي عرفت باسم مدينة داوود، ويقوم جبل

الزيتون على الجهة الشرقية منها.

٢١ — الحج داخل كنيسة الضريح المقدس وخارجها

٢٢ — عندما تدخل الكنيسة أولاً، سوف تجد حجرة من الرخام الأسود، عليها غسل يوسف الرامي ونيكوديموس جسد المسيح، ورشوا عليه الحنوط، وكان ذلك عندما أنزلوه من على الصليب، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

٢٣ — وتذهب من هناك إلى جبل أكرا(الجمجمة) حيث جرى صلب المسيح، وحيث تصبب الدم من جنبه، فخرق الصخر الصلب ومر خلاله، وترك لون الدم الذي مازال موجوداً حتى الآن، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

٢٤ — ذلك أن الدم ذهب إلى تحت جبل أكرا ، وكان ذلك إلى الجزء المعروف باسم الجلجلة، حيث تمّ العثور على رأس آدم، الانسان الأول، وقد نزل الدم إلى الرأس المتقدم الذكر، أثناء خرقه لتلك الصخرة ومروره بها، وهناك غفران لمدة سبع سنوات،ولسبعة مواسم صوم كبير.

٢٥ — ومن هناك سوف تأتي إلى الضريح المجيد للرب، الذي ظل حتى أيام الامبراطور إيليوس هدريان من دون باب، وقد وسع هذا الامبراطور المدينة كثيراً إلى حد أنه أدخل مكان ضريح الرب، في داخل محيط الأسوار، وفي هذا المكان، بنى المسيحيون فيما بعد — صدوراً عن الاحترام الذي كان لديهم نحو ضريح الرب — كنيسة قيامة الرب الرائعة في داخل المدينة، وكان ذلك وفق عمل محكم ووضع موائم، وشكل مستدير، مع نافذة واحدة مفتوحة في السقف، وتضم هذه بشكل لائق المكان الرئيسي بين المواضع المقدسة والتي لها ذكرها، ففي هذا المكان جرى دفن الجسد الثمين للرب بشكل محترم مع الحنوط،

وهنا استراح حتى اليوم الثالث، ذلك أنه قام في اليوم الثالث، وفقاً لما قال:« في اليوم الثالث سوف أقوم ثانية»، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٦ — ثم إنك تأتي إلى المكان، الذي عندما كان ربنا يقوم من الموت، ظهر أولاً إلى مريم المجدلية، عندما خيل إليها أنه البستاني فقالت له:«يا سيد إن كنت أنت قد حملته فقل لي أين وضعته»،الخ[يوحنا:٢/ ١٥]، وقد بني في ذلك المكان مذبح مقدس تشريفاً لذلك الظهور، وهو القائم أمام باب بيعة العذراء المباركة، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٧ — ومن هناك سوف تدخل بيعة مريم المباركة، وهناك سوف تجد جزء من العمود الذي ربط يسوع إليه، وطول هذا الجزء أربعة أقدام، فهناك جرى جلده، وهو موضوع كما كان في جزء الجدار على جهة اليمين وأنت داخل إلى البيعة، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٨ — وأيضاً يوجد في البيعة نفسها، المكان القائم أمام المذبح، الذي بعث فيه الرجل إلى الحياة بفضل الصليب المقدس، وكان ذلك إثر اكتشافه الرائع، وبحضور حنة(هيلانة) أم الامبراطور قسطنطين، وهناك غفران لسبع سنوات، وسبعة مواسم صوم كبير.

٢٩ — وهناك أيضاً قرب المذبح الموضع الذي وقف فيه الصليب المقدس لوقت طويل، حيث كان يعبد بتقوى عظيمة جداً من قبل المؤمنين المسيحيين، وهناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٠ — ومن هناك سوف تصل إلى المكان الذي سجن فيه المسيح، وربط، وضرب، فهناك يوجد الآن بيعة صغيرة، وهناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٣١ — وعندما تذهب خارجاً من باب تلك البيعة، من أمام مذبح هناك، سوف تجد حجرة إليها ربط يسوع بالأغلال، بينما كان صليبه يجري إعداده، وهناك يوجد غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٢ — وسوف تذهب من هناك إلى المكان الذي تراهن فيه العساكر حول ملابس المسيح، حسبما كُتب:«ومن أجل قميصي تراهنوا»، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٣ — وسوف تذهب من هناك إلى مكان حيث تنزل إلى بيعة بنيت على عمق ثمانية وعشرين درجة فهناك جرى دفن جسدي: مريم أم جيمس، ومريم سالومي، تحت مذبح هناك، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٤ — ويوجد قرب هذا المذبح، على الجانب الأيمن كرسي حجري، عليه جلست القديسة هيلانةعندما دفعت نحو البحث عن صليب الرب المقدس، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٥ — وهناك أيضاً نافذة في الجدار عند الباب الشمالي، من خلالها يتم سماع — كما قيل — صراخ الأرواح في أثناء تطهيرها بعد الموت.

٣٦ — ويوجد أيضاً في البيعة نفسها أربعة أعمدة حجرية، قيل بأنها تتعرق بماء عذب ليلاً ونهاراً بسبب آلام المسيح.

٣٧ — وسوف تنزل من هناك أيضاً اثنتي عشرة درجة إلى بيعة أخرى منخفضة،وهي التي عثر فيها في مكان عميق جداً، على الصليب المقدس، والمكان الذي كان فيه صليب الرب ممدداً، مايزال مرئياً، وهناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٣٨ — ومن هناك تصعد إلى الباب الأول، الذي دخلت منه، ولسوف تجد على جانبك الأيسر عموداً رخامياً تحت أحد المذابح، حيث قيل أنه على مقربة منه جرى تتويج يسوع بتاج من شوك، قبل وضعه على الصليب، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٩ — وتصل من هناك إلى الجلجلة، التي تعرف باسم البلاط، وذلك حيث جلس بيلايطس قبل المحاكمة، وعندما اقتاد يسوع إلى خارج المدينة، وحسب رواية يوحنا[٩/ ١٤] كان اليوم يوم عيد الفصح، في حوالي الساعة السادسة منه، والجلجلة مكان موجود تحت جبل الجمجمة، وكان مقعراً، وهناك مايزال الدم مرئياً، حسبما تحدثنا من قبل.

٤٠ — ثم إنك تصل إلى باب، حيث هناك في وسط السدة يوجد المكان الذي يسمى بمركز العالم، فهناك مدّ الرب يسوع المسيح إصبعه قائلاً:« هذا هو مركز العالم»، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

وينبغي أن يكون معلوماً أنه يوجد عند المذبح الكبير غفران لمدة سبع سنوات،ولسبعة مواسم صوم كبير، وأن جميع المذابح قد بنيت في داخل الكنيسة.

٤١ — وتصل من هناك إلى عمود موجود قرب حجرة الضريح المقدس، قد رسم فوقه صورة القديس بانتاليون Pantaleon ، وعند هذه الصورة، قيل بأن المعجزة التالية قد حدثت فيما مضى: فقد دخل أحد المسلمين إلى كنيسة الضريح المقدس، ونظر من حوله، فرأى الصورة المتقدمة الذكر مرسومة فوق العمود، وعندما انتزع عيني الصورة، ما كان من عينيه إلا أن سقطتا فوراً على الأرض.

٤٢ — وتصل من هناك إلى الباب الذي لم تكن مريم المصرية المباركة قادرة على الدخول منه، مع أن المسيحيين الآخرين قد دخلوا، وعندما وعدت بأنها سوف تتوب، سمعت صوتاً يقول لها:«إذا عبرت نهرالأردن سوف تكونين صحيحة بريئة»، وهذا الباب موجود على الجانب الشمالي للضريح المقدس في مكان سري، وتوجد هناك بيعة القديسة مريم المصرية، المتقدمة الذكر ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٣ — ومن هناك سوف تخرج من كنيسة الضريح المقدس، ولسوف تجد على يسارك بيعة صغيرة، هي بيعة العذراء المباركة مريم، وذلك تحت جبل الجمجمة، حيث وقفت تحدق بابنها وهو معلق فوق الصليب، وهناك يتولى النوبيون أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٤ — ومن هناك سوف تأتي إلى بيعة القديس يوحنا الانجيلي، وهي ملتصقة ببيعة مريم المباركة، حيث أوصى مخلصنا بالأم العذراء إليه، والتي كانت فعلاً عذراء، ويتولى هناك اليعاقبة أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٥ — وتصل من هناك إلى بيعة ملاصقة، بنيت تشريفاً للقديس يوحنا العمدان، والغفران هنا لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٦ — وسوف تجد في مواجهتك بيعة بنيت تشريفاً للقديسة مريم المجدلية، حيث بكت هناك وناحت، مع نسوة أخر، على الرب وهو معلق فوق الصليب، ويتولى هناك المسيحيون المطوقون(الكرج) أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٧ — وتأتي من هناك إلى صخرة موجودة أمام أبواب الكنيسة، عليها ارتاح المسيح عندما جاء وهو يحمل صليبه إلى جبل الجمجمة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٨ — وجميع الأماكن الفائقة القداسة، المتقدمة الذكر موجودة داخل، أوملاصق الكنيسة المقدسة لآلام الرب، ولضريحه المقدس.

مايتعلق بالحج فوق جبل صهيون المبارك

٤٩ — ونذهب من هناك إلى جبل صهيون، وعلى الطريق سوف تجد كنيسة جيمس المبارك ابن زبدي، وهي المكان الذي وضع فيه فيما مضى رأس جيمس هذا عندما جلب على أيدي الملائكة من يافا، فهناك جرى إعدامه بقطع رأسه، كما يقول بعضهم، بيد أن آخرين يقولون، بأنه أعدم في القدس، في المكان الذي توجد فيه كنيسته، وهذا ما أعتقد أنه أكثر صحة.

٥٠ — ومعروض هناك للمشاهدة عظام جيمس هذا الأعظم مباركة، وكذلك عظام جرجس المبارك والشهيد، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير، والموجود هناك هم رهبان أرمن.

٥١ — وسوف تذهب من هناك إلى كنيسة القديس المخلص في جبل صهيون، حيث المكان كان من قبل بيت كيفاس، الذي إليه جلب يسوع أولاً بعد اعتقاله، وجلد هناك بقسوة، ويوجد هناك خارج باب الكنيسة، جزء من العمود الذي ربط إليه، وذلك في داخل الجدار هناك، وفي المكان نفسه أنكر بطرس المسيح للمرة الأولى«قبل صياح الديك»، وعندما كان جالساً هناك في القاعة مع الخدم قام بتدفئة نفسه على«نار الفحم، لأنها كانت باردة»[يوحنا:١٨/١٨]، وهناك أيضاً السجن الذي ألقي فيه يسوع، وأبقي فيه حتى الصباح، لكن عندما جاء الصباح

أرسلوه مغلولاً إلى بيلايطس، وموجود هناك حجرة كبيرة موضوعة فوق المذبح، وقد قيل بأنها كانت الحجرة التي ألقيت أولاً فوق ضريح الرب،[وهناك قالت النسوة] — تبعاً لرواية مرقص — :«من سيدحرج هذه الصخرة من على باب الضريح»، الخ، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٥٢ — ومن هناك تأتي إلى المكان الذي كان فيما مضى قلاية مريم المباركة، حيث أقامت فيها لمدة أربعة عشر عاماً، بعد صعود الرب إلى السماء، ومن هناك انتقلت إلى الرب، من هذا العالم الشرير، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٥٣ — ومن هناك تنتقل إلى مكان ملاصق، حيث كان فيما مضى الكنيسة التي احتفل فيها المبارك يوحنا الانجيلي بقداس بحضور مريم العذراء المباركة، واستمر ذلك طوال بقاء مريم المباركة حيّة في هذا العالم، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٤ — ومن هناك تنتقل إلى المكان الذي انتخب فيه الرسل متى المبارك رسولاً، وكان ذلك في غرفة يهوذا الخائن، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٥ — وهناك أيضاً المكان الذي انتخب فيه الرسل السبعة شمامسة:ستيفن، وفيليب، ونيكابور، وأتباعهم للتبشير بكلمة الرب.

٥٦ — وهناك مكان آخر، فيه انتخب الرسل المبارك جيمس، ليكون الأسقف الأول للقدس، وهو الذي استشهد فيما بعد بضربة من عصا القصار، وغادر إلى المسيح.

٥٧ — ثم إنك تأتي إلى صومعة مريم العذراء المباركة، وذلك على مقربة من أبواب الكنيسة، فهناك اعتادت أن تصلي بعد صعود الرب إلى

السماء، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٨ — ويوجد أيضاً على الجانب الآخر من أبواب الكنيسة، صخرة حمراء، كانت تستخدم بمثابة مذبح، وعلى هذه الصخرة احتفل المبارك يوحنا الانجيلي، بقداس بحضور مريم العذراء المباركة، وقد نقلت من جبل صهيون على أيدي الملائكة، بناء على صلوات المبارك توما الرسول، لدى عودته من الهند، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٩ — ثم إنك سوف تدخل إلى الكنيسة، ويوجد قرب المذبح الكبير، في جهة الجنوب، المكان الذي تعشى فيه الرب يسوع مع حوارييه، واتصل بهم قائلاً:«خذوا، كلوا، هذا هو جسدي الذي أعطي لكم، وافعلوا هذا تذكراً لي»، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب، وقد غسل في المكان نفسه أقدام حوارييه.

٦٠ — ثم إنك تخرج من الكنيسة، وتأتي إلى حاجز، على مقربة منه المكان الذي قال فيه الرب يسوع لحوارييه، عندما جاء«والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط، وقال سلام عليكم، ثم قال لتوما: هات اصبعك إلى هنا وأبصر يدي،وهات يدك، وضعها في جنبي، ولاتكن غير مؤمن بل مؤمناً»[يوحنا:٢/ ٢٦ — ٢٨]، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦١ — ثم إنك تصعد فوق الكنيسة بدرجات، حيث هناك المكان الذي سكن فيه الرسل، بعد صعود الرب، وذلك حتى يوم عيد الحصاد، وكانوا ينتظرون الروح القدس بالصوم وبالصلوات،وفي يوم عيد الحصاد تلقوا الروح القدس، على شكل نار، من أجل تقويتهم، وتلقوا معها معرفة جميع اللغات، وجاء صوت من السماء بشكل

مفاجىء، ودوى فوق المكان، ولحق ذلك تـدفق حشد من اليهود، إليهم شرح بطرس المبـارك نبوءة يوئيـل، وحول عـدداً كبيراً منهم إلى الايمان، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

٦٢ — ثم إنك تنزل من هنـاك إلى المقبرة، ويوجـد هناك على مقـربة من الكنيسة على الجهة الشمالية، صخرة، عليها وقف يسوع عندما وعظ الحشد، ويـوجد هناك غفران لمدة سبـع سنوات، ولسبعة مواسـم صوم كبير.

٦٣ — ثم تذهـب من هناك إلى تحت الكنيســة،حيث هناك يوجــد ضريح الملـك داوود وابنه سليمان، فهنـاك جـــرى دفن جميـع ملوك القدس، وعلى مقـربة من هناك نظم داوود سبعة مـزامير، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٤ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي جـرت تدفئة الماء فيـه، من أجل غسل أقدام الحواريين، وقت العشاء الرباني.

٦٥ — ثم إنك تـأتي إلى ضريح اسطفـان المبـارك، الذي كـان أول شهيـد، وهناك دفن جسـده بعـد اكتشـافـه لكنه الآن في رومـا، وفي الناووس نفسه مع جسد لورانس المبارك، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٦ — ولدى نزولك من جبل صهيـون، تجد المكان الذي — عندما كان الحواريـون ينقلون جسد العذراء المبـاركة للدفـن في وادي شعفاط — وضعـوا عليـه النعش، وكـان اليهـود الـذين يعيشـون في القـرية المجـاورة، قـد تجمعـوا في تلـك البقعـة، حتى يمكنهم خطـف الجسـد لاحـراقه، ثـم قام رئيس كهنة اليهـود،وكـان أكثـر جرأة، ووقـاحـة من البقية، فـوضع يديه على النعش، وإثر ذلك تيبست يداه مبـاشرة، ثم إنه التمس من بطرس المبارك، أن يدعو له، ليعيد يديه إليه، فقال له بطرس

المبارك:«إذا ما آمنت أن هذه هي أم المسيح، وكنت مستعداً للتعميد، فإنك ستجعل سليماً»، فآمن، وعاد إلى سالف صحته، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٧ — ثم إنك تأتي إلى مكان، كان فيما مضى كنيسة، تعرف بشكل عام باسم كنيسة«صياح الديك»، حيث كان فيها كهف عميق، فهناك تاب بطرس عندما أنكر المسيح، وبكى بكاء مراً.

٦٨ — ثم يوجد على بعد ثلاثة فرلنغ طويلة(ثلاثة أثمان الميل) إلى الجنوب من هناك، الحقل الذي شري مقابل الثلاثين قطعة فضية التي جرى بيع ربنا بها، وهو الذي يعرف بالعبرية باسم أكلداما، أي حقل الدم، حتى هذا اليوم.

٦٩ — ثم إنك تأتي إلى الحقل المقدس، حيث سكن الحواريون مراراً، قبل آلام المسيح، ومايزال مكان سكناهم مرئياً، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٠ — ثم إنك تأتي إلى بركة سلوان، حيث أعطى الرب البصر إلى رجل ولد أعمى.

٧١ — ثم إنك تأتي إلى مكان مجاور، فيه جرى قطع النبي إشعيا إلى قسمين بوساطة منشار خشب، وذلك من قبل منشا ملك القدس، وهو هناك راقد حيث هو مدفون تحت بلوطة روجل.

٧٢ — ثم إنك تأتي إلى نبع مريم المباركة، حيث غسلت الملابس الصغيرة لابنها المبارك، وهناك يغتسل الآن كل من المسلمين والمسيحيين، وغالباً مايتعافون بذلك من عجزهم، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٣ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي اعتاد أن يعيش فيه جيمس

الأصغر، وهناك جرى دفنه بعدما ألقي به من أعلى الهيكل من قبل اليهود،ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

مايتعلق بالحج فوق جبل الزيتون

٧٤ — يبعد جبل الزيتون ميلاً واحداً إلى الشرق من القدس، وهو جبل خصب، وجبل الزيتون جدير بكل احترام، فعلى هذا الجبل المقدس، والجدير كثيراً بالاحترام، اعتاد الرب أن يجلس، مقابل الهيكل، عندما ينتظر حواريوه منه رؤية الشارات عند قدومه للحكم، وحول نهاية الحياة، وعلى هذا الجبل غالباً ما اعتاد أن يذهب مع حوارييه من أجل الصلاة، وخاصة عندما كانت آلامه قد اقترب موعدها، ويشاهد هناك في هذه الكنيسة المكان الذي صعد منه ربنا إلى السماء بشكل مجيد وبحضور حوارييه، وماتزال الصخرة التي كانت تحت قدميه تحتفظ بطبيعتها، وهذا مرئي حتى هذا اليوم، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

٧٥ — ثم إنك تأتي إلى بيعة موجودة هناك على الجبل المتقدم الذكر، فيها تابت بلجيا الأنطاكية، وفيها دفنت أيضاً، ويوجد حجرة فوق ضريحها لايمكن لانسان أن يمر من قربها، أويدور من حولها مالم يقم بالاعتراف الكامل، ويقال بأن مريم المصرية المباركة قد دفنت هناك حتى أيام استيلاء اللاتين على الأرض المقدسة، ذلك أنهم نقلوا جسدها من هناك إلى ماوراء البحر، إلى بلدة اسمها بليوس Blois في مملكة فرنسا، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٦ — ثم تأتي إلى المكان الذي صاغ فيه الرسل مثال العقيدة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٧ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة فيها علّم يسوع حوارييه أن يصلوا، قائلاً: «هكذا سوف تصلون» وقال: «أبانا الذي في السماء» الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٨ — ثم إنك تأتي إلى منحدر جبل الزيتون، إلى ثمني ميل باتجاه الشرق، حيث بيت فاجي، التي ترجمة اسمها هو «بيت الفك»، فهناك أرسل ربنااثنين من حوارييه هما: بطرس وفيليب ليجلبا له أتاناً مع فلوها من أجل أحد السعف وقال لهما: «إذهبا إلى القرية التي أمامكما فللوقت تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها فحلاهما واتياني بهما» [متى: ٢١/ ٢]، ومن هناك من ذلك المكان ذهب على ظهر الأتان إلى القدس وسط التراتيل وأناشيد الحمد، وقد استقبل بالتشريف من أبناء العبرانيين، وهم يحملون سعف النخيل، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٩ — ثم إنك تأتي إلى مكان، فيه تسلمت مريم المباركة سعفة النخيل من الملاك، كمؤشر لمغادرتها لهذا العالم وذهابها إلى بيتها المتشوقة إليه، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٠ — والجبل المجاور لجبل الزيتون على الجانب الشمالي هو جبل العدوان، وهما منفصلان عن بعضهما بوساطة الطريق الذي يذهب من وادي شعفاط إلى بيت عنيا، وقد عرف باسم جبل العدوان لأن الملك سليمان أقام هناك صنم مولوك، وتعبده. [الملوك الأول: ١١/ ٧]، ويعرف هذا المكان باسم الجليل، فهناك ظهر ربنا لحوارييه عندما قام من الموت، وذلك وفقاً لكلمة الملاك الذي قال: «واذهبا سريعاً قولا لتلاميذه، ولبطرس.... ها هو يسبقكم إلى الجليل»، [متى: ٢٨/ ٧] وقد كان هنا من قبل كنيسة، غير أنها دمرت من قبل المسلمين، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨١ — ثم إنك تأتي إلى سفح الجبل، إلى صخرة، وقف عليها يسوع، ووعظ الحشود، وذلك حيث أشار إلى مدينة القدس، وبكى عليها قائلاً:«إنك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك، ولكن الآن قد أخفي عن عينيك، فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك فيك حجراً على حجر»الخ[لوقا:١٩/ ٤٢ — ٤٤]، وقد تحقق هذا في ظل تيتوس وفاسبسيان، امبراطوري الرومان، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٢ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي رمت فيه مريم المباركة حزامها إلى الرسول توما المبارك، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٣ — ثم إنك تأتي إلى حديقة جيسماني، تحت سفح جبل الزيتون، في وادي شعفاط، حيث سيحكم ربنا على الأحياء والأموات.

٨٤ — وهناك يوجد المكان الذي اعتقل فيه الرب يسوع من قبل اليهود، وذلك حيث قبله يهوذا الاسخريوطي قائلاً:«حييت يا معلم»، وهناك قام اليهود الذين كانوا أمامه«فرجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض»، وكان ذلك لدى سماعهم صوت المسيح، عندما قال:«أنا هو»، وهذا كله حسب رواية يوحنا(١٨/ ٦)، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٥ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي انسحب فيه الرب يسوع من بين حوارييه، «وانفصل عنهم نحو رمية حجر»، وصلى إلى الآب قائلاً:«يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك»، وفي المكان نفسه:«ظهر له ملاك من السماء يقويه»[لوقا:٢٢/ ٤١ — ٤٤]، وبدأ«عرقه كقطرات دم نازلة على

الأرض»[لوقا:٢٢/ ٤٥].

٨٦ — وهناك أيضاً، الصخرة التي أمسك بها ربنا، وهو يتحرق بسبب آلامه، وطبعات أصابعه عليها ماتزال ظاهرة،ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٧ — ثم إنك تأتي إلى المكان من حيث «أخذ معه بطرس وابن زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب» وهو يقول:«نفسي حزينة جداً حتى الموت»، وعاد حيث وجد الحواريين الآخرين نياماً، فقال لهم:«أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة»، [متى:٢٦/ ٣٩ — ٤١] ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٨ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة في وادي شعفاط، حيث يوجد ضريح العذراء المجيدة، في مكان عميق جداً، ينزل الانسان إليه بثمان وأربعين درجة، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

وينبغي أن نتنبه إلى أن وادي شعفاط قد نال اسمه من واحد من ملوك القدس، كان اسمه شعفاط، وقد دفن هناك، وقد بني قبره بشكل محكم، وهو مايزال مرئياً هناك.

٨٩ — وسوف تعبر من هناك وادي قدرون، حيث بقيت شارة صليب الرب ممددة هناك لسنين طويلة، وعندما كانت سيبل Sibyl قادمة إلى القدس لسماع حكمة سليمان، رفضت عبور هذا الوادي.

٩٠ — ولسوف تأتي إلى المكان الذي ربط فيه المبارك اسطفان، عندما جرى رجمه من قبل اليهود، ووقتها كان قد ركع فوق الأرض،وأخذ يصلي من أجل الذين كانوا يرجمونه، وهو يقول:«يارب لاتقم لهم هذه الخطية»[أعمال الرسل:٧/ ٦٠]الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبعة أعوام، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٩١ — ثم تأتي إلى البوابات الذهبيـة، التي دخل منها الرب يسوع في يوم أحـد السعف، وكـان جـالسـاً على ظهـر أتان، وذلك حسب رواية الانجيل،ويوجد هناك غفـران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مـواسم صوم كبير.

٩٢ — ثم تجد على بعــد رميـة سهـم هيكل الرب، الذي له أربعــة مداخل، واثني عشر باباً.

ولايجوز المرور بهيكل الرب المقـدس الذي بني من قبل سليمان فـوق جبل موريا، على أرض بيدر أورنان اليبوسي، بين الأماكن المقدسة دون إيلائـه ما يستحقـه من احترام، وكـان في الحقيقة قـد هدم أولاً من قبل البابليين، ثم بعد ذلك من قبل الـرومان، ثم إنه أعيدت عمارته في المكان نفسه، على شكل مستدير،وعلى شكل لائق، ورائع، من قبل عمال أذكياء وبارعين، ومـؤمنين، ورجال ربانيين، ويـوجد في هذا الهيكل الصخـرة، التي وقف عليهـا الملاك المدمـر، وظهــر لداوود، وهذا الملاك هو الذي قتل آلافــاً لاتحصى من الناس، بسبب الذنب الـذي اقترفـه داوود، أي بإحصــاء الناس وتعـدادهم بناء على أمــر داوود، وفي الحقيقـة يـدعـو المسلمـون حتى هذا اليـوم هيكل الرب بـاسم الصخـرة، وهي مـوضع احترام عظيم لديهم، إلى حد أن مـا من أحد منه يتجـرأ على تلويثها بأية قذارة، مثلما يلوثون الأماكن المقدسـة الأخرى، وهم يقدمون من مناطق نائيـة للتعبـد هناك، ويفعلون ذلك منـذ أيام سليمان حتى الوقت الحالي، ومنذ أن استعـاد المسلمون ملكيـة مدينـة القدس المقـدسة، لايسمحـون لأي مسيحي بدخـول الهيكل، ومايزال بعضهم يعتقـد حتى هذه الأيام، بأن تابوت عهد الرب، موجود في داخل الصخرة المذكورة، ومقفل عليه فيهـا، وذلك أن يوشع، ملك إسرائيل، تنبأ بما سيلحق المدينة من دمـار، فأمر بوضع التابوت في قدس أقداس الهيكل، وتخبئته فيها هناك.

٩٣ — وفي هذا المكان المقدس المحترم، عنـدما أنهى سليمان العمل،

وكـان يقدم أضحيـة إلى الرب، مـلأت غمامة البيت، وظهـر مجد الرب، و«نزلت نار من السماء، وأكلت تقـدمـة الحرق، والأضـاحي»، ومـلأت جـلالة الرب بيت الرب، و«رأى بنو إسرائيـل جميعـاً النار وهي نازلة، ومجد الرب فـوق البيت» وعندما كـان سليمان جـاثياً على ركبتيـه ويداه مبسوطتـان نحو السماء»، دعا بأن تتم الاستجـابة لتوسل كل من يدخل الهيكل طلبـاً للمنفعـة من الرب، وظهـر الـرب له قـائـلاً:«قـد سمعت صلاتك وتضرعك الذي تضرعت به أمـامي: قدست هذا البيت الذي بنيتـه من أجل وضع اسمي فيـه»[الملوك الأول:٩/ ٣]، و«الآن عيناي تكونان مفتـوحتين وأذناي مصغيتين إلى صـلاة هذا المكـان. والآن قـد اخترت وقـدست هذا البيت ليكون اسمي فيـه إلى الأبد»[أخبـار الأيام الثاني:٧/ ١٥ — ١٦].

٩٤ — وعاشت مـريم العذراء المباركـة في هذا الهيكل،حتى اقترنت بيوسف، ولقـد قيل بأنها كانت تصلي هناك مع العـذراوات الأخريات، وكـانت تعمـل على إعـداد أواني الهيكل، وكـذلك مـلابس الكهنة، كما كانت تتعلم الأحرف المقدسـة، وتعيش بعقلانية وتواضع، حيث كانت تصوم، وتتأمل، وتصلي،وتدرس الكتابات المقدسة، وعندما كانت طفلة رضيعـة جلبها والداها لتقـديمهـا إلى الهيكل، ومن أجل تقـديمها أمـام الرب، وهنا — كما يقال — صعدت بنفسهـا جميع الدرجات المؤدية إلى الهيكل من دون أية مصاعب، وهو أمـر بدا مدهشاً في أعين الجميع، ولم يسمع بمثله من قبل عن طفل صغير، وفي هذا الهيكل عندما كـان زكريا المقدس يقدم البخورإلى الرب، ظهر الملاك جبرائيل له، وبشره بأن الرب قد استجاب لأدعيته.

٩٥ — وجرى أيضاً في هذا الهيكل تقديم الطفل يسوع، حيث جرى حمله على ذراعي سمعان العـدل، وعندها عرف سمعـان بوساطة الروح القدس مخلصه، فقال له:«الآن تطلق عبدك»الخ[لوقا:٢/ ٢٩].

٩٦ — وأيضاً في المعبد نفسه أنقذ يسوع المرأة الزانية من أيدي اليهود،[يوحنا: ٨/ ٣] وهناك أيضاً عمل يسوع«سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنم والبقر، وكب دراهم الصيارف، وقلب موائدهم»، [يوحنا:٢/ ١٥]، وهو يقول:«مكتوب بيتي بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص»[متى:٢١/ ١٣].

٩٧ — وهناك أيضاً بالقرب هيكل سليمان، لكن المسيحيين لايدخلون إليه، خوفاً من المسلمين.

٩٨ — كذلك يوجد فيما بين هيكل الرب والباب الذهبي الأشجار التي قطع منها الأولاد الأغصان، عندما جاء الرب إلى القدس، راكباً على أتان، وعلى مقربة من هناك، بجوار هيكل سليمان، في زاوية من زوايا المدينة يوجد — كما قيل — غرفة نوم المسيح، وحمّامه، وفراش أمه، ويوجد هناك أيضاً ضريح القديس سمعان.

٩٩ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة حنة المباركة، التي هي أم العذراء مريم، وهي قريبة من الباب الذي تذهب من خلاله إلى وادي شعفاط، وذلك في جهة الشمال، فهنا يوجد القبو الذي ولدت فيه العذراء مريم، فهو قد كان من قبل بيت يواكيم، وحنة المباركة، زوجته.

١٠٠ — ولايدخل المسيحيون إلى هذا المكان،لأن المسلمين قد بنوا هناك مسجدهم، أي كنيستهم.

١٠١ — ثم إنك تأتي إلى البركة المجاورة لسوق الضأن، التي إليها كان ملاك الرب«ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء، فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ مْن أي مرض اعتراه»[يوحنا: ٥/ ٤]، ولقد قيل بأنه استقرت في تلك البركة لزمن طويل، خشبة الصليب، وكذلك شفى ربنا في تلك البركة الرجل المقعد منذ ثمان وثلاثين سنة، والمتمدد فوق فراشه، وقال له:«احمل فراشك وامش»[يوحنا:٥/ ٨]،ويوجد هناك

غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١٠٢ — ثم إنه على مقربة من هناك، تأتي إلى بيت الرجل الثري الذي رفض إعطاء فتات الخبز إلى العازر.

١٠٣ — ثم إنك تأتي إلى بيت عناس، الكاهن الأعلى، وختن كيفاس، الذي جلب إليه يسوع أولاً.

١٠٤ — ثم إنك تأتي إلي بيت بيلايطس، حيث جرى جلد يسوع، والسخرية منه من قبل الجند، والبصاق عليه وضربه بالعصا، وتتويجه بتاج من شوك، وأخيراً الحكم عليه بالاعدام، ويوجد هناك طريق يقود إلى هيكل الرب، جاء اليهود عبره وهم يصرخون قائلين:«اصلبوه، اصلبوه».

١٠٥ — ثم إنك تأتي إلى البيت الذي كانت مريم العذراء المباركة فيه في المدرسة، وعلى مقربة منه يوجد البيت الذي تشاور فيه اليهود لاعتقال يسوع خيانة، ومن ثم قتله.

١٠٦ — ثم تأتي إلى جوار ذلك، إلى الكنيسة التي تعرف باسم كنيسة إغماء القديسة مريم، حيث أغمي عليها بسبب آلام ابنها، عندما شاهدته وهو يحمل صليبه، ويوجد هناك حجران أبيضان عظيمان في القوس، عليهما استراح ربنا، عندما كان يحمل صليبه، ثم التفت إلى الناس وقال:«يا بنات أورشليم لاتبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن»[لوقا:٢٣/ ٢٨].

١٠٧ — ويقال بأنه كان على مقربة من الكنيسة قصر الملك هيرود، وعلى مقربة من هناك كان بيت يهوذا الخائن، حيث عاش مع زوجته وأولاده.

١٠٨ — ويوجد هناك أيضاً الطريق الذي يقود إلى باب القديس

اسطفان، حيث رجم في خارجه، وعبر هذا الطريق اقتاد اليهود يسوعاً، و«وجدوا إنساناً قيروانياً اسمه سمعان كان آتياً من الحقل، فسخروه ليحمل صليب يسوع»[متى: ٢٧/ ٣٢/ ، لوقا :٢٣/ ٢٦] وحمله إلى الجمجمة حيث جرى صلب يسوع.

١٠٩ — ثم إنك تأتي إلى برج داوود، الذي كان قد هدم، لكن الآن أعيدت عمارته، في المكان نفسه، كقلعة للسلطان.

١١٠ — وهناك جرى سجن يوسف الرامي لمدة أربعين سنة، بعد آلام المسيح، أي حتى قدوم تيتوس وفاسبسيان، امبراطورا روما.

١١١ — ويوجد هناك باب اسمه باب داوود، في خارجه شنق يهوذا نفسه على شجرة جميز.

١١٢ — ثم إنك تصل على بعد رمية سهم إلى كهف الأُسد، حيث تولوا دفن أحد عشر ألف شهيد، قتلوا جميعاً بسبب اسم المسيح من قبل كسرى ملك الفرس.

١١٣ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي قطعت منه خشبة الصليب، فهناك بنيت كنيسة جميلة جداً، ويبعد المكان ميلاً واحداً عن القدس، ويطلق عليه بالعربية اسم[دير] المصلب، أي«أم الصليب».

١١٤ — ثم هناك على بعد ميلين جدول الماء الجاري الذي عمّد فيه فيليب المبارك الخصي الأثيوبي وهو عائد من القدس، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١١٥ — ثم إنك تأتي على بعد ميل إلى المكان الذي ولد فيه يوحنا المعمدان مع أبيه زكريا، وتوجد هناك كنيسة تبعد أربعة أميال عن القدس، وإلى هناك حدث أن مريم«ذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا» وسلمت على إيزابل،«وصرخت إيزابل بصوت عظيم وقالت

مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربيّ إليّ، فهوذا حين صار صوت سلامك في أذنيّ ارتكض الجنين بابتهاج في بطني»، ثم قالت مريم المباركة:«تعظم نفسي الرب»الخ[لوقا:١/ ٣٩ — ٤٦]، وهناك تنبأ زكريا وقال:«مبارك الرب»الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١١٦ — ومن هناك يذهب الانسان إلى نبع زكريا،[عين كارم] الذي يبعد حوالي رميتي سهم عن الكنيسة المذكورة أعلاه.

ما يتعلق بالحج في بيت لحم وحبرون

١١٧ — على ميلين من القدس، باتجاه بيت لحم، هناك كنيسة، قائمة فوق الموضع الذي تاب فيه إيليا واعتكف.

١١٨ — ثم إنك تأتي إلى مكان على الطريق، حيث ظهر النجم ثانية للرجال الحكماء، ذلك أنه كان قد اختفى عندما كانوا في حضرة هيرود.

١١٩ — ثم إنك تأتي إلى البئر الذي وضع إخوان يوسف، يوسف فيه.

١٢٠ — ثم إنك تأتي إلى قبر راحيل، زوجة يعقوب، التي ماتت بعد ولادتها لبنيامين، وهو يبعد حوالي ثمن ميل عن الطريق القادم.

١٢١ — ثم إنك تقدم إلى حقل البيقية الحجرية، الذي يبعد ميلاً عن بيت لحم، لأنه عندما كان الرب يسوع يعبره، رأى رجلاً يبذر بيقية، وعندما سأله الرب عن الذي يبذره، أجابه«حجارة» فقال الرب له:«لتكن حجارة»، وعلى الفور تحولت تلك البيقية إلى حجارة، وحتى الآن يتم العثور على حجارة بيقية هناك. ٠

١٢٢ — ثم إنك تأتي إلى مدينة بيت لحم، التي معنى اسمها«بيت

الخبز»، التي ولد فيها الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء، ويوجد في هذه المدينة المقدسة والمبجلة، كنيسة فائقة الجمال، بنيت على شرف مريم العذراء المباركة، وفيها بيعة، ولد فيها يسوع المسيح، مخلص العالم، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٢٣ — ويوجد هناك المكان الذي كان فيه المعلف الذي أكل فيه الثور والأتان، فهناك مددته مريم العذراء المباركة، بسبب أنه لم تكن هناك غرفة في النزل»، وقد قيل بأن المعلف مع التبن الذي تمدد عليه الطفل يسوع موجود في روما في كنيسة القديسة مريم العظيمة.

١٢٤ — وإلى تلك البيعة جاء ثلاثة ملوك من الشرق: مليكور، وبلشاسار، ويسبر، ليقوموا بعبادة ابن الرب، وقد قدموا له:«ذهباً، وبخوراً،ومرّاً».

١٢٥ — ويوجد أيضاً في الكنيسة المتقدمة الذكر، العائدة للقديسة مريم، على الجانب الأيسر، المكان الموضوع فيه بعض آثار طفولة ربنا وختانه، حيث يقال بأنهم الآن في روما في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران.

١٢٦ — ويوجد أيضاً على جهة اليمين المكان الذي جرى فيه دفن الأبرياء المقدسين، ويوجد هناك مذبح،ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٢٧ — ثم إنك تأتي إلى باب، حيث هناك الكهف الذي اعتكف فيه القديس جيروم، وهناك صنف توراته وكتبا أخرى كثيرة.

١٢٨ — ثم ملاصق ذلك تأتي إلى كنيسة تلك العقيلة النبيلة، أي باولا المباركة، مع ابنتها العذراء يوستوخيوم، فهناك قاما بالتوبة والاعتكاف.

١٢٩ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة نيقولا المبارك، وهي ملاصقة لها، وفيها قبو عميق، وهناك يوجد بيعة، يقال بأن مريم العذراء المباركة قد عاشت فيها مرة مع ابنها الوحيد، ويقال بأنها عصرت مراراً هناك فوق الصخرة صدرها الذي تدفق بالحليب، ولهذا السبب أصبحت الصخرة بيضاء مثل الحليب، وهو ما هو مرئي حتى هذا اليوم، ولقد قيل بأن أية امرأة فقدت لسبب ما حليبها، وأخذت قطعة صغيرة من تلك الصخرة، ومزجتها بالماء، وشربتها على شرف العذراء المباركة، سوف يعود حليبها مباشرة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات،الخ.

١٣٠ — ثم إنك تأتي إلى بيعة قرب بيت لحم، حيث ظهر ملاك الرب للرعيان، في صباح ميلاد الرب قائلاً:«لقد أحضرت لكم بشائر ذات بهجة عظيمة، وهي سوف تكون لجميع الناس، ذلك أنه ولد في بيت لحم في هذا اليوم، في مدينة داوود، مخلص العالم».

١٣١ — وعلى بعد اثني عشر ميلاً عن بيت لحم، توجد مدينة حبرون، التي هي مدينة قديمة جداً، وهي حاضرة الفلسطينيين، ومكان سكنى العمالقة، وفي ديار سبط يهوذا،وحبرون قائمة في سهل دمشق، وفي الحقل الذي صاغ فيه الخلاق العظيم للمرة الأولى أبانا آدم«على شكله»، ويوجد في هذه المدينة هيكل له جمال فائق، ويوجد فيه الكهف المزدوج، الذي دفن فيه الرجال الأربعة المحترمين، وهم:آدم، وإبراهيم، واسحق، ويعقوب، مع زوجاتهم، حواء، وسارة ، ورفقة، وليا.

١٣٢ — ولايدخل المسيحيون إلى هذا الهيكل خوفاً من المسلمين، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٣٣ — ثم إنه على مقربة من المدينة، وعلى بعد حوالي رميتي سهم، سوف تصل إلى كهف أو قبو، فيه اعتكف آدم وزوجته لمدة مائة سنة، بعد وفاة ابنهما هابيل، ثم إنه أنذر من قبل ملاك من الملائكة، فعرف

زوجته، فحملت بشيث، الذي من سبطه ولد يسوع المسيح، ابن الرب.

١٣٤ — وأيضاً على مقربة من حبرون يقع جبل ممرا، الذي عند سفحه توجد البطمة، التي تعرف باسم البلوطة، أو السنديانة، فتحتها عندما كان إبراهيم جالساً رأى ثلاثة ملائكة قادمين نحوه، وقد تعبد واحداً منهم.

١٣٥ — وهذه البلوطة جافة الآن، ومع ذلك تبرهن أنها ذات خواص دوائية مؤثرة، لأنه قد قيل إذا ما أخذ أي إنسان قطعة منها وهو راكب، فإن مطيته لن تكبو قط.

١٣٦ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي اعتكف فيه يوحنا المعمدان.

١٣٧ — وإلى حبرون قدم أيضاً الاثنا عشر جاسوساً، كالب، ويوشع ورفاقهما، حيث دخلوا للمرة الأولى إلى أرض الميعاد.

١٣٨ — وفي حبرون أيضاً حكم داوود لمدة سبع سنوات ونصف السنة، وكان ذلك قبل أن يحكم في القدس.

١٣٩ — وعلى بعد ميلين من حبرون، باتجاه بيت لحم، يوجد كوخ صغير فيه سكن النبي يونه بعد قدومه من مدينة نينوى، وهناك مات، ومدد في قبره.

١٤٠ — ويوجد أيضاً في مقابل جبل صهيون، جبل عليه الآن كنيسة القديس سيبريان Cyprian.

مايتعلق بحج بيت عنيا ونهر الأردن

١٤١ — بيت عنيا هي بلدة مريم ومرثا وأخيهما العازر، وهي تبعد حوالي الميلين عن القدس، وواقعة وراء جبل الزيتون، وكان هناك من قبل بيت سمعان المجذوم، وفي هذا البيت جلس الرب يسوع لتناول الطعام مع حوارييه، وإلى هناك جاءت المجدلية، لدى سماعها بأن يسوعاً

قد جاء إلى هناك، ووقفت خلفه:«وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها»[لوقا:٧/ ٣٨]، وهناك أيضاً سمعت ما كانت تستحقه عن جدارة الكلمات الحلوة والمجيدة في قوله:«مغفورة لك خطاياك...اذهبي بسلام».[لوقا:٧/ ٤٨ — ٥٠].

١٤٢ — وكانت بالعادة هناك كنيسة كبيرة، لكنها دمرت من قبل المسلمين.

١٤٣ — وهناك أيضاً، الكهف الذي دفن فيه العازر، عندما أقامه الرب من الموت، حيث توجد هناك بيعة الآن، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٤٤ — ثم إنك تأتي على بعد رميتي سهم إلى المكان الذي كان فيه بيت مرثا، والذي بني في موضعه فيما بعد كنيسة، ففي هذا البيت جلس ربنا لتناول الطعام مع حوارييه، عندما قالت مرثا له:«يارب أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقل لها أن تعينني»الخ[لوقا:١/ ٤].

١٤٥ — ثم إنك تأتي على بعد رميتي سهم من هناك إلى الصخرة التي ارتاح عليها يسوع، عندما التقت به مريم ومرثا وهما تبكيان وتقولان:«يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخانا»الخ[يوحنا:١١/ ٢١].

١٤٦ — ومن هناك سوف تسير مسافة ثمانية عشر ميلاً عبر طريق مستقيم إلى نهر الأردن.

١٤٧ — وتشكل نهر الأردن تحت جبال جلبوع من جدولين هما:«الأر»و«دان»، اللذان ينبعان عند سفح جبل لبنان، على مقربة من قيسارية فيليب، ويشتق اسمه وأصله من هذين النبعين، وينحدر إلى بحيرة جنسارث، ومن هناك يخرج نهراً واحداً، يروي المنطقة المجاورة له لمسافة تقارب المائة ميل، ويأخذ طريقه من خلال الوادي الشهير، الذي اسمه وادي الملح، إلى البحر الميت، ولايعاود الظهور ثانية، بل يبتلع هنا

في الأعماق.

١٤٨ — واعتاد الحجاج والسكان المحليون على غسل أنفسهم وغسل ملابسهم في مياه نهر الأردن مع شيء كبير من التقوى،لأنه في نهر الأردن جرى تعميد مخلصنا من قبل يوحنا المبارك.

١٤٩ — وهناك انفتحت السموات، وهناك ظهرت الروح القدس على شكل حمامة، وهناك سمع الآب وهو يقول:«هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راض تماماً».

١٥٠ — وفي هذا النهر برأ نعمان السوري من جذامه، و«عادت بشرته من جديد مثل بشرة طفل صغير».

١٥١ — وشطر إيليا وتلميذه اليشع مياه نهر الأردن إلى شطرين بضربها بردائه، ومن ثم عبرا فوق أرض يابسة، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٥٢ — ثم إنك تأتي على بعد ميل واحد، إلى دير[قصر اليهود] بني على شرف المبارك يوحنا المعمدان وهناك معروض اليد اليسرى للقديس يوحنا نفسه.

١٥٣ — وكان هناك راعي الدير المبارك زوسيماس Zosimas ، فهناك عاش حياته كلها في تبتل واستغفار عظيم، وقد وجد مريم المصرية المباركة عبر نهر الأردن، التي سكنت هناك لمدة ثمانية وثلاثين عاماً غير معروفة من قبل أحد من الناس.

١٥٤ — ثم إنك تصل إلى أريحا، التي تبعد أربعة أميال عن نهر الأردن، وهي التي كانت من قبل مدينة عظيمة، وقد استولى عليها يوشع، قائد شعب إسرائيل، وكان ذلك عندما دخل أرض الميعاد، وبناء على دعواته انهارت أسوار المدينة، وكانت هناك امرأة من أهل المدينة

اسمها راحاب، وكانت عاهرة، استقبلت جواسيس بني إسائيل في بيتها، ولهذ السبب جرى إنقاذها مع جميع بيتها، وكان من بين سكانها رجل آخر اسمه زكّا«كان رئيساً للعشارين»، وقد رغب في رؤية يسوع عندما قدم إلى أريحا،«ولم يقدر من الجميع لأنه كان قصير القامة»[لوقا:١٩/ ٢ — ٣].

١٥٥ — وعلى بعد ميلين من أريحا يوجد القرنطل، وهو جبل مرتفع جداً، ورائع، يوجد في منتصف الطريق إلى أعلاه بيعة جميلة جداً قائمة فوق صخرة، ويمتلكها بعض الاغريق، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٥٦ — وفوق ذلك الجبل صام المسيح لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، وجاع بعد ذلك، وأغواه هناك الشيطان وامتحنه، أولاً بالنسبة لشهيته للطعام حيث قال:«لئن كنت ابن الرب، فأمر هذه الحجارة لتكون خبزاً»، وأغواه في المرة الثانية فوق جبل آخر، ليس بعيداً عن هذا الجبل، بشهوة شريرة حين أراه جميع ممالك الدنيا قائلاً:«جميع هؤلاء سوف أعطيك، إذا قبلت بالسجود إليّ وعبادتي»، وأغواه في المرة الثالثة بمجد عابث، وكان ذلك عندما«جلس له على رأس الهيكل»، وقال له:«إذا كنت ابن الرب، فارم بنفسك نحو الأسفل».

١٥٧ — وتحت القرنطل يوجد النبع الذي حول النبي اليشع ماءه من مالح إلى عذب صالح للشراب.

١٥٨ — وعلى بعد ميلين من أريحا، وفي جهة الشمال الشرقي، تقع بحيرة اسفلت، التي اسمها أيضاً البحر الميت، وفي الحقيقة مناسب تسميتها بالبحر الميت، لأنها لاتستقبل شيئاً حياً، كما لايمكن لشيء حي العيش فيها، وهنا سقطت المدن الأربعة السيئة السمعة وهي: سدوم، وعاموره، ودومة، وزيبويم، فلإصرارها على اللواطة أحرقت بالنار،

وبالكبريت، وغرقت في البحيرة.

١٥٩ — وتوجد ساعور على شاطىء البحر الميت، وهي تعرف أيضاً باسم بلكوروستا Belcorosta ، وهي المدينة الخامسة بين المدن، وهي التي أنقذت من قلب عاليها سافلها بصلوات لوط وهي تعرف الآن بين شعب المنطقة باسم بلدة النخيل.

١٦٠ — وأيضاً يوجد بعد هذه البحيرة أو البحر الميت، وأنت نازل نحو العربية، كرنئيم(الكرك) وهو كهف في جبال المآبيين، إليه اقتيد بلعام ليلعن شعب اسرائيل، وذلك عندما ركب على الأتان التي كلمته.

١٦١ — ويفصل البحر الميت هذا بين اليهودية والعربية.

١٦٢ — والعربية في أيام بني إسرائيل، كانت هي الصحراء التي أبقاهم الرب فيها لمدة أربعين سنة، حيث كان يمطر المن عليهم لكي يأكلوا.

١٦٣ — وفي العربية أيضاً يوجد وادي موسى، الذي فيه ضرب موسى الصخرة مرتين، وبناء عليه تدفق جدولان من الماء لسقاية شعب الرب، وبهذين الجدولين تسقى الآن جميع المنطقة.

١٦٤ — ويوجد في العربية أيضاً جبل سيناء، حيث جرى نقل جسد كاترين العذراء المباركة، على أيدي الملائكة، وجاء النقل من الاسكندرية حيث تلقت ضربة الشهادة.

١٦٥ — وعلى ميلين من أريحا تقع الجلجال، وذلك حيث ولد النبي اليشع، حواري النبي إيليا.

١٦٦ — ويوجد أيضاً بين أريحا والقدس المكان الذي فيه«كان أعمى جالساً على الطريق يستعطي» وهو الذي عندما سمع بأن «يسوع الناصري مجتاز، فصرخ قائلاً: يا يسوع ابن داوود ارحمني... وقال له

يسوع أبصر إيمانك قد شفاك»[لوقا:١٨/ ٣٥ — ٤٢].

١٦٧— وأيضاً المسافة من القدس إلى عمواس أقل من ثمانية أميال، وهناك ظهر يسوع إلى الحواريين اللذان كانا ذاهبين إلى عمواس، وعندما فتح الكتاب المقدس قال:«أيها الأحمقين والبطيئين بالايمان بقلبيكما» وقد «عرفاه من كسر الخبز».. وهذه البلدة قريبة من مودين، مدينة المكابيين، ومدينة الجبعونيين.

١٦٨ — وسوف تذهب من هناك مسافة أربعين ميلاً إلى غزة، على مقربة من البحر، وغزة إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي التي حمل أبوابها شمشوم إلى قمة الجبل[القضاة:١٥/ ٣]، ويمضي الطريق باتجاه الغرب.

١٦٩ — ثم إنك تأتي بعد خمسة أميال إلى قرية كرموث Car-mus (الدارون)، وهناك يصنعون خمرة جيدة جداً، وهناك يعيش المسيحيون المطوقون، وكان هناك فيما مضى مشفى لفرسان القديس يوحنا في القدس، لكن جرى تدميره تماماً من قبل المسلمين.

١٧٠ — ثم إنك تأتي بعد سفر ستة أيام إلى مكان فيه نبع ماء، يدعى نبع مريم المباركة، ذلك أن يوسف تلقى إنذاراً في المنام من قبل الملاك بأن عليه أن يأخذ الطفل وأمه، ويفر إلى مصر، وقد جاءوا إلى هذا المكان، ولم يكن بإمكان العذراء المباركة متابعة السفر لمعاناتها من عطش لايحتمل، ولم يكن لديها ما تشربه، وبالنظر لآلامها المبرحة وضعت الطفل الرضيع على الأرض، وضرب الطفل الأرض بضربات لطيفة صدرت عن قدميه، فتفجر نبع ماء طيب على الفور، وقد شربت واستردت قواها، ويسقي هذا النبع حدائق البلسم حتى هذا اليوم، ويعرف المكان باسم«المطرية» ويستحم هناك كل من المسلمين والمسيحيين سواء.

١٧١ — ثم تأتي بعد خمسة أميـال إلى المدينة الجليلة والغنية والشهيرة التي اسمهـا القاهرة، التي بها أنها البلـدة الرئيسية، يسكن فيهـا السلطان الكبير، الذي هو سيد سـورية ومصر، والعربية، وعلى مقـربة منها يجري النهر، الذي يأتي من الجنة، ويسقي بلاد مصر كلها.

١٧٢ — ثم بعد ميـل تأتي إلى المدينة التي اسمها بابليـون، التي منها جاء دانيـال(كذا) الذي ألقي به في عرين الأسـود، وهناك سكنت مريم المبـاركة في أحـد الأماكن، وفي هذا المكـان توجد الآن كنيسـة القديسـة مريم دي لا سكالا Scala ، ويوجد هناك مكان سري آخر سكنت فيه مريم المبـاركة، ويعرف باسم القديسة مـريم دي لا كافا Cava ، وهناك كنيسـة جميلـة جـداً، وهناك أيضـاً يـرقـد جسـد بربـارا العـذراء المباركة.

١٧٣ — وفي مقـابل القـاهرة، على الطـرف الآخـر من النهـر، باتجاه الغرب، توجد أهراءات فرعون، الذي كان فيها مضى ملك مصر، وهي التي بنيت بناء على نصيحة يوسف بن يعقوب، الذي بيع في مصر.

١٧٤ — ثم إنك بعد سفـرك مائتي ميل تأتي إلى الاسكندرية، وذلك حيث استشهـدت كاتـرين المباركـة، وهي التي نقل جسـدها على أيدي الملائكة إلى جبـل سيناء من أجل دفنـه، وقصرها مـايـزال مـرئيـاً في الاسكندريـة، الذي لايمكـن لمسلم أن يسكـن فيـه بـأية وسيلـة من الوسائل.

١٧٥ — ويوجـد أيضـاً على بعـد ميلين إلى الشرق من الاسكندرية، كنيسة هي حيث استشهـد القديس مرقص الانجيلي، وكـان ذلك عندما كـان يقيم قـداساً في أحـد الأيام، فجـاء واحـد من غير المؤمنين ووضع حبلاً حول عنقه وقال:«خذ الوعل إلى مكان الوعول»، وقد نقل جسده فيما بعـد بشكل سري إلى البندقية، حيث هو مـوجود هناك الآن، فبعـد

نقله إلى هنا، يرقد بشكل مجيد.

١٧٦ — ثم تأتي بعد سفر يومين آخرين إلى دمياط، المدينة التي توفي فيها إرميا النبي المبارك، برجمه بالحجارة.

١٧٧ — ثم تأتي بعد هذا إلى يافا، التي هي الميناء العام للمسيحيين.

١٧٨ — ثم توجد على بعد عشرة أميال الرملة، التي عنها قيل:«صوت سُمع في الرامة، نوح وبكاء وعويل كثير، راحيل تبكي على أولادها ولاتريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين»[متى:٢/ ١٧ — ١٨].

١٧٩ — ثم هناك على بعد ميل واحد اللد، حيث استشهد جرجس المبارك، وفي اللد هذه شفى بطرس المبارك رجلاً أعرجاً كان اسمه انيس Eneas.

١٨٠ — ثم إنك تقدم إلى قيسارية الفلسطينيين، التي جاء منها كورنيليوس قائد المائة، الذي عمده بطرس المبارك، ومن قيسارية هذه جاء المبارك فيليب، الذي كان واحداً من الشمامسة العشرة الذين اختيروا من قبل الرسل.

١٨١ — ثم إنك تأتي إلى أرسوف. التي كانت تعرف من قبل باسم أنتيباتر، وهي التي قامت فيما مضى على البحر بين قيسارية ويافا.

١٨٢ — ثم هناك أيضاً على بعد سبعة أميال من قيسارية، ميناء الحجاج (عثليت) الذي كان يعرف من قبل باسم بترا إنشيسا، التي كانت فيما مضى ميناء مشهوراً على ساحل البحر، وقد جرى نقل جسد يوفيميا المباركة، والعذراء الشهيدة من خلقدونيا، التي هي مدينة في بلاد الاغريق، إلى هنا بشكل إعجازي، حيث هي محاطة باحترام عظيم حتى هذا اليوم.

١٨٣ — ثم إنك تقـــدم إلى عكا، التي كـــانت فيها مضى مـــدينة مشهـورة، حيث كان اسمهـا من قبل بطولميس، وهي تبعـد ثمانية أميـال عن كيفاس(حيفا)، وفي حيفا الموجودة تحت جبل الكرمل، يوجد البيت الرئيسي للرهبـان الكرمليين، وعندمـا تنزل من الجبل سـوف تصل إلى المكان الذي كان فيها مضى بيت النبي إيليا.

١٨٤ — وعلى بعد ثلاثة أميال عن جبل الكرمل يوجد جبل قيمون، الذي عند سفحـه قتل لامخ قـابيل بسهـم، وكـان ذلك خطأ منه حيث ظن أنه وعل.

ما يتعلق بالحج في طبرية والمناطق المجاورة لها

١٨٥ — نالت مدينة طبرية اسمها من تايبيريوس قيصر، وهي قائمة على شاطىء بحر الجليل، وقد اعتاد يسوع أثناء شبابه على زيارتها.

١٨٦ — وحـدث هناك أن الصبي يسـوع كـان متـأخـراً، لكونه مع يهودي كان قريباً له، وغضب اليهودي، فما كان منه إلاّ أن التقط مشعلاً مشتعـلاً، ورمى به نحو الطفل يسـوع، راغبـاً بإصابتـه به، لكن المشعل ضرب الأرض، ونما على الفور شجـرة ضخمة، مـاتزال حتى هذا اليوم تزهر وتثمر.

١٨٧ — وأيضاً يوجد على مقربة من هذه المدينة ينابيع تتدفق بشكل دائم بالمياه الحارة.

١٨٨ — وأيضـاً على بعـد ميل عن طبرية توجـد بلدة المجـدل، التي منها تلقت مريم المجدلية اسمها.

١٨٩ — وعلى بعـد أربعة أميـال عن طبرية توجد بيت أوليـا، وهي مدينة يودث، التي قتلت هولوفيرنس.

١٩٠ — وبحـــر الجليل هو بحيرة قـــائمـة على حـــدود الجليل،

مياههاعذبة جداً وطيبة ولذيذة، وهي ذات حجم كبير بالطول وبالعرض، وعلى مقربة منها مدينة بطرس وأندرو،وهي التي اسمها بيت صيدا، وعليها ألقى الرب النوربحضوره.

١٩١ — ويطلق على هذه البحيرة أحياناً اسم جنسارث، لأن منها يتولد الهواء ويتجمع ليكون ريحاً قوية، بها تضطرب المياه، وتهب العاصفة، مما يسبب في الغالب غرق المراكب.

١٩٢ — وعلى هذه البحيرة مشى الرب جاف القدمين، عندما قال لبطرس — حين رغب في أن يقدم إليه، لكنه بدأ يغرق ويصرخ«يارب أنقذني» — :«آه منك يا قليل الايمان، لماذا شككت»؟، وفي مرة أخرى كان الحواريون في حالة رعب، فجعل مياه هذا البحر تهدأ، ويوجد على الرأس الأيسر من هذا البحر، في فجوة في الجبل، جنسارث، وهي المكان الذي يتولد فيه الهواء، وهو مايزال يشعر به الناس الذين يكونون في تلك البقعة.

١٩٣ — ويبدأ بحر الجليل فيما بين بيت صيدا، وكفر ناحوم.

١٩٤ — وتوجد كورزيم على بعد أربعة أميال عن بيت صيدا، وفي كورزيم سوف ينشأ المسيح الدجال، الذي هو مضل العالم، وعن هاتين المدينتين قال يسوع:«الويل لك بيت صيدا، والويل لك كورزيم».

١٩٥ — وعلى بعد خمسة أميال عن كورزيم تقع قيدار، وهي مدينة رائعة جداً، وعنها كتب في المزامير قوله:«أنا سكنت في خيام قيدار»[المزمور:١٢٠/ ٥].

١٩٦ — وكفرناحوم هي مدينة قائد المائة، وهي قائمة على الشاطىء الأيمن من رأس البحيرة، وفي هذه المدينة عمل يسوع كثيراً من المعجزات.

١٩٧ — وعلى ميلين من كفرناحوم تنزل من الجبل إلى المكان الذي وعظ فيه الرب الجمهور من الناس، وأعطى تعليمات إلى حوارييه، وعلمهم، وهناك شفى المجذوم.

١٩٨ — وعلى بعد ميلين من ذلك المنحدر يوجد المكان الذي أطعم فيه يسوع خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وسمكتين، وجرى تخليف اثنتي عشرة سلة من الفتات، ويوجد هناك مكان اسمه المنعشة، أي مكان الانعاش، كما أنه فعل كثيراً من المعجزات بين الناس خاصة بين المصابين بمختلف الأمراض.

١٩٩ — وأظهر يسوع نفسه على مقربة من هذا المكان لحوارييه بعد قيامته حيث أكل:«جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد العسل»[لوقا:٢٤/ ٤٢]، وذلك حسب رواية يوحنا.

٢٠٠ — وكان في الأجزاء العلوية من الجليل هذه العشرين مدينة، اللائي أعطاهن الملك سليمان إلى صديقه حيرام ملك صور.

٢٠١ — ومنطقة جليل الأمم هذه كلها واقعة في ديار سبطي زوبلون ونفتالي.

مايتعلق بحج دمشق وحدودها

٢٠٢ — وتلتقي حدود العربية وأدوم عند بصرى، وأدوم هي أرض دمشق، فالعزير خادم إبراهيم هو الذي بنى دمشق، وذلك كما يقول بعضهم، ولكن آخرون يقولون بأنها بنيت من قبل انسان اسمه«دمشق» في الحقل الذي قتل فيه قابيل هابيل، وقد سكن عيسو في دمشق، وهو أيضاً يعرف باسم سعير أو أدوم، ذلك أن كلمة سعير تعني الكثيف الشعر، وكلمة أدوم الأحمر، ولهذا السبب نالت البلاد اسم أدوم، هذا وجزء من تلك البلاد اسمه «عوز»، حيث منها أيوب المبارك، الذي وُجد صابراً وكاملاً وسط محنه، ويوجد في أدوم جبل سعير الذي تقوم

دمشق تحته.

٢٠٣ — وعلى بعد ثمانية أميال عن دمشق، وعلى الطريق الذي يقود إلى صيدنايا[داريا]، هناك المكان الذي ظهر فيه الرب يسوع إلى شاول، وهو يقول:«شاول، شاول، لماذا تضطهدني»[أعمال الرسل:٩/ ٤]«صعب عليك أن ترفس مناخس»[٩/ ٦].

٢٠٤ — ويوجد في دمشق كنيسة، فيها تولى حنانيا في أحد الأيام تعميد شاول في جرن المعمودية وسماه بولص، وبذلك حول الذئب إلى حمل، وهناك يتولى المسيحيون المطوقون أعمال القداسات.

٢٠٥ — ويقال أيضاً إنه يوجد في المدينة كهف كبير، يوجد به كنز لاحدود له، وإذا ما مدّ إنسان يده ليأخذ أي جزء من هذا الكنز، تندفع على الفور نار وتتولى تدمير كل ما لمسه، ولقد قيل بأن الاغريق عندما كانوا يتملكون هذه المدينة، بعد الاستيلاء عليها من قبل الامبراطور قسطنطين، بسبب حشود المسلمين التي هاجمتهم، وضعوا كنوزهم في هذا الكهف، وجعلوا كنوزهم بوساطة فن السحر من غير الممكن نقلها حتى نهاية الزمان.

٢٠٦ — وعلى بعد عشرة أميال عن دمشق توجدمدينة صيدنايا، التي يوجد فيها الصورة المبجلة لمريم العذراء المجيدة، والتي جلبت من القدس، وقد تحولت هذه الصورة كلياً إلى تكوين جسدي، لذلك هي لاتتوقف لاليلاً ولانهاراً عن إعطاء زيت مقدس، وهو الزيت الذي يحمل منه الحجاج، الذين يأتون إلى هناك من كل جزء من العالم، قوارير صغيرة من زجاج، وليس بإمكان أي مسلم العيش في هذه المدينة، فهم دوماً يموتون في غضون سنة.

٢٠٧ — وعند سفح لبنان، باتجاه الشرق، ينبع النهران المشهوران:أبانا، الذي يصل نفسه بالبحر،في الشواطىء، إلتي فقد فيها

يوستاس Eustace زوجته، ومن ثم لدى تخلي أولاده عنه رجع وحيداً، ويجري نهر فرفر(العاصي) خلال سورية إلى أنطاكية، ويتابع جريانه متجاوزاً أسوارها، وعلى بعد عشرة أميال عن أنطاكية يدخل إلى البحر، عند ميناء القديس سمعان(السويدية).

٢٠٨ — وفي أنطاكية تتوجت مرغريت العذراء الثمينة، بتاج الشهادة المجيد، وكان ذلك تحت إدارة المشرف على المدينة أولبريوس Olibrius (٢٥٨م)، وفي أنطاكية شغل بطرس المبارك كرسيه لمدة سبع سنوات، وهو متزين بأثواب الحبرية.

٢٠٩ — وأصل صور مدفون وسط الغموض، ويوجد أمام صور صخرة ليس حجمها صغيراً، عليها وقف يسوع عندما قال:«بل طوبى للذين يسمعون كلام الرب»الخ[لوقا: ١١/٢٨].

٢١٠ — وعلى بعد ثمانية أميال إلى الشمال من صور، يوجد على شاطىء البحر الصرفند، التي اسمها صرفند الصيداويين، التي سكن فيها فيما مضى النبي إيليا، عندما أقام من الموت ابن المرأة الأرملة.

٢١١ — وعلى بعد ستة أميال من الصرفند تقوم مدينة صيدا المشهورة، التي في خارج أسوارها شفى الرب الفتاة التي تلبسها الشيطان، وهي التي قالت أمها ليسوع:«والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها»[متى:١٥/٢٧]، ومن هذه المدينة كانت الملكة ديدو التي أسست قرطاج في أفريقيا.

٢١٢ — وعند سفح لبنان، وعلى بعد ميلين من صور، يوجد بئر نبع ماء، لكن نبع الحدائق يبعد ستة أميال عن مدينة طرابلس، عند سفح لبنان، باتجاه الغرب، وطرابلس مدينة مشهورة جداً في سورية، مليئة بكثير من المبهجات، وهي قائمة على البحر.

٢١٣ — وعلى بعد أربعة وعشرين ميلاً عن طرابلس توجد مدينة

أنطرسـوس، وهي التي تعرف بشكل عـام باسم طرطوس، ويوجـد في هذه المدينة بيعـة لها حجم كنيسـة كبيرة، وقـد قيل بـأنها بنيت من قبل بطرس ويوحنا، حـواريي الرب، وذلك تشريفـاً لمريم العـذراء المباركـة، ولها احترام عظيم حتى هذا اليـوم، لأنه يوجـد فيها منافع كثيرة، تقـدم بفضل تدخل العذراء المجيدة.

٢١٤ — وعلى بعد ستة أميال عن صيـدا توجد بيروت، وهي مدينة ثرية جداً، كـان فيها تمثـال لمخلصنا، وقد صلب هذا التمثـال بعد وقت قصير من آلامه، وجاء صلبه على يد اليهود سخرية منهم به، فتدفق دماً ومـاء، وبناء عليه فإن هؤلاء الذين صلبـوه، آمنوا عندما رأوا المعجـزة، وكل الذين حملوا مشـاعـر تقـوى صحيحة وكـاملة تجاه هذا التمثـال، برئوا من كل مرض كانوا مصـابين به، وجرى فيها بعد حمل هذا التمثال إلى روما.

٢١٥ — ووضع في كنيسـة القـديس يوحـنا في اللاتيران، حيث هو محاط باحترام وتقوى من قبل الشعب المسيحي.

٢١٦ — وعلى بعـد ميل واحـد عن بيروت يوجـد المكان الذي قتل فيه القديس جرجس — بفضل الصليب المقدس — التنين،وأنقذ عذراء من موت مشين، وأعادها سليمة وبحالة جيدة إلى أبيها، الذي كان ملك تلك البلاد.

— ٢ —

وصف جون بولونير للأرض المقدسة

(١٤٢١م)



تمهيد:

قال الدكتور توبلر Tobler لحسن الحظ أننا نعرف اسم صاحب هذا العمل، ثم تابع يحاجج بأن بولونير كان ألمانيا، وفي المقابل رأى الكونت ب. رينات Riantبأنه كان بولندياً، والبراهين التي أقام الدكتور توبلر نظريته عليها هي أن المؤلف استخدم كلمة كلافتيرن Klaftern ، لدى قياسه بالميل الألماني، مع إيضاحه لقرائه كم من الأميال الايطالية تساوي ميلاً ألمانياً واحداً، يضاف إلى هذا قوله بأن فلسطين كانت مقاطعة في الأرض المقدسة، مثلما سكسوني واللورين' مقاطعتان ألمانيتان، أو مثلهما توسكانيا ولومبارديا مقاطعتان من إيطاليا.

وأمكننا معرفة تاريخ رحلته، لأنه هو نفسه أخبرنا عن ليلة مرعبة أمضاها في ميناء بيروت وفي عشية عيد القديس توما سنة ١٤٢٢م، وحدثنا أيضاً كيف كان المسلمون يحصدون على جبل الزيتون،في يوم عيد القديس جرجس(٢٣ — نيسان) ١٤٢١م، وبناء عليه من المحتمل أنه ذهب في طريق عودته إلى بيروت، ويتوافق شرحه من حيث الجوهر — لاغالبا — بالكلمات نفسها مع كلمات بوركارد راهب جبل صهيون، مع أنها تختلف عنها بالترتيب، ولقد لاحظت وجود توافق مستمر بين الأماكن التي أريت لبولنير، وتلك التي أريت لفابري وغالباً ما جرى وصف هذه الأماكن بالكلمات نفسها، وهنا لانعرف فيما إذا كان فابري قد نقل عن متقدمه، أو فيما إذا كانا قد كتبا القصة نفسها التي أخبرهم بها الحرس، والقندلفتية.

وترسو أهمية بولونير ومكانته في أنه أول حاج — بقدر ما نعرف — رسم خريطة للأرض المقدسة، مع أن خريطته لسوء الحظ قد تلفت، ومع ذلك تمكن الدكتور توبلر من إعادة رسمها بشكل موفق، واعتماداً

على الاشارات التي وردت في النص إليهـا، وعلى الخريطة التي نشرها مارينوسانوتو، وليس من السهل في البداية، أبداً، فهم ترتيبات الخريطة، فهي مقسمة بوساطة خطوط، تشبه خطوط العرض والطول، الموجودة على الخرائط الحديثة، لكن يلاحظ أن الخطوط التي تشبه خطوط العرض فوق مساحة الخريطة عددها ثلاثة وثمانين خطاً، عبرها بالطول ثمانية وعشرون خطاً،وأخبرنا الدكتور توبلر بأن ترتيب المربعات هذه، قد استخدم من قبل موريس الباريسي، الذي فقدت خريطته أيضاً، وقاس بولونير بالمسافات بين الخطوط، وليس بالخطوط نفسها ، وأطلق على هذه المسافات اسم المربعات بالنسبة للعرض، والفراغات بالنسبة للطول، وهذا يعني أن القارىء لدى عثوره على مكان«تحت»كذا وكذا«مربع»، من المتوقع هنا منه أن يتولى تعداد المربعات على طول الحافة الأطول للخريطة حتى يصل إلى المربع المذكور، ثم بنظرته تحت أسفل العمود من هناك، سوف يجد المكان، وإذا كان المذكور موجود في كذا وكذا«مربع»، يتوجب عليه تعداد المربعات على طول نهاية الخريطة، وينظر على طول الخط، وليس من السهل شرح هذا النظام من دون رسم بياني، لكن ربما سيكون هذا تكلفاً مرهقاً، نرى فيه مؤلفنا فهيماً تماماً وبارعاً باستخدام الخريطة الحديثة، وأخبرنا الدكتور توبلر بأن موريس الباريسي قد عمل خريطة وفق هذه الطريقة، لكنها فقدت.

ومن الصعب أن نعتقد أننا نمتلك هنا رحلة بولونير كلها، ومن الصعب جداً أن نقبل بإمكانية أن حاجاً حريصاً مثله، وكاتباً تقياً على غراره، وصف حجه إلى الأرض المقدسة، ومع ذلك لم يقدم وصفاً لكنيسة الضريح المقدس، التي كانت الهدف الرئيسي لرحلته، فضلاً عن ذلك لدى قراءتنا لمطلع كتابه نشعر أننا نتعامل مع قطعة، هذا وليس من الواضح من أي مكان من نصه الحالي جرى فقدان وصف الضريح المقدس، ما لم نفترض أنه كان في النص فصل مستقل أوقف على هذا

الموضوع، ثم إنه لم يعطنا أية حقائق جديدة مرتبطة بالجغرافية القديمة، ولابد من أن نقنع أنفسنا باستخراج بعض الاشارات التي فيها بعض معلومات مفيدة حول أوضاع كنائس وبيع في الأرض المقدسة والقدس، وقبيل النهاية كرر نفسه، وأعطانا القائمة المعروفة بالأسماء التي نجدها لدى جميع كتاب رحلات الحج الذين استخدموا «الخلاصة الوافية»، وراجع في هذا المقام رحلتي ثيودورك وفيتلوس، اللتان تقدمتا من قبل، وهنا يتضح أنه على الرغم من أن بولونير قد زار الأرض المقدسة في وقت متأخر كثيراً بعد هذين الكاتبين، نجده يقلد عرضهما تقليداً قريباً، وقد نقل المزيج نفسه من سوء الفهم الجغرافي، من المصادر نفسها، أو مصادر مماثلة.

وصف جون بولونير للأرض المقدسة

أبواب مدينة القدس

فيما يلي وصف الأبواب التي كانت موجودة في سور مدينة القدس، والتي ورد ذكرها في نص الكتابات المقدسة، وكان اسم أول الأبواب«باب داوود»، وهو الباب الأعلى للمدينة في الزاوية الغربية، وقد عرف بهذا الاسم لأن برج داوود مطل عليه، وقد عرف أيضاً باسم«باب السمك»، لأن من خلاله يمر الطريق من يافا واللد وساحل البحر، ومن خلاله أيضاً يأتي التجار، جالبين مختلف السلع من أثيوبيا ومصر، وهذا الباب قائم في السور القديم، وهو ملتصق في هذه الأيام بسور الجزء الذي بني من أجل الاحاطة بضريح الرب، ويقود الطريق من هذا الباب إلى ثلاثة اتجاهات: الأول عبر حقل القصار، والثاني وهو الذي كان موجوداً على جهة اليسار، ويقود إلى بيت لحم وحبرون، والثالث هو الذي ينزل نحو جهة اليمين من خلال وادي رفئيم، وذلك تحت قلعة بيت سورا، التي تبعد خمس غلوات عن القدس.

أما الباب الثاني فهو الذي كان اسمه الباب القديم، وكان إلى الشمال من الباب الأول في السور القديم، وهو موجود منذ أيام اليبوسيين، وهو أيضاً يعرف بباب القضاء، لأن محاكم العدالة كانت تعقد هناك، وكل ما كان يقرر بحكم من القضاة، كان هناك يجري تنفيذه.

أما الباب الثالث فهو باب إفرايم، في الجزء العلوي(من المدينة) باتجاه الشمال، ويمر من خلال هذا الباب طريق يقود إلى جبل إفرايم والسامرة، ومن هنا يأتي السور الذي كان قد بني من برج داوود صعوداً إلى هذا الباب من أجل الاحاطة بضريح الرب، وللالتقاء بالسور القديم، ويعرف هذا الباب الآن باسم باب القديس اسطفان، لأن

القديس اسطفان قد رجم خارجه.

وكـان الباب الرابـع هو باب الزاوية، وكان مـوجـوداً عند الرأس في الطرف الشرقي، وذلك عنـد زاوية السـور فـوق وادي قـدرون، ولهذا نحن نقرأ في سفر الملوك[الثـاني:١٤/ ١٢، أخبار الأيام الثاني:٢٥/ ٢٣]، بأن يوشع ملك إسرائيل قـد خرق سور القـدس من باب إفرايم حتى باب الزاوية، وذلك لمسافـة أربعمائة ذراع، وكان أيضـاً يعرف باسم باب بنيـامين، لأن هذا الباب يقـود إلى عناتا وإلى المدن الأخـرى التابعـة لهذا السبط.

وكـان الباب الخامـس هو باب القاذورات، فمن خـلال هذا البـاب، تنساق جميع قـاذورات المدينة في أثناء الأمطار، لتصب في وادي قدرون، ويقود الطريق مـن خلال هذا الباب إلى القفـار القائمـة فيما بين القدس وأريحا، وهي الفيافي التي تعرف الآن باسم فيافي القرنطل.

وكـان البــاب السـادس هوبـاب الوادي، وكـان يعـرف باسم باب القطيع، لأن من خـلاله كـانت قطعـان الأغنام تسـاق للتضحيـة بها في الهيكل، وعلى مقربة منه — وعليهـا كان يعتمد — كـانت بركة الضأن، حيث كان يجري غسل الضحـايا، ومجاور إلى هذا الباب كـان يقوم برج حننئيل، وهو الذي عـرف أيضاً باسم برج السحـاب، كما ورد في النص قوله:«ها أيام تأتي، يقـول الرب، وتبنى المدينة للرب من برج حننئيل إلى باب الزاويـة»[إرميـا:٣١/ ٣٨]، وهو الذي كـان يعـرف بـاسم باب بنيــامين، وكـــان هيرود الكبير هو الذي أقـــام هذا البرج وسماه برج أنطونيا، وكان ذلك تشريفاً لأنطونيوس، ويقود الباب إلى جبل الزيتون، وبيت عنيا، والأردن.

وكان الباب السابع هو الباب الذهبي، ولايقود هذا الباب مباشرة إلى المدينة، بل إلى الهيكل من خـلال تقـاطع قصير من جبل الزيتـون، فـوق

قوس قائم في وسط شعفاط.

وكـان الباب الثـامن هو باب الماء، وقـد عـرف بهذا الاسم، لأن من خلاله كـان الماء ينقل من بركة سلوان، وكان هذا البـاب قائماً في الزاوية التي يلتقي فيهـا جبل صهيـون بجبل مـوريـا. أو جبل الحشيش، عند زاوية السـوريـن: أي سـور جبل صهيـون، والسـور الذي يحيط ببيت الملك، ويقـود(هذا البـاب) إلى نبع سلوان، ووادي أبنـاء عنون، ونبع روجل، وحقل الدم.

ولاأعتقـد أن المدينة تمتلك أبواباً أخرى أكثـر من هذه الأبواب، لأنه بسبب وضعهـا، لم تتـوفـر حـاجـة إلى المزيـد من الأبواب، وبين هذه الأبواب ثلاثة هي الأكثر شهرة من البقيـة، وهي: الباب الأول، والباب الثالث، والباب الرابع بين الأبواب الثمانية التي تقدم ذكرها أعلاه، ومن جهـة الجنوب وجهـة الشمال تطل حـافـة جبل صهيـون فـوق المدينة، ومعروف أن ذلك الجزء من الأسوار، مع الأبراج ليس فيه أبواب.

ها هي مـدينة الملك العظيم، التـي لم تستطع جميع كنائس العـالم أن تقدم شبيهـاً لها، وهي التي كان فيما مضى قائماً من حـول أسوارها ثلاثة وثمانون برجـاً، وسبـع قـلاع حماية، التي خـرائبهـا من الممكن رؤيتهـا بوضوح كامل في هذه الأيام في الجانب الشمالي ، وفيمايلي:

ترتيب نظام الحج خلال مدينة القدس والأماكن الأخرى التي من حولها

يوجـد في الساحة، خـارج كنيسة الضريح المقـدس، أربع بيع، الأولى بينها مـوجودة على جهـة اليسار، للخارج، وهي بيعـة العذراء المبـاركة، ويوحنا الانجيلي، لأنه ها هنا وقفـا في أثناء الصلب، والبيعة الثـانية هي الأقـرب إلى هذه الأولى،وقـد بنيت في الزاويـة، وهي مكرسـة لجميع الملائكة، والبيعـة الثالثـة قائمـة على الطرف نفسـه، وهي بيعة القـديس

يوحنا المعمدان، والبيعة الرابعة قائمة على جهة طرف اليمين للخارج من الكنيسة، وذلك على مقربة من برج الناقوس، وهي بيعة القديسة مريم المجدلية، والبيعة الأولى هي بأيدي الهنود، أما الثانية فهي بأيدي اليعاقبة، والثالثة بأيدي الجورجيين، والرابعة بأيدي الاغريق.

وفي منتصف الطريق بين هذه البيع الأربع هناك إحدى عشرة خطوة تبعد عن الدرج إلى الجمجمة، وهناك يوجد مكان عليه علامة فوق البلاط، هو حيث استراح الرب يسوع، عندما جلب من بيت بيلايطس، وقد استراح فيه ومعه صليبه، بينما وقف الحرس من حوله.

وعلى مقربة من الساحة المفتوحة أمام الكنيسة يوجد السجن لمقترفي الشرور، وبابه متجه نحو باب الكنيسة، وذلك على بعد عشرين خطوة، ويذهب الانسان من هناك باتجاه الشرق من خلال شوارع المدينة إلى قاعة محكمة بيلايطس، وينبغي أن نعرف أن المسافة من موضع الجمجمة، إلى قاعة القضاء المتقدمة الذكر هي أربعمائة وخمسين خطوة، ذلك أنني قستها بنفسي بكل عناية ممكنه، لأن المسافة هي مائتين وخمس وسبعين خطوة إلى بيت الرجل الغني الذي رفض أن يعطي الفتات إلى العازر عندما كان مريضاً، ومن هناك إلى اليسار خمس وسبعين خطوة إضافية حيث المكان الذي تلتقي فيه الطرقات الثلاثة مع بعضها،ليس بعيداً عن الباب الذي يقود إلى السامرة، وكفرناحوم، وجمالا، وفي هذا المكان نفسه أرغم سمعان القيرواني على حمل صليب المسيح، وفي هذا المكان نفسه قال الرب للنساء النائحات:«لاتبكين يا بنات القدس عليّ»الخ، وبعد أربعين خطوة أخرى نحو اليمين، وعلى مقربة من الطريق، يوجد المكان الذي وقفت فيه العذراء مريم، وهي راغبة برؤية ولدها المحبوب، الذي جلب مع حشد عظيم من بيت بيلايطس، وهو مثقل كثيراً بحمل الصليب، وكان ذاهباً للصلب عندما رأته يبصق وهو مغطى بالدم، وقد نسيت جميع مواساتها المتقدمة، وفقدت وعيها وذهبت

في غيبـوبة، وسقطت شبه ميتـة، وظلت مـرمية حتى تمّ رفعها وحملهـا بعيـداً من قبل النسـاء الأخـريات، ويوجـد في هذا المكان نفسـه كنيسـة بنيت على شرفهـا، وقـد جـرى تدميرهـا من قبل الخونة المسلمين، ومن الممكن رؤية خرائبهـا في هذه الأيام، وكان اسمها القديسـة مريم المغمى عليها.

وعلى بعد ست وخمسين خطـوة أخرى، يرى الانسان القـوس المقنطر الذي يعبر الطريق، فهنا يوجد مكان البـلاط، الذي اسمه جباتا، وفـوقه من الممكن رؤيـة صخـرتين بيضـاويتين، عليهما وقف الرب يســوع في محكمة بيـلايطس، عندما أجاب على أسئلة ذلك القـاضي، وهناك يوجد المكان الذي رفع عليـه علم الجنود، وتحت القنطرة المتقـدمـة الذكـر من الممكن رؤية مكان مدرسة العذراء المباركة، حيث تعلمت أثناء طفولتها الكتـابة، وعلى بعد خمس وعشرين خطوة عن هذه القنطرة توجـد قاعـة المحـاكمـة، وهناك يوجـد البـاب الذي دخل منه، كما يوجـد باب آخـر خـرج منه بعـد صـدور الحكم عليـه، وهذان البـابان كـلاهما مغلقـان، ومبنيان بالحجـارة، وماتزال الأساسـات القديمة مـوجودة، وهذا البيت مزين بالفسيفساء،ومنحوت على شكل حلقات الاسطرلاب، وهو نحت لايمكن رؤيتـه تماماً، وعلى بعـد قليل خلف قـاعـة القضاء يوجـد بيت بيـلايطس، هذا ويقوم الآن أمـام قـاعة القضـاء هناك بيت، هو في هذه الأيام بيت المحكمة لقاضي المدينة.

وعلى بعد ثلاث وثمانين خطوة إضافيـة على طول الشارع نفسه، وإلى الشرق من قاعـة القضاء المتقدمـة الذكر،وعلى جهـة يدك اليمنى، يوجد الباب الأول الذي يقود إلى شـارع هيكل سليمان، ويوجد ثلاثة من هذه الأبواب في هذا الشارع، موجـودة على جهة الشمال، والباب الجميل هو الأقـرب إلى الهيكل، وذلك نحـو الغـرب منـه، وعلى مقـربة من مشفى الدمشقيين، وليس بعيداً باتجاه جنوب هيكل سليمان[قبـة الصخرة]، وفي

داخل الاطار نفسه من الأسوار، يوجد هيكل الرب(الأقصى) الذي كان فيه يجري تقديم أول الأولاد الذكور ولادة، وهناك جرى تقديم يسوع أيضاً، وقد حمله سمعان بين ذراعيه، وله سقف رصاصي، وسدة وفق طرائق المسلمين، متجهة نحو الجنوب، وعشرين نافذة على كل جانب، وهوقائم في الزاوية القصوى للمدينة باتجاه وادي سلوان، ثم ينزل الانسان من شارع قاعة القضاء، ويسير مسافة جيدة إلى اليسار، وهناك ربما يمكن رؤية بيت سمعان الفريسي، فهناك جرى إعفاء المجدلية من ذنوبها.

ثم إذا ما استدار الانسان نحو الخلف ثانية في شارع القضاء، يجد بيت يواكيم، وذلك حيث ولدت العذراء مريم، ويوجد في هذا المكان كنيسة، هي الآن في أيدي المسلمين، وهي تبعد مسافة ثمان وستين خطوة من أول باب من أبواب هيكل سليمان، زيادة على هذا إنه على بعد أربعين خطوة طويلة بشكل مستقيم من بيت يواكيم، يوجد باب القطعان أو الوادي، وفي هذا الطريق توجد بركة الضأن، وهي قائمة على جهة اليمين نحو هيكل سليمان.

والمسافة من هذا الباب نفسه إلى القوس المقنطر فوق قدرون مائة وثلاث وستين خطوة طويلة، وعبر قدرون، كان ممدد فيما مضى شجرة، وهي الشجرة التي تألم المسيح عليها، وقد عرضت هذه الشجرة على ملكة سبأ، التي كانت ملكة الجنوب، وهي التي جاءت من أقصى أجزاء الأرض لتسمع حكمة سليمان(متى:١٢/ ٤٢)، وحول هذا الموضوع يقرأ الانسان في سفر الملوك[الأول:١٠/ ١ — ٢]:«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة»، وتحت صورة هذه الملكة يوجد نموذجاً رائداً للكنيسة، جاء من عند الأمم.

وأخيراً هناك، عبر البركة، على جهة اليسار، ونزولاً ثمان وعشرين خطوة تحت وادي شعفاط، ونزولاً أيضاً ثمان وأربعين درجة، توجد كنيسة جميلة، فيها ضريح مريم العذراء المجيدة، بطول ذراعين ممدودين وثلاثة من الأصابع الوسطى متصلة، وفيها ثمانية مصابيح مشتعلة باستمرار، والمذبح الأول، القائم إلى جانب الضريح، هو بأيدي الأرمن، والثاني، الموجود تحت القنطرة المظلمة، هو بأيدي الجورجيين، والثالث، الموجود تحت نافذة في النهاية الشرقية، هو بأيدي الاغريق، والرابع موجود في جهة الشمال، وهو بأيدي الرهبان الفرنسيسكان، والخامس موجود على جهة اليسار للدرجة الأولى للسلم، وهو بأيدي اليعاقبة، وينبغي أن نعرف أنه في الجهة نفسها للسلم، هناك مذبح هو بأيدي الهنود، وترقد في هذا المكان نفسه الملكة ميليساند، وهي التي أمرت ببناء هذه الكنيسة.

وعلى بعد أربع عشرة خطوة باتجاه الشرق من الباب، يوجد المدخل إلى الكهف الموجود تحت الصخور عند سفح جبل الزيتون، فهناك تعرق الرب يسوع، وهو يتألم، نقاطاً من دم، وكان ذلك لدى صلاته ثلاث مرات،وعلى مقربة من الصخرة الكبيرة، على طرف الجبل، وعلى رمية حجر قوية نحو الجنوب من مكان الأسى هذا، جلس الحواريون الثلاثة الذين وجدهم نائمين، وعلى مقربة من هذا المكان، وعلى بعد ثمان خطوات، توجد الحديقة التي اسمها حديقة الورود، وهي متجهة نحوالبركة، وقائمة أمام الباب الذهبي تماماً، ففي هذه الحديقة جرى اعتقال المسيح، وهناك ضرب بطرس خادم الأمير، لأنه غالباً ما التقى بحوارييه هناك، فضلاً عن هذا لقد قيل بأن هذا هو الباب الذي عنه قال حزقيال:«هذا هو باب المقدس الخارجي المتجه للشرق، وهو مغلق، فهو قد دخل من خلاله، ولايدخل منه إنسان لأن الرب دخل منه»[حزقيال:٤٤/ ١ — ٢].

وتوجـد جيسماني، حيث أقام الحواريـون الثمانيـة الآخـرون، وهي منخفضـة نزولاً نحو الجنوب وعلى بعـد رمية سهم عن الحديقـة، وعلى بعـد خمس وأربعين خطوة صعـوداً من الحديقـة هناك عـلامـة الموضع الذي صعـدت منه العذراء المبـاركة إلى السماء، تاركـة حزامها للقـديس توما الذي لم يكن مع رفـاقه الحواريين، عندما جرى حمل جسـد العذراء المجيدة إلى السماء.

ونصعـد الآن إلى جبل الزيتـون بوسـاطة طريق وعـر يقـود إلى باب القطيع، فـوق الوادي وعبره، فهناك المكان الذي بكى المسيح فيه عندمـا رأى مـدينة القدس، وذلك حسبما نقـرأ في حكاية الانجيل، ويبعـد هذا المكان نفسه مائتي خطوة وعشر خطوات عن المكان المتقدم الذكر، وهذا الطريق هو الذي سار الرب عليه راكباً في يوم أحد السعف، وهو الذي يفصل جبل الزيتون عن جبل الجليل، ويسير الانسان من مكان النحيب مـائـة خطوة وخمس وتسعين خطـوة زيادة إلى المكان الذي جلب إليـه الملاك جبرائيل سعفـة النخيل إلى العـذراء المجيـدة، وأخبرها سلفـاً بمغادرتها لهذا العالم.

ومن هناك يترك الانسـان الطريق، ويمضي صعـوداً مـائـة خطوة وعشرين خطوة إلى اليسـار صعـوداً لجبل الجليـل، حيث فـوق ذلك الموضع ظهـر المسيح للمـرة الخامسـة والأخيرة لحوارييـه، وذلك حسبما وعد، ويـوجد هناك موضـع بني فوقه بشكـل جيد، حيث توفـر غفران وتوبة، وقد أعطى هذا الآن إلى المدينـة المقدسة، حيث يوجـد هناك بيعة مستـديرة، مساحتهـا من المحيط الخارجي ست عشر خطوة، وفي داخل هذه البيعة يمكن للانسان رؤية عـلامة قدم المسيح اليسرى، التي طبعها على الصخرة عندما صعد إلى السماء، ومساحتها بالطول شبر، واصبعتين ملتصقتين من الاصبع الـوسطى، ويقـدم المسلمـون في هذه الكنيسـة صلوات تقـوية، ولديهم صخرة مماثلة، فضـلاً عن هذا لقـد كتبوا فـوق

باب البيعة نفسها بخط أحمر وبأبجديتهم:«أنا باب الرحمة»، وعلى بعد خطوة واحدة من تلك البيعة، وعلى مقربة من باب مغلق في الجدار الشرقي هناك ترقد صخرة لايمكن تحريكها، عليها جلس المسيح في صعوده، ووعظ حوارييه، وعلمهم مايتعلق بالأشكال السبعة للروح القدس.

وكذلك من الجانب الجنوبي لهذه الكنيسة، وفي الخارج يوجد طريق نازل طوله ثماني عشرة خطوة إلى بيعة، فيها تابت القديسة بلجيا واعتكفت، وفيها ترقد مدفونة، مع صخرة عظيمة موضوعة فوق ضريحها المرتفع.

فضلاً عن هذا، على بعد خمسة أثمان الميل عن جبل الزيتون، باتجاه الأردن، أو باتجاه الشرق، من الممكن رؤية مكان منعزل، قرب الوادي الذي اسمه بيت فاجي(بيت الفك)، فمن هذا المكان بعث المسيح جيمس ويوحنا ليجلبا له أتانا وفلوها، وهذا المكان موجود على منتصف الطريق من جبل الزيتون إلى بيت عنيا، وإذا ما استدار الانسان نحو الخلف إلى جبل الزيتون، فإنه يسير على طول الطريق الذي يفصل ذلك الجبل عن جبل العدوان، القائم على جهة اليسار نحو وادي جيحون، ففوق هذا الجبل نصب سليمان صنم مولوك وتعبده.

وعلى بعد عشرين خطوة من بيعة القديسة بلجيا المتقدمة الذكر، يوجد المكان الذي وضع فيه الحواريون معاً واحداً تلو الآخر بنود العقيدة الاثني عشر، وفي هذا المكان من الممكن رؤية خرائب كنيسة القديس مرقص، وعلى بعد عشر خطوات أكثر نحو المدينة، هناك ممدد فوق الأرض صخرة كبيرة، عليها وعظ المسيح حوارييه وعلمهم حول السعادات القصوى الثمانية، وأيضاً على بعد اثنتين وعشرين خطوة نزولاً يوجد المكان المحدد، الذي علم عليه الرب يسوع حوارييه الصلاة، كما نقرأ في متى:٦، وانتبه إلى الحجر المحفور عليه بأحرف عبرية، الذي

وضعه المسلمون على عتبة الباب، وإذا ما نزل الانسان اثنتي عشرة خطوة أخرى، يأتي إلى المكان الذي غالباً ما أراحت مريم العذراء المباركة نفسها فوقه، عندما كانت تشعر بالتعب أثناء زياراتها التعبدية اليومية.

وينزل الانسان بعد هذا إلى اليسار، نحو وادي سلوان، فيرى الكنيسة الصغيرة العائدة للصليب المقدس، التي فيها ثلاثة مذابح، وعلى مقربة منها، وعلى بعد ست عشرة خطوة باتجاه الجنوب، يوجد مقر سكنى يهوذا الاسخريوطي، والمكان الذي شنق نفسه فيه، وتحت الصخور قرب المدينة، وعل بعد رمية سهم عن الكنيسة الصغيرة المتقدمة الذكر، يوجد ضريح زكريا، الذي قتل فيها بين الهيكل والمذبح، وملاصق لذلك المكان توجد بيعة يوجد فيها كوة في الجدار لها شكل تنور، فيها أخفى جيمس الأصغر نفسه لخوفه أثناء آلام المسيح وموته، وقد ظل فيها حتى ظهر الرب له.

ومن هذه البيعة هناك طريق إلى نوع من المساكن منحوت في الصخرة التي فوقه، حيث قيل هنا كان بيت الحواريين المباركين:فيليب وجيمس، وعلى بعد خطوتين إضافيتين، فوق في مواجهة زاوية سور المدينة، من الممكن أن نرى بناء مدهشاً حقاً، بدون باب، على شكل بيعة مربعة، وقد قال بعضهم عن هذا البناء بأنه قبر الملك شعفاط، الذي منه نال الوادي اسمه، وأعلن بعضهم الآخر بأنه ضريح ابنة فرعون التي أحبها سليمان بوله، وذكر بعضهم أيضاً بأنه قبر أبسالوم بن داوود.

واعرف أنه من القنطرة الثانية للجسور القائمة فوق وادي قدرون عند هذا المكان، يوجد ستمائة خطوة طويلة وخمس عشر خطوة طويلة، إلى الدرجة الأولى للسلم الذي يقود صعوداً إلى الكنيسة على جبل الزيتون، وعدد درجات هذا السلم عشرين درجة، وقد أضفت هذا حتى يمكنني إظهار الجبل المتقدم الذكر، وفي هذا المكان نفسه تحت

الصخور عند سفح جبل الزيتون يسكن هناك فلاحون ورعاة.

ثم ينزل الانسان بعد هذا إلى قعر مجرى الماء المتجه جنوباً إلى البئر الذي يقال بأن مريم العذراء المباركة قد استحمت بمياهه وغسلت قطع قماش القماط العائدة للرب الرضيع، ويفصل هذا النبع وادي شعفاط عن وادي سلوان، فعلى بعد مائتين وخمس وخمسين خطوة إلى الجنوب من هذا النبع، وعند سفح جبل صهيون، يوجد نبع سلوان، الذي منه تتجمع المياه في البركة السفلى، التي تعرف باسم بركة سلوان للاغتسال، التي عندها جرى شفاء الرجل الذي ولد أعمى، وذلك حسب رواية يوحنا، وعلى بعد رميتي حجر من هذا الجبل نفسه، يمكن للانسان أن يرى كومة من الحجارة، ففي ذلك المكان جرى دفن إشعيا، وهناك أيضاً جرى قتله.

ثم يصعد الانسان إلى جبل مرتفع باتجاه الجنوب، حيث يوجد على جانبه كثيراً من الكهوف والأقبية، فيها أخفى الحواريون أنفسهم في أيام آلام المسيح، وهي التي اعتاد فيما بعد أن يسكن فيها النساك المسيحيون، وعلى بعد ثلاثين خطوة فوق هذه الكهوف يوجد الحقل الذي اسمه أكلداماك(حقل الدم)، الذي شري مقابل الثلاثين قطعة فضية، وله تسع فتحات من خلالها يجري رمي جثث الموتى.

ويوجد فيما بين بركة سلوان وحقل الدم، جدول قدرون الذي يستجر مياهه من الأجزاء العليا للمدينة ومن الجبال، وفي الحقيقة هناك قرب راما وعناتا طريق طويل من ضريح العذراء المباركة، يمكن للانسان أن يسمع نواحها تحت الأرض، ويمضي الانسان نزولاً تحت جبل العدوان إلى وادي جيحون أو توفت، حيث يوجد فيه صخرة زوحل، وبئر روجل، وذلك حيث ضحى أدوناي بقرابينه، ويوجد في هذا المكان حقول خصبة، لأن هذه المياه تمر خلالهم، وعندما يكون الانسان قد رأى هذه الأشياء كلها، لابد من عودته نحو المدينة عبر

الطريق نفسه الذي جئنا عليه، وذلك حتى بيعة القديس جيمس الأصغر، التي هي إلى جانب القوس المقنطر فوق قدرون، الذي أتينا على ذكره من قبل، عندما كنا قادمين نزولاً من جبل الزيتون.

والآن يوجد من هذا القوس إلى بيت كيفاس، الموجود على قمة جبل صهيون، سبعمائة وثلاثين خطوة، وفي الصعود إلى أعلى، يمكن للانسان أن يأتي أولاً إلى مكان من الممكن أن يشاهد فيه باب مغلق، منه مرت العذراء المباركة عندما قدمت يسوعاً في الهيكل، ولدى الذهاب صعوداً من هناك، باتجاه الغرب، يصل الانسان إلى المكان الذي اسمه«صياح الديك»، حيث بكى بطرس، وهو يبعد مائة وسبع وثمانين خطوة من بيت كيفاس، ويمضي الانسان صعوداً من المكان المتقدم الذكر، ويسير ثمانين خطوة باتجاه الغرب، وعلى مقربة من باب شارع اليهود، وهو الباب الذي يتطلع إلى خارج المدينة باتجاه الغرب، هناك مكان معلوم، عنده احتشد اليهود وتآمروا ليقوموا بخرق حرمة جسد العذراء المجيدة، عندما كانت محمولة من قبل الحواريين من أجل الدفن.

ويوجد على بعد ست وسبعين خطوة من الباب المتقدم الذكر شارع كنيس اليهود، وهو يمتد لمسافة مائتين وسبع وثلاثين خطوة، أي حتى المدخل إلى الشوارع المسقوفة، ومن هذا المدخل هناك ثلاث وتسعين خطوة حتى برج داوود، ومع أنه كان فيما مضى حي اليهود فإن أعداد كبيرة من المسلمين هي التي تسكن هناك، وفي الشارع التالي لهذا الشارع، يوجد البيت الذي ربط فيه القديس بطرس بالسلاسل، ومكان سجنه هو الآن فرن خباز، وفي هذا الشارع نفسه هناك باب صغير متجه نحو الجنوب، اسمه بلغتهم خرم الابرة، وبناء عليه قال الرب:«إنه أسهل للجمل أن يدخل من خرم الإبرة»الخ، ومن المكان المتقدم الذكر الذي جرت فيه محاولة السرقة العنيفة(لجسد العذراء) إلى المكان الذي توفيت فيه مائة وثلاثين خطوة، حيث توليت تعدادها بقدر ما استطعت

من دقة، وعلى كل حال، أول ما يراه الانسان هو بيت عناس، الذي كان الكاهن الأعلى، حيث توجد كنيسة جميلة بها فيه الكفاية هي للأرمن، وهي مزينة بأضواء ومصابيح، وفيها أربعة أعمدة مستديرة، وعلى بعد رميتي حجر نحو الأعلى يوجد بيت كيفاس، وهو قائم على قمة الجبل، وكما تقدم الذكر، فيه الآن كنيسة صغيرة اسمها بيعة القديس المخلص، وهي جديرة بهذه التسمية، لأنه قد وضع فوق مذبح هذه البيعة الصخرة الكبيرة، التي كان فم ضريح المسيح مغطى بها، فضلاً عن هذا، يوجد خلف المذبح وفوقه، صورة تمثل تغيير الهيئة، وفي هذا المكان نفسه، على مقربة من المذبح، وعلى جهة اليد اليمنى، يوجد سجن المسيح، الذي حبس فيه حتى اجتمع اليهود، وتشاوروا، وأسمعوه الادعاء ضده، وهذه البيعة هي أيضاً بأيدي المسيحيين الأرمن.

ويوجد أيضاً على الجبل نفسه نحو شارع(؟) المكان الذي دفن فيه القديس اسطفان للمرة الثانية، وأيضاً على بعد اثنتين وعشرين خطوة إلى الجنوب خلف سدة(كنيسة جبل صهيون) مكان المطبخ، حيث جرى إعداد خروف العشاء الأخير للأكل، وحيث أيضاً جرى تسخين الماء من أجل غسل أقدام الحواريين، وأيضاً إلى المكان نفسه، الذي هو الآن بيت للسكن، أرسلت روح القدس وأنزلت على الحواريين، وهناك أيضاً جرى دفن داوود وسليمان وعدد كبير آخر من ملوك القدس، ويوجد أيضاً في أرض مقبرة هذه الكنيسة نفسها، مكان معلم، هو المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع نفسه في يوم صعوده ووجه اللوم لحماقة حوارييه، وأرسلهم إلى جميع أنحاء العالم، غير أنه ذهب معهم أولاً إلى جبل الزيتون وبعدما منحهم مباركته صعد إلى السماء.

وعلى بعد اثني عشر قدماً من هذه الصخرة المكتوب عليها، هناك صخرة أخرى مثبته في الأرض، فوق المكان الذي جلست فيه العذراء

مريم، وأصغت إلى موعظة ابنها، وأيضاً على بعد خمس خطوات من هناك يوجد المكان الذي قام فيه بيتها، الذي سكنت فيه بعد صعود ابنها، وأيضاً على بعد ثلاث عشرة خطوة عن هناك، وفي هذا المكان الذي انتخب فيه القديس متى من قبل جميع الحواريين، وكان ذلك في اليوم التالي للصعود، وفي المكان نفسه جرى انتخاب السبعة الشمامسة، الذين جرى بحق تعيينهم لخدمة الأرامل، وبين هؤلاء الشمامسة كان اسطفان هو الأول، وفي هذا المكان نفسه جرى انتخاب القديس جيمس الأصغر من قبل الحواريين ليكون أول أسقف للقدس، وعلى بعد عشر خطوات أكثر هناك مكان التعبد، وذلك حيث غادرت العذراء المجيدة من هذا العالم، وعلى بعد ثمان خطوات أكثر باتجاه بيت كيفاس، يوجد مكان فيه بيعة.

ومعنى اسم جبل صهيون هو«برج المراقبة»، ولاحظ أن البتراء التي هي في الصحراء، أي في العربية، يمكن مراقبتها ورؤيتها من ذلك الجبل، فقد رأيت من هناك نهر الأردن يدخل إلى البحر الميت، لكن ذلك كان في الصباح الباكر، لأنه عندما تصعد الشمس إلى قبة السماء، يبات من غير الممكن رؤية مجراه، والآن في كنيسة جبل صهيون، حيث يقف النجم العالي، في هذا المكان بالذات تعشى المسيح مع حوارييه، وأعطاهم جسده ودمه، ولهذا السبب أطلق عليها من قبل المسيح، اسم قاعة العشاء الكبير، وأيضاً هناك مذبح آخر قائم في الزاوية على جهة اليمين، في المكان الذي غسل فيه أقدام حوارييه في الليلة نفسها، وأيضاً يوجد خلف المذبح العالي، في الجهة الخارجية فوق، المكان الذي أرسلت إليه الروح القدس،المطمنة، وكان ذلك في يوم عيد الحصاد، وذلك حسبما تقدم الوعد للحواريين، ومباشرة تحت هذا البناء، في قبو طوله سبع خطوات، وله نافذتين صغيرتين في الجهة الشرقية، مدفون داوود وابنه سليمان، ومثل هذا هناك في الطابق السفلي للدير، بيعة قائمة فوق

المكان الذي أدخل فيه القديس توما يده في جنب المسيح، وكان ذلك بهدف تقوية إيمانه وتمتينه.

واقتيد حجنا من هذا المكان باتجاه برج داوود، الذي يبعد ثلاثمائة وثمانين خطوة عن قبره، إنما ونحن على طريقنا وصلنا أولاً إلى كنيسة الأرمن، وهذه الكنيسة مستديرة، ولها أسوار قوية، وأقبية على درجة عالية من الحصانة، ولها أربعة أعمدة مربعة في الوسط، وليس فيها نوافذ، سوى نافذة واحدة مزججة في الذروة، غير أن فيها ثلاثمائة مصباح أو أكثر، وفي الحقيقة كان في أيامي مائة وعشرين مصباحاً مشتعلة بالعادة، وموجودة في شمعدان واحد، وأنا لم أشاهد قط ولم أسمع بمثل هذه التقوى العظيمة بين الناس.

ويوجد على جهة اليسار من المدخل المكان الذي جرى إعدام القديس جيمس الأكبر فيه، فهذا المكان من الممكن رؤيته، وهو يبعد مائتين واثنتين وعشرين خطوة عن المكان الذي أقام فيه أخوه يوحنا قداساً، وأيضاً في حدود رمية حجر عن البرج المتقدم الذكر، يوجد المكان الذي قابلت فيه مريم المجدلية، العذراء، وأعطتها بشائر بأن ابنها حي، وقد قام من الموت، وهنا أيضاً ظهر المسيح إلى المريمات الثلاث قائلاً: «التحية لكن جميعاً».

ويوجد في شارع أسقف القدس، بيت القديس زكريا، الذي هو بأيدي الجورجيين، وفي الداخل هناك بيعة جميلة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، وقبل المدخل إلى البيت هناك قبو من الحجر القاتم، وهو بناء قديم جداً في منتصف الطريق، على طول الشارع القائم فيما بين الضريح المقدس وبين برج داوود، ثم يلي ذلك البيت الذي جرى فيه إكرام الملوك الثلاثة، وانتبه إلى الباب، فهو الذي لم تستطع القديسة مريم المصرية الدخول منه، عندما كانت مثقلة بحمل ذنوبها، وهو الباب الذي من الممكن رؤيته في الشارع الذي يقود إلى عمواس، وفيما يلي:

الحج من مدينة القدس نحو الشرق إلى بيت عنيا

أما وقد فرغنا من رؤية الأماكن القريبة، علينا الآن أن نعبر إلى الأماكن التي هي أبعد، فبذلك سوف تتضاعف مشاعرنا التقوية، وأول شيء يعبر الانسان إليه هو إلى بيت عنيا، التي تبعد عن القدس مسافة نصف ميل ألماني — أي حوالي الخمسة عشر فرلنغ(يوحنا:١١/١٨) — حيث من الممكن أن يشاهد تحت القلعة ضريح ألعازر، الذي أقيم من الموت من قبل المسيح، وقد كان هنا فيما مضى كنيسة كبيرة، من الممكن رؤية أعمدتها قائمة حتى هذا اليوم، وتحت قبو مظلم، على بعد عشر خطوات عن ذلك الضريح، يوجد المذبح، فهنا في هذا المكان وقف المسيح عندما دعاه للخروج من القبر، وأيضاً في الخارج، قرب هذا المكان، لكن أعلى، يوجد بيت سمعان المجذوم، الذي فيه صهريجين، فهناك صبت المجدلية الدهن العطري على رأس المسيح، وهو جالس لتناول الطعام، وهو الأمر الذي أغضب يهوذا، وقبل ستة أيام من عيد الفصح تعشى يسوع في بيت عنيا، حيث تولت مرثا خدمته، في حين كانت أمها واحدة من الذين جلسوا إلى المائدة، ولهذا جاء حشد كبير من الرعاع اليهود إلى هناك، راغبين بقتل العازر أيضاً[يوحنا:١٢/ ٩ — ١٠].

وعلى ست رميات سهم من بيت عنيا، من الممكن أن يشاهد في حقل هناك صخرة عظيمة، عليها كان الرب جالساً عندما قابلته مرثا وقالت له:«ياسيد لو كنت هنا»الخ، وعلى بعد رمية حجر من تلك الصخرة، وعلى رمية سهم من هناك، على جهة اليمين، عند انحدار الهضبة، وباتجاه نحو الجنوب،كان هناك بيت المجدلية، الذي تقوم فوق موقعه كنيسة مهدمة، تحولت الآن إلى حظيرة للماعز، وغالباً ما جرت استضافة الرب يسوع وإطعامه في هذين البيتين، ويوجد على الطرفين واد منحدر، وهو على الجهة اليسرى أكثر الجانبين عمقاً، وفيه يوجد الطريق الذي

عبره الرب، عندما قدم من أريحا صاعداً في طريقه إلى القدس، ويأتي فيمايلي:

الحج من القدس إلى بيت لحم

أول ما يراه الانسان هو بيت سمعان، قرب القدس، على جهة اليمين، بين الكروم، فيما وراء الطريق إلى عين كارم، ويوجد إلى اليسار، على رابية قرب جبل صهيون، بناء على شكل قلعة، يعرف باسم بيت الاجتماع الشيطاني، فإلى هذا الاجتماع ذهب يهوذا ليقترف خيانته، وليصنع اتفاقاً من أجل تسليم المسيح، وكان يوجد في هذا المكان كنيسة جميلة مكرسة للقديس سبيريان، وبعد مسافة لابأس بها خلف هذا المكان، يصل الانسان إلى بئر، ففي هذا المكان أشع النجم الضائع مرة ثانية على الملوك الثلاثة، وعلى شرفه قامت فيما مضى هناك كنيسة جميلة، مايزال بلاطها موجوداً ويمكن الوصول إليه، وبعيداً عن الطريق، وفوق رابية موجودة على جهة اليمين، توجد كنيسة القديس جرجس، وبعد هذا يوجد على جهة اليسار، وليس بعيداً عن الطريق، بناء طويل، وكنيسة جميلة، هي ملك للاغريق، ويوجد بئر قرب جدارها الجنوبي.

وولد في هذا البناء الياس، وسكن فيه أثناء حياته، وهو قائم في منتصف الطريق، على طول الطريق فيما بين المدينتين المتقدمتي الذكر، وذلك على بعد ميل ألماني واحد عن كل منهما، وفي أيام إلياس انغلقت السموات لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وفيما بين القدس، وبيت لحم — أو إفراتا — يوجد جبل قابيل الذي عليه مسح قابيل وتوج، وفوقه بنيت كنيسة القديس سبيريان، كما تقدم الذكر، وبعد ذلك، على مقربة من الطريق هناك آثار برج عظيم، وذلك حيث تصارع يعقوب مع الملاك(التكوين:٣٢)، وبعد هذا، يوجد على جهة اليمين، على مقربة من الطريق الذي يقود إلى حبرون، قبر زوجته راحيل، وهو قد بني

مؤخراً من قبل المسلمين، وهو متجه نحو الجنوب، حيث هناك مقبرة، ويعرف هذا المكان باسم قبة راحيل، وليس بعيداً عن ها هنا يأتي الانسان إلى الحقل الذي تحول بذار الفول أو البيقية فيه إلى حجارة بإرادة من الرب، وهذه الحجارة بحجم وتعداد الفول.

وكان في بيت لحم، على الجانب الغربي كنيسة القديسين كوزماس ودامين، ويوجد على جهة يمين الداخل إلى الكنيسة الكبرى على مقربة من السدة، مذبح هو بمثابة علامة على المكان الذي قتل فيه عدد كبير من الأبرياء، وفي هذا المكان نفسه جرى ختن الرب يسوع، وقرب بئر موجود على الجانب الأيسر هناك، يوجد مذبح، وهو حيث المكان الذي أعد فيه الحكماء أنفسهم بشكل رائع،من أجل تقديم الهدايا إلى الملك الحديث الولادة، ويقال بأن النجم اختفى في ذلك البئر.

ثم ينزل الانسان ست عشرة درجة إلى بيعة تحت السدة، فهناك المكان الذي ولد فيه مخلص العالم، ويوجد في هذا المكان نفسه، على يسار الداخل، هناك مذبح، وعلى بعد سبعة أقدام وثلاث خطوات من هذا المذبح، تحت الصخرة، يوجد المكان الذي مدد فيه الطفل الوليد في المعلف، وقد عبد هناك من قبل الرعيان، واعرف بأن طول هذه الكنيسة هي ست وثلاثين خطوة في الداخل، وعرضها ثمان عشر خطوة، وفيها أربعة صفوف من الأعمدة الرخامية، وفي كل واحد من هذه الصفوف اثني عشر عموداً، بين الواحد والآخر سبعة أقدام، وهي ممتدة حتى السدة، وهي مزدحمة بكل نوع من أنواع الزينة على كل من البلاط والجدران، وهي مغطاة بسقف رصاصي، وفيها نسب المسيح مطبوع بالفسيفساء في الأعلى، على الجانب الأيمن للداخل إليها، وبابها المزدوج هو من خشب السرو، وهو محفور بمختلف الأشكال، وكانت أطراف جدرانها مغطاة بألواح الرخام، وقد انتزعت وأخذت من قبل المسلمين الخونة،وحدث في هذه الكنيسة معجزة جديرة بالتسجيل، حيث قيل بأن

واحداً من السلاطين، عندما رأى كسوتها الرائعة، فكر بانتزاعها وأخذها، ليكسو بها أو يزين قصره في القاهرة، وهكذا عندما حل اليوم الذي حدده مع الحجارين والنحاتين، قاصداً إلى نزع تلك الحجارة الجميلة، ظهر فجأة ثعبان له حجم مخيف، وخرج يزحف من خلال الألواح الحجرية، وعبر من خلال وسط هذه الألواح، ومن الممكن رؤية آثار زحفه على الجدار حتى هذا اليوم، فهذا ما رأيته بنفسي، فقد وصل ذلك حتى مذبح الملوك الثلاثة الموجود قرب الجدار المتقدم الذكر، وعندما رأى السلطان هذا، امتلأ رعباً، وغادر ذاهباً في سبيله، ومن الصحن الداخلي لهذا الدير في الجهة الشمالية، ينزل الانسان تسع عشرة درجة، إلى البيعة التي اسمها مقر دراسة القديس جيروم، حيث عمل لمدة خمس وخمسين سنة وستة أشهر في ترجمة النصوص المقدسة، وفي ذلك الجوار، على بعد ثلاث خطوات، وفي خلال الجدار، في داخل زاوية مظلمة قرب المذبح، تحت المعلف، يوجد القبر الذي دفن فيه أولاً، لكن عندما انتقلت البلاد إلى أيدي الخونة، ولم تعد القدس تعرف من يدافع عنها، نقلت عظامه المقدسة وعظام عدد كبير آخر من القديسين إلى روما، فضلاً عن هذا يوجد على جهة اليسار كهوف متجاورة تحت صخور مطلة، فيها جرى رمي عدد كبير من أجساد الأبرياء، وأخفيت فيها.

وطول الطريق من القدس إلى بيت لحم هو فرسخين، أي ما يعادل ميلاً ألمانياً واحداً، وعلى طول هذا الطريق حدثت أحداث إعجازية كثيرة، من ذلك: أن إبراهيم وزوجته عبرا معاً هذا الطريق عندما قدما من بلاد الكلدان، ومشى لوط وزوجته على هذا الطريق عندما قدما من بلدان ما وراء الجبال، وغالباً ما عبر عليه البطريرك يعقوب وزوجته راحيل، وذهبت مريم العذراء المباركة عندما كانت حاملاً، إلى هناك، وعادت عبر هذا الطريق، وعليه استراحت عندما كانت متعبة، وأيضاً

سار الملوك الثلاثة على هذا الطريق نفسه، عندما استهدفوا الوصول إلى الطفل يسوع، وكذلك فعل اليشع وإيليا وعدد كبير آخر من الأنبياء عندما ذهبوا إلى المدينة المقدسة، فهم جميعاً ساروا عبر هذا الطريق، وكذلك فإن العذراء المباركة في رحلتها إلى مصر ثم عودتها من هناك، قد سارت على هذا الطريق مع يوسف.

وعلى رمية حجر من بيت لحم، وذلك باتجاه الشمال، كانت هناك كنيسة، فيها جرى دفن باولا ويوستوخيوم، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس نيقولا، وأقامت هناك مريم مع الطفل ويوسف في أول ليلة من ليالي الهروب إلى مصر، وانتبه إلى الحليب الذي انصب هناك، ويحتاج الآن الطريق فيما بين بيت لحم والقدس إلى ثلاث ساعات لعبوره، وأيضاً على بعد ربع ميل من بيت لحم، نزولاً إلى الوادي الذي يقود إلى البحر الميت، كان هناك فيما مضى بناء جميلاً مع كنيسة، كان اسمها كنيسة الرعاة، لأنه إلى ذلك المكان جلب الملاك إلى الرعاة بشائر لها بهجة عظيمة، وطلب منهم الذهاب إلى بيت لحم، حيث نظر كل واحد منهم إلى ظهر الآخر، وقال كل واحد منهم للآخر بأن صوت الملاك كان مجرد وهم وضياع، وبدأوا يعودون إلى قطيعهم، ثم جاء الملاك إليهم مرة ثانية، وأرغمهم على إكمال الرحلة التي بدأوها، ويقوم في هذا المكان نفسه كنيسة فيها مذبح واحد، ويقول بعضهم بأن العذراء المباركة قد توقفت خارج الطريق الذي يقود إلى مصر، ولكن الرواية الأولى تتماشى أكثر مع الحقيقة، فضلاً عن هذا، يوجد على بعد فرسخين إلى الجنوب من بيت لحم، قبوراً لاثني عشر نبياً. ويلي هذا:

الحج من بيت لحم إلى وادي حبرون

يشاهد على الطريق من بيت لحم إلى وادي حبرون، المكان الذي رأى فيه إبراهيم الملائكة الثلاثة، وعبد واحداً منهم هو(الرب)، ويرى الانسان في الكنيسة في حبرون كثيراً من الفتحات المزدوجة في الصخر،

وتعــرف إحــدى هذه الفتحــات باسم الكهف المزدوج، فيــه جــرى دفن:آدم، وإبراهيم، واسحـق، ويعقـوب، وزوجـاتهم:حــواء، وسـارة، ورفقة، وليا، وليس بعيداً عن المدينة يوجد حقل دمشق، الذي منه خُلق آدم وحواء، ويلي هذا:

الحج من حبرون إلى القدس

يذهب الانســان من حبرون إلى القـدس من خـلال المنطقــة التليـة لليهـودية، حيـث من الممكن له أن يرى بيت زكـريـا، الذي فيـه زارت العـذراء المباركـة إيزابل، ويوجـد في هذا المكان كنيستين بنيت إحـداهما فوق الأخرى، غير أن الكنيسة العليـا قد جرى تدميرها، ويرى الانسان في الكنيسـة التحتـا فجوة في الصخـر، وذلك على جهـة اليمين للداخل إليهـا، فهـذا هو المكان الذي أخفي فيـه الطفل يوحنا خـوفـاً من الملك هيرود عندما كان يقتل الأطفال، وعندمـا ينزل الانسان قليلاً من هناك، يشـاهد النبع الذي تفجر على مقـربة من الطريق على جهة اليـد اليمنى، فإلى جانب هناك جلست العـذراء مريم وأراحت نفسهـا، لكونها كانت متعبـة من رحلتهـا وكـان ذلك عندمـا ذهبت لزيارة قـريبتهـا، التي من المعتقـد أنها التقت بها في هذا المكان وقـالت:«من أين لي هذا أن تأتي أم ربيّ إليّ»[لوقـا:١/ ٤٣]، وهنا أيضـاً عملت أم الرب أغنيـة«تعظم نفسي الرب»[لوقا:١/ ٤٧]الخ.

وبعد هذا ينعطف الانسان خارجاً عن الطريق إلى جهة اليد اليسرى، إلى رابية، كان عليهـا فيما مضى كنيسة جميلة، هي الآن ملوثة بالفضلات ومليئة بروث البغال، ولايستطيع أحد من الحجـاج دخول هذه الكنيسة دون دفع للمال، فهـا هنا كـان يوحنا المعمدان ابن زكـريا قـد ولد، وهو الذي قـال:«تبـارك الله ربي»الخ، ومن هناك يذهب الانســان إلى كنيسـة أخـرى جيدة التـزيين، هي ملك للجورجيين، واسمهـا كنيسة القـديس الصليب، لأن شجرة صليب المسيح، قـامت هناك ونمت، والحفرة التي

فيها قامت من الممكن مشاهدتها في هذه الأيام تحت المذبح، وبعد هذا، وعلى مقربة من الطريق الذي يقود إلى غزة، من الممكن رؤية الماء الذي جرى به تعميد الخصي فيليب(أعمال:٨).

تقسيمات الأرض المقدسة

قسمت البلاد التي عرفت باسم الأرض المقدسة كلها حصصاً بين أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وبالنسبة للجزء الذي عرف باسم مملكة يهوذا، كان هو أرض سبطي: يهوذا وبنيامين، أما بالنسبة للجزء الآخر فقد عرف باسم مملكة السامرة، التي كانت عاصمتها مدينة السامرة، التي تعرف أيضاً باسم سبسطية،وكانت عاصمة الأسباط الآخرين العشرة، وهو الجزء الذي عرف باسم اسرائيل، وهاتين المملكتين معا مع بلاد الفلسطينيين، قد عرفت باسم فلسطين، التي هي مجرد جزء من[الأرض المقدسة]، مثلما سكسوني واللورين جزئين من ألمانيا، ولومبارديا وتوسكانيا جزئين من إيطاليا، واعرف أن هناك ثلاث فلسطينيات، ففي فلسطين الأولى العاصمة هي القدس، وهي تشمل جميع المنطقة التلية حتى البحر الميت، وإلى قادش القفار، وفلسطين الثانية هي التي عاصمتها مدينة قيسارية القائمة على شاطىء البحر، وفيها جميع أراضي الفلسطينيين شروعاً من بترا انشيسا، وامتداداً حتى غزة، فهي الأرض المقدسة المتجهة نحو الجنوب، وفلسطين الثالثة هي التي عاصمنتها بيسان، القائمة عند جبل جلبوع، وهذه هي المدينة التي عرفت من قبل باسم سقيثوبولس، وهي المكان الذي جرى فيه شنق أجساد جنود شاؤول.

والأصح أن تدعى فلسطين هذه باسم الجليل، ويوجد فيها مرج ابن عامر، الذي يبدأ عند نهر الأردن الأصغر، وهو الذي تمتد حدوده الجنوبية حتى جينين، وهي بلدة مهدمة، موجودة في المربع ٣٧، فوق رابية، وقد رسمتها على هذه الخريطة باللون الأخضر، وهي عائدة

للسامرة، وتبدأ السامرة عند جينين المتقدمة الذكر، وتمتد حتى نهر الأردن، وإلى مخمش Michmash في المربع ٥٣، المتصل باليهودية، وقد رسمت اليهودية ومنطقتها التلية باللون الأصفر، وتبدأ جليل الأمم المتقدمة الذكر عند الأردن الأصغر، وتمتد شمالاً حتى جبل لبنان، ثم هناك المدن العشرة، التي حدودها في الشرق بحر الجليل، وصيداً في الغرب، ودمشق في الشمال، وفي داخل هذه الحدود هناك عشرة مدن، وصدوراً عن هذا الواقع عرفت هذه المنطقة باسم المدن العشرة، وهذه المدن هي:طبرية، وبيسان، وقناتا، وصفد، وقادش نفتليم، وأرسوف، وقيسارية فيليب(بانياس) وكفرناحوم، وبيت صيدا، وكورزيم، وهناك على كل حال مدناً أكثر في هذه المنطقة، حسبما عرضناهن أعلاه، وقد تجول الرب يسوع خلال جميع هذه المدن والقلاع، يعلم في كنسها«ويكرز ببشارة الملكوت»[متى:٤/ ٢٣].

وطول أرض الميعاد الممتدة من دان الموجودة عند سفح جبل لبنان في الشمال، إلى بير السبع في الجنوب قرب قفار مصر، هي اثنين وأربعين ميلاً ألمانيا، أو مائتين وعشرة أميال إيطالية، في حين أن عرضها من البحر في الغرب، إلى أطراف جبال العربية هي أربعة عشر ميلاً كبيراً، أو سبعين ميلاً إيطالياً، وعلى هذا الأساس، جميع الأرض المقدسة مقسمة إلى ثمانية وعشرين فراغاً عرضانيا، وذلك بمدّ خطوط عبرها، أي فوق الخطوط من الغرب إلى الشرق، والآن يوجد في الفراغ الثاني، والمربع الثاني عشر بصرى، في بلاد بوسترون، التي ورد ذكرها في إشعيا ٦٢(كذا)، ويقود الطريق من خلال مدينة جدر، في المربع ٢٣، إلى آرام، وبلاد الرافدين، وهمّام Hammam (همدان)،وهيركانيا Hyrcania وبحر الخزر، وعبر هذا الطريق، إعتادت هذه الشعوب على الاجتماع في كل سنة على سهل نبع فيالي Phiale ، حيث كانوا يعقدون سوقاً طوال شهر أيار، وينصبون خياماً ذوات ألوان متعددة في مدينة جدر،

فوق الجبل، مما يجعل المشهد جميلاً، وجاء ذكر هؤلاء في نشيد انشاد سليمان قوله:«كخيام قيدار» [نشيد الانشاد:١/ ٥]، وأطلق يوسفيوس على هذه المدينة اسم جمالا، لأن الجبل القائمة عليه له شكل الجمل.

وفي المربع٢٤(٥٣) في الجبال القائمة نحو الشرق توجد ايريوبولسAreopolis [الصفورية؟] التي عرفت فيما مضى باسم أرورAror(Aroer)، وكانت عاصمة العربية الثانية، حيث أنها تبتعد رحلة أربعة أيام عن البتراء في الصحراء، وفي البتراء هذه قال اشعيا:«أرسل يارب الحمل من البتراء في القفار إلى جبل ابنة صهيون»(إشعيا:١٦/ ١)، فعلى هذا الجبل رأى يوحنا الخروف واقفاً[رؤيا يوحنا:١٤/ ١]، وفي البتراء هذه جرى بناء قلعة حصينة لاترام، وكان اسمها الكرك، فيها يودع السلطان كنوز شبه جزيرة العرب ومصر، وفي منتصف الطريق بين البتراء وايريوبولس يوجد جدول سورقSorec ، وجبل عبريم حيث جرى دفن موسى من قبل الملائكة.

وعلى بعد سفر ثلاثة أيام نحو الجنوب من البتراء، يوجد جبل سعير، الذي حدوده موجودة على قفار فاران، التي تعرف باسم بلاد العربية حتى البحر الأحمر، واعرف انه عند طرف جبال العربية الأولى، في أحواز جبل سنير، تبدأ بلاد عوز، التي تعرف أيضاً باسم منطقة الطرخونية، وتمتد حتى جدر وبحر الجليل، لأنها مشكلة جزئياً من قبل منطقة المدن العشرة، ومثل هذا كانت مملكة عوج ملك بيسان، تمتد من طرف جبال العربية الثانية حتى الأردن، ووقعت هذه المنطقة في حصة سبط جاد امتداداً حتى جدول يبوق، وقد رسمت هذه المملكة باللون الأصفر حتى أميزها عن الممالك الأخرى، وكل البلدان القريبة من هذه المملكة جعلتها باللون الأبيض، وهي تعرف باسم بيت عنيا، وذلك حيث تعمد يوحنا، وهي قد كانت مملكة سيحون، ملك حشبون، وقد

كانت في حصـة سبط اسكار، ويوجد فيها بين جدول عـرنون وسورق، سهل منطقة مآب، وهناك من الممكن رؤية المكان الذي تحادث فيه بلعام مع أتانه، وهناك جرى تصنيف سفـر الثنيـة، هذا وإن المنطقـة الواقعـة خلف جـدول سورق نحـو الجنوب، هي التي تعـرف باسم بلاد مـآب وعمون حسبما تقدم الذكر.

واعـرف أن هناك ثلاثـة مـدن إلتجـاء فيها وراء الأردن، أولاها تحت المربع ٢٣، قـرب المنطقـة التليةالتـابعـة للعربيـة والتي اسمهـا الجولان، والثـانية تحت المربع ٣٧، واسمهـا راموث جلعـاد، والثالثـة تحت المربع ٣٣، واسمها أفـرايم، حيث أقام المسيح مع حوارييـه، وهناك ثلاثة مدن التجاء باتجاه البحر الغربي، وأولاها هي حبرون تحت المربع ٦٩، والثانية هي سبسطيـة تحت المربع ٤٣، والأخيرة قائمة إلى جـانب بحيرة ميروم، واسمهـا قـادش نفتـالي، في وادي سنين، وهي التي كـانت مـدينة بلك، وهذه المدن الستـــة مـــرســـومـــة على الخريطة، ومعلم عليهـــا بهذه العـلامـة**، وجرى وضع علامة ٨ تحت المربع ١٩، فهذا هو المكان الذي أشبع فيه الرب أربعة آلاف مـن الناس بسبعة أرغفة، وتحت المربع ١٩، وعلى مقربة من هذا العـلامة ٧ المكان الذي أطعم فيـه الرب خمسة آلاف رجل بخمســـة أرغفـــة، وذلك حسبما ورد مكتـوبـا في يوحنا ٦، وتحت المربع ١٩، قـرب العلامـة C ، عمل قـائد المائـة، توســـلاً من أجل خـادمه، وفي المكان نفســه أبرأ الرب المجـذوم قرب بحـر الجليل، وعلى مقـــربـة من كفـــرنـا حـــوم أطلق على: متـى: وأندرو، وبطرس، وجيمس، ويـوحنا، اسـم الحواريين، وتحت المربع٢١، جـــــاء بطرس، وأندرو، وفيليب، مـن بيت صيـــدا (يـوحنا: ١/ ١٢)، وتحت المربع ٣٦ توجـد مكور Machaerunta حيث جـرى اعدام يوحنا المعمــــدان وقطع رأسه.

وفي أيام الصيف تجف معظم أجـزاء بحيرة ميروم، ولهذا تتكاثر هناك

الأشجار والنباتات الكثيفة، التي فيها تعيش الأسود والحيوانات الأخرى، وتتوفر هناك أجواء ممتعة للصيد، وعلى بعد قليل نحو الشمال رسم بعلامة سيف المكان الذي حارب فيه يوشع ضد ملك أرسوف مع أربعة وعشرين ملكاً آخر، طاردهم جميعاً حتى صيدا، فآنذاك تضاعف النهار وتوقفت الشمس في مكانها ولم تتحرك، ولهذا أعطي له «مجد لبنان، وبهاء الكرمل وشارون» (اشعيا: ٣٥)، وإلى الشمال من صيدا، وعلى بعد سفر يومين خلف الأرض المقدسة، يوجد ميناء دمشق،متمثلاً بمدينة بيروت القديمة والجليلة، مع أن مرساها مرسى مرعباً، فقد أرغمتنا الرياح الشمالية على الدخول إليه في عشية يوم عيد القديس توما، ففي عشية عيد الميلاد ارتحلنا راجعين إلى الأنهار الكبرى، وأرغمنا عند فجر اليوم الثاني للعيد بوساطة عاصفة على الرسو في ذلك الميناء للمرة الثانية، حيث ألقينا المراسي، ومكثنا في هذه الحالة المحزنة حتى عيد الختان (أول كانون ثاني)، وعلى بعد مائتين وتسعين خطوة من خارج الباب الشرقي لهذا البلد، يمكن رؤية المكان الذي قتل فيه القديس جرجس التنين.

وتحت المربع ٣١ يوجد نبع اسرائيل، الذي نقرأ عنه في سفر صموئيل الأول (١ــ صموئيل: ١٩/ ١) وذلك حيث نصب الفلسطينيون معسكرهم، وذلك عندما كان شاؤول في جلبوع، ويوجد فيما بين جبل جلبوع وجبل حرمون واد عرضه فرسخين، وطوله تسعة فراسخ، وذلك نزولاً إلى الأردن حيث جرى القتال في عدة معارك، من ذلك: جدعون ضد مدين، واحاب ضد الآشوريين، وفي الزمن الحالي أيضاً التتار ضد المسلمين، وقد رسمت هذا المكان وعلمته بعلامة سيف، ويوجد تحت المربع ١٩ بيت القديس جرجس، وهو المكان المعتقد أن القديس متى قد ولد فيه، وهو قائم بين جبال في واد غني وخصب يصل حتى بحر الجليل، وبسبب جماله قد قيل حقاً عنه: «أشير خبزه

سمين وهو يعطي لذات ملوك» (تكوين: ٤٩/ ٢٠)، وهذا ما تحقق في حصة سبط آشر.

وفي الفراغ ١٦ والمربع ٢٢، توجد نفتالي، التي جاء منها طوبياس، وهي قائمة في مكان حصين، لا يمكن الوصول اليه إلاّ من فسحة صغيرة موجودة على جهة الشرق، وتبعاً ليوسفيوس كانت تعرف باسم يوتابه في أيام دمار اليهود، وهناك جرى حصار يوسفيوس من قبل الرومان وأخذه أسيراً، واسمها الآن سيران Siran.

وتحت المربع ٢٤ توجد قرية عين دور، التي عنها يقول المزمور: «بادوا في عين دور» [مزامير: ٨٣/ ١٠]، وتحت المربع ٥٥ توجد بيت ايل في ديار سبط بنيامين، وذلك حيث أقام يعقوب الصخرة ونصبها لتكون عمودا، وكان ذلك عندما نام هناك، أيام كان فاراً من أخيه عيسو،وقد رأى السلم، الخ، وقد أطلق على المكان اسم بيت إيل، وإلى الشرق من بيت إيل توجد مدينة عاي، التي نقرأ عنها في يشوع٨.

وتوجد تحت المربع ٦٩ ممرا، حيث سكن ابراهيم لوقت طويل، وهناك عندما كان جالساً عند باب خيمته، تحت بلوطة ممرا، رأى ثلاثة قادمين على طول الطريق، الخ، (التكوين: ١٨)، وما تزال هذه البلوطة مرئية حتى الآن عند باب الخيمة، وكانت البلوطة القديمة قد جفت، لكن نمت واحدة جديدة إثر أخرى من جذرها، ويوجد في الفراغ ٢٠ سوكوه التي ليهوذا على مقربة من وادي البطم، حيث قتل داوود جالوت من جت [١صموئيل: ١٨/ ١—٢]، وتقوم سثيم Sethim على رابية تحت المربع ٥٦.

وهنا بداية أرض الفلسطينيين، وعلى هذه الرابية نفسها بنى فولك، الملك الصليبي للقدس، حصنا اسمه ابلين (يبنا)، ليضبط اعتداءات أهل عسقلان، وكانت عسقلان مدينة من مدن الفلسطينيين، وهي قائمة على

شاطىء البحـر، وقد بنيت على شكل نصف دائـرة، ويمكن للانسان أن يقول عنهـا بأنها مدينة مجمع قوى المسلمين كلهـا في تلك البلاد، وتحت المربع ٢٢، وعلى شـاطىء البحر، توجـد عكا، وقد كـانت إحدى مـدن الفلسطينيين، واسمها (الآن) بطولميس، وتوجـد قيسارية O-C في المربع ٤٠ وفي الفراغ ٢٨، وذلك على شـاطىء البحر، وهي قيسـارية البحرية، التي وسعهـا هيرود صـاحب عسقلان تشريفـاً لأغسطس، وقـد كـانت عاصمة الشاطىء الفلسطيني، وقـد كتب يوسفيوس عنها كثيراً، وتمتلك هذه المدينة باتجاه الشرق منهـا بحيرة واسعـة وعميقة ذات ميـاه عـذبة، فيها يوجـد كثيراً من التماسيح، والمدينة نفسها مهـدمة تماماً، وفيهـا عمّد الحواري بطرس كـورنليوس، وبقـي بولس في السجن هناك لمدة طويلة، وكان ذلك عندمـا كان في طريقه إلى روما، ولها ميناء غير مـوائم، لكنها تمتلك كثيراً من الحدائق والمروج، وجـداول جـارية حتى إلى اللد، وإلى بلاد يافـا، وقد رسمت اللد وعلمتهـا بعـلامة قـوس، حيث يمكنك أن ترى في المكان الذي وقفت فيـه، كنيسـة القـديس جـرجس الذي قتل هناك، وأرســوف قـائمــة على شـاطىء البحــر، واسمهـا القــديم هو أنتبارتس، وكانت من أملاك رهبان مشفى القديس يوحنا المعطاء.

وليس لمدينة يافا ميناء، وفيها سكنت تابيثا Tabitha وصيفة الرسل، ومن هنـاك ذهب يوانس على ظهــر سفينـة عندمـــا أراد الفـــرار إلى طرسـوس، ولم أر في هـذه المدينة أي انسـان حي، وفي الحقيقــة جـرى تدمير الكثير من مدن الساحل من قبل السلطان، عندما سمع بأن مدينة عكا المتقـدمة الذكـر قـد جرى الاستيـلاء عليهـا من قبل ملكي فرنسـا وانكلترا.

وصيـدا هي احدى مـدن فينيقيـا، وفي خرائبهـا الموجـودة هذه الأيام شهادة على عظمتها، وكانت قـد بنيت بشكل مستطيل، فوق سهل يمتد من الشمال إلى الجنوب، عند سفح جبل لبنان،وجـرى بناء مدينة أخـرى

خارج خرائبها، صحيح أنها صغيرة، غير أنها محصنة، لكن ليس فيها رجال للدفاع عنها، ويقوم طرف منها على شاطىء البحر مع قلعتين جيدتا التحصين، واحدة منهما على كل جانب فالأولى التي هي في الجانب الشمالي، هي التي بنيت منذ زمن طويل مضى من قبل حجاج من ألمانيا، وهي قائمة على صخرة بجوار البحر، أما الثانية الموجودة في الجنوب، فهي قائمة فوق رابية، وفيما مضى امتلك فرسان الداوية هاتين القلعتين مع المدينة أيضاً، وهناك يوجد قصب السكر، وكروم عنب ممتازة جداً، وعلى بعد فرسخين من هناك توجد الصرفند، التي فيها مجرد عدة بيوت فقط، مع أن خرائبها تشير إلى أنها كانت مدينة جليلة فيما مضى.

وصور موجودة في ديار سبط آشر، ومع ذلك لم يتملكها الآشريون قط، وخلفها توجد آبار مياه للحياة. وتحت المربع ٤٣، توجد سبسطية، التي اسمها السامرة أيضاً، وهي مدمرة كلياً باستثناء كنيستين، أولاهما مكرسة ليوحنا المعمدان، حيث ضريحه فيها مصنوع من الرخام، على شكل ضريح الرب، فهناك دفن فيما بين اليسع وعوبيدا، وفي الحقيقة قام هناك فيما مضى كنيسة كاتدرائية على طرف الجبل، لكن المسلمون تولوا هدمها، وأما الكنيسة الثانية فهي الآن قائمة على قلة الجبل، وهي مسكونة من قبل رهبان اغريق، هم الذين يعرضون في الداخل المكان الذي قد سجن فيه، لكنني عددت هذا شيئاً لاقيمة له، ذلك أنه كان قد أعدم في مكور، تحت المربع ٣٦. وتوجد شكيم تحت المربع ٤٥، وهي التي يطلق الاغريق عليها اسم نابلس، وهي قائمة على بعد رميتي قوس عن جب يعقوب، هذا وإن عظام يوسف مدفونة في شكيم، ويطلق اليهود عليها اسم شوكيم، ويسمون صهيون هرؤن Haraon

المدن والأماكن في الأرض المقدسة

ومدينة عكا، التي هي موجودة في منطقة فينيقيا، هي مدينة جيدة

التحصين بالأسوار والأبراج، وهي لها شكل ترس، طرفان منه يمتدان خارجاً إلى البحر، وأما الطرف الثالث فهو مطل على اليابسة، ومن حيث الطول فان مساحة إطارها هو ميلين، أي أن تقول ستين فرلنغ، وهي تمتلك حقولاً مثمرة وحدائق، وهي لم تكن قط جزئاً من الأرض المقدسة، ولا ملكاً لبني اسرائيل، ومع هذا فإنها قد منحت إلى سبط آشر عندما جرى توزيع الأرض المقدسة فيما بين الأسباط، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة القائمة على ساحل البحر، وعلى مقربة منها حدث أن ملاك الرب التقى بحبقوق وهو يحمل إلى الحصادين طعامهم، فحمله إلى بابل، وذلك حسبما نقرأ في سفر دانيال ١٤، وكان يوجد في المكان الذي حمل منه من قبل الملاك بيعة جميلة.

وعلى بعد ثمانية فراسخ إلى الشمال من مدينة عكا هذه، من الممكن مشاهدة البئر الرائع لمياه الحياة، الموجود قرب صور، حيث بني بشكل عالي النفقات، ومع أنه يدعى باسم بئر، بالمفرد، إنه ليس بئراً واحداً، بل هناك ثلاثة ينابيع، لها الشكل نفسه والوضع، مع أنها لاتعطي الكمية نفسها من الماء، والبئر الرئيسي فيها عمقه حوالي أربعة وثلاثين ذراعاً، وعمق الآخرين حوالي اثنين وعشرين ذراعاً، وهم محاطون بجدران مربعة متينة، مبنية من صخور قوية، وتتفجر المياه وتندفع من داخلها بمقدار رمية رمح بالعرض، وتتدفق بشكل تملأ فيه جميع مجاري المياه، حيث تنتشر فوق سهل صور كله، ومنها تشرب الحدائق، والكروم، وبساتين التين، وحقول الزيتون، وقصب السكر، الذي ينمو هناك، ذلك أن هذه الينابيع تبعد مقدار رمية سهم عن البحر.

وعلى بعد فرسخ واحد عن هناك توجد مدينة صور، التي هي قائمة إلى الشمال من عكا، وقد كتب مديحها من قبل بعض الأنبياء، وهي واقفة على شاطىء البحر مع أسوار واسعة تحيط بها، وهذه الأسوار تلامس مياه البحر من جميع الجهات، باستثناء الجهة الشرقية، حيث تولى

نبوخذ نصر أولا، ثم الاسكندر فيما بعد، وصلها باليابسة، وذلك لمسافة مقـدارها حـوالي الرميـة حجـر، وهي محاطة من هذا الجانب بسـور مضـاعف ثلاث مـرات وهو عـالي الارتفـاع وله أبراج حصينة وقـوية، وفيها جـرى دفن أورجين، وقد بقي فيها حتى اليـوم كثيراً من آثار عدد كبير من القديسين، كانوا قد هلكوا هناك باسم المسيح، وعلى بعد رميتي سهم نحـو جنوب البـاب، يوجـد المكان الذي فيـه تولى المسيح الوعظ، وهو معلم بوساطة صخرة وقف عليها، حيث بني فوقها كنيسة كرست للمخلص، وهناك أيضـاً المكان الذي قالت له فيـه المرأة «بورك الرحم» الخ، وذلك بعـدما أنهى الوعـظ، وهذا المكان لم يغطه الرمل قط، مع أن الرمل هنـاك خفيف ويتطاير هنـاك، مثلما يتطاير الثلج في بـلادنا في أيام البرد الشـديد، ويتوزع فـوق الأمـاكن بوسـاطة الريح، لكن هذا المكان يبقى على الدوام أخضر في وسط الرمـال وعلى بعـد أربعـة فـراسخ عن صـور توجـد الصرفند، وقبل باب هذه المدينة مـن الممكن رؤية المكان الذي ذهب إليه إيليا إلى المرأة الصرفندية، وليـس بعيداً عن هناك توجد بيعة فوق المكان الذي أقام فيه ابنها من الموت.

وعلى بعـد ميلين عن الصرفند توجـد صيـدا، التي كـانت فيما مضى مـدينـة عظيمـة، حيث من الممكن رؤيـة حجمهـا من خـلال خـرائب الأسـوار، وكلها تقـريبـاً قائم في قلب البحـر، ولها على كل من طرفيهـا قلعتـان، بنيت الأولى منهما فوق رابيـة قرب السهل، وأمـا الثانيـة فبنيت فوق صخـرة مجاورة للبحر، وجرى بنـاء هاتين القلعتين من قبل حجاج ألمان منذ زمن طويـل مضى، وعلى بعـد نصف فـرسخ آخـر عن هذه المدينة يوجد جبل لبنان، حيث تنمو كروم فائقة الجودة، ولهذا قال النبي عنهـا: «تكون رائحتهم كخمـر لبنان» [هوشع: ١٤/ ٣]، وعبر صيـدا، وأمام بابها شفى الرب ابنة المرأة الكنعانية.

وخارج الأرض المقـدسة، وعلى بعـد عشرين ميلاً إيطـالياً إلى الشمال

من صيدا، توجد بيروت، وهي مدينة قديمة، لها ميناء بغيض، فيه أمضيت ليلة، لكن ليس من دون خوف، وكان ذلك عشية عيد القديس توماس الرسول في سنة ١٤٢٢، وفي قاعة تحت الأرض في هذه المدينة، معروض فيها للمشاهدة صورة رسمت للمخلص بعد وقت قصير من آلامه، جاء رسمها سخرية واستهزاء، وقد لوثت واعتدي عليها بضربها من قبل الكفار، وظلوا يضربونها حتى خرج منها دم وماء، ونتيجة لهذا اهتدى بعضهم وتحول إلى المسيحية، وجاء نصب هذه الصورة للسخرية وكذلك رسمها، وذلك مثلما حدث في بيت بيلايطس، عندما توجوه بتاج من شوك، وبجّل بمثابة ملك، وقد جرى بناء بيعة هناك فيها مذبح واحد، وإليها ينزل الانسان ثماني عشرة درجة.

ويلي بيروت في الشمال جبيل، التي هي أول مدينة تابعة لبطريركية أنطاكية، وقد ورد حديث عن هذا المكان في حزقيال ٢٧، وذلك خلال اطراء لمدينة صور، وكذلك في الملوك الأول، حيث قيل بأن عمال سليمان قد جاءوا من جبيل(بيبلوس)، وتعرف هذه المدينة في هذه الأيام باسم جبيل، وهي صغيرة بها فيه الكفاية، وعلى بعد ثلاثة فراسخ عن جبيل توجد Botrys (البترون) التي كانت فيما مضى مدينة ثرية، لكنها الآن مدمرة كلياً، وبعد هذا على مسافة ثلاثة فراسخ أخرى تقوم قلعة وقرية نفين(أنفة)، وهي قائمة تقريباً فوق شاطىء البحر، ومحصنة بشكل جيد.

وعلى بعد فرسخين من هناك توجد مدينة طرابلس، وهي مدينة معروفة كثيراً على شاطىء البحر، وهناك يسكن فيها: إغريق، ولاتين، وموارنة، ونساطرةو(أناس) من أمم كثيرة، ويعمل فيها الكثير من المنسوجات الحريرية، وقد سمعت قولاً صحيحاً أنه يوجد فيها اثني عشر ألف حائك للحرير ولوبر الجمل.

وينتهي جبل لبنان على بعد ثلاثة فراسخ خلف طرابلس، وعند

سفحه ينبع نبع الحدائق، وهو النهر الذي يجري سريعاً وهو نازل من جبل لبنان، ويسقي جميع الحدائق والسهل الموجود حول طرابلس، ويوجد على ضفتيه عدداً كبيراً من البيوت الدينية التي بنيت هناك، وكثيراً من الكنائس الاغريقية والأرمنية، وفي الحقيقة إن الذي ورد عن هذا النبع في سفر استير صحيح وهو:«من نبع صغير جرى صنع فيض عظيم، لابل كثيراً من الماء»، وعلى بعد فرسخين عن طرابلس يوجد جبل الفهود، الذي له منظر دائري، وهو مرتفع، ويوجد عند سفحه، في الجهة الشمالية كهف فيه ضريح طوله عشرين قدماً، وهذا الضريح يزوره المسلمون بكل تقوى، حيث يقولون بأنه قبر يوشع، وأنا لاأعتقد بصحة ذلك، لأن النص يقول بأنه دفن على طرف جبل إفرايم، تحت المربع ٤٦، والذي أرجحه وأراه هو أن هذا الضريح هو لواحد من أولاد نوح، أو لشخص ما مثلهم، من الذين يمكن أن نبرهن على أنهم سكنوا في تلك الأجزاء.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ أخرى من الممكن رؤية قلعة عرقة، التي بناها عرقايوس بن كنعان، وهي قد بنيت بعد الطوفان، حسبما جاء في شروح سفري التكوين، وأخبار الأيام الأول، وعبر السهل، وعلى بعد ثمانية فراسخ، يصل الانسان إلى انطرطوس، أو(أمام أرواد) وهذه هي جزيرة تبعد مسافة نصف فرسخ عن اليابسة، وفي أنطرطوس وعظ القديس بطرس لمدة طويلة، عندما كان في طريقه إلى أنطاكية، وذلك حسبما قرأنا في رحلة كليمنت، ووجد كليمنت أمه هناك، وهناك أيضاً دفع القديس بطرس إلى تأسيس وبناء أول كنيسة هناك، كرست على اسم القديسة مريم، وعلى بعد ستة فراسخ عبر أنطرطوس توجد قلعة المرقب، التي كانت ملكاً لرهبان القديس يوحنا(الاسبتارية)، وهي محصنة بشكل جيد، وقائمة فوق جبل مرتفع، وتبعد فرسخاً واحداً عن البحر، وذلك على مقربة من مدينة بانياس، وكان قصر الأسقف قائماً في هذه المدينة،

ولكن بسبب إهانات المسلمين انتقل إلى القلعة.

وتنتهي مملكة القدس مع مدينة بانياس، ومع النهر الذي يحمل الاسم نفسه ويجري من خلالها، وبذلك تبدأ بطركية أنطاكية، ويبعد هذا المكان سفر ثمانية أيام عن عكا، وهناك سفر أربعة أيام منه إلى أنطاكية، وتقوم أنطاكية في سورية المجوفة، التي تبدأ عند نهر الفرات، وتنتهي عند نهر بانياس، الذي ينبع تحت قلعة المرقب، ويصب في البحر الكبير قرب بلدة بانياس، التي كانت — كما قلنا من قبل — مقر قصر الأسقف، ويوجد في المقاطعة نفسها: اللاذقية — وأفاميا — وبلدات أصغر.

وسورية الفينيقية، منطقة مختلفة، وهي تبدأ عند النهر المتقدم الذكر، أي نهر بانياس في الشمال وتصل في الجنوب حتى البترا انشيسا تحت جبل الكرمل، وذلك عند القلعة التي اسمها في هذه الأيام قلعة الحجاج(عثليت)، ويوجد في سورية هذه، المدن التالية:المرقب، وطرطوس، وطرابلس ، وبيروت، وصيدا، وصور ، وعكا، وكفر ناحوم.

وهناك مقاطعة أخرى من مقاطعات سورية، هي مقاطعة دمشق، أو لبنان، وحاضرة هذه المنطقة هي مدينة دمشق، ولجبل لبنان شهرة في داخلها، هذا وتعرف البلاد كلها الممتدة من نهر الدجلة حتى مصر باسم سورية بشكل كامل، وأول جزء منها هو الواقع فيما بين نهري الفرات والدجلة، وهو يمتد طويلاً من الشمال إلى الجنوب، أي أن تقول من جبل طوروس إلى البحر الأحمر، وهو يعرف باسم سورية الجزرية، لأنه قائم في وسط المياه، وهو يحتوي على شعوب كثيرة منها: الفرثيين، والميديين، الذين يحدهم في الجنوب بلاد الكلدان.

ثم يذهب الانسان بعد هذا إلى أنطاكية، التي فيها عرف جميع المؤمنين

الذين كـــان اسمهم من قبـل الجليليين باسم المسيحيين، وهـم في هذه الأيام يدعــون من قبل المسلمين باسم النصـــارى، وفيهـاكـــان كـرسي بطرس، وفيهـــا ولد جـالينوس، الـذي علم الطب لابن أخيــه(أختـه) القديس لوقا الانجيلي، وكان اسم هذه المدينة ربلة(كذا) حتى أيام الملك أنطيخـوس، وفي بداية سـورية المجـوفـة، وباتجاه الغـرب توجـد مـدينة طرسوس، التي جاء منها القديس بولس.

ويوجد أيضاًعلى بعد خمسة أميـال إلى الشرق من عكا المتقدمة الذكر، قرية اسمهـا القديس جـرجس(اللد)وقد أخبرنا أنه في هـذا المكان كان القـديس جيروم(جــرجس) قـد ولد، وإلى الجنوب منهـا تقـوم مـدينة نعسـون Naason ، التي قـرأنا عنهـا في سفـر توبيت، وعلى بعـــد فرسخين عـن هناك توجد دوثيم عند سفح جبل بيت أوليـا، وهي التي أراد هولوفرنس الاستيلاء عليها عنوة.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من نعسون، وثلاثة فراسخ من دوثيم توجـد نفتليم، التي هي مدينة تـوبت، والتي هي مبنية على شكل قـرية، وعلى بعد أربعة فـراسخ إلى الشرق من نفتليم، وإلى جانب بحر الجليل، توجد بيت صيدا، التي هي مدينة أندرو، وبطرس، وعلى بعد فرسخين عن هذا المكان توجــد قلعـة المجـدل، قـرب بحـــر الجليل، التي منهـا أخذت المجدل اسمها.

وعلى بعـد فـرسخ واحـد إلى الشرق من بيت صيـدا، يوجـد المكان الذي وقف عليـــه المسيح على شـــاطىء البحـــر، وقـــال لسبعـــة من الحواريين:«هل لديكـم، أيها الأولاد، أي طعـــام»؟، ومن الممكـن رؤية طبعة قدمه فوق صخرة هناك،وإلى الشرق توجد كفرناحوم، التي عمل فيهـا المسيح كثيراً من المعجـزات(متى:١١)، وعلى فـرسخين بعـد ذلك بـاتجاه الشرق يجري نهر الأردن إلى داخل بحــــر الجليـل، وعلى الجزء الأعلى من شاطئه من الممكن رؤية كـورزيم، وفي هذا المكان يبدأ صعود

جبل سعير، وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من كورزيم توجد جدر، التي كـانت فيها مضى مـدينة محصنـة بشكل جيـد، ولهذا كتب:«إنني سكنت معهم في جدر».

وعلى بعد أربعة فـراسخ إلى الشرق من عكا توجد قانا الجليل، فهناك حـول المسيح الماء إلى خمرة، ومكان الاحتفال بـالعرس هو كهف محفـور في الصخـر، ويمكنه أن يستـوعب عـدة أشخـاص، ومن الممكن رؤية الأمـاكن التي وضعت فيهـا أواني المياه، والمقـاعـد والمكان الذي نصبت عليه المائـدة، وهذه الأماكن موجـودة تحت الأرض، مثلها في ذلك مثل كثير من الأمـاكن الأخرى المقـدسـة، من ذلك مـوضع البشارة والمهـد، وعلى بعد فـرسخين إلى الجنوب من قانا الجليل توجد مـدينة الصفورية، ويوجـد عبرهـا باتجاه طبرية، وذلك فـوق دوثيم، جبـل بيت أوليـا، كما تقدم القول.

وعلى بعد سبعـة فراسخ من بيـت أوليا، وعلى شاطىء بحـر الجليل، توجد طبرية، وقد أطلق عليهـا اسم طبرية عندما كان هيرود الطيطراخ، ويوجد في ذلك المكان حمامات طبية قائمة على شاطىء البحر.

وإلى الجنوب من عكا، إنما مع الانحـراف قليـلاً نحو الشرق، توجـد الناصرة، المدينة المحبـوبة، حيث أينعـت الورود التي نبعت مـن أصل يسي، وهي على بعد سبعـة فراسخ عن عكا،وهذه هي مـدينة المخلص، وأطلق على يسـوع اسـم الناصري، لأنه نشأ فيهـا، وهنا تتدفق ميـاه نبع صغير، منه اعتاد الصبي يسوع أن ينضح الماء ويجلبـه إلى أمه، وعلى بعد ثلاثة فـراسخ إلى الشرق من الناصرة يوجـد جبل الطور، الذي عليـه تغيرت هيئة المسيح، ويمكن لـلانسـان أن يبحث هنـاك عن مكان خيم العهـد الثـلاث، ويوجـد في هذا الجبل أمـاكن عميقـة مع كهـوف تحت خـرائب أبنيـة رائعة، فيهـا الآن مخابىء للأسـود وللحيـوانات الضـارية الأخرى، وعندمـا يبدأ الانسان بالنزول من الجبل هناك بيعة قـائمة على

الجهـة الغربيـة، وذلك عند المكان الذي قـال فيه الرب:«لاتخبروا أحـداً بالذي رأيتموه».

وعبر وادي هذا الجبل، بين الجنوب والشرق، توجـد رابيـة حـرمـون الصغير، الذي ورد ذكـرها في المزامير، وعلى بعـد أربعـة فـراسخ من الناصرة، وفـرسخ واحد من جبل الطور، يـوجد جبل حـرمون الآخـر، الذي تقعُ مـدينة نين على جـانبـه الشمالي، وذلك حيث أقـام الرب ابن الأرملة من الموت،ويمتـد هذا الجبل نحـو الشرق لمقـدار حـوالي خمسـة فراسخ، باتجاه بحـر الجليل، ويتموقع جبلا جلبوع وحـرمون بشكل أن جبل حـرمـون واقع في الشمال، وجبل جلبـوع واقع في الجنوب، وفيما بينهما سهل عـرضـه فـرسخين، وأربعـة فـراسخ طوله، وكـان هناك فيما مضى من أيام حـروباً عظيمـة ومعـارك فـوق هـذا السهل، فهنا هزم جدعـون المدينيين، وهنا لحقت الهزيمة بشـاؤول على أيدي الفلسطينيين، الذي علقوا رأسه فوق أسوار بيسان، القائمة فيما بين الأردن وجلبوع.

والجليل كلها تقـريباً منبسطة وبلاداً سهليـة، وهي تتصل من الجانب الأول بالأرض المقـدسـة، وذلك حيث تقـوم بلـدة بيت صيـدا، وعلى الجانب الآخـر بالسـامرة التي هي منطقـة جبليـة، وفي السـامرة توجـد سبسطية التي كـانت فيما مضى مدينة جليلة لملـوك اسرائيل، لكنها الآن مهـدمـة كليـاً، ومهجـورة باستثنـاء وجـود كنيستين فقط، الأولى بينهما مـوجودة على قمـة الجبل، حيث قـام فيما مضى القصر الملكي، والثانيـة مكرسـة ليوحنا المعمدان، المدفـون هناك فيما بين اليشع وعوبيـدا، حيث من المعتقد أنـه قد جلب إلى هنا من بلدة مكور، القـائمة فيما بين الأردن وسبسطية.

وعلى بعد فـرسخين إلى الجنوب من سبسطية يوجـد جبل بيت إيل، وعلى بعـد فرسـخ آخر يوجـد جبل دان المشرف على مـدينة شكيم على جهة اليسـار، وعلى هذين الجبلين أقام يربعـام العجلين الذهبيين،وجعل

إسرائيل تذنب، وتقوم مدينة شكيم بين هذين الجبلين، التي تعرف أيضاً باسم نابلس، التي هي مليئة بأماكن جميلة جداً، لكنها غير محصنة، ولايمكن تحصينها، فإذا ما قدم العدو من الشمال، وكان سكان المدينة قليلاً عددهم، لايمكنهم أن يفعلوا شيئاً سوى الفرار إلى الجنوب، وإلى شكيم كانت عظام يوسف قد حملت من مصر، ودفنت، وفي الجوار يوجد حقل قطعة الأرض التي أعطاها يعقوب إلى ابن يوسف، وليس بعيداً عن باب المدينة يوجد جب يعقوب، الذي جلس الرب إلى جانبه، والتمس الماء من المرأة السامرية، وفي هذا المكان كانت هناك كنيسة.

وعلى جهة اليمين من شكيم يوجد جبل جرزيم، وفوق هذا الجبل من الممكن أن يرى حتى هذا اليوم معبد يهوه القديم، مع مشفى للغرباء ونزل لهم، وهذا هو الجبل، الذي قيل لنا بأن المرأة قد عنته عندما قالت:«تعبد آباؤنا في هذا الجبل»وعلى بعد فرسخ واحد من شكيم توجد مدينة اسمها لوز، فيها سكن إبراهيم، ويقال بأن يعقوباً قد نام في هذا المكان، ورأى السلم، وذلك عندما قال:«كم هو مرعب هذا المكان»، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، علماً بأنه كان يعرف من قبل باسم لوز، ومعنى ذلك وترجمته:«الرب يرى»، لكن بعضهم يقول بأن ذلك كان فوق جبل أكرا، حيث كنت أنا جون بولونير آخر من رأى قصة التضحية مرسومة بأعمال الفسيفساء، في المكان الذي جرى تقديم المسيح فيه، وكذلك يقول بعضهم بأن المكان الذي نام فيه يعقوب ورأى السلم هو جبل موريا، أو الجبل المعشوشب(جبل إبراهيم)، الذي فوقه بنى سليمان فيما بعد هيكل الرب.

ويطلق على السهل القائم فيما بين نهر الأردن وأريحا اسم جلجالا Gilgala ، (الجلجال)، وعلى بعد نصف فرسخ عن هناك يوجد جبل القرنطل، وذلك حيث صام الرب لمدة أربعين يوماً، وهناك أغوي من قبل الشيطان، ويقول آخرون بأن ذلك كان على جبل مرتفع قريباً

جداً من بحر الجليل، وذلك على بعد فرسخين عن الجبل المتقدم الذكر، والذي يوجد على قمته بيعة، فقد أراه هنا جميع ممالك الدنيا، وعند سفح هذا الجبل ينبع نبع اليشع وتجري مياهه، وهو الذي حوله من المرارة إلى العذوبة، وجعله ماء سائغاً للشراب.

وعلى بعد ميل واحد عن الجلجال توجد أريحا، التي كانت فيما مضى مدينة جليلة، لكنها انحدرت إلى حد أنه لم يبق أي أثر يدلك على أنها كانت مدينة، وكان زكّا من هذا المكان، وعندما ينزل الانسان من القدس إلى أريحا، وعند نهاية الجبل، وقبل بداية السهل، يمكنه أن يرى على جانب الطريق المكان الذي جلس عليه الأعمى وهو يستعطي، وهنا كان فيما مضى كنيسة، وعلى الطريق الذي يقود إلى القدس، على بعد أربعة فراسخ عن أريحا، وفي قرية قائمة على جهة اليد اليسرى لبرية القرنطل، يوجد المكان الذي وقع فيه الرجل بين اللصوص.

وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من أريحا، يوجد دير القديس جيروم، في برية واسعة، تتعرض لأشعة الشمس الحارقة، لذلك لم يبق هناك أي شيء أخضر، وكان قد سكن هناك لمدة أربع سنوات، ومن أريحا هناك فرسخان إلى نهر الأردن، حيث من الممكن أن نرى هناك بيعة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، وقد مشى بنو إسرائيل فوق الأردن بأقدام جافة، ونال نعمان المجذوم البراءة في الأردن، كما وتعمد المسيح في الأردن. وعلى بعد ثلاثة فراسخ، أو ستة أميال، من أريحا، تقوم ساعور في العربية، حيث يوجد تمثال من ملح، إليه تحولت زوجة لوط، الذي هو خطر للذهاب لرؤيته، بسبب المدينيين الذين يسكنون هناك، ويفيض البحر في بعض الأحيان، وترتفع مياهه إلى حد أنها تغطي التمثال كله، ثم يتناقص حتى يبات من الممكن رؤية التمثال، وأحياناً رؤيته حتى الصدر، وأحياناً أخرى حتى الركبتين، لأن هذا التمثال واقف فيما بين ساعور والبحر الميت، وعرض هذا البحر ستة

فراسخ، وبسبب استمرار تصاعد الأبخرة منه، ورائحة النتن، فإن الوادي الذي عرف فيما مضى باسم الرائع، قد صار أرضاً جرداء، لمسافة سفر عشرة أيام، فطوال ذلك لاتحمل الأرض أية أعشاب، ولاينمو عليها أي شيء، فضلاً عن هذا جميع الجبال، على اليمين وعلى اليسار جرداء لمسافة ستة فراسخ، وفوق هذا المكان، وأنت نازل إلى العربية يوجد كرنيم، وهو برج مراقبة للمآبيين، وإليه جلب بلعام ليتولى اللعنة، حيث كلمته الأتان، التي كان راكباً لها، ويفصل هذا البحر اليهودية عن العربية.

وفي أيام بني إسرائيل كانت العربية فيافي، ومكاناً معزولاً، حيث أبقاهم الرب هناك لمدة أربعين سنة، يمطر عليهم المن من السماء، وهنا سار أمامهم عمود من نار أثناء الليل، وأظلتهم السحابة في النهار، وهناك كانت المحطات الأربعين لبني إسرائيل(الخروج، والعدد ٣٣)، واعرف أن العربية متصلة بأدوم الموجودة في جوار بصرى، وأدوم هي بلاد دمشق، ودمشق هي عاصمة سورية، ويفصل لبنان أدوم عن فينيقيا، وفي فينيقيا توجد مدينة صور، وفي العربية يوجد وادي موسى، فهناك ضرب الصخرة، فنبع الماء منها، وفي العربية أيضاً جبل سيناء، فهناك أعطيت الشريعة إلى موسى، وكذلك يوجد في العربية الجبل الذي دفن عليه هرون، وفي العربية جبل عبريم، حيث دفن الرب موسى، الذي لم يشاهد قبره في أي مكان، وفي العربية يوجد المكان الذي اسمه بتراء في الفيافي، أو الشوبك(الملوك الثاني:١٤/٧)، وفي مكان مرتفع وراء الأردن، وعلى مقربة من مدينة Rabath التي هي ملك لأبناء عمون، وذلك عند نهاية الأرض المقدسة، هناك كانت قلعة، هي قلعة بتراء في الفيافي(الكرك والشوبك)، وكانت قوية بما فيه الكفاية، وقد بناها بلدوين، الملك اللاتيني الأول في القدس، بقصد الدفاع عن المملكة.

حول أرض مصر

مصر أرض مستوية ودافئة، ونادراً ما تمطر هناك، لكن البلاد تسقى من قبل نهر جيحون، الذي يعرف باسم النيل، ولهذا النهر سبعة فروع تجري في مختلف المناطق، وفي النيل تنشأ الخيول البرية والتماسيح بأعداد لاتحصى، ويشبه التمساح العظاءة، حيث يمتلك أربعة أقدام، وأرجل قصيرة وغليظة، وفكين حادين مثل فكي الدب، ورأس مثل رأس العظاءة، وعندما يخرجون من الماء ويسيرون فوق اليابسة يقتلون أي إنسان أو حيوان قدروا عليه، وخروف أو جدي لايكاد يكفي أحدهم لوجبة واحدة. ويبدأ النيل بالفيضان في عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ويستمر حتى عيد تمجيد الصليب المقدس، ومن ثم يبدأ بالتناقص حتى عيد الغطاس، عندما تبدأ الأرض الجافة بالظهور، ويزرع الفلاح بذاره، ويكون الحصاد في آذار، ويجري جني مختلف أنواع الخضار ابتداءا من عيد القديس مارتن حتى أوائل شهر آذار، والشيء نفسه يحدث بالنسبة لفواكه الحدائق، وتحمل الأغنام والماعز وتلد مرتين في السنة.

وعليك أن تعرف أن هناك ثلاثة مدن اسمها بابل، أولاها قائمة على نهر الدجلة، فهناك كان نبوخذ نصر ملكاً، والثانية موجودة في مصر، وفيها كان يحكم فرعون، وهاتين المدينتين مدمرتين، والمدينة الثالثة، التي نتعامل الآن معها، موجودة أيضاً في مصر، ومتصلة بالمدينة التي اسمها القاهرة، التي يوجد فيها قصر السلطان الملكي، وهي مدينة بابل الجديدة نفسها، ويوجد في هذه المدينة خمسة شعوب هم: الرومان، والاغريق، واليعاقبة المسيحيين، والمسلمين، واليهود، ويوجد هناك كنيسة بطريرك لليعاقبة اسمها كنيسة سيدتنا سيدة لازا Laza ، وهي ذات جمال عجيب، وهي كنيسة بطريرك اليعاقبة، ويوجد فيها عمود، منه صدر صوت يقول:«اذهب وابحث عني.... هذا الرجل ينقل الجبال»،

ويوجد هناك أيضاً كنيسة مكرسة للقديسة بربارا، ويوجد الآن فيما بين بابليون والقاهرة خمس عشرة كنيسة مسيحية، الأولى بينهن هي الأكثر قداسة بين الجميع، ففي هذه الكنيسة بيعة موجودة تحت الأرض، فهناك يوجد المكان الذي سكنت فيه العذراء المباركة مع ابنها يسوع، ويوسف، وكان ذلك عندما هربت من أرض اسرائيل، ويوجد هناك صليب صنع بمثابة علامة للتدليل على المكان الذي اعتاد الطفل أن ينام فيه، وعلى هذا، هذه هي الكنيسة الأكثر قداسة بين الجميع، وهي أسمى مكانة من الكنائس الأخرى، واسمها كنيسة سيدتنا سيدة قانا في بابليون.

وكان يوجد في القاهرة شجرة نخيل معرقة بالقدم، وهي التي حنت نفسها، ونزلت إلى الأسفل إلى العذراء المقدسة، حتى تتمكن من جمع التمر وقطافه منها، ثم نهضت بعد ذلك، ووقفت كما كانت من قبل، ولقد قرأنا بأن برج بابل كانت مساحة إطاره الخارجي من طرف إلى الطرف الآخر ألفاً واحداً وعشرين خطوة، وأن سماكة سوره كانت ثلاثمائة خطوة، لأنهم قصدوا أن يبنوه حتى يحاذي القمر.

وتبعد غزة — أو غزرة — سفر ثلاثة أيام عن القدس، وهي إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وقد انتزع شمشوم أبوابها، وحملهم حتى ذروة رابية. وعلى بعد ثلاثة أيام عن غزة توجد مدينة دمياط، وهي مدينة مصرية، فهناك فيها رجم إرميا، والمدينة الثانية هي مدينة عكا، ذلك أنها تعدّ إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي تبعد عشرة فراسخ عن عسقلان وذلك باتجاه يافا، ليس بعيداً عن البحر، وتقع بير السبع بين المنطقة التلية وبين مدينة غزة. وكانت غاث أيضاً واحدة من مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي قائمة ليس بعيداً عن اللد والرملة، ومن خرائبها جرى بناء قلعة ابلين(يبنا)، وكان ذلك فوق التلة نفسها، وبلدة يبنا هذه وقلعة يبنا(كذا) هي التي كان اسمها في القديم بير

السبع، وقد بنيت قلعة تل الصافية لتوقف أذى العسقلانيين، والملك هيرود، الذي في أيامه ولد المسيح، كان من أهالي عسقلان، وعلى بعد ثلاثة أميال عن عسقلان تقوم قلعة تل الصافية، وعلى شاطىء البحر، ليس بعيداً عن عكا، تقوم يافا التي أقام فيها القديس بطرس تابيثا Ta-bitha من الموت.

(٣)
جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته
حوالي
(١٤٨٠ ـــ١٤٨٣م)
القسم الأول

كتاب جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته

مدخل ·

وصف الراهب فيلكس فابري في إهدائه التكريسي الذي تاريخه ١٤٨٤، بعد عودته للمرة الثانية من الأرض المقدسة، كيف أنه سافر إلى هناك مرتين، وكيف سعى جاهداً أثناء ترحاله للوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه لإخوانه الرهبان، في دير أولم Ulm الدومينيكاني بأن يحتفظ بسجل تام ودقيق حول كل ماراًه، وما نزل به أثناء رحلته،وأضاف أنه «إلى جانب ذلك، بذلت في بعض الحالات جهداً كبيراً، لكي أكتب وصفاً دقيقاً وتاماً حول بعض الأماكن المقدسة التي لم أذهب قط إليها، لكنني لم أفعل ذلك دون أن أضيف:أنا لم أذهب إلى هذا المكان، بل سمعت حوله أو قرأت».

وتحدث عن نفسه في توطئة كتابه هذا، على أنه إنسان قد زار ثلاثة أرباع العالم المعروف آنذاك، وحيث أنه كتب قبل عشر سنوات من اكتشاف أمريكا، من المفيد أن نقرأ إشاراته إلى جزر التوابل، وإلى شهرة سيبانجو Cipango التي كان الوصول إليها عبر طريق قصير هو الهدف الأساسي لرحلة كولومبوس، وقد اعتذر أيضاً عن أسلوبه اللاتيني، الذي وصفه الأستاذ س.د.هاسلر Hassler الألماني الذي حقق كتاب رحلته، بأنه أسلوب سخيف الأساس في الـ"Epistolae abscurorum Virorum»، وقال:كان من المتوجب وقوع كتابه في أيدي الكهنة الذين يهملون الانجيل والأنبياء ليفرغوا لقراءة فرجيل والشعراء اللاتين والخطباء، فوقتها ما كان لينجو من سخريتهم ونقدهم الشديد،لأن هؤلاء الناس يحبون روما الوثنية أكثر من القدس المسيحية، على الرغم من قول بعضهم:«إذا ما نسيتك ياقدس، لينشق

لساني في سقف حلقي»الخ.

ووصف مطولاً رغبته في رؤية الأرض المقدسة، ونقل عن توطئة القديس جيروم لسفر أخبار الأيام، أن الذي يبحر من طروادة إلى صقلية، سيكون بإمكانه أن يفهم بشكل أحسن القسم الثالث من كتاب الإنياد لفرجيل، وعلى هذا الأساس: إن الذي سوف يتمكن من رؤية اليهودية بعينيه، سوف يتملك رؤية أوضح ونفاذاً لما جاء في الكتابات المقدسة، واستطرد القديس جيروم يقول:«ولهذا تحملت أعباء الترحال خلال جميع أرجاء هذه المنطقة، بصحبة أفضل المتعلمين العبرانيين»، وهنا استطرد فابري يقول:«إذا كان القديس جيروم العظيم، الذي كان إنساناً عالي الفهم، ومثقفاً، رأى أن عليه زيارة الأماكن المقدسة، حتى يتمكن بصورة أفضل من فهم الكتابات المقدسة، ولاعجب على هذا إذا ما حاولت أنا ومن هو مثلي، بليد بطيء في الفهم، ببعض الوسائل الحصول على بعض من المعلومات الضئيلة عن الكتابات المقدسة، في الحقيقة إننا نرى في أيامنا هذه مجرد بعض الناس العلمانيين، الذين لايمتلكون معرفة عن الكتابات المقدسة، أنهم بعدما أدوا الحج إلى الأماكن المقدسة، وعادوا من هناك، صاروا قادرين على المناقشة حول الانجيل وحول الأنبياء والتحدث حول مواضيع لاهوتية، ويتغلبون أحياناً على بعض رجال الدين المتعلمين في تفسيرهم لبعض النصوص الصعبة في الكتابات المقدسة،لأنه ما من كاثوليكي قد عاد من هناك من دون أن يصبح متعلماً أكثر وبما أنه على هذا يعود الرجال العلمانيين من الأماكن المقدسة لاهوتيين، لايوجد شك أن رجال الدين من بعض الطوائف ورجال يمتلكون معارف قليلة، سوف يعودون متعلمين بدرجات ليست صغيرة، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى كثيرة، شرحتها في مجريات إطرائي للأرض المقدسة، ولأسباب أخرى ليس من الضروري بالنسبة لي ذكرها، عزمت على التوجه إلى القدس، وثبّت

وجهي نحوها، مثلما قيل عن الرب يسوع في لوقا:٩/ ١٥، وبقدر ما هو مسمـــوح لراهب أن يفعل، وربطـت نفسي بيمين أن أقــوم بالـرحلة، ويشهـد الرب أنني كنت لسنوات متحـرقـاً بلهفـة للقيـام بحجي، وهو الموضـوع الذي كنت أفكر به دون سـواه سـواء أكنت مستيقظاً أو نائماً، وأقـول صادقـاً أنني وأنا منشغل بهذه الأفكار، بقيت مستيقظاً أكثـر من ألف ساعة من ساعات الليل ووقت الراحة.

فضـلاً عن هذا، لم يكن من السهل بـالنسبـة لي أن أطلب إذناً لرحلة طويلة جـداً، وجـولات غير اعتيـادية، وبدا لي أنه من المستحيل تقـريبـاً الحصول على هذا الاذن، كما أنه لم تكن لدي أيـة فكرة عن الطريقة التي يمكنني فيهـــا تـأمين المال للانفـــاق على مثل هذه الـرحلة العظيمـــة التكاليف، ومع هذا لم أبـق بلا حـراك، وسألت نصيحـة عـدد كبير من الناس، ولم أجد سبيلاً لتجنب الاقامة في الوطن، وعلى كل حال، حملت نفسي أخيراً إلى الأمير المشهـور، كـونت إبرهارد Eberhard الأكبر أوف وورتمبورغ Wurtemburg، الذي كـان موجـوداً في الأراضي المقدسة منذ وقت طويل، والذي هو مرتبط بعهود الفروسية، حيث كان قـد تسلم شـارة الفـروسيـة في كنيسة الضريح المقـدس، التي هي في القدس.

وطلبت الحصـول على نصيحتـه الفخمة، حـول كيف يمكنني القيـام بالحج، الأمر الذي تعهدت القيام به، لأنني كنت خائفاً، وشاعراً بالخطر على حيـاتي، كما أنني ارتعبت من البحـــر، الذي لم أره قط بعـد، والذي سمعت عنه الكثير، كما وكنت مـرعـوباً من مخاطر الحج الأخـرى، التي قـرأت عنهـا كثيراً جـداً، ولهذا سعيت إلى هنا وهناك للحصـول على النصيحـة ، وبعدمـا استمع الكونت إليّ أجابني بشكل اعتيـادي قائـلاً: هناك ثلاثة أعمال في حيـاة الانسـان، لايجوز لأحـد أن ينصـح آخـر أن يفعلهـا أو لايفعلهـا، أولها هو إبرام عقـد زواج، وثانيهـا الذهاب إلى

الحرب، وثالثها أن يقوم بزيارة الضريح المقدس، وأنا أقول بأن هذه الأعمال الثلاثة جيدة في ذاتها، لكن من السهل تحولها إلى سيئة، وعندما يحدث ذلك، فإن الذي أعطى النصيحة يمكن أن يصبح بسهولة ملوماً وكأنه هو السبب في تحولها إلى سيئة، وهنا استطرد الكونت العاقل يقول بأن الحج الذي أسأل نصيحته حوله هو عمل يمكن أن تكون له فضائله، وهو مقدس، وعمل محمود، ومفيد جداً، إنما فقط للذين يقومون به لحمد الرب وشكره، وهو في الحقيقة مليء بالمخاطر بالنسبة للذين يقومون به عبثاً أو غواية، حيث يكون هدفهم التفاخر في هذا العالم، أو أي أمور فارغة وزائلة أخرى.

وزرت أيضاً نبيلاً آخر كان فارساً حسناً، كان أيضاً قد تلقى شارة الفروسية منذ سنوات طويلة مضت في الضريح المقدس، وسألته ما الذي يمكن أن يشير به عليّ بالنسبة لهذه المسألة، فأجابني من صميم قلبه مباشرة وهو منفعل قائلاً:كن متأكداً ياأخي، لولا أنني معاق بتقدم السن، ما من شيء يمكنه أن يمسكني ويحول بيني وبين العودة للقيام بحج آخر، لأنني لم أتلق النعمة من الرب بمثل القدر الواسع الذي تلقيته في الأماكن التي صُنع بها خلاصنا، لأنني كنت حيثما أخذت نفسي للصلاة ، وأدرت تفكيري، كنت أرى السموات مفتوحة، والعذوبة الربانية والسلوى منصبة على روحي، وهو أمر لانظير له في مكان آخر.

ومضيت بعد هذا إلى واحد من ديرة الراهبات، والتمست الحصول على إذن راعية الدير حتى أتحدث مع فتاة من الراهبات معروفة بتقواها، وتمتعت — كما اعتقد كثيرون — بقداسة استثنائية، وكنت قد تحدثت معها مراراً من قبل حول تنويري وتثقيفي، غير أنني لم أر وجهها من قبل، وأبحت لهذه الفتاة خطتي، فأجابت بسرور غير متوقع قائلة:«أسرع، أسرع في إنجاز رحلتك التي تنوي القيام بها، ولاتقم هنا

أية مـدة أطول، وليكن الرب رفيقك على طريقك»،وتلقيت كلمات هذه الفتـاة، وكأنهن جئن من السماء،وبدأت على الفـور بالاعـداد لجولاتي ورحلاتي، وكان في تلك الآونة في الدير التابع لطائفتنا في روما، والقائم فوق معبد مينيرفا راهب من بلادنا، وهو صديق لي ولي به معرفة جيدة، وله كتبت مخبراً عن نيتـي، والتمست أن يحصل لي على إجـازة من أبينا الأعظم قـداسة، البابـا سكتوس Sixtus الرابع، ومن القـائد العـام لطائفتنا المحترم الأب ليـونارد دي مـانسـوتي Mansuetis أوف بيرسيوم Perusium ، الذي بدون الحصول على إذنـه أولاً، ما من أحد في بلادي سيمنحنـي إجازة بالارتحال، وقام هذا الراهـب، كصديق جيـد، دونما إبطاء، وبسرعـة، بالحصـول على الذي طلبتـه، وبعث إلي برسالة إجـازة موثقة من القـائد العام لطـائفتنا، حيث حذر جميع الناس أن مـا من واحد أدنى منه مـرتبـة يحق له التدخل لإعـاقتي، ومنعي من القيام بهذا الحج.

ولدى تسلمي لهذه الرسـالة، بعثت بنسخـة عنهـا إلى الأب المحترم لمنطقتنا الاقليميـة، وإلى الحكيـم اللاهوتي لـودويغ فـوشي Ludwig Fuchs ، راعي دير أولم، وأريتهما إجـازتي التـي حصلت عليهـا من السيـد البـابا، ومن مقدم طائفتنـا، ورجوتهما أن يقـومـا مثلهما بالتفضل بإعطائي مـوافقتهما، ولدى رؤيتهما رغبتي الشـديدة بالذهاب، لم يكتفيـا بإعطائي موافقتهما، بل منحاني مـالاً ومساعدة من أجل الرحلة، وهكذا حدث أن أصبحت خـلال عدة أيام قليلة وبتّ مـزوداً بشكل رائع بكل مـا هو مطلوب لمثل هذه الرحلة العظيمـة، وعندما بلغ هذا إلى مسـامع أحد النبـلاء والفرسان الشجعـان، اللورد أبوليناريس فون ستين Apol-linaris Von Stein ،الذي كان آنذاك حاكـم بافاريا العليا، ومقيماً في بلدة غندلفنجن Gundelfingen ، أمـر بإحضـاري إليه، وعهـد إليّ بالعناية بابنه السيد جـورج فون ستين، الذي قرر إرسـاله إلى القدس

ليتلقى شارة الفروسية هناك، ووعدني بالتعويض عن جميع نفقاتي، مع أعطيات فوقهن، ورعايته المستقبلية، إذا ما وافقت على أخذ ابنه كمرافق لي في رحلتي.

وقدمت موافقتي عن طواعية لهذا السيد النبيل، واتفقت مع السيد جورج على يوم حددناه، حيث يمكنه أن يجدني فيه في بلدة ميمنجن Memmingen ، فمن ذلك المكان، وفي ذلك اليوم يمكننا أن نبدأ رحلتنا، وبعدما قمت بهذه الترتيبات عدت إلى أولم».

وصف موجز لرحلة الراهب فيلكس فابري الأولى إلى الأرض المقدسة

في أيام الاحتفال بعيد الفصح، في سنة ١٤٨٠ لتجسيد ربنا، وفي اليوم التاسع من شهر نيسان، الذي كان يوم أحد، وهو اليوم الثامن بعد عيد الفصح، وهو الذي فيه يغنى« Quasi modo » الخ في الكنائس، والذي يحتفل فيه أيضاً بعيد تكريس كنيسة الدومينيكان في أولم، في ذلك اليوم نفسه، بعد الغداء، وحسبما جرت العادة، صعدت المنبر، ووعظت الناس الذين كانوا موجودين بأعداد كبيرة، لسماع القداس وللحصول على الغفران، وبعدما أنهيت قداسي، وقبل الاعتراف العام الذي يقوم به الناس في مثل هذه المناسبات، أخبرتهم جميعاً عن الحج الذي كنت على وشك الشروع به، وسألتهم جميعاً، والتمست أن يطلبوا من الرب في صلواتهم لي عوداً سليماً، وأن يغنوا معي في ذلك الوقت بسرور مزمور قيامة الرب، الذي اعتاد الناس على غنائه مع بعضهم، مع مزمور الحجاج بالبحر، وبعدما قلت هذا، شرعت أُنشد بصوت مرتفع«قام المسيح»الخ، وعندما انتهت هذه الترنيمة، غنيت مجدداً:

In gottes Nahmen Fahren wir, Seiner gnaden ،

وغنى جميع الناس الترنيمة ورائي، وهي التي شرعت بها، غنوها بأصوات مرتفعة وجميلة، وكرروا ما غنوه مراراً وتكراراً، كما أنهم لم يضبطوا أنفسهم عن البكاء، وانفجر بعضهم بالبكاء بصوت مرتفع بدلاً من الغناء، لأنه كان هناك عدد كبير من الأشخاص من كلا الجنسين قلقين ومتوترين، وخائفين، مثلما كنت أنا نفسي خائفاً من الهلاك وسط هذا القدر من المخاطر المرعبة، وعندما انتهى الغناء أودعتهم لعناية

الرب، بأن أضفيت عليهم غفراناً عاماً، وقويت عزائمهم بشارة الصليب، وودعتهم، ونزلت من على المنبر.

وبعدما تلقيت في الصباح الباكر من اليوم الرابع عشر من نيسان المباركة التي تعطى إلى الذين على نية السفر، وبعدما قبلت إخواني وعانقتهم، ركبنا على خيولنا، أنا والمقدم المحترم لودويغ، مع خادم من مدينة أولم، حيث التقيت وفقاً لموعدي مع السيد أبوليناريس فون ستين، وبصحبته ابنه جورج، وعدداً كبيراً من الجنود المسلحين، وعلى الفور أجرينا في اليوم التالي الاستعدادات للمغادرة، وودع الشاب النبيل أباه، وجميع أقربائه وحاشيته، وركب فرسه دونما وجل أو أسى، واندفعت أنا أيضاً إلى بين ذراعي أبي الروحي اللطيف جداً والمحبوب، أطلب منه الوداع، والمباركة الأبدية، إنما ليس من دون حزن وأسى، ظهر منا كلانا بوساطة كثير من الدموع والتنهدات، ولم يكن هناك شيئاً عجيباً حول هذا، لأن الفراق الاجباري للابن عن أبيه وللرجل الصادق عن أصدقائه المخلصين، من الطبيعي هو محزن.

وفي أثناء عناقي وتنهداتي سمعت آخر كلمات أبي المحبوب جداً ونصائحه، بأن لا أنساه في الأرض المقدسة، وأنه إذا ما توفر رسول، بأن أرسل له رسالة من البحر، أخبره فيها عن أحوالي، لكي يتأكد من عودتي سريعاً، وهكذا تركني وهو آسف جداً، وعاد مع خادمه إلى أولم، إلى أبنائه الذين هم أخواني، وبعد مغادرة أبي، استولى عليّ إغواء لايمكن مقاومته، بدلاً عن رغبتي الجامحة لرؤية القدس، والأماكن المقدسة، التي كانت تتوهج في داخلي حتى ذلك الحين، فقد ماتت كلياً في داخلي، وشعرت بأنني أكره السفر والترحال، والحج، فالذي بدا لي حلواً وفضيلاً، ظهر الآن أنه مرهق، ومؤلم، وبلا فائدة، وفارغ وأثيم، وكنت غاضباً من نفسي لإقدامي على الترحال، ونظرت إلى جميع الذين حاولوا ثنيي عن القيام بالرحلة، بأنهم أحكم المستشارين، وأوثق

الأصـدقـاء، وفي الوقت نفسـه عـددت الذين شجعـوني أعـداء حيـاتي، وصرت أرى أنني سأتمتع أكثـر برؤية سـوابيـا من رؤية بـلاد كنعـان، وبدت أولم إليّ أكثر جمالاً من القـدس، فضلاً عن هذا ازداد الخوف من البحـر في داخلي وتضـاعف، وشعـرت بكثير مـن مشـاعـر المعـارضـة والرفض لذلك الحج، إلى حـد أنه لـولا الخجل، لركضت خلف المقـدم لودويغ، وعـاودت الدخـول إلى أولم معـه، وكنت سأشعـر بالسرور الأعظم لفعل ذلك.

وبقي هذا الاغـواء اللعين معي مـوجوداً طوال الرحلـة كلها، وكـان مـزعجـاً جـداً لي، لأنه ذهب بكل السرور، والمتعـة، والرغبـة، فبـذلك يدعم الحاج جهـوده، وذلك يحثـه على الاستمـرار بعمله، وقـد جعلني باهتـاً وبليـداً في كل من مشـاهـدة الأمـاكن الجديرة بالاهتمام في البحـر والبر، وفي كتـابة رواية عنهم، وكان الذي كتبتـه هو ضد مـزاجي، لكن نجحت أحياناً في التغلب على سئمي بالعمل المرهق.

وعلى هذا انطلقت أنا والشـاب السيـد جـورج، وخـادم اختـاره من حاشيـة أبيه، وأقلعنا من ميمنجن، وفي خـلال عدة سـاعات بدأ يصبح صديقاً لي، وعـارفاً بي، وصرت أيضاً أنا صديقاً وعـارفاً به، وقد توافقنا بطباعنا المتنوعـة معاً بشكل جيد، وهذا أمـر مريح جداً للذين يقـومون بالحج مع بعضهم، لأنه إذا مـا كـان مع الانسـان رفيق على غير وفـاق معه، سيلفهما الأسى والويل طوال حجهما.

وهكذا دخلنـا إلى الألب مبتهجين حتـى انسبروك Innspruck ، وبعد مغـادرتنا لذلك المكان، ركبنا وتقدمنا مسرعين، من أجل أن نصل في أقرب وقت إلى البندقيـة، وعندما كنا في الجبال، حـدث حادث معنا أرغب في إخبـاركم عنه، فعندمـا وصلنا إلى قرية اسمهـا أدسكالام Ad Scalam، شردنا هناك وابتعـدنا عن طريقنا الصحيـح، الذي هو الطريق الملكي العام، لأنه كان مـن المتوجب علينا تسلق الجبل، والعبور

من قـرب القلعة القائمـة على قمته، وعلى كل حـال نحن لم نفعل ذلك، بل خلفنا الجبل والقلعة على جـانبنا الأيسر، ونزلنا إلى وادي، من خلال طريق طويل، وممهـد بشكـل جيـد، وعندمـا تملكنا أخيراً إمكانيـة رؤية السهل القائم تحت الجبل، رأينا أمامنا بلدة ذات حجم جيد، الأمر الذي أدهشنا، لأننـا لم نكن نعلم بـأننا سنصل إلى أي بلـدة في ذلك اليـــوم، وعندما وصلنا إلى تلك البلدة وجدنا أنها كانت باسانو Bassano ، وأدركنا بأننـا شردنا عن طريقنـا، وبقينا على كل حـــال هناك لمدة ليلة، وشربنا نبيذاً أحمر، هو الانتـاج الخاص لذلك المكان، وظللنا نفعل ذلك حتى غلبنا النعاس، وكنا على كل حال غير مرتاحين مطلقاً، لأنه لم يكن هناك في النزل أحـداً يمكنه التحـدث بالألمانيـة معنا، وبما أننا كنا نجهل الايطالية، توجب علينا أن نسأل عن كل شيء بالاشارة.

وركبنا في اليـوم التـالي إلى قلعـة فـرانكـو، ومن هناك مـررنا خـلال تريفيسو Treviso ، حيث بعنا خيولنا، وتابعنا السفر على البغال إلى مرغيروم Margerum ، وفي مرغيروم قلنا لليـابسة وداعاً، وسـافرنا بالبحر في بارجة، حيث أبحرنا حتى البندقية ثم إلى فونداكو دي تديتشي Fondaco de Tedeschi ، وسألنـا في فـــونـداكـــو عـن نزل للفرسـان والحجاج، وأُخذنا من قبل واحـد من الألمان إلى نزل القديس جورج، الـذي كان نزلاً واسعاً ومحترمـاً، ووجدنا هناك عـدداً كبيراً من النبـلاء من مختلف البلدان، كلهم قـد ربطوا أنفسهم بالتعهدات نفسهـا مثلما فعلنا نحن شخصيـاً، وكـانوا ينـوون عبـور البحـر، وزيارة ضريح الرب يسوع الذي هو أعظم الأضرحة قـداسة، وكان هناك أيضاً بالنزل الأخـرى كثير من الحجـاج من كل مـن الكهنة والرهبـان والرجـال العلمانيين، والأعيان والعـاديين، من ألمانيا،وغاليـا وفرنسـا، وكان هناك بشكل خاص أسقفان، وهما مـولاي أسقف أورلين، ومولاي أسقف لى ـــ مـانس، مع حـاشيـة كبيرة من التـابعين والخدم، ولقـد كـانوا هناك

ينتظرون إبحار إحدى السفن، وفضلاً عن هذ كان هناك معنا بعض النسوة المتقدمات بالسن، وكن عقيلات ثريات، عددهن ست، يرغبن بعبور البحر إلى الأماكن المقدسة، وكنت مندهشاً تجاه شجاعة تلك النساء العجائز، اللائي كن بسبب تقدمهن بالسن بالكاد قادرات على القيام بأود أنفسهن ومع ذلك نسين ضعفهن، والتحقن من خلال حبهن للأرض المقدسة بفرسان شباب، وتحملن أعباء ومتاعب الرجال الأقوياء.

وعلى كل حال لم يكن النبلاء المتكبرين راضين عن هذا، ورأوا عدم النزول في السفينة التي سوف تسافر بها هؤلاء السيدات، عادين أنها إهانة بالنسبة لهم السفر وتلقي شارة شرف الفروسية برفقة نساء عجائز، وحاول أصحاب هذه الأرواح المتشامخة إقناعنا بعدم العبور في السفينة التي عزمت النساء العجائز على الابحار فيها، لكن الفرسان الآخرين من ذوي الضمائر عارضوا هؤلاء الرجال المتشامخين، وكانوا سعيدين بحضور أولئك النسوة الصبورات، وكانوا يأملون أن قداستهن سوف تجعل رحلتنا آمنة أكثر، وعلى هذا الأساس تفجر نزاع لايمكن فضه بين هؤلاء النبلاء، وقد استمر حتى نقل الرب أولئك الرجال المتشامخين من بيننا، وعلى كل حال هؤلاء النسوة التقيات بقين برفقتنا في كل من أثناء الذهاب إلى هناك، ثم في أثناء العودة.

وكان الآن السيد أوغسطين كونتاريني Contarini ، الذي معنى اسمه هو«كونت الراين»، وهو نبيل بندقي، كان ذاهباً ليأخذ شحنة من الحجاج، واتفقنا معه حول الايجار، واكترينا غليونه، وتسلمنا منه قمرات وأغطية، أي أماكن لكل واحد منا للنوم في الغليون، وأملنا بعبور سريع، ذلك أننا انتظرنا أياماً كثيرة، كان الغليون خلالها يعدّ من أجل البحر، لكن عندما كان كل شيء جاهزاً، ولم يبق شيء لعمله سوى الاقلاع، الذي تشوقنا كثيراً إليه وللقيام به، وصلت سفينة، حملت

أخبـاراً سيئة، بأن امبراطور الأتـراك محمـداً الكبير كـان يتـولى حصـار جزيرة رودس بحـراً، بأسطول كبير في البحر، وبجيش شـاكي السلاح من الفرسان والرجّالة براً، وأن بحار: الإيجي، والكارياثيان Carpath-ian ، والماليـان Malean كـانت تعج بـالأتراك، وأنه على ذلك من غير الممكن القيـام خـلال هذا العـام بعبـور الحجـاج إلى الأرض المقدسـة، ولن يكون سهلاً بالنسبـة لي الحديث بأي أسف تلقى الحجاج هذا الخبر وسمعوه، وسيكون مـرهقاً بالنسبـة لي الحديث عن الفوضى، والخلافات والنزاعـات التي تفجرت بين صفـوف الحجاج، وقمت على كل حـال في عمل آخـر، بوصف جميع المصـاعب التـي كـابـدناها في البندقيـة، وكيف انفصـل الفـرنسيـون عنا، مع أنهم كـانوا ينتمـون إلى غليـوننا، واجتمعنا الآن نحن الحجاج الألمان، مع بعضنا، وقـابلنا رئيس مجلس شيـوخ البندقيـة، مع التماس بأن يتكرم اللـوردات هناك بحماية غليوننا مع إعطائه أمـاناً بالمرور، حتى لايؤخذ من قبل الأتراك، ونؤخذ نحن معـه أسرى، وتلقينـا لالتماسنا جـواباً، بأن الغليـون بذاته يمتلك الحرية بـالجواز بين الأسطول التركي، ويمكنه القيـام بـذلك، دون أن يتعـرض للاستيلاء عليـه بفضل المعاهدة بين الأتراك والبنادقـة، غير أن اللوردات كـانوا على غير استعداد لإعطائنا أية ضمانة، فيما يتعلق بحـرية الحجـاج، ولم ينصحـوا بمحاولة العبـور هذا العـام، لكن إذا كنا جميعـاً مصرين على الذهاب، يمكننا الابحار حتى جزيرة كـورفو، حيث يرسو قائـد البحر مع أسطول البنادقـة، ويمكننا هناك أن نتبع بأمـان نصيحته، لأنه يعـرف جميع أعمال الأتراك، وعندمـا وافقنا على فعل هذا، أعطونا رسـائل توصيـة إلى القائـد المتقـدم الذكـر، وأذنوا لنا بالذهاب، وزودوا قبطان سفينتنا بإذن لأن يأخـذنا إلى البحـر، مع أنهم من قبل كـانوا قـد منعوه من أخذنا إلى أي مكان.

وبناء عليـه صعـدنا جميعـاً من حجاج وسـواهم على ظهـر الغليـون،

وكان عدد الحجاج مائة وعشرة، وكان تعداد الناس جميعاً الذين أقلعوا بالغليون ثلاثمائة وثلاثين، ورفعنا مراسينا، ونشرنا أشرعتنا، وأقلعنا باسم الرب، وأبحرنا أمام الريح، التي كانت لطيفة بما فيه الكفاية، وهكذا سرنا في خلال ساعتين مسافة جيدة حيث ابتعدنا عن اليابسة، وصرنا في أعالي البحار، وعلى كل حال لم تستمر ريحنا الطيبة طويلاً، ورسونا في اليوم الثالث في بارنشيا Parentia (Parenzo) الموجودة في منطقة استريا Istyria التي هي جزء من مملكة دلماشيا.

وأخافنا الناس هناك. بإخبارنا حكايات مرعبة عن الأتراك، ولهذا مكثنا هناك لعدة أيام، لأنهم أخبرونا أننا لن نستطيع الوصول إلى جزيرة كورفو دون التعرض للأذى،لأن الأتراك قد نشروا أسطولهم فوق جميع البحر الأدرياتيكي، واصطادوا واستلبوا جميع الذين قابلوهم، وعلى كل حال غادرنا ذلك الميناء، ووصلنا بعد إبحار بطيء لعدة أيام إلى زارا، ورسونا فيها، وهي مدينة في دلماشيا، إنما لدى سماعنا بأن الطاعون كان متفشياً هناك، ابتعدنا بسرعة عن تلك المدينة، وبعد رحلة بطيئة ومملة وصلنا إلى مدينة ليسينا Lesina ، وعندما كنا على وشك الدخول إلى الميناء، هبت ريح طيبة، لها نشرنا أشرعتنا، وغادرنا ليسينا، وتابعنا الابحار بشجاعة لمدة عدة ساعات، وهبت بعد ذلك ريح هادئة، كانت غير مفيدة بالنسبة لنا، فأردنا التوقف، فأتينا إلى جزء وعر ومهجور من شاطىء كراوشيا Croatia ، وأرغمنا على التوجه نحو ميناء مهجور، و لأن نطوي أشرعتنا في وسط جبال وعرة عالية، ولكي نبدل الأجواء على أنفسنا، ذهبنا إلى الشاطىء بقوارب صغيرة، وفوجئنا بأن رأينا هناك فوق الرمال جسداً قد قذف به البحر، وهو مشوه ومتعفن، وبما أن البحارة كانوا من ذوي الوهم، فقد خافوا إلى حد الموت من هذا الاكتشاف، وبدأوا يتوقعون وقوع الشرور بالنسبة لنا، وأبعدونا عن

الجسد، ولذلك لم يكن هناك أي واحد بيننا من امتلك شفقه نحوه أو تولى دفنه.

* * * * *

هذا وتهب رياح هذه البلاد أعلى فأعلى، ولقد بقينا لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي واقفين راقدين بين هذه الصخور، وكنا كلما حاولنا الانطلاق، كنا نساق إلى الوراء عائدين بقوة الريح، مما كان يسبب إزعاجاً عظيماً لنا جميعاً، وعلى كل حال لقد أنقذنا هذا الازعاج، لأنه بعد ثلاثة أيام هبت ريح لطيفة خارج ذلك المكان، وأخذنا طريقنا إلى أعالي البحار، حيث التقينا بغليون حربي بندقي، وعندما مرّ بنا هذا الغليون، سأل قادتنا عما إذا «حدث لنا أي شيء في البحر البارحة أو قبل البارحة»، وعندما أجبناهم: «لاشيء سوى رياح خبيثة أرغمتنا على اتخاد ملجأ تحت الجبال» فأجابونا: «بوركت هذه الرياح التي دفعتكم إلى أماكن للاختباء، لأنكم لو كنتم البارحة في عرض البحر المفتوح، لوقعتم في أيدي الاسطول المسلح للأتراك، الذي كان مبحراً نحو أبوليا لينهب المسيحيين هناك»، ولدى سماعنا بهذا حمدنا الرب الذي أنقذنا حتى الآن من أيدي الأتراك.

ومضينا على طريقنا، ووصلنا بعد عدة أيام إلى كورزولا Cur-zola في إيليريا Illyria ودخلنا إلى ميناءمدينة كورزولا في الصباح الباكر، وسمعنا قداساً هناك، وكورزولا التي هي مدينة في إيليريا لها اسم آخر هو «بريبو في ألتو Prepo in alto»، وهي مبنية فوق جبل مرتفع، وهي صغيرة، ومع ذلك مكتظة بالسكان، وهي تحت حكم البندقية، كما أنها جيدة التحصين بالأسوار والأبراج، وهي مقر أسقف.

وكان السكان جميعاً في حالة رعب عظيمة، من الأتراك الذين رأوهم

يومياً يجوبون البحر بحثاً عما يمكن نهبه، فهم قد ينقضون عليهم، وتساءلوا مندهشين كيف يمكن لنا أن نغامر بالإبحار فوق بحر مرعب وخطير إلى هذا الحد، ونصحنا الأكثر حكمة بينهم بالعودة، غير أننا لم نصغ إليهم، وعاودنا الاقلاع، بعدما اشترينا من هذه المدينة الخمرة، والخبز، وأشياء ضرورية أخرى، وحدث أنهم عندما كانوا يحركون قلع السارية ويرفعونه بدون انتباه من قبل واحد من البحارة، سقط ثانية، فأصاب بحاراً آخر، فقتله في مكانه، وكان مولاي أسقف مانس واقفاً إلى جانب هذا القلع الخطير الذي سقط هناك، وكنت أنا إلى جانبه مع آخرين كثر، وكنا جميعاً على وشك أن نصاب به وأن نقتل، وأما بالنسبة للرجل القتيل فقد لفوه بكفن، وربطوا حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ورموه إلى البحر.

وأبحرنا مسرعين من كورزولا، ووصلنا في حوالي منتصف الليل إلى ايبيداروس Epidaurus ، التي اسمها الحديث هو راغوثا Ra-gusa، وتوقفنا في راغوثا، وألقينا بمراسينا، وأوقفنا سفينتنا ونمنا حتى شروق الشمس، ودخلنا المدينة بعد ذلك، غير أننا لم نجد فيها نزلاً مثلما الحال في بلادنا، وبناء عليه ذهبت أنا مع السيد جورج ستين، وبعض النبلاء الآخرين إلى دير تابع لطائفة الدومينيكان، وسألناهم إعطاءنا شيئاً لنأكله مقابل مال ندفعه، وقد جلبوا لنا ميرة جيدة مع دن خمرة سكلافونية Sclavonian كبير، وعاملونا بشكل لطيف.

وجاء رئيس الدير على الفور، جالباً معه اثنين من الرهبان، هما الراهب فرانسيس دي كاتورو Catoro، والراهب دومونيك، وقد عهد بهما إليّ، وأعطاني إياها ليكونا رفيقي في رحلتي، وذلك لأنهما رغبا بالذهاب إلى القدس برفقتنا، ولقد سررت نحو هذا بشكل خاص، لأنني حتى ذلك الوقت كنت بلا واحد من رهبان طائفتنا، وكانت رفقتهما بالنسبة لي مرغوبة أكثر من الذهب الجيد، وبعدما فرغنا من

تناول طعامنا، ورأينا الدير، تمشينـا في أرجاء المدينة ورأيناها، ومثل هذا فعل بقية الحجاج، ولقـد رأينا بأن تلك المدينة كانت محصنة بشكل رائع بأبراج وبخنادق عميقـة جداً، كان الناس يحفـرونها آنذاك، وعجبنا لهذا، وسألناهم عما إذا كـانوا هم أيضـاً يخشون من التركي، مع أنهم يدفعـون الجزية إليـه، فأجابوني قـائلين: «نحن نخاف منه دومـا، ونقوم بتحصين أنفسنا ضـده، لأنه وإن كان صـديقنا اليوم، سـوف يكون عدونا غـداً»، وقد وجهـوا اللوم إلى تشوقنا للمغامرة فـوق البحر في مثل ذلك الوقت المرعب، وذلك في وقت لم يتجـرأوا فيـه على اظهـار أنفسهم في البحـر، وحـاولوا إقناعنا بالبقاء هنـاك حتى تأتي أخبار أفضل، ولسـوف أصف هذه المدينة والأماكن الاخرى في روايتي لدى عودتي من حجي الثاني.

وعلى كل حال عندما تأخر النهـار، صعدنا إلى ظهر غليوننا، وشرعنا منطلقين من ميناء راغـوثا في ذلك المساء مع ريح طيبـة، وقطعنا مسافـة طويلة تلك الليلة، وعند بزوغ الفجر هبت ريح معاكسة قوية، أخرجتنا عن مســارنا الصحيح، ودفعتنا نحـو أبـوليـا، التي رأيناها أمــامنا، ولم يستطع بحـارتنـا ببراعـة ضبط مسـار سفينتنا لكي نصـل إلى الشـاطىء عليها، وهكذا وصلنا بعد ابحـار طويل إلى جزر نموزا بولس -Gqzap olis، وهناك لم يكن لدينا ريح، كما أننا لم نتحرك، إلاّ بواسطة العمل الكسول للمجـاذيف بواسطة البحـارة، والمهـم أننا تابعنا الزحف ببطىء والتقدم نحو الأمام.

وهكذا وصلنا إلى مكان حيث توجـد مدينة فوق جبـل، وهي مشرفة على البحـر، وكانـت مسورة بشكل جيـد، لكنهـا كانـت مهجورة تمامـا بسبب تنفس تنين، وذلك حسبما سأصـف ذلك فيما بعـد، ووصلنا بعـد هذا، بعد رحلة مربكة بين جبال عالية، إلى جزء من البحر، بقي الغليون فيـه مثبتاً فـوق سطح الماء، ولم يكن بالإمكان تحريكه بالمجـاذيف لا إلى اليمين ولا إلى الشمال، بل بقي— كما قلت— سـاكناً بلا حـراك، لأنه

كـان تحتـه وهدة، يسمونها «متـاهه»، أو فتحـه في الأرض، كـانت تبتلع شطراً كبيراً من البحـر، وحيث كـان الماء يجري نحـو الأسفل في داخل هذه المتـاهة، لهذا وقف الماء فـوقهـا، منتظراً سقـوطه إلى داخل المتـاهة، وعندمـا لايكون في ذلك البحـر مـاءً كثيراً، يدور الماء، وكل من يحاول السبـاحـة فـوقـه هو معـرض لخطر الغـرق، وفي الحقيقـة كـانت السفن معـرضـة للابتـلاع هناك، لولا أن الذين يحركـونها تجنبـوا ذلك، وهكذا وقفنا بلا حراك في ذلك المكان، وبذل بحارتنا جهدهم بأصوات مرتفعة مع كثير من العمل لإخراج الغليـون من هذه الوهدة، غير أن جهودهم تبددت عبثاً.

وعلى كل حال، عندما رأى أهل كوركيرا Corcyra هذا— حيث كنا في مـدى الرؤية لجزيرة ومـدينة كـوركيرا— قـدمـوا لمسـاعـدتنا من كوركيرا، أو كـورفو بغليـونين صغيرين، وقد ربطوا حبـالاً إلى غليوننا، ومدوهم إلى غليونيهما، وتمكنوا بالتجـديف بغليونيهما، وبقوة عظيمة من سحب غليـوننا من بين فكي الوهدة، وذلك خشيـة أن تبتلعنا الأعماق، وبعدما جرى انقاذنا على هذه الصورة، تابعنا سيرنا إلى جزيرة كوركيرا، ودخلنا إلى ميناء المدينة بعـد غيـاب الشمس، الذي كـان مليئاً بالسفن الحربية، لأن— كما تقدم للوردات مجلس شيـوخ البندقية أن أخبرونا— قـائـد البحـر كـان هناك، مع اسطول مسلح للحفـاظ على السـلام في البحـر،وهكذا نمنا حتـى الصبـاح، وعند ظهـور الصبـاح ذهبنا إلى الشـاطىء ومـن ثم إلى المدينة في قـوراب صغيرة، ووجـدنا المدينة تعج بالناس، حيث كان بينهم كثير من الأتراك يسيرون هناك بين المسيحيين، وبعد سماعنا لقـداس هناك، قمنا نحن الحجاج السـوابيون والبـافاريون باستئجار بيت صغير في الضاحية وهناك طبخنا، وأكلنا، وشربنا، ونمنا.

وكـان ذلك البيت صغيراً، مبني مـن جـذوع أشجـار قـديمـة جـداً، وجافـة كثيراً، وهكذا حدث أنه نتيجة للنار العظيمـة التي أوقدناها من

أجل الطبخ هناك، أن المكان التهب مرة تلو أخرى، ولقد استطعنا دوما اطفاء تلك النار، ولذلك لم نواجه أية اضطرابات بشأنها، ولكن لدى حدوث ذلك للمرة الثانية، شاهد الجيران النار وقد أمسكت بالسقف، فركضوا وهم يصرخون ويندبون، وفي الوقت نفسه صعدنا فوق السقف، بواسطة سلالم، وانتزعنا الأطعمة من وسط اللهب.

وكنا في تلك المناسبة في خطر عظيم، لأن النار لو جمعت قوتها لكان المكان كله قد احترق، ووقتها كان السكان الإغريق في كوركيرا قد ضحوا بحياتنا انتقاماً لأنفسهم لفقدانهم بيوتهم، وخسارتهم لها، ذلك أنهم كانوا في الحقيقة عدوانيين جداً نحو الألمان، ومن السهل كثيراً إثارتهم لمقاتلتهم.

وبعدما تناولنا الطعام، قدمنا باحترام الرسالة التي تسلمناها من شيوخ البندقية، إلى قائد البحر،ورجوناه أن يقدم لنا نصيحته ومساعدته للاستمرار برحلة حجنا، ونصحنا، بعدما قرأ الرسالة، بالعودة إلى البندقية، ولكنه عندما أدرك أن هذه النصيحة كانت مفجعة بالنسبة لنا، قال وهو مغضب: «أية حماقة تملكتكم، حتى أنكم تريدون تعريض أنفسكم لمثل هذه المخاطر، تعريض كل من أجسادكم وأرواحكم، وتعريض حياتكم وممتلكاتكم؟، انظروا إلى البحر، إنه مغطى بالأتراك المتوحشين، حيث لاتوجد فرصة لنجاتكم من بين أيديهم، عودوا إلى البندقية، أو أقيموا في واحد من المراسي البحرية حتى تأتي أخباراً أفضل، وإذا ما كنتم مصرين تمام الاصرار على الذهاب إلى الشرق، عليكم أن تتدبروا بأنفسكم عبوراً لأنفسكم، ذلك أنني لن أسمح للغليون الذي قدمتم به بالابحار إلى هناك، لأنه من ممتلكات القديس مرقص».

وعندما سمعنا منه هذا كنا منزعجين جداً، وانصرفنا من حضرته، وطلبنا منه منحنا بعض الوقت للتشاور، وبناء عليه انعقدت عقول

كثيرين، ولاسيما الأسقفين، وأخذا بكلام القائد، وهكذا قررا العودة إلى البندقية مع جميع حاشيتهما، وكان حتى بعض من فرساننا مرعوبين، وكانوا جاهزين للعودة، لكن آخرين كانوا شجعانا فلم يتزحزحوا، والتحقت شخصياً بالمجموعة الأخيرة، وعملت بقدر ما أستطيع على تشجيع وتحميس الأفراد المترددين، بوعظهم وباقتباس بعض النصوص من الكتابات المقدسة بهدف بعث الأمل فيهم بنيل الحماية الربانية.

وحدث في بعض الأيام، عندما كنت غائباً، أن قام السادة الفرسان في جماعاتنا وأخذوا يتحدثون عن مخاوف حجنا، وكان بعضهم ماضياً بالحديث، بينما كان آخرون مترددون ووقفوا صامتين، وقد قال أحدهم:« عليكم عدم الاصغاء مطلقاً إلى كلمات التشجيع التي يقولها الراهب فيلكس لكم، فما الحياة أو الموت بالنسبة له؟ فهو راهب محترف، ليس لديه ممتلكات، ولا أصدقاء، ولا مركز في الحياة، ولا شيء آخر في العالم، مثلما حالنا نحن، وأسهل بالنسبة له أن يموت سريعاً بسيف الأتراك أو المسلمين، من أن يصبح مسناً في ديره، حيث يموت يومياً»، وقد قال أكثر من هذا بكثير محاولة منه لمنع السادة من الاصغاء لي.

وقد أخبرت بهذا كله، فقمت بعد ذلك بتحويل مجرى الحديث، في أن أضع بعض الشجاعة في الفارس نفسه لكي لايمكن اقناعه بالعودة، وأبقانا القائد في كوركيرا لمدة ثمانية أيام، وقد أخبرنا في كل يوم أخباراً أكثر إرعاباً، وكنا نحن الألمان قد اتفقنا جميعاً بوجوب عدم العودة، بل أن نذهب باسم الرب إلى القدس، وأخيراً عندما رأى القائد أننا كنا قد عقدنا العزم على الذهاب وعلى تنفيذ نوايانا، عندها أقلع عن التدخل بحجنا، وبتنا جاهزين للانطلاق، حيث نقلنا أنفسنا إلى غليون آخر، كنا قد قمنا بشرائه.

وعندما بات جميع الذين رغبوا بالقيام بالرحلة مع بعضهم على ظهر

هذا الغليـون، وفي أثناء تحدث أحدنـا إلى الآخر بسرور وبهجـة، ونحن واقفـون على الدكـة إلى جـانب السـارية، طلب واحـد من الشيـوخ منا الصمت، وشرع يخاطبنا قـائـلاً:« سـادتي وأخواني الحجـاج، نحن نقـوم بعمل عظيم، وصعب، ومرهق، بتنفيذ هذا الحج بوساطة البحر، وأقول لكم الصــدق، وأتحدث مـن الجانب الانســاني باننـا نعمل بشكل أحمق بتعريض أنفسنا لخطر عظيم، ضد نصيحة وقناعة قائد البحر، وضد كل واحد آخـر، ولهذا رأينا السيدين الأسقفين، وغالبية النبـلاء، والأقوياء ، والأعيـان، وربما الأكثـر حكمـة في جماعتنا، قـد تخلوا عن الرحلة، وهـم الآن على طريق العودة إلى بلادهـم، آخذين بالنصيحة، اتي أعطيت لهـم، في حين نقف في الاتجاه المعــاكس، والآن، ولكي لاتكـون رحلتنا مجرد حماقة آثمـة، لابد أننا نحتاج إلى إصلاح حياتنا على ظهـر هذا الغليون، وعلينا دوماً أن نطلب حماية الرب القدير وقديسيه، حتى نكون قادرين على أخذ طريقنا بين أعدائنا وبين أسطولهم».

ولدى سماعنـا لهذه الكلمات قــررنا بـالاجماع التــوقف عـن اللعب بالورق أو بالنرد، على ظهـر الغليـون، وعن الخصومـات، وعن الأيمان، وعن التقـاذف بكلمات التكفير، وعــدم السماح بذلك كله، وأن يضيف رجـال الديـن والكهنة صلوات ليليـة لصلواتهم النهــارية المعتـادة، وفي الحقيقـة، نشبت خـلافـات عظيمـة حـول هـذه المسـائل، قبل اتخاذ هذا القرار،لأن الناس كانوا يقامرون صباحاً، وظهراً، وليلاً، وبشكل خاص أسقف أورلين مع حــاشيتـه، وفي أثناء ممارســة ذلك كـانـوا يقسمـون ويجدفـون بشكل مرعب، ويتخـاصمـون يومياً، لأن الفـرنسيين والألمان كانوا دوماً على خلاف وشجار.

وهكذا حـدث أن واحداً من أتبـاع أسقف أورلين ضرب كاهناً تقيـاً من جماعتنا، فاستحق على ذلك الحرمان الكنسي، وبما أن الفرنسيين قوماً متشامخين، ورجـالاً انفعاليين، لهذا اعتقـدوا أنه كان عمـلاً مصدره الهام

رباني وحكمـة، أن انفصلوا عنا، وتخلصت عيـوننا منهم، لأنه كـان من شبه المستحيل الوصول إلى القدس برفقتهم من دون إراقة للدماء ومقتل لبعضنا.

وقـد أمضينا ليلة واحـدة في كـوركيرا، ونمنا على ظهـر السفينة، وفي تلك الليلة أصـابنا رعب عظيم، لأنه في آخـر النهـار، وعندما أخـذت الدنيـا تزداد إظلامـاً، وفي الوقـت الذي كنا مـا نزال فيـه واقفين حـول السـارية نتبـادل الأحـاديث، اكتشفنا وجـود قـارب غـريب، واقفـاً إلى جانبنا، والذين كانوا فيه هم أتراك، وجواسيس، كانوا يحاولون الاصغاء إلى ما كنا نقـوله، وعلى الفور فـزعنا بأنفسنا إلى الحجارة ، وقمنـا برميها عليهم، وخلفهم عندمـا شرعـوا يجذفـون مبتعـدين عنا، وتمكن على كل حال، القارب من الافلات نحو البحر، والنجاة .

وفي الصباح التالي زعقت الأبواق لدينا، للاعلان أننا كنا على وشك الاقـلاع، ورمينا بـأربطة الغليـون، وأدرنا ظهـورنـا للميناء ونحن نغني ببهجـة، أمـا الحجـاج الذين بقيـوا بعـدنا، فقـد وقفـوا على الرصيف يضحكون علينا، وقـالوا بـأننا كنا رجـالاً يائسين — Waghels ، وكانوا يتحدثون بشكل عـام في كوركيرا، أننا لابد من أن نقع بالأسر قبل أن نصل إلى مودون Modon ، وهكذا ابتعدنا عن كوركيرا ومضينا نتابع سفرنا بمزيج من البهجة والخوف.

وعاد الأربعون حاجـاً الذين خلفناهم في كوركيرا في سفينة مستأجرة إلى البندقيـة، وعندمـا وصلوا إلى هناك، قـالوا إنه لمن المؤكـد أننا اعتقلنا من قبل الأتراك،وتحدثوا بـالقصـة نفسهـا في مـدن أخـرى في إيطاليـا، وفرنسا، وألمانيا، وفعلوا هذا رغبة منهم لتسويغ جبنهم، وذلك بالاشارة إلى سـوء حظنا، ونتيجة لهذا، عقـدت قداسـات كثيرة لفائـدة روحي في عـدة أمـاكن من سـوابيـا، لأن الحجـاج نشروا هذه الأكـاذيب في جميع

أرجاء سوابيا وبافاريا.

وتقدمنا بالوقت نفسه تقدماً حثيثاً، وعبرنا بشكل مريح إلى مودون، ولم نشهد خلال الطريق ولاحتى قارباً فوق سطح البحر، الأمر الذي اندهش نحوه أهل مودون، لأن جميع العاملين بالبحر كانوا خائفين كثيراً، وحاول الألمان الذين كانوا يسكنون هناك، بإخلاص عظيم، ثنينا عن محاولة الذهاب مسافة أبعد، وحدثونا بحكايات كثيرة مرعبة، لكن بالنسبة إلينا، كنا كما كنا من قبل، فنحن الآن غير خائفين من الاقدام على إنجاز رحلتنا، ومتابعة السير على طريقنا، وبتوجيه من الرب وإرشاد، وصلنا إلى كريت بسلام، ودخلنا بسرور إلى مرسى مدينة الخندق.

ولدى وصولنا إلى هناك يمكن للانسان أن يقول بأن أهل المدينة كلها قد خرجوا لاستقبالنا،لأنه كان أمراً عجباً، لابل إعجازاً، أن يتمكن غليون مسيحي من النجاة من الأتراك المتوحشين، الذين رأوهم يومياً يتجولون في البحر في غلايين مسلحة ذوات ثلاثة صفوف من المجذفين،وذلك بحثاً عما ينهبوه، ولقد دخلنا إلى بيت واحد من الألمان، الذي كان لديه بيت سيء السمعة، ومع هذا عندما وصلنا قام بتنظيف مسكنه، وأبعد العاهرات اللائي كن لديه، ذلك أنه لم يكن هناك نزل آخر للحجاج، وفي مقابل هذا البيت كان هناك بيت آخر، كان نزلاً لتجار أتراك، وكان به بالفعل كثير من التجار الأتراك الأثرياء، من القسطنطينية، وقد قال هؤلاء — كما أخبرنا — لنا:«هؤلاء الرجال سيضيعون إذا ما حاولوا المضي أبعد»، وأكثر من هذا جاء بعض هؤلاء الأتراك إلى بيتنا، ونصحونا بعدم الابحار في الوقت الحاضر، لأننا من المؤكد سنقع بالأسر، فضلاً عن هذا حاول دوق الخندق ومستشاروه أن يصنعوا معنا معروفاً، فأرسلوا بخطيب من عندهم لنا، حاول بكلام لاتيني منمق، أن يوجه حجاجنا، وأن يحثهم بكثير من الحجج، على أن

يكونوا ضد متابعة السفر، وأوضح أن المخاطر خلف هذا المكان سوف تكون أعظم من المخاطر التي واجهناها خلال سفرنا إلى ها هنا، لأنه يوجد ما بين كريت وقبرص، جزيرة رودس، التي كانت في تلك الآونة محاصرة من قبل الأتراك، ولا يمكننا في أثناء عبورنا أن نتجنب مواجهة القرصان الأتراك.

وقد بقينا هناك لمدة خمسة أيام، وسمعنا أخباراً أسوأ كل يوم، وعلى الرغم من هذا علونا ظهر غليوننا، وعملنا الاستعدادات للشروع، وأقلعنا مبحرين ونحن خائفين من أن تثور زوبعة، وتحمل الغليون وتضعه بين الأسطول والجيش التركي الذي كان يقوم بأعمال الحصار، وعلى كل حال، ما أن غادرنا الميناء حتى كنا في البحر المفتوح، ورأينا ريحاً قوية جداً قد هبت، إنها موافقة جداً لنا، حملتنا بعيداً عن الجزيرة التي اسمها سيكلادس Cyclades ، حيث ابتعدنا أولاً عن رودس، ودفعنا على المتابعة بقوة مع ريح طيبة، التي ازدادت بشكل مستمر، وزمجر البحر، وهاجت الأمواج، وتبع ذلك عاصفة هوجاء، وغطت المياه جميع الجزء الأعلى من السفينة، ومع ذلك كانت هذه العاصفة مفيدة جداً لنا، لأنها حملتنا نحو الميناء الذي نريد، ولأنها جعلتنا ناجين من المهاجمة من قبل الأتراك، ذلك أنه بات من غير الممكن بالنسبة لسفينتنا أن تقع بالأسر، وهي مبحرة بهذه الدرجة من السرعة.

وقمنا بإزاحة جميع مظاهر الحرب لدينا، من مدافع، ورماح، وحراب، وترسة، وواقيات، وقسي عادية، وقسي زيارة، وحجارة، وسهام، التي كنا قد جهزنا بها أنفسنا في كيركورا، من أجل صد هجمات الأتراك، لأننا رأينا أننا الآن قد نجونا من أعداء صليب المسيح هؤلاء، ووصلنا في اليوم التالي إلى قبرص، ودخلنا إلى ميناء ليماسول، لأن ريحاً مضادة أرغمتنا على التوجه نحو الميناء، وعندما همدت الريح، أبحرنا من هناك إلى ميناء لارنكا، عازمين على البقاء هناك لعدة أيام،

لأن قبطان سفينتنا كان له أخ في نيقوسيا في خدمة ملكة قبرص، وكان لديه بعض الأعمال ليبحثها معه، وطلب منا الانتظار حتى تنتهي هذه الأعمال.

وعندما انتهت أعماله وسويت، رفعنا مراسينا، وبتنا راغبين ومتشوقين للوصول إلى الميناء الآخر، لأنه لم يكن هناك مكان للوقوف فيه، ونحن على مسافة قصيرة من الأرض المقدسة، وأبحرنا بشكل مستقيم، فرأينا الأرض المقدسة في اليوم الثالث، وصدوراً عن البهجة في قلوبنا غنينا: « Tedeum Laudamus »بأصوات مرتفعة، ووجهنا سفينتنا نحو جوبا Joppa ، التي تعرف بشكل عام باسم يافا، وألقينا مراسينا إلى جوار صخرة أندروميدا Andromeda ، ومن هنا بعث قبطان السفينة واحداً من العبيد إلى القدس ليعلن إلى الأب مدير دير جبل صهيون، لكي يقدم مع رهبانه ومع حميره وسائقيهم لحملنا إلى القدس، وبناء على ذلك مكثنا في غليوننا لمدة سبعة أيام ننتظر وصول أدلائنا، ونزلنا بعد هذا في قوارب صغيرة، وأقمنا في غرف مقببة قديمة جداً، وكانت مدمرة وذوات روائح نتنة،حيث مكثنا هناك لمدة ليلة واحدة فقط، وركبنا بعد هذا الحمير التي أحضرت من أجلنا، وعلى هذا جرت مرافقتنا وحراستنا من قبل مسلمين، وغادرنا البحر وقدمنا إلى بلدة الرملة، حيث أقمنا لبضعة أيام، ثم دخلنا إلى القدس، حيث لم نؤخذ إلى مشفى (نزل ضيافة) بل إلى بيت في ميلو Millo حيث أكلنا، ونمنا وهكذا.

ولم نمض أكثر من تسعة أيام في الأرض المقدسة، حيث قمنا بجولة على الأماكن المقدسة المعهودة، بسرعة عظيمة، وكنا نعمل ليلاً ونهاراً لإنجاز حجنا، وهكذا نادراً ما أعطينا وقتاً للراحة، وبعدما أكملنا بسرعة زيارة الأماكن المقدسة، وبعدما تسلم مولاي جورج فون ستين مع النبلاء الآخرين الفروسية في كنيسة الضريح المقدس، أخذنا أدلاؤنا

من المدينة المقدسة عبر الطريق حيث نزلنا إلى البحر، إلى المكان الذي كان غليوننا راسياً فيه.

ولم يبق أحد من الحجاج في القدس، إلاّ اثنان من الانكليز، اللذان رغبا في عبور الصحراء إلى القديسة كاترين (دير جبل سيناء)، وكنت راغبا بالبقاء معهما، لو أنهما عرفا اللغة الألمانية أو اللاتينية، وبما أنني كنت غير قادر على الحديث معهما، وكنت سأتحمل الحاجة إلى لغة عامة مع الصبر،ولولا أنني عزمت على العودة ثانية إلى القدس، لأنه منذ حلول ساعة مغادرتنا للمدينة المقدسة، قررت، وقطعت عهداً على نفسي بأنني سوف أعود بأسرع ما يمكن، وعددت هذا الحج مجرد توطئة للحج الذي أنوي القيام به.

وكان حالي هنا حال تلميذ أراد حفظ بعض النصوص وخزنها بالذاكرة، حيث كان يقوم أولاً بالقراءة دونما عناية، ثم يقوم ثانية بالقراءة ببطىء وتؤدة، ويأخذ من الوقت ما فيه الكفاية لإبقاء النص وحفظه بالذاكرة، وهكذا كنت بالنسبة لما قررته، ذلك أنني لم أكن مقتنعاً بما شاهدته، ثم أنني لم أودع ما رأيته في الذاكرة، بل تركت ذلك لحج مستقبلي.

وعندما وصلنا إلى البحر، كنا جميعاً ضعفاء بسبب ما بذلناه من جهد، وكنا قد أصبنا بالإنهاك بسبب الحرارة، وسهر الليالي، والمصاعب التي تحملناها، وكما كنا مرضى وضعنا على ظهر غليوننا، الذي صار مليئاً إلى حد بعيد بأفراد تعساء، وبعد مضي كثير من الأيام عدنا إلى قبرص، وإثر رحلة طيبة وصلنا إلى ميناء اسمه سالينا Salina، وقمنا من هنا برحلة حج اسبوعية إلى قرية مجاورة ولكن الأثرياء منا قاموا باكتراء خيول وركبوا مع بعضهم برفقة قبطان السفينة إلى نيقوسيا، التي هي حاضرة قبرص والمقر الملكي، وهي تبعد ستة أميال ألمانية عن البحر.

وهناك عادة قديمة قضت بأن الذين عملوا فرسانا في الضريح المقدس، عليهم أن يقدموا أنفسهم إلى ملك قبرص، وعقد نوع من أنواع معاهدات الولاء معه، وهو سيدعوهم باسم إخوانه وسيدرج أسماءهم في كتابه، ويعطي كل واحد منهم خنجراً فضياً وغمده مع حزام، ويكون معلقاً في نهاية الخنجر وردة مصنوعة من الفضة، تمثل اللون الأرجواني الذي هو شعار الطائفة.

وبناء على هذا ركب مولاي جورج فون ستين، الذي لم أفارقه أبداً، في نيقوسيا معي، ومع النبلاء الآخرين، ذلك أننا مكثنا هناك لمدة ثلاثة أيام، وبما أنه لم يكن هناك ملك في قبرص، سأل النبلاء الملكة بأن تسمح لهم بالانتماء إلى طائفة ملوك قبرص، وقد دعتهم للحضور إلى القاعة الكبرى، وهناك صفتهم أمامها، وأوصلت إليهم من خلال مترجم قوانين هذه الطائفة، التي قضت أنه يتوجب عليهم في وقت الحاجة النضال للدفاع عن مملكة قبرص، مقدرين ومدركين أنها واقعة بين المسلمين، والترك، والتتار، وبعدما أقسموا يمين الولاء إلى الملكة بأيديهم، أعطتهم خناجرهم، وسمحت لهم بالمغادرة.

وركبنا بعد هذا عائدين ثانية إلى البحر، ولدى مرورنا بسفح جبل مرتفع جداً، توجد على قمته بيعة، أخبرونا أن فيها صليب اللص الجيد معلق بشكل رائع، وكنت أتمنى رؤيته، لكن لم يتوفر لدي الوقت، ولذلك أجلت هذا إلى حجي الثاني، وعندما وصلنا إلى البحر وإلى غليوننا، وجدنا أن اثنين من الحجاج قد ماتا، وكان واحد منهما راهب من طائفة الفرنسيسكان، وكان رجلاً شجاعاً ومثقفاً، وكان الآخر خياطاً من بيكاردي picardy ، وكان رجلاً أميناً وجيداً، وكان عدد آخر في سكرات الموت، ونحن أيضاً الذين قدمنا من نيقوسيا، رمينا أنفسنا على فرشنا مرضى كثيراً، وصار رقم المرضى كبيراً جداً، إلى حد أنه لم يعد هناك من يتولى خدمتهم وتزويدهم بالضروريات وعلى

كل حـال نظرت العقائل المسنات إلينا وإلى تعـاستنا، فتحـركن بعاطفـة ورحمة، وتولين العناية بنا، لأنه لم يكن بيننـا من ليس مريضـاً، وهنا قـام الرب، بوسـاطة قوة هؤلاء العجائـز، بالتقليل من شأن شجـاعة أولئك الفرسان الذين عاملوهن باستخفاف، وكانوا لايرغبون بالابحار معهن، فقـد تنقلن مـن مكان إلى آخـر في جميع أرجــاء الغليـون، أي بين رجل مـريض وآخــر، وخـدمن الذين سخـروا منهـن واستخفـوا بهن، وهـم ممددون فوق فـرشهم لايملكون حراكـاً، فضلاً عن هذا استـولى علينا، بالاضـافـة الى مـرضنا وعـذابنـا، الخوف مجدداً من الأتراك، وبدأنا الآن نخاف حتى منهم أكثـر مما فعلنا من قبل، وفي الوقت نفسـه رفع رجال الغليون أربطة الغليـون ومكنوه من الابحار، وعندمـا صرنا في البحر لم نجـد ريحاً تساعـدنا، بل بقينا نسيرببطىء شـديد أمام سـواحل قبرص، ولهذا عـدنـا ثانيـة إلى قبرص، ورسينا في ميناء ليماســول غير المسكون، حيث انتظرنا بفارغ الصبر هبوب ريـح طيبة، وبعد انتظار يومين انطلقنا مجدداً نحـو البحـر، إنما هبت الآن ريح قـذرة، حيث جـرفتنا إلى داخل البحز، بعيداً عن اليابسـة، وخارج مسارنا، وبقينا ندور لعدة أيام كثيرة، حتى بدأنا نعـاني من نقص في الميرة وفي الحاجـات الضرورية، وفي تلك الأثناء أنهى واحد من الفرسان أيامه بشكل مؤلم جداً، فلففناه بقطعة من القماش، وربطنا جسده بأحجار، ورميناه بالبحر ونحن نبكي عليه.

وفي اليـوم الثالث بعـد هذا، مـات فارس آخـر، بعـد ما فقـد عقله، وعـانى مـن آلام عظيمـة، وكـان يصرخ بشكل مخيـف، وقـد حملناه إلى الشاطـىء في قاربنا الصغير للدفن هناك، لأننا كنا آنذاك على مقـربة من شـواطىء قبرص قـرب بافـوس، وكنا في تلك الأثناء غير قـادرين على التحرك بأي اتجاه، وكنا بحـاجة إلى الماء والخبز، وأشيـاء أخرى، وحملتنا الريح الخبيثـــة بعيــداً عن قبرص، ولمدة ثلاثة أيام وثـلاث ليـــال لم نر اليـابسـة، ثم كـان بعـد هذا أن حملنا عـائـدين إلى ميناء بافـوس، الذي

جـرت الاشـارة إليـه في الاصحـاح الثـالث عشر مـن أعمال الرسل، واشترينا في ذلك الميناء ما نحتاجه من مؤن، وغادرناه مسرعين، وأبحرنا مسايرين شواطىء قبرص دون أن نحرز أي تقدم في سفرنا، وإلى جانب هذه التعاسـات نزلت تعاسة أخرى عظيمـة، في تلك الليلة نفسها، ففي الوقت الذي كان فيه ملاحـو الغليون يتعاملون مع الأشرعة، ويحاولون تحريك الغليـون، حـدثت مفـاجأة، فقـد سقطت قطعـة كبيرة من رأس السارية بشكل مفـاجىء، وأصابت وقتلت أفضل الملاحين لـدينا، وكان رجلاً يطيعه البحـارة بأبسط إشارة تصدر عنه، فقد كـان مطاعاً من قبل جميع الملاحين ومن قبل عبيد الغليون.

وقـد كـان هناك حـزن عظيم ونحيب في الغليـون بسبب مـوت هذا الرجل، حيـث لم يكن هناك على ظهـر الغليـون من يماثلـه ليحل محله، وأبحرنـا بشكل بطيء لمدة أيام كثيرة، وكنا حذرين، نأمل بالوصـول إلى واحـد من الموانىء في كـريت، وأن نمـر دونها إعاقـة من أمـام رودس، لكننا كنا غير قادرين على فعل ذلك، ورأينا في أحـد الأيام، على مسافة بعيدة عنا غليوناً حربياً،قـادماً بسرعة خلفنا، فكنا خائفين بشكل مرعب جداً، لأننا اعتقـدنا أنه كان تركيـاً، وأن الأتراك كانوا قـادمين فيه، لكنه عندمـا اقترب منا عرفنا بأنه كـان غليوناً بندقيـاً، وكنا وقتها قـابعين إلى جـانب أسلحتنا ، التي أمـر قبطاننا بإخـراجها للدفـاع عن أنفسنا ضـد الأتراك، وانتظرنا وصول الغليون حتى يمكن أن نسمع أخباره، وعندما اقترب هذا الغليـون منـا علمنا بأن الأ تراك قـد هزمـوا، وأنهم رفعـوا الحصار عن رودس، وأنهم تراجعـوا باضطراب وفوضى، ولدى سماعنا هذه الأخبـار امتـلأنا بغبطة لايمكن التعبير عنهـا، وغيرنا اتجاه غليـوننا وتركنا مسـارنا المتقـدم، واتجهنا نحو جـزيرة رودس، وعلى كل حـال لم نتمكن من الوصول إليها خلال كثير من الأيام، ذلك أننا أعقنا وتأخرنا بسبب رياح معـاكسـة، فضـلاً عن هذا كنا قـد حملنا إلى بلاد الأتراك،

وعبرنا من خـلال قناة حيث كـانت هناك أراضي تركيـة وجبـال على طرفينا، وهنا تجددت مخاوفنا، وكنـا نخشى إذا مـا رآنا الأ تراك، سـوف ينزلون انتقـامهم بنا، بسبب هزيمتهم في رودس، ولم نمتلك ريحاً أيضـاً، وعبرنا البـلاد التركيـة بطريقـة بطيئة جـداً، بوسـاطة العمل البطيء للمجـاذيف، وأخيراً هبت ريح حملتنـا بلا معيقـات من هذه الأرض، وجلبت الغليون بشكل مفـاجيء إلى جزيرة رودس، غير أننا وصلنا إلى محاذاة سـاحل جبلي بعيـداً جـداً عن مـدينة كـولوسـا Colossae، ووصلنا على كل حال إلى نبع ماء للحياة يتدفق عند سفح أحد الجبال، إليه ذهب البحارة في قارب وجذفوا ومعهم براميل، وجلبوا مياه جديدة إلى ظهر غليـوننا، وعندما عادوا إلى ظهـر الغليون، خـرج جميع الركاب يركضـون من حجـرهم وفـرشهم، يحملون الصحـون، والجرار، والأحـواض الصغيرة، والأباريق، والكؤوس، والزجـاجات، يلتمسـون الماء من البحارة ومن رجال القارب.

وكـان هناك صراع وتدافع للحصول على الماء أكثـر مما شهـدته قط، من أجل الخمـرة أو الخبـز، وعن رغبة وطواعيـة وسرور ناول أحـدهم بعض الماء إلى الآخـر، وبتـذوق ذلك الماء الجديـد انتعشنا مجدداً، وبدا وكأننا قـد عـدنا للحياة مـن جديد، مثل المزرو عـات والأشجـار التي عطشت وجفت بسبب حـرارة الشمس، فعـادت خضراء من جـديد عندما تبللت بقطرات المطر أو الندى، وانتعش الغليون كله بتذوق هذا الماء، والذين كانـوا من قبل غير قادرين على التنفس إلا بصعـوبة بالغة، بدأوا الآن بالغنـاء، لأن شرب الماء بعـد عطش طويـل يجعل الانسـان مسروراً ولطيفاً مثل المتناول لقطرات من الخمرة.

فأية تعـاسات ومصاعب قـد عانينا منهـا منذ أن غادرنا ميناء يـافا في الأرض المقـدسـة حتـى وصلنا إلى هذا المكان، هذا مـا أنا عـاجـز عن التحـدث عنه، وكنت خلال أيـام المعاناة هذه غـالبـاً ما أتسـاءل، كيف

يمكن لأي إنسان يتساهل بازعاج نفسه بالقيام بالتفكير بصوم أربعين يوماً خلال السنة، وهي أيام الصوم الكبير، وأن لايصوم عن الخبز والماء في يوم الجمع الحزينة للرب، لو أنه عانى مثلنا يوماً واحداً من الأيام التي عانينا منها، وأنا لاأقول بأن أجر الصوم الكبير كبير، لابل ليس مثل الأجر المعطى يوم صوم الجمعة الحزينة وزناً وحجماً، ولهذا علينا عن طواعية أن نصوم يوم الجمعة الحزينة، لأن الذين يصومون يوم الجمعة الحزينة يتلقون خبزاً جيداً وجديداً، وماء نقياً، وبارداً، وعذباً، وطيب المذاق، وإذا ما حصلنا على مثل هذا، لابد من أن نشعر بأنفسنا بأننا سعداء، متذكرين أن الذي نلناه على ظهر الغليون، كان ماء قذراً، وآسناً، ولو أن أياً من البحارة كانت لديه مياه غير آسنة، لأقدم الحجاج على شرائها بأسعار أعلى من أسعار الخمرة، وعلى كل حال لقد كان ماءً مليئاً بالديدان، وأبيض ومتغير اللون.

وفوق هذا كله، وما قد يكون غريباً إلى الذين لم يعانوا من مثل هذه الرحلة، ومؤلماً أكثر للذين عانوها، هو أننا كنا في حالة من الحاجة والتعاسة، حتى أن ما كان لدينا من مياه عفنة آسنة عدت ثمينة إلى حد أن قبطان السفينة وملاحيها كانوا في قلق عظيم خشية أن نخسر حتى هذه المياه، ولهذا أعطى القبطان أوامر إلى ساسة الخيول بعدم إعطاء ماء من هذا النوع إلى الحيوانات التي جرى الاحتفاظ بها على ظهر الغليون من أجل ذبحها للأكل، بل ينبغي الاحتفاظ بها من أجل الاستعمالات الانسانية لأنه كان أكثر وحشية أن نموت نحن من العطش وليس البهائم، وعلى هذا بقيت هناك الأغنام والماعز والبغال والخنازير لمدة عدة أيام بلا ماء، وكانت تعاني من الهلاك من العطش، وغالباً ما رأيت في هذه الأيام هذه المخلوقات وهي تلحس ألواح الخشب والحبال، وتمتص ما تجمع عليها من ندى في أثناء الليل.

ومع أنه توفرت لدينا مياه لاحدود لها من حولنا، إن مياه البحر غير

قابلة للشرب بالنسبة للانسان والحيوان سواء، وكان معنى شرب تلك المياه قتل الانسان أو الحيوان بدلاً من إنعاشه، هذا ولم أحدثكم عن الخبز الفاسد، وعن البقسماط الملىء بالديدان، وعن اللحوم المنتنة، والطبخ المقيت، وهو ما توجب علينا القبول به، لو أننا امتلكنا ماء نقياً بكميات جيدة كافية، إن لم يكن للناس الأصحاء، فعلى الأقل للمرضى التعساء.

وعانيت في غالب الأحيان من عطش مرعب، وكان بي شوق لايوصف إلى ماء بارد، حتى أنني قلت في نفسي إنني عندما أعود إلى أولم سوف أذهب مباشرة إلى بلوبيرن Blauburen ، وأجلس إلى جانب البحيرة التي تنبع هناك من الأعماق حتى أشبع رغباتي، هذا ولم يكن هناك نقص بالخمرة في الغليون — وفي الحقيقة كان بإمكان الانسان بسهولة الحصول عليها بكميات كبيرة وجيدة — غير أننا لم نتمتع بها من دون مزجها مع الماء، وذلك بسبب قوتها وحرارتها، وهذا يكفي بالنسبة لهذه القضية.

وحدث الآن أن حملتنا بشكل مفاجىء ريح طيبة من المكان الذي شربنا فيه الماء إلى ميناء كلوسوس Clossus ، القائم أمام مدينة رودس، وكان الوقت ليلاً، وكانت الساعة تقارب الساعة التاسعة في المساء، وكنا لانستطيع أن نرى إلى أين نحن ذاهبون بشكل واضح، لولا فضل نور القمر، وعندما كنا نحاول الدخول إلى الميناء، وكان بحارتنا — حسب ما اعتادوا عليه — يعملون بصوت مرتفع لانزال الأشرعة، أشعل الناس الذين كانوا على الشاطىء المشاعل فوق أبراجهم، وأحدثوا ضجة عظيمة، وأخذوا يركضون ذهاباً وإياباً فوق الأسوار، حيث خيل إليهم أننا أعداءهم الأتراك، وأنذرونا بإطلاق نيران مدفع كبير نحونا، وقمنا نحن وسط رعب عظيم بإضاءة عدد كبير من المصابيح، ووقفنا على ظهر الغليون نرجوهم عدم إيذائنا، حيث كنا

نحمل علامات الصليب، كما كنا أصدقاء للذي صلب، ونعرف جيداً بأن أعداءه قد تعرضوا قبل وقت قليل للمهانة والمذلة في هذا المكان نفسه.

وعندما سمع حراس الميناء هذا، أبعدوا مجانيقهم التي كانوا قد أعدوها لرمي حجارة ضخمة علينا، وحلوا أوتار قسيهم، وأعقب هذا سعي الناس مع بعضهم من جميع أجزاء المدينة إلى أعلى السور وهم يحملون المصابيح والمشاعل، متشوقين لرؤية غرباء مسيحيين، لأنهم منذ أن صدوا الأسطول التركي لم يروا مسيحياً.

وقام الآن حارس من على أحد الأبراج بالترحيب بنا، سائلاً من نحن، ومن أين جئنا، وقام أحد البحارة بإجابته دونما تفكير:«نحن بنادقة، والغليون ملك للقديس مرقص»،لكن القبطان أمر بصفعه على فمه، وأمر بحاراً آخراً بأن يصرخ قائلاً:«جاء هذا الغليون من يافا، وفيه فرسان وحجاج من القدس، ونحن عازمون على الإبحار إلى إيطاليا»، ذلك أن القبطان كان يخشى أن يكون البنادقة غير مرحب بهم كضيوف، بما أن أهل رودس لايحبون البنادقة، بسبب تحالفهم مع الأتراك.

وعندما أخبر الحراس الذين كانوا فوق الأبراج الشعب بأننا كنا حجاجاً، رحبوا بنا بمثابة أصدقاء، وسمحوا لنا بإرساء سفينتنا خارج الميناء، غير أنهم لم يأذنوا لنا بالدخول إلى الميناء خوفاً من خيانة ما، وبناءاً عليه عندما ألقت السفينة مراسيها، نزلنا إلى أماكن نومنا، ونمنا حتى الصباح.

وفي اليوم التالي، وقبل استيقاظنا، قدم بعض الساد ة من رودس إلينا ليقوموا بفحص الغليون وليروا الحجاج، وقد جذفنا داخلين إلى المدينة معهم، وقد مررنا من بين أجساد الموتى الأتراك الذين كانوا مرميين على جانب البحر، حيث كان الشاطىء مغطى بهم، وعندما دخلنا إلى المدينة

وجدناها مهدمة بشكل مريع، مليئة بطلقات المدافع الصخرية من كبيرة وصغيرة، وهي التي أطلقها الأتراك عليها، حيث كان هناك منها ثمانية آلاف طلقة وطلقة موزعة على الشوارع والأزقة، وكانت الأسوار والأبراج مهدمة بشكل محزن، وقد رأينا أشياء أخرى عنها سأحدثكم عندما أجيء إلى هذا المكان ثانية في حجي الثاني.

ولقد مكثنا في رودوس لمدة أربعة أيام، وأنفقنا كميات كبيرة من المال، لأن كل شيء كان باهظ الثمن لأن الأتراك نهبوا البلاد وهدموها، وقد شريت طائرين لمولاي جورج للعلاج، لأنه كان بحالة صحية سيئة، وكنت أنا مثله، ذلك أنني كنت آنذاك أعاني من إسهال، وكنت تقريباً يائساً من حياتي.

وعندما حان الموعد الذي كان علينا به مغادرة رودس، سافر معنا على ظهر غليوننا عدد من فرسان القديس يوحنا، وبعض ممن كانوا أسرى لزمن طويل بين الأتراك، وكانوا ممن بعث بهم إلى رودس مع الجيش التركي، وقد تخلوا عنه وهربوا إلى تلك المدينة في أثناء الحصار، وحملنا معنا بعضاً من اليهود الذين قاتلوا بشجاعة في أثناء الحصار، وكان من بين الذين نجو من الأسر من بين الأتراك نبيل نمساوي، وكان في حالة بائسة، وقد أخذه مولاي جورج ووضعه تحت حمايته، وأعاده إلى ألمانيا.

وبصعود هذه الأعداد الكبيرة على ظهر غليوننا، غدا هذا الغليون مزدحماً وغير مريح، وفي أثناء الرحلة جرفنا إلى هنا وهناك من قبل الرياح المعاكسة، وعانينا كثيراً من النقص بالحاجيات حتى دخلنا مدينة الخندق، حاضرة كريت، ومكثنا هناك لعدة أيام، صعدنا بعدها إلى ظهر الغليون في أحد الأيام في آخر النهار عند حلول المساء، وجلبنا مشترياتنا معنا، وكنا عازمين على الإبحار في الليلة نفسها، لكن عندما جاء الصباح، وأطلق الغليون مما كان مربوطاً به، أخذنا بعنف نوجه رأسه

نحو الرياح، وآنذاك اصطدمت عصا التوجيه بالصخور، وتحطمت تحت الماء، وكانت السفينة على وشك أن يصطدم رأسها فوق الصخور الناتئة خارج الشاطىء، وفي تلك الحالة كان الغليون سيتحطم كلياً، وكنا سنغرق، ولهذا صدر صوت مرتفع، وتراكض الناس من المدينة لمساعدتنا، وبما أن عصا التوجيه قد تحطمت، لم يعد بإمكاننا الإبحار، وأرجعنا غليوننا إلى الميناء، إلى المكان الذي كان راسياً به من قبل.

وهنا جاء عامل بحري وقام بالإعداد لاصلاح عصاتنا، وقد نفذ ذلك كما يلي ونحن واقفون ننظر إليه: فقد تعرى حتى سراويله، ثم أخذ معه مطرقة ومسامير، وكماشة، ثم ألقى بنفسه ونزل في البحر، وغطس إلى حيث كانت العصا مكسورة، وعمل تحت الماء، فاقتلع مسامير، وثبت آخرين، وبعد وقت طويل، عندما أصلح كل شيء، ظهر مجدداً من تحت الأعماق، وتسلق صاعداً إلى طرف الغليون إلى حيث وقفنا، ولقد رأينا هذا، إنما كيف كان بإمكان هذا العامل أن يتنفس تحت الماء، وكيف كان يمكنه أن يضرب بمطرقته هناك، وكيف استطاع البقاء مثل هذه المدة الطويلة في الماء المالح، هذا ما لم أستطع فهمه، والذي أعرفه هو أن العقل البشري له سلطة على النار وعلى الماء، حتى مثلما للنجوم سلطة على العقل الإنساني.

وعندما اكتمل اصلاح العصا، وفكرنا بالإنطلاق والسفر، هبت ريح معاكسة، ولذلك لم يستطع الغليون الابتعاد عن الميناء، وقد عدنا إلى مكان رسونا ومن ثم إلى إقامتنا في المدينة، نأكل ونشرب هناك.

وهذا الميناء من أفضل موانىء البحر وأغناها، ومليء بجميع أنواع الأشياء الجيدة، خاصة الأشياء المحلية، لاسيما الخمرة، التي ندعوها باسم مالفويسي Malvoisie ، وهي خمرة مشهورة في جميع أنحاء العالم، هذا وكل شيء رخيص هناك، ولذلك لم نبال بمدة إقامتنا، بل تمتعنا بها، وفي حوالي وقت العشاء استدعينا جميعاً إلى ظهر الغليون،

وجاء بعضهم على الفور، وجاء بعضهم الآخر متأخراً، وكنت أنا شخصياً واحداً ممن صعد أولاً إلى السطح، ووقفت على مدخل الغليون لأنظر فيما إذا كان قد قدم غرباء، إلى جانب الذين التحقوا بنا في قبرص أو رودس، ويريدون الصعود إلى ظهر الغليون، وقد جاء أسقفان إغريقيان، مع آخرين كثر، وبالنسبة لأشياء أخرى أنا رأيتها، أنا لن أقوم بتدوينها، إذا ما أردت أن لاتكون« الرحلات والجولات» قصة مأساوية، لكنني كما وعدت إخواني في تمهيدي التكريسي غالباً ماقمت بمزج الأمور المضحكة والمسلية مع المسائل الجدية، وعلى هذا عندما كنت واقفاً هناك أراقب أولئك القوم الذين صعدوا إلى ظهر الغليون، رأيت كثيراً من حجاجنا واقفين على جانب البحر، فوق حافة الرصيف وهم سكارى يخشون من النزول إلى القوارب، لأن الخمرة الكريتية التي هي حلوة وممتع شربها، تجعل الإنسان فاقداً للوعي عندما يشرب منها كميات كبيرة.

وكانت هناك درجات حجرية على الشاطىء تقود إلى سور المدينة، وينزل على هذه الدرجات من يريد الصعود على ظهر الغليون ويماشيهم قليلاً، ومن ثم يحصل في داخل قارب صغير، يحمله إلى الغليون، وبعد ذلك يغادر الإنسان القارب، ويتسلق بعض الدرجات ليدخل إلى الغليون، وفي ذلك المساء وجد عدد كبير منهم أنه من الصعب كثيراً عليهم القيام بذلك، أي أنه توجب حملهم من الدرجات الموجودة تحت سور المدينة إلى القارب، ومن القارب إلى الغليون، ومن ثم مباشرة إلى حجر نومهم، وجاء بين البقية حاج كان خادماً لواحد من سادة المدينة، وكان هذا الرجل يحمل حقائب سيده، مع بعض دنان الخمر وحقيبة مليئة بالخبز الجديد، وقد كان منحنياً نحو الأسفل بسبب الوزن الذي كان يحمله، يضاف إلى هذا كان مخموراً تماماً، وعندما صار فوق الدرجات، وبدأ يمشي نازلاً عليهم نحو طرف الماء حتى يصل إلى

القارب هناك، وقع فجأة في داخل البحر العميق، مع كل ماكان يحمله، ولدى صدور صوت عن الواقفين هناك، جذف البحارة مباشرة، وساقوا قاربهم إلى المكان الذي سقط فيه، ولدى خروجه من الماء، سحبوه منه، وطافت أرغفة الخبز وكل ماكان يحمله فوقه، وقد تلفوا جميعاً.

وكان هناك حاج آخر، كان كاهناً دلماشياً، وكنت أعرفه معرفة جيدة، وكان قد شرب كثيراً من الخمرة الحلوة، ولذلك عانى من اضطرابات كثيرة حتى يصعد على ظهر الغليون، ويصل إلى موضع السارية، حيث وقف هناك يتحادث مع دلماشي آخر حتى حلول الظلام، وقد وقف على مقربة من البويب الجانبي الذي لايذهب الناس إلى تحته أثناء الليل، بل يفعلون ذلك فقط أثناء النهار، وذلك من أجل أنه عندما يحل الظلام ينزل على السلم الذي يأخذه نحو الأسفل، وبذلك لن ينزعج الذين كانوا نائمين على ذلك الجانب من السفينة بقدوم الناس وذهابهم، وهكذا عندما أكمل هذا الحاج كلامه، وكنا وقتها فوق سطح الغليون الأسفل، متمددين جميعاً في فرشنا ونحن نتبادل الأحاديث، وقد أراد الذهاب إلى مكان نومه من خلال أقرب بويب جانبي، وبما أنه لم يكن متوازناً على رجليه، فقد سقط نحو الأسفل من خلال البويب الجانبي إلى السطح الأسفل محدثاً صدمة كبيرة إلى حد أن الغليون كله قد اهتز، لأنه كان رجلاً كبيراً وسميناً،وتمددنا جميعاً صامتين وخائفين، وانتظرنا لنسمع من الذي كان قد وقع، وقد قام على الفور دون أن يصاب بأذى، وشرع يصرخ مزمجراً قائلاً:« انظروا الآن، لقد وضعت السلم تحت قدمي، ونزلت ثلاث درجات، عندما قام أحدهم بسحبه من تحت قدمي، فسقطت»، وقد أجابه أحدهم قائلاً بأن السلم قد أنزل من قبل منذ ساعة مضت، غير أنه أجاب« هذا غير صحيح، لأنني نزلت ثلاث درجات، وعندما كنت واقفاً على الدرجة الثالثة سحب من تحتي»،

ولدى سماعنا هذا انفجرنا ضاحكين لمعرفتنا بأن السلم قد أنزل من قبل منذ مضي ساعة، وكنت مسروراً بأن رفيقي لم يتعرض للأذى بسبب هذا السقوط الخطير من مكان مرتفع، وضحكت بشكل غير معقول، وعندما رآني أضحك غضب غضباً شديداً مني، وقال:« على هذا إنني أرى بوضوح ياراهب فيلكس من الذي سحب السلم من تحتي، ومن المؤكد أنك لن تغادر هذا الغليون قبل أن أنتقم منك»، وعندما حاولت أن أبرىء نفسي، أصبح أكثر غضباً فأكثر، ولعنني، وأقسم أنه في اليوم التالي سوف ينتقم مني، وعلى كل حال شفا النوم جميع هؤلاء المرضى والرجال السكارى، الذين كانوا هم الأسوأ بسبب الخمرة الكريتية، وقد نسوا في اليوم التالي كل ماتعلق بهذا الموضوع، لكن لو أن ذلك الحاج قد سقط غير سكران، بل صاحياً تماماً، لكان من المتوقع انكسار رجليه، أو اندقاق رقبته، لأنه غالباً مايحدث بشكل عام أنه في الحالات الخطرة يكون السكارى من الناس أحسن — بدون تعليل من الآخرين....

وبعد الليلة التي حدث هذا فيها، أطلقنا غليوننا من الأربطة، وحملتنا الريح إلى خارج الميناء، إنما بعدما مضينا قليلاً في طريقنا هبت ريح معاكسة، وبقينا نتأرجح فوق الأمواج دون أن نتمكن من التقدم، ولهذا حاول البحارة العودة إلى ميناء كريت، ولكن بما أن الريح كانت قذرة، لم يستطيعوا ذلك، فضلاً عن هذا صار البحر فيما بيننا وبين مدينة الخندق هائجاً، وغدت الأمواج عالية ، ورأى الملاحون، أنه سيكون تهوراً تعريض سفينة محملة بهذا القدر إلى قوة الرياح الكاملة والأمواج، ولذلك سعوا جاهدين للوصول إلى اليابسة، بالابحار خلف الريح، وهكذا وصلنا بعد بذل جهود عظيمة إلى الجزء الجبلي من كريت، وكان ذلك على بعد حوالي الميلين عن البلدة، وهناك ألقينا مراسينا في منطقة جرداء مهجورة، وقمنا في الليلة التالية برفع أشرعتنا والانطلاق، فوجدنا أمامنا ريحاً قوية في البحر، وكانت ريحاً قذرة، وواجهنا في تلك

الليلة وفي اليوم التالي عاصفة ثقيلة، وكانت الرياح في الليلة التالية هائجة بشكل مخيف، وقد وافقت تلك الليلة عيد القديس ميكائيل، وكان هيجان البحر أعظم مما شهدناه خلال رحلتنا كلها، وتعهد أثناء هذه العاصفة كثيرون أمام الرب بأمور كثيرة، من ذلك على سبيل المثال، تعهد الذين أمضوا أمسية قداس عيد القديس ميكائيل وهم يعانون من آلام معوية، بأنهم سوف يصومون بقية أيام حياتهم، وانصبت مياه الأمواج على السفينة وفوقنا، وسببت لنا كثيراً من الازعاج، وكنا جميعاً مرضى، وعانينا من الصداع ومن الغثيان، أثناء تحرك السفينة وبسبب ذلك.

وفي أثناء العاصفة، غدت الرياح التي كانت قذرة، رياحاً لطيفة بالنسبة لنا، ولذلك أبحرنا بسرعة كبيرة، واجتزنا أماكن كثيرة، ووصلنا إلى مقربة من مودون، غير أننا لم نتمكن من الدخول إلى الميناء هناك، وخوفاً من أن نساق إلى الخلف ثانية بقوة الريح، دخلنا إلى ميناء مهجور بين جدران من الصخر، وكنا في هذا المكان على بعد قرابة ميل ألماني عن مودون، وحملنا نحن الحجاج حقائبنا إلى الشاطىء، وأخذنا طريقاً إلى مودون براً، وهناك انتظرنا وصول الغليون، وغادرنا من هناك مودون، فوصلنا إلى كوركيرا، بعد عبور سريع، أي إلى المكان الذي تركنا فيه الحجاج الآخرون، وأبحرنا في مساء اليوم نفسه من كوركيرا إلى جزر غوزابولس Gozapolis.

وبينما نحن لانزال في الظلام، وما من نجم من النجوم يمكن رؤيته، وفيما نحن نتجه مع الريح، هبت هناك عاصفة مرعبة جداً، وحدث هياج مخيف في البحر وفي الهواء، وكانت الرياح عاصفة دفعت بنا نحو الأعلى، وكان هناك برق، ورعد يزمجر بشكل مخيف، زيادة على هذا كان هناك من حولنا سقوط لبروق وصواعق مخيفة، حتى ظهرت أماكن كثيرة من البحر، وكأنها اشتعلت بالنيران، وتساقطت الأمطار بشكل

مخيف، وصـار الحال كـأن مطر الغيـوم قـد تجمع كله، وتـدفق علينا، واستمرت التيارات العنيفة تضرب الغليـون، حيث غطته بالمياه، وكانت تدق على الجوانب بشدة مثل حجارة أرسلت من فوق جبال عالية حيث كانت تتطاير على الجنبات.

وغالباً مـاتساءلت عندما كنت في البحر في أوقـات العواصف، كيف يمكن للماء ، الذي هو رقيـق وناعم، وضعيف البنيـة ، أن يسـدد مثل هذه الضربات ضد كل مـايواجهه، لأنه تصـدر عنه زمجرة عندما يسعى ضـد السفينة، وكأن أحجـار طاحـون قـد تطايـرت ضـدها، ولايمكن للانسـان أن يعجب لتحطيمهـا السفينة حتـى وإن كـانت قـد بنيت من حديـد، وأمواج البحر هـي أكثر ارهاقاً، وأكثـر ضجة، وأكثـر إثارة من أمـواج المياه الأخـرى، وكنت أتمتع كثيراً بالجلوس فـوق الطابق العلوي أثناء العـاصفـة، وأراقب الأمـواج المتـواليـة من الضيـوف المرعبين من الريح، والإندفـاع المخيف للميـاه، ومـن الممكن تحمل العـواصف أثناء النهـار، لكنهم في الليـل أدوات رعب، لاسيما عندمـا تكـون هذه العـواصـف عنيفـة، مثل العـاصفـة التي أتحدث الآن عنهـا، ذلك أن العاصفـة كانت عاصفـة عنيفة جداً، وكـان الظلام كثيفاً، ولم يكن هناك أي ضوء، سوى الضوء المتتابع الذي ينبعث من البرق.

واستمرت هذه الريح العنيفـة في هز الغليون ونقله صعـوداً وهبوطاً، وإدارته من الجانب إلى الجانب، وهزه حول نفسه خلال ذلك، إلى درجة أن مـامن انسان استطاع أن يتمـدد في مخدعـه، لابل لم يستطع الجلوس، ومطلقـاً لم يستطع الوقـوف، وكنا مـرغمين على التعلق بالأعمـدة التي وقفت في وسط القمـرة، وكـانت تدعم الأعمال الموجـودة فـوق، أو أن نستند على ركبنا المنحنيـة إلى جانب الصنـاديق، حيث احتضناهم بأيدينا وبأذرعتنا، وبذلك حافظنا على ثباتنا، وكان يحدث أحياناً انقلاب لبعض من الصناديـق الثقيلة والكبيرة مع الرجـال الذين كـانوا متعلقين بهم،

ذلك أن الغليون كان يتحرك بعنف وباتجاهات مختلفة مما كان يؤدي إلى قلب كل شيء واقف عليه، والشيء الذي بدا اعجازيا، لكنه صحيح تماماً، هو أنه حتى الأشياء التي كانت معلقة بكلاليب في مقابل الرؤوس الكتلوية، كانت تخرج من أماكن تعليقها وتسقط نحو الأسفل، ومع أن السفينة كانت مغطاة من كل جانب بالزفت وبأشياء أخرى تستخدم لمنع تسرب المياه، وحفظ الداخل من المياه، مع هذا دخلت المياه خلال هذه العاصفة من خلال أماكن غير متوقعة في كل مكان، ولهذا لم يكن هناك شيء في السفينة كلها لم يكن مبللاً، فقد كانت فرشنا غارقة، وتلف خبزنا وبقسماطنا بمياه البحر، وكان في الطابق السفلي رعب وضجيج، وكان على الطابق العلوي تعب واضطراب، ومزقت الريح شراعنا الرئيسي إلى مزق، ولذلك أنزل البحارة نحو الأسفل العارضة التي استند عليها، وربطوه بشراع آخر لاستخدامه في العواصف التي يسمونها Papafigo إنما بعد مارفع البحارة العارضة وأداروها لفوا الشراع معها، وعندما كان البحارة يمدّون العارضة لوحدها ويدعون الأربطة تذهب، نزل الشراع نحو الأسفل، وكان البحارة ممسكين بأيديهم بالحبل الذي ربطت به الزوايا السفلى من الشراع، وقتها اندفعت الريح نحو الشراع، وملأته بقوة عظيمة جعلت قماشه يتمزق بين أيدي الملاحين، وأطاحت به وبالشراع نفسه فوق رأس السارية وفوق القبة Keba أو الرأس، عالياً بالهواء، ورمت به بقوة وعنف في الريح حتى أن العارضة انحنت مثل قوس، والسارية نفسها، مع أنها كانت ضخمة وقوية مصنوعة من عدد من جذوع الأشجار المحزومة مع بعضها، صدر عنها صوت مرتفع وكأنها قد تمزقت وتحطمت.

وكنا في ذلك الوقت في أعظم المخاطر، لأنه لو تحطمت السارية في مثل هذه العاصفة، لتغلب علينا البحر وقهرنا نحن والغليون جميعاً،

فكما أن الطير لايستطيع الطيران من دون ريشه وجناحيه، كذلك السفينة من ذوات الحمل الثقيل، لايمكنها التحرك من دون أشرعة، التي هي بمثابة أجنحتها وريشها، ولهذا عندما تحدث الشعراء عن الخيول المجنحة، كان الذي عنوه هو السفن فقط، من ذلك على سبيل المثال جاء بيرسوس Perseus من بلاد الإغريق على فرس مجنح وأنقذ أندروميدا Andromeda من الصخور عند يافا، الخ، وبناء عليه عملت ساريتنا كثيراً من الأصوات العالية المرعبة، وفعلت العارضة مثل ذلك، وبدا كل شيء في الغليون كله آيل لأن يصبح قطعاً، وما من شيء أرعبني قط في العواصف بقدر الأنين المرتفع للسفينة، الذي كان كثيفاً جداً إلى حد يدفع الإنسان إلى الإعتقاد بأن السفينة لابد أنها محطمة في واحد من الجوانب، كما لايمكن للانسان أن يتمنع من الصراخ بصوت مرتفع بسبب أصوات الأنين هذه المرعبة المفاجئة، وهكذا وقفنا ننظر إلى مشهد محزن، وفي وضع خطير كثيراً.

ولدى تطاير الشراع في الهواء على هذه الصورة، ركض عبيد الغليون والبحارة إلى الأمام وإلى الخلف، وهم يصرخون بقدر مااستطاعوا، وبذلك كانت الضجة عظيمة، وكانوا كمن يركضون بين السيوف، وتسلق بعضهم فوق الغطاء الموجود على العارضة، وحاولوا سحب الشراع نحوهم، وكان بعضهم الآخر على سطح الغليون في الأسفل، يركضون هناك وهم يحاولون الإمساك بقماش القلع ثانية، وقام بعضهم بإدخال حبال من خلال بعض الأثقال، ووضعوا أربطة حول الشراع، وفي الوقت نفسه قام الحجاج والذين كانوا بلافائدة في هذا العمل بالصلاة إلى الرب، وتوجهوا بالدعاء إلى القديسين، وعمل بعضهم اعترافاتهم وكأنهم باتوا على حافة الموت نفسها، وعمل بعضهم تعهدات عظيمة بأنهم سوف يسافرون من هنا إلى روما، وإلى القديس جيمس (في كومبوستالا)، أو إلى بيت العذراء المباركة(في لوريتو Loretto)،

لو أنهم فقط نجو من هذا الموت، لأنه فقط عندما يكون الموت حاضراً أمام أعيننا نخاف منه، ولقد تذكرت الأقوال المأثورة للفيلسوف آنا كاريسيس Anacharsis الذي قال بأن الذين يكونون في البحر، لايمكن عدّهم لابين الأحياء ولا بين الأموات، فضلاً عن هذا لقد قال بأنهم أبعدوا عن الموت بمساحة أربعة أصابع، والأربعة أصابع هي سماكة جوانب السفينة، وأيضاً عندما سئل: أي السفن هي الأسلم؟ أجاب:« السفن الموضوعة فوق أرض يابسة، وليست في البحر»، وبهذا أعلن أنه لايوجد أمن في البحر، بسبب مخاوفه الكثيرة والمفاجئة، وحدث أثناء هذه العاصفة المخيفة مفاجأة، فبدون توقع جاءت استجابة للمساعدة من السماء، ففي وسط أضواء البرق ظهر ضوء مثبت في الأعلى في الهواء فوق قوس السفينة لبعض الوقت، ومن ثم تحرك ببطىء خلال الغليون بطوله حتى مقدمته ثم اختفى، وكان هذا الضوء هو شعاع نار عرضها حوالي الغلوة، وحالما رأى قباطنة الغليون وعبيده، والملاحون الآخرون، وكذلك بعض الحجاج الذين كانوا فوق ظهر الغليون، حالما رأى هؤلاء هذا الضوء حتى توقفوا عن العمل، وأوقفوا صراخهم وضجيجهم وركعوا نحو الأسفل رافعين أيديهم نحو السماء، ورددوا بصوت منخفض لاشيء سوى «قدوس، قدوس، قدوس»، ولم نعرف نحن الذين كنا بالأسفل مالذي كان يحدث، فارتعبنا لدى هذا الهدوء المفاجىء والصمت، والصلاة غير المعتادة، وتصورنا أنهم تخلوا عن العمل بعدما قنطوا، ولهذا كانوا يصرخون «قدوس»، لأنهم كانوا على حافة الموت، ووقفنا مندهشين ننتظر ما الذي سوف تكون عليه نهاية هذا، وهكذا فتح أحدهم الباب الذي يغطي البويب الرئيسي للغليون، الذي من خلاله يأتي الناس من ظهر الغليون إلى القمرة، وكلمنا بالإيطالية بما معناه:«أيها الحجاج، سادتي، لاتخافوا لأننا في هذه الليلة وفي هذه العاصفة لن نعاني من الشر، لأننا تلقينا عوناً من السماء»، وبعد هذا وبما أن العاصفة استمرت، عاد عبيد الغليون إلى أعمالهم

المعتــادة، ولم يعــودوا الآن يصرخــون كما كــانوا من قبـل، بل عملوا بصرخات بهيجة، لأنهم لايعملون قط بدون صراخ.

وينبغي ألا يفترض أي إنسان أن الذي تحدثت عنـه بشأن الضوء هو مـزيف، لأنه صـادق بقـدر كل مـا هو ممكن، ويمكنني أن أبرهن عليـه بأيمان أكثر من مـائتي شاهد، هم أحيـاء في هذه الأيام، لأن ذراع الرب ليست قصيرة حتى تكون غير قـادرة على إنقـاذ، أولئك الذين كـانوا في وضع بائس.

وفي أثناء هذه العـاصفـة قطعنا مسـافة جيـدة على مسـارنا الصحيح، وأخيراً رأينا الريح قد قذفت بنا نحـو الميناء الذي تشوقنا للوصول إليه، واقتضى ذلك جميع تلك الليلة واليوم التالي، وعندما أشرق اليوم التالي، وبما أن العـاصفة كـانت مستمـرة، بقينا هادئين، وتحملنا أحـوالنا بصبر، ذلك أننا كنا بلا مـاء ولاطعـام، ذلـك أنه لم تكن هناك نار في الغليـون، وكـــان المطبخ على السطح ملىء بالماء، بالإضـــافــة إلى ذلك كنا جميعـــاً مصـابين بدوار البحـر، وأنفسنا عـائفـة لجميع الأطعمـة والأشربة، لأن معدة كل واحد منا كانت مضطربة غير مستقرة، وفي الحقيقة ما من أحد منا أكل شيئاً في أثناء استمرار تلك العاصفة، وتمكن من إبقاء الطعام في جوفه، بل تقيأه ورماه ثانية، ومـا من شيء أفضل من إبقاء المعدة خاوية أثناء العواصف، فضـلاً عن هذا كان الخبز كله قد فسـد، ولم يكن قابلاً للأكل بالماء المالح، ولهذا كنا مرغمين على الصيام.

وتابعنا الإبحـار في اليـوم التـالي، وقـد خلفنا مـدينة راغـوسـا -Ra gusaعلى يميننا، وكورزولا على يســارنا، ووصلنا إلى مدينة ليسينا، حيث نزلناها، فأنعشنا أنفسنـا، وتخلصنا مما كنا نعانيـه من دوار البحـر، وقد بقينا في ليسينا لمدة ثلاثة أيام، لأن الرياح في البحر كانت قوية جداً، مع أنه كـان هواءً لطيفـاً بالنسبة لنا، وانتظرنـا أيضاً حتى تسترد السيـدة الحامل قـواهـا، ذلك أنها عـانت كثيراً، وغـدت ضعيفــة جـداً في أثناء

العاصفـة، وفي الحقيقة كـان أمراً عجباً أنها لم تهلك مـع حملها أثناء ذلك الوقت العصيب، وبعد هذا أبحرنا من ليسينا بريح طيبة.

لكن مع حلول المساء ازدادت الرياح قوة، ورمت بنا جانباً بين أماكن وعـرة، مليئة بالعشب والصخـور، حيث كـان من غير الممكن الابحـار أثناء الليـل، والتجأنا إلى سفـح جبل وعـــر، وألقينا بالـدليل، محاولين العثـور على قعـر يمكن أن نلقي المرسـاة فـوقـه، لأن الظلام حلّ علينا بشكل مفـاجىء، حتى أننـا لم نستطع الوصـــول إلى ميناء، كما لم يعـد بإمكاننا متابعة السير، وفي هذه الأثناء، عنـدما كنا قريبين من الجبل وكنا نحاول إدارة رأس الغليون نحو الريح، تعـرض لضربة قاسية من الريح والأمـواج، وكانت من العنف بمكان أنه لم يعـد من الممكن التحكم به، وبات مهـدداً بأن يمضي قـوسه نحـو الشـاطىء فوق الصخـور الحادة، وكان معنى ذلك تحطم الغليون، وعنـدما رأى رفيق الغليون أن المركب يتأرجح، وصل صراخهم نحـو السماء، وبدأوا يركضون إلى هذا الإتجاه وذاك، واستعدوا للقيام بالنجاة بأنفسهم.

وفي تلك الأثناء كنـا نحن مع الأسقفين جميعـاً في الأسفـل، عندمـا ركض خدم الأسقفين نحو البويب الذي كـان فوقنا، وصرخوا بصوت مخيف ومرعب قائلين:« سادتنا تعـالوا إلى الظهر، المركب قد تحطم وهو يغـرق»، ولدى سماع هذا الصراخ قفـز الأسقفـان وأتبـاعهما، وركضـوا نحو ظهـر المركب في فوضى عظيمة، وذلك مثلما فعل الآخـرون، وكان هناك تصادم على السـلالم المرافقة، واندفـاع سريع نحو مـؤخرة المركب، للحصول في داخل القـوارب التي كانت قـد أقلعت، فقد كان مـلاحوا السفينة مع عبيدها قـد استلوا سيوفهم وقطعـوا بها الحبال التي أمسكت القـــوارب، وهكـذا سقطت القـــوارب في البحـــر في سبيل أن يتمكن القبطان نفسه مع أخيه وزوجة أخيه وأتباعه، من النجاة أولاً.

وعلى كل حال لم ينزل أحـد إلى القوارب، ولو أن رجـلاً واحداً نزل

إليها لكان هناك مشهداً مرعباً من الفوضى، حيث كان هناك عدداً كبيراً ممن سيحاول القفز إلى القوارب، وبذلك يؤذي الآخرين الذين على ظهر القوارب، وسيقوم هؤلاء برميهم في البحر، وسيستل الذين يكونون في القوارب سيوفهم وخناجرهم ويمنعون الآخرين من الدخول عليهم، لأنه في مثل هذه الأوقات من الرعب، غالباً ماتحمل القوارب أكثر من وزنها وتغرق، ويقوم الرجال الفقراء بمحاولة إنقاذ حياتهم، فيندفعون قبل الآخرين، وبذلك يتعرضون للقتل بسيوف النبلاء وسيوف خدمهم، فضلاً عن هذا فإن الذين يرون المخاطر التي يحياها الذين هم في القوارب، يقومون بسيوفهم فيقطعون أصابع وأيادي الرجال المتعلقين بالمجاذيف وبجانب السفينة لدى عملهم للحصول بالقوارب، وبذلك يسقطون في البحر، ولقد سمعت حكايات مرعبة عن جنوح سفن وتعرضها للغرق، من الذين كانوا في مثل هذه المخاطر، التي بدا أننا كنا على وشك المعاناة منها.

وحدث أيضاً على كل حال أن الرب أنقذنا، فقد هدأت الفوضى، وربطت السفينة إلى الصخور، وطويت الأشرعة، وألقيت المراسي، وبناء عليه، بما أن عبيد الغليون، وصلنا بسبب إهمالهم وعدم اكتراثهم إلى هذه الحالة من الخوف، فقد جرت عقوبتهم بضربهم بشدة، غير أننا نحن الحجاج توسطنا من أجلهم، بعد ماتلقينا الرحمة الربانية التي أنقذتنا، وذلك احتذاء بمثلها، مع أننا لم نكن جديرين بالإنقاذ من الموت، وتابعنا في اليوم التالي السفر على طريقنا، وغادرنا يادرا Iadera، وهي إحدى مدن دالماشيا، وقد خلفناها على يسارنا(كذا)، وتابعنا جرينا أمام الريح، لكن مع حلول المساء، شرعت ريح قوية جداً بالهبوب، ومع ازديادها فيما بعد، أصبح البحر هائجاً، وقد دفعنا إلى خارج مسارنا إلى أماكن جبلية، ومع ذلك لم نتجرأ على الإقتراب من الشاطىء، خشية من أن نصطدم بصخرة سيلا Scylla أو كاريبدس Charybdis،

ووصلنا إلى مجرى هوائي، حيث كـانت الريح فيه ثقيلة جـداً، ومع هذا حاولنا أن نلقي مراسينا في وسط هـذا المجرى، وبناء عليه رمينا بدليلنا، فوجدنا العمق كان هائلاً، ولهذا أبحرنا لمسافة أوسع، ولكن لدى غياب الشمس وحلول الظلام، لم يعـد بإمكـاننا المسير مسـافـة أبعـد من دون مخاطر عظيمة، وأجـرينا عملية القياس مجدداً، ووجدنا القعـر، لكنه كان عميقـاً جـداً، ومع هذا رمينا مـرساتنا الكبيرة، لإمسـاك الغليـون، لكن عندمـا وصلت المرساة إلى القعـر لم تجد لاصخـور ولاحجارة ولارمـال يمكن أن تلتصق بها شعـابها، بل جـرت وراء الغليـون فـوق قعـر الماء، وذلك أثناء متـابعـة الغليون لإبحـاره، مما أقلقنا كثيراً، وبعـد هذا، وإثر بذل جهـد عظيم انتشلـت المرسـاة، وألقي بها في مكان آخـر، ومجدداً جـرت المرسـاة وراء الغليـون، مثلما يجري المحـراث وراء الحصـان، ثم رفعت مجدداً، ورمينا بها في مكان ثالث، حيث أمسكت بصخـرة، ولكن عندما توقف الغليـون، كانت عصـا التوجيه تتحـرك من مكان إلى آخر، مما أدى إلى انزلاق شعبـة المرسـاة من على هذه الصخـرة، وبدأ الغليـون بجـر المرسـاة مجدداً، لكن حـدث فجأة أن وصلت المرسـاة إلى صخـرة أخرى، حيث التصقت بها بشدة، وهكذا بقينا واقفين طوال الليل.

وحملنا نحن الحجـاج أنفسنا إلى فـرشنا، لكن القبطـان بقي مع جميع الملاحين وعبيد الغليـون بدون نوم طوال الليل، متوقعين مـوتهم وموتنا في كل لحظة، لأن الريـح هبت بشكل عنيف، وتأرجح الغليـون كثيراً، لأننا رسونا خـارج ميناء، يحمينا من قوة الريح، وكـان الملاحون— لهذا السبب— يخشون انزلاق المرساة وخـروجها من الصخرة، أو أن ينقطع الحبل، ففي حـال حـدوث أي من الأمـرين سـوف نهلك بدون شك، ذلك أننا كنا في قوارنيرو Quarnero ، الذي كان أخطر خليج في البحر ، وذلك في مقابل ميناء أنكونا Ancona ، حيث كان البحر عالياً جداً وقوياً في سرعته.

ولهذا، وتقديراً من القبطان للمخاطر التي كنا فيها، نذر أنه ما أن يصل إلى ميناء بارنزو Parenzo سوف يبحر مع جميع الحجاج مباشرة إلى جزيرة القديس نيقولا، ليستمع هناك لقداسات تقال وتنشد للشكر على خلاصنا، وهذا مافعلناه، لأننا قمنا بالصباح برفع المرساة، وأبحرنا مروراً بعدد من مدن دالماشيا، ووصلنا إلى بارونزو في استريا، وذهبنا في اليوم التالي مع القبطان، ونفذنا نذرنا، ومكثنا في بارنزو لمدة خمسة أيام، ثم وصلنا إلى ميناء البندقية بعد إبحار يوم واحد، وأخيراً وصلنا إلى البندقية، وتفرق جمعنا، ومضى كل رجل منا إلى موطنه.

وأصبحت في الوقت نفسه مريضاً، لكن ليس إلى حد أن أكون طريح الفراش، ومع ذلك كنت مريضاً جداً إلى حد منعي من المشي، أو ركوب حصان، حتى استرديت عافيتي، ولذلك ذهب مولاي جورج مع النبلاء الآخرين إلى الوطن، غير أنني بقيت في البندقية بين أيدي الأطباء لمدة حوالي خمسة عشر يوماً، حيث عوفيت بعدها واستردیت صحتي، فانطلقت من البندقية برفقة تاجر، واشتريت حصاناً من تريفيسو Treviso وسافرت مع رفيقي حتى ترنت Trent ، وسافرت من ترنت وحيداً حتى وصلت إلى الناصرية Nassereit ، وقد وصلت هناك بعد الظهر، فوجدت بالنزل، أربعة من أخواني الحجاج من الأرض المقدسة، وكانوا من الإنكليز، وقد حيينا بعضنا بعضاً بسرور وبهجة، وكانوا يقومون بالإستعداد للسفر، ويأملون بعبور الجبل الذي اسمه سيريسيوس Sericius في ذلك اليوم نفسه، غير أنني رجوتهم الانتظار حتى الغد، حتى يمكننا السفر إلى أولم مع بعضنا، وقد طلبوا مني أن أركب معهم، لكنني رجوتهم بالبقاء معي باسم حق الرفقة والصداقة، ولكنهم رفضوا، لأنهم— كما أخبروني— قد سمعوا بشكل مؤكد، أنه سوف تصل في ذلك اليوم بالذات مجموعة كبيرة من الفرسان المسلحين، التابعين لبلاط دوق النمسا، إلى تلك القرية والنزل،

وهم يرغبون بتجنبهم، لأنه لم يكن سليما العيش بين رجال مسلحين.

وهكذا افترقنا، وابتعدنا عن بعضنا بعضاً ثانية، فقد ذهبوا، وبقيت أنا خلفهم، وجاء في المساء إلى النزل عدد كبير من النبلاء المسلحين مع أتباعهم، وكانوا مرسلين من قبل دوق النمسا للدفاع عن قلعة كريجين Kregen التي كان ايبرهارد Eberhard الأكبر صاحب وورتمبورغ Wurtemburg محاصراً لها، ويحاول تدميرها، وعلى هذا كان النزل مليئاً برجال مسلحين أشداء، لكنهم عندما عرفوا بأنني قادم من الأرض المقدسة عاملوني باحترام ككاهن وراهب، وكذلك كجندي من جنود الأرض المقدسة والضريح المقدس، ودعوني لعمل قداس لهم في اليوم التالي، ومن ثم بالسفر معهم، وقمت في اليوم التالي بعمل قداس لهم، وتناولت طعام الإفطار معهم، وعندما انطلقنا لنسافر سددوا الحساب عني، وأخذوني معهم وسط قوتهم بسرور ومتعة وراحة، وعندما وصلنا إلى كمبتن Kempten ، وجدت هناك في نزل التاج الملكي، الحجاج الانكليز الأربعة المتقدمي الذكر، وقد جرحوا، وضربوا وسلبوا كل مقتنياتهم، وكانوا في حالة محزنة جداً، ومخجلة وتعيسة.

فقد انقض عليهم في الغابة على مقربة من كمبتن لصوص، أنزلوهم من على خيولهم مرغمين بالسيوف، وعندما حاولوا صد القوة بالقوة، والدفاع عن أنفسهم، أصابتهم الجراحات بضربات سيوفهم، وقاموا بشد وثاقهم، وجروهم بعيداً عن الطريق العام إلى داخل الجزء الداخلي من الغابة، إلى حقل معزول منفرد، وقاموا هناك بسلبهم وسط إهانات كثيرة، وفتشوا في جيوبهم، وأفرغوا محافظ نقودهم وجعبهم، وعروهم من ملابسهم تماماً، وبحثوا في ملابسهم بكل عناية ليعرفوا فيها إذا كانوا قد خاطوا على شيء من المال فيهم، وأعطوهم أخيراً بعضاً من الملابس السيئة بدلاً عن ملابسهم، وأرغموهم على أن يقسموا يميناً أنهم في

مجال ثلاثة أيام لن يخبروا أحداً بما حدث لهم.

ولقد أسفت كثيراً من أجل إخواني، إنما هنأت نفسي لأنني لم أبق بصحبتهم، لأنني لو بقيت لوقعت مثلهم في أيدي هؤلاء اللصوص، ووصلت في اليوم التالي إلى ميمنجن مع هؤلاء الفرسان، وأمضيت ذلك النهار معهم، وفي اليوم التالي الذي كان يوم عيد القديس أو ثمار -Oth mar[٢٥— تشرين أول]، سافرت من ميمنجن إلى أولم بصحبة كاهن.

ولدى دخولي إلى ديري، استقبلت بسرور ولطف، ومن ثم ذهبت إلى قلايتي وإلى عملي المعتاد فيها، ويمكنني القول صادقاً، إن هذا الحج الأول الذي قمت به، يعادل مائة ضعف من حيث المتاعب والمآسي، أو أكثر، من حجي الثاني، وهو أعظم خطراً في كل من البحر والبر، وكانت جماعتنا في الحج أثناء حجي الأول أكثر فوضوية، لأنه كان فيها كثيراً من الرجال الانفعاليين، ولهذا كانت هناك خصومات يومية، كما كان هناك بعض السرقات الخاصة، وكان بعضهم دوماً مريضاً، وفي الحقيقة، كانت رحلتي الاولى هذه في كثير من الجوانب أكثر حزناً وتعاسة، في حين كانت رحلتي الثانية أكثر اتعاباً، وأبعد مسافة، وأعظم انفاقاً، وأشد خطراً، ومع ذلك تحملت أكثر فأكثر المخاطر اليومية في رحلتي الثانية.

وبهذا يمكن لجميع الناس أن يروا بوضوح، كيف أنه غير صحيح، ماهو رائج بين الناس في قولهم بأن الحج بالبحر من البندقية إلى الأرض المقدسة، هو مجرد رحلة ممتعة مع مخاطر قليلة، أو بدون مخاطر على الإطلاق، فيا إلهي أية رحلة متعبة وصعبة كانت رحلتنا، وكم كانت المعاناة التي كابدناها كبيرة ومزعجة، فلقد رأيت خلال هذه الرحلة كثيراً من الشباب النبلاء النشطاء يهلكون، من الذين تصوروا في أذهانهم أن بإمكانهم أن يتحكموا بأمواج البحر، وأن يرفعوا الجبال

العـاليـة ويزنوها، لكن الذي مـات بالأخير مـات بقضـاء الله العـادل، وهلك بفعل المصاعب، وكان أمره محزناً في روحه.

أرجـو الرب أن يعطي الذين قـالـوا بأن هذا الحج كـان رحلة سهلة، القدرة على الشعور بالأسفِ وأن يتعلموا امتلاك الرحمة نحو الحجاج إلى الأرض المقدسة، وذلك حسب مايستحقـونه، فمحاولة هذا الحج تحتاج إلى الشجـاعـة والقـدرة على التحمل، ذلك أن كثيرين يقـدمـون عليهـا ويندفعون نحـوها بتسرع غير مغفور، وبلا شك بفضـول بليد، ذلك أن الوصـول إلى الأمـاكن المقـدسة، ومن ثـم أن يعود الإنسـان إلى مـوطنه نشيطاً ومعافى، هو منحة خاصة من الرب.

هنا نهاية أولى جـولات الراهب فيلكس فـابري ورحـلاته إلى الأرض المقدسة.

الطريقة التي استعد بها الراهب فيلكس فابري لجولته الثانية أو حجه إلى الأرض المقدسة، والقدس، وصهيون، وجبل سيناء

بعـد إكمالي لجولتي الأولى، حسبما شرحتهـا جـزئيـاً، عـدت إلى أولم، معـافى في بدني، وبدوت سعيـداً متحمســاً، لكن كنت في قلبي وروحي حزيناً، وغير مستقر، بسبب القلق الـذي شعرت به، لأنه كان عليّ تحمل حجـاً آخر، وعـودة إلى الأرض المقدسـة، وعلى كل حال لم أخبر أحـداً بهذا القـرار، ذلك أنني لم أكـن قـانعـاً بأي حـال مـن الأحـوال بحجي الأول، لأنه كـان قصيراً إلى أبعـد الحدود وسريعاً، وقـد ركضنا حـول الأمـاكن المقدسـة دون أن نفهم أو نشعر مـاذا كانوا، يضـاف إلى هذا لم يكن قــد سمح لنا بزيارة بعـض الأمـاكن المقــدســة في كل من داخل القـدس، وفي خارجهـا، كما أنه لم يسمح لنا بالسير فوق جبل الزيتـون، وفي أمـاكنه المقدسـة أكثر من مـرة، وقـد زرنا بيت لحم وبيت عنيا مـرة واحدة فقط، وكان ذلك في الظلام.

ولهذا حـدث بعـد عـودتي إلى أولم، وشروعي بالتفكر حـول الضريح الأكثر قـداسة لربنـا، والمعلف الذي تمدد فيه، ومـدينة القدس المقـدسة، والجبـال التي هناك من حــولها، ومظهـر وشكل وأوضـاع هذه الجبـال والأماكن المقدسة الأخرى، ذلك أنها ضاعت من ذاكرتي، حتى بدت لي الأرض المقدسـة، والقدس مع أماكنهـا المقدسة وكأنها مغلفـة بالضباب الكثيف، وكأنني قـد رأيتهـم في المنام، وبدوت شخصيـاً بالنسبـة لنفسي وكأنني أعـرف أقل حـول الأمـاكن المقـدسـة، مما كنت أعـرفـه قبل أن أزورهم، ولهذا حدث أنني عندمـا سئلت عن الأماكن المقـدسة، لم يكن بإمكاني إعطاء أجـوبة دقيقة واضحـة، كما لم يكن بإمكاني كتـابة وصف واضح لرحلتـي، ولهذا السبب كنت حــزيناً إلى أبعــد الحدود، ولكوني عانيت مـا عانيته من متاعب،وشقـاء، ومخاوف، وأنفقت مبلغاً كبيراً من المال، وكثيراً من الوقت، دون أن أتلقى أية ثمار، أو مواساة، أو معرفة.

وفي غالب الأحيان عندما كنت أحاول حصر نفسي وتوجيه أفكاري نحوالقدس والأماكن المقدسة، كنت قادراً فقط على تجميع صورة غير واضحة حولهم، ولهذا قلت وأنا مغضب لنفسي:«أرجوك، توقفي عن التفكير حول هذه الأماكن، ذلك أنك كنت هناك بالتوهم والخيال فقط»، ومن هذه الساعة اعتدت على امتلاك رغبة ملحة جداً بالعودة، وبرهنت على صحة هذا غير أن هذا أوجد أسفاً جديداً بالنسبة إليّ وفيّ،لأنني لم أستطع رؤية أي سبيل للرجوع إلى هناك، كما أنني لم أتصور أن ذلك العود ممكناً.

وهكذا بقيت مرهقاً فكرياً، ولم أتجرأ على الحديث حول هذا الموضوع مع أي إنسان، وكنت خائفاً من ذكر هذا الموضوع إلى الأب المحترم السيد لودويغ فوكس، مع أنه كان صديقاً مقرباً مني، وشريكاً لي في جميع أسراري، حيث ما كنت أتردد في إخباره بجميع الأشياء السرية التي كنت أشعر بها بقرارة نفسي، ومع هذا لم أتجرأ على البوح بذلك لأبي بالرب، ولم أذكر له خطتي بالعودة إلى القدس، خشية من إثارته وإزعاجه، وخشية أنه وغيره عندما يسمعون بذلك سيظنون ظن السوء بي، ويحكمون بأنني صاحب عقل خفيف، ومتضايق من العزلة الانفرادية الهادئة، أوربما أعاني من إغواء الشيطان، أو مدان بذنب الفضول المرفوض، أو مصاب بدوافع طائشة ملتهبة جامحة، ولذلك بقيت بلا قرار، ولم أظهر إشارة بما شعرت به سوى أنني عندما سئلت عن القدس وعن الأرض المقدسة، لم يكن بإمكاني الكلام بدون تنهد، أو القول أحياناً:لست أدري فيما إذا كنت قد رأيت القدس حقيقة أم لا، وعندما سألوني، فيما إذا كنت أرغب بالعودة إلى هناك ثانية، أجبت بكل بساطة، نعم أنا أرغب بذلك، وفي الوقت نفسه ألقتني رغبتي في العودة في قلق محموم، ولذلك لم تقدم لى الدراسة، ولا الكتابة أية بهجة أو متعة، إلاّ الحكايات التي وردت في التوراة وفي أماكن أخرى فيها

إشارات وذكر للقدس، ولهذا قرأت بعناية كل شيء تعلق بهذا الموضوع، ووصل إلى يديّ، فضلاً عن هذا جمعت كل حكايات حجاج الحروب الصليبية، والرحلات التي كتبت من قبل حجاج، وكذلك أوصاف الأرض المقدسة، وقرأتهم بعناية، وكنت كلما قرأت أكثر كلما ازداد اضطرابي، لأنني بقراءتي لروايات الآخرين، علمت كم كان حجي، ناقصاً، ومصطنعاً، وغير نظامي، ومضطرباً متداخلاً.

وأمضيت في أعمال القراءات والكتابات هذه سنة واحدة، لكن بعد مضي سنة عدم الاستقرار هذه، قدم إلى منطقتنا القائد العام لطائفتنا كلها، أي طائفة الرهبان المبشرين، وهو سالفوس دي كاسيتا، Salvus de Casseta أوف بالرمو(بلرم)،وقد جاء مرسلاً من قبل الأب المقدس البابا سكتوس الرابع، للتصدي للسيد أندرو، رئيس أساقفة كارنيولا Carniola ، الذي تحرك لاأدري بأية روح، وكان يحاول عقد مجمع عام في بازل، وكان يسكن هناك تحت حماية الامبراطور فردريك الثالث، ومن أجل أن يتمكن رئيس طائفة الرهبان المبشرين المتقدم الذكر، من العمل بشكل فعال أكثر، استدعى أفضل الوعاظ في منطقتنا للاجتماع به في دير كولمار Colmar ، وقد بعثت بين هؤلاء، وقدمت إلى الدير المتقدم الذكر، لكي أسمع أوامره وأطيعها، وهكذا عندما كنت بحضرة رئيس الطائفة، كان بين الأشياء التي قلتها لذلك الأب، وتحدثت بها إليه، أن أخبرت فخامته وحدثته عن رغبتي بالعودة إلى الأرض المقدسة وفلسطين، فما كان منه إلاّ أذن لي بالذهاب مباشرة وبدون عمل أية مصاعب، وأعطاني رسالة سماح مختومة بختم الطائفة، فيها حظّر على كل واحد من المراتب الأدنى منه عمل أية عوائق في طريق إنجاز ذلك الحج.

ولدى حصولي على هذا السماح عدت مسروراً إلى أولم، وأبقيت رسالة الرئيس مكتومة، وانتظرت متشوقاً لفرصة مناسبة حتى أعلن

عنهـا، وليس بعـد مضي أيام كثيرة على هذا، حتى قـدم إلى أولم مـولانا المحترم في المسيح أودالريكـوس غيسلينوس Udalricus Gislinus أسقف أدراميتـــوم adramyttium ، ونائب أسقف لمولاي أسقف أوغسبورغ Augsburg ، الذي كان صديقاً لي، وقد شملني بمعـروفــه، وجـاء معــه حكيم باللاهوت، وكـــان راهبـاً من طـائفـة الـفرنسيسكان، وكـان راغباً بالذهاب إلى رومـا ليتسلم ترسيمه أسقفـاً، لأن السيـد أسقف فريزيا قـد جعل منه مسـاعد أسقف له، وقـد زرت هؤلاء السادة، ورجـوت الحكيم المتقدم الذكـر أن يتفضل عليّ فيحصل لي من الأب المقـدس البابا، على إجـازة لي لزيارة الأمـاكن المقدسـة فيها وراء البحـر، وهو مـــا رجـاه أيضـاً الأب المحترم المتقـــدم الذكـــر أودالريكوس أن يفعله إكـراماً لخاطره، وهكذا وعـدني بأن يفعل ذلك، وقـد حـافـظ على وعـده وبعث لي رسـالة تحتـوي على الاذن بالسفـر، وعندما حصلت على هذه الرسالـة حافظت على الصمت فقد كنت آمل بتوفر فرصـة موائمة أكثر، وكنت أرجو أن الفرصـة المرغوبة هي ستقدم نفسهـا، وتلبي رغبتي وتشـوقـي من دون أن أطلبهـا، وهذا مـا حـدث بالفعل.

وكان في ذلك الوقت في أولم رجل اسمه كونراد لوخرLocher ، وكان إنسـاناً محترماً يشغل وظيفـة النائب العام للامبراطورية الرومـانية المقدسة في ذلك المكان، وكان معروفاً بشكل جيد من قبل عدد كبير من النبـلاء، وقد نظر إليّ نظرة تقـدير وأولاني عناية خاصـة، وله — بحكم كـــونه صـديق مـــوثوق — فتحت أولاً قلبـي، وأبحت له خبر رغبتي، والاجـازتين التي حصلت عليهما، ورجوتـه إذاكان يعـرف أي شخص من نبلاء المنطقـة، يرغب بالقيام بالحج إلى الضريح المقـدس في القدس، وهو بحاجـة إلى خادم وشماس، فيـوصي بي إلى مثل هذا الشخص، على أنني إنسـان صاحب تجربة،ومعين في مثل هذا الحج في كل من القضـايا

الروحية والدنيوية.

وبناء عليه نظر الرجل المتقدم الذكر في لائحة نبلاء المنطقة، فوجد السيد ذي الأصل النبيل جون تروخسيس فون وولدبورغ John Tru-chesess Von Woldpurg ، كان يعدّ العدة للقيام بحج إلى ما وراء البحار مع عدد آخر من البارونات والنبلاء، وقد زار هؤلاء النبلاء، وقام بإخلاص عظيم بالتوصية بي لهم، كما برهنت الأحداث.

لأنه مباشرة بعد هذا، وكان ذلك في سنة ١٤٨٣، وفي يوم عيد القديسة العذراء جيرترود Gertrude ، قام النبيل المتقدم الذكر، أي تروخسيس فون وولدبورغ، بالقدوم إلى أولم مع عدد كبير آخر من النبلاء، ومن أصدقائه، وأرسل على الفور رسولاً إليّ واستدعاني من الدير، وعندما قدمت إليه إلى النزل الذي كان نازلاً به، وبدأ يسألني، وكأنه يطلب مشورتي حول كيف يمكن للذين يرغبون بعبور البحر والقيام بالحج إلى القدس، أن يفعلوا ذلك، وما الذي عليهم القيام به بشأن هذه القضية، وقال:«لقد سمعت بأنك كنت في تلك المناطق فيما وراء البحار، أرجوك، أشر عليّ، ما الذي ينبغي أن أفعله من أجل أن أعود إلى الوطن سالماً»؟ ثم استطرد يقول:«إنني أنوي زيارة الأرض المقدسة، ومدينة القدس المشهورة، ومعلف الرب، الذي هو الأكثر عذوبة، وضريح الرب الأكثر تمجيداً»، وقال:أخبرني، «أرجوك بحرارة، ما هي المصاعب في طريقي،وكيف يمكن تجاوزها»؟، وعندما كنت أجيبه على أسئلته،كان ينظر إليّ بإخلاص عظيم، ومع أنه توقف عن سؤالي مثلما فعل في البداية، لكنه استوضح عما إذا مازلت أمتلك أيةرغبة في العودة إلى القدس، فأجبته أنه لايوجد شيء في العالم أنا متشوق إليه بشدة، في الوقت الحالي، أعظم من رؤية ثانية لهذه الأماكن المقدسة، وبعدما علم هكذا رغبتي بالذهاب، جعلني هذا النبيل أعود إلى ديري، مؤكداً لي، أنه ينبغي أن أذهب إلى القدس برفقته ورفقة

أصدقائه.

وكان النبـلاء التاليـة أسماؤهم قد تعهـدوا مقسمين على القيام بالحج مع بعضهم، وهم: السيد جون وورنهير Wornher ، بارون فون كيمبيرن Cymbern ، والسيـد هنري بارون فـون ستـوفل -Stoe fel ، والسيد أورسـوس Ursus فون ريخبيرغ Rechberg فون هوهنريخبيرغ Hohenrechberg، والسيد المتقـدم الذكر تروخسيس فـون وولـدبورغ، الذي كـان والد جميع المتقـدمي الذكـر، ومنـه تلقـوا التحريض والدافع الذي جعلهم يقررون القيام بحجهم.

ومبـاشرة في السـاعـة نفسهـا التي عـدت بها إلى ديري، أرسل النبيل المتقدم الذكر رجلاً محترماً مرافقاً بحاشيته الخاصة، ليلقي كلمة يرجو بها السيد المحترم رئيس الدير، باسم البارونات النبـلاء الذين تقدم ذكرهم، بأن يتكرم ويحسن بمنـح الراهب الذي كـان في بلدان مـا وراء البحـر، والذي وقع اختيـارهم عليـه بـالاجماع لأن يكون شماسهم والقس الذي يعترفـون إليـه، إجـازة بالمغـادرة، وإذناً بالسفـر من البـلاد معهم، ولهذا الغـرض أضفت بأن السيـد جـون تروخسيس قـد قدم الآن مع رفـاقـه والنبلاء الآخرين إلى هذه المدينة.

وعندمـا سمح رئيس الديـر هذا افتعل كثيراً من المصـاعب، وأخـذ وقتـاً لتقدير الجواب الذي ينبغي أن يعطيـه، وعندمـا رأى السيد جـون هذا، وخشية منه أن ينتهي النقاش في شيء يضـاد رغباته، قام مباشرة في اليوم التالي، وجلب معـه جميع النبلاء وأصدقائـه، وكذلك النبيل كونت فون كيرخبيرغ Kyrchberg الذي جاء أيضاً معــه، ولقد اصطحب هؤلاء جميعـاً وذهب إلى مقـر محكمـة العـدالة المدنيـة، حيث كـان جميع أعيان مـدينة أولم مجتمعين، وترجاهم لكـي يستمعوا له، وعندمـا جرت الاستجـابة لهذا الطلب، توسل إلى القناصل لكي يستخـدمـوا نفـوذهم لدى رئيس دير الـدومينيكان لكي يدع الراهب فيلكس، الـذي اختـاره

هو ورفاقه ليكون شماسهم أثناء الحج فيما وراء البحار، يدعه يغادر بدون عوائق، ولاسيما أنهم يعرفون بشكل خاص أنه راغب بالذهاب، وبناء عليه دخل عمدة المدينة مع عدد من القضاة إلى الدير ليلتمسوا من الأب، الموافقة على التماس النبلاء، من أجل خاطر أعيان المدينة، وعندما قال بأنه لايمتلك السلطة ليمنحني إجازة للارتحال إلى القدس، لأن ذلك العمل هو في يدي أبينا المقدس، البابا، وكذلك هو من شأن القائد العام للطائفة، قمت على الفور بتقديم الرسالتين، اللتين هما من البابا، ومن القائد العام للطائفة، وعندما رآهما أعطى على الفور موافقته باسم الرب.

وبناء عليه التقيت بالسيد جون تروخسيس، وتباحثت معه حول المكان وحول اليوم الذي سألتقي به فيه مع سادتي الثلاثة الآخرين، وقام بتحديد يوم خاص، أما بالنسبة للمكان فقد كان بلدة إنسبروك Innspruck حيث مقر دوق النمسا، وبعد إعداد هذا، ذهب سيادته إلى موطنه مع جماعته، واعتباراً من هذا اليوم أطلقت لحيتي، وزينت قبعتي وردائي بصليبين حمراوين، وجرت خياطة هذين الصليبين على ثيابي من قبل عذراوات، مكرسات للرب، اقترن بالذي صلب، وعملت جميع الشارات الأخرى لذلك الحج المقدس، كما ينبغي أن أفعل بشكل صحيح، حيث هناك أربطة خمسة خارجية للحاج هي: أولها صليب أحمر فوق رداء رمادي طويل، مع قلنسوة راهب مخاطة إلى القميص، ما لم يكن الحاج منتمياً إلى إحدى الطوائف التي لاتسمح له بارتداء رداء رمادي، وثانيها قبعة سوداء أو رمادية، عليها في الواجهة صليب أحمر، وثالثها لحية طويلة نامية من وجه حاد وممتقع اللون بسبب متاعبه والمخاطر، ذلك أنه في كل بلد من البلدان، حتى في البلدان الكافرة، يطلق الناس لحاهم ويدعون شعورهم تطول أثناء سفرهم، وإلى أن يعودوا إلى وطنهم، ويقولون إن أول من فعل ذلك هو أوزوريس،

وكان ملكاً قديماً لمصر، وكان مقدساً إلى درجة عدّه رباً، وكان قد ارتحل خلال العالم كله، والرابع هو مخلاة تعلق على الكتفين فيها طعامه القليل مع زجاجة، وهي كافية ليس لرغد العيش، بل لمجرد ضرورات الحياة، والخامس، وهو مايحصل عليه فقط في الأرض المقدسة، وهو أتان، مع سائق مسلم، عوضاً عن عصاه.

وهكذا تطلعت بشوق عظيم إلى يوم مغادرتي، وبصمت وهدوء جهزت نفسي من أجل حجي المقدس، وذلك بسبب المشاكل التي أثارها الذين كانوا قلقين على سلامتي، والذين دأبوا على إزعاجي.

هنا بداية الرحلة الثانية للراهب فيلكس فابري إلى الأرض المقدسة والقدس

الجزء الرئيسي الثاني من الكتاب كله.

سوف أبدأ الآن جولاتي حول حجي الأكثر رغبة فيه والذي كان الأعظم إشراقاً وسروراً، وهو الحج الذي عزمت على وصفه في اثني عشر فصلاً، تبعاً للاثني عشر شهراً — أكثر أوأقل — التي استغرقها الحج، وقد قسمت كل فصل إلى كثير من العناوين، مثلما هناك أيام في الشهر، وبناء عليه سوف يكون كل شهر في فصل، وكل يوم تحت عنوان.

ولسوف أبدأ بيوم مغادرتي، وأنتهي بيوم عودتي، وسآتي بشكل صادق وأمين على ذكر جميع الأماكن التي رأيناها شهراً تلو شهر، ويوماً تلو يوم، وسأتحدث بصدق عن كل ما نزل بنا في كل شهر، وفي كل يوم، مضيفاً أوصاف جميع الأماكن المقدسة وغيرها من الأماكن، لكي أحسّن روايتي وأشرحها، لأنني لم أر يوماً واحداً، أثناء رحلاتي، دون أن أكتب بعض المذكرات، حتى عندما كنت في البحر، وفي العواصف، أو في البلاد المقدسة، وغالباً ما كنت في الصحراء وأنا راكب على ظهر أتان، أو جمل، أو في الليل عندما يكون الآخرون نياماً، حيث كنت أجلس وأدون كتابة ما كنت قد رأيته.

والآن عندما اقترب موعد المغادرة، وبات عليّ السفر، ترقبت يوماً مناسباً يمكنني أن أغادر فيه أولم، من دون أن ألاحظ، ومن دون تجمع حشد كبير من الناس، لأن رفاقي وذوي النوايا الطيبة نحوي قد انزعجوا كثيراً، وكانوا غير سعداء إلى أبعد الحدود بسبب مغادرتي، وقدأزعجوني كثيراً بنصائحهم التي وجهوها إليّ بالبقاء في الوطن،

وبسبب مخاوفهم الحمقاء، وقد بدا نحيبهم بالنسبة لي مزعجاً جداً، لأنني أحب البهجة ولاأخاف، لأنني كنت ذاهباً لتلبية دعوة إلى الاحتفال مع أعز أصدقائي.

وبناء عليه في الثالث عشر من نيسان، الذي كان يوم أحد ويعرف باسم Misericor dia Domini وذلك في سنة ١٤٨٣، ومع حلول الظلام، جاء إليّ رسول أرسله النبيل السيد فيليب كونت كيرخبيرغ، يطلب مني القدوم في الصباح التالي بدون تأخير لزيارة الكونت والقيام ببعض الأعمال معه، وكنت في وضع الرئيس لجميع أسرتي،لأن جميع آل بيتي اعتادوا على الاعتراف إليّ، من كل من الكونتات والكونتسات، وعندما تتوفر أية مصاعب، يمكنني أن أتعامل معها، كانوا دوماً يكتبون رسالة إليّ، أو يبعثون إليّ للقدوم إليهم، وبناء عليه رتبت مع الخادم بأنني سوف أقدم عليه بصحبته في الغد.

وفي الرابع عشر، الذي كان يوم عيد تيبورتيوس Tiburtius وفالنتاين، وبعد قراءة القداس وتناول طعام الافطار دعوت للاجتماع بي جميع الرهبان، وقلت لهم أنني الآن أرغب في مغادرتهم والسفر، ورجوت بنيل مباركة الحج من أبينا المحترم المقدس لودويغ Ludwig، وقد اقتادني إلى السدة حيث رافقني كل رهبان الدير، وجثوت في وسط السدة بوجود القربان المقدس، وتلقيت المباركة من المذبح، وسط بكاء مرّ ونحيب من رئيس الدير وجميع الرهبان، وبعدما تلقيت مباركتي جعلني بكائي ودموعي غير قادر على القول وداعاً لإخواني الرهبان بالكلمات، لكن دموعي، ووجهي الحزين، وتنهداتي تكلمت عني.

وبناء عليه عانقت وقبلت كل واحد من إخواني، ورجوتهم أن يتذكروني في صلواتهم، غير أنني لم أستطع إلاّ بصعوبة بالغة إقناع الأب المحترم لودويغ بالبقاء مرتاحاً في البيت،لأنه أراد أن يراني سليماً حتى ميمنجن، كما فعل من قبل، لكنني رفضت كلياً أن أسمح له، حتى

لايعاني من ألم جديد واضطراب عندما نفترق، وعلى كل حال كنت لدى انطلاقي لهذا الحج مسروراً ومنتشياً، وروحي مبتهجة، ومع ذلك عندما تركت الأب، الذي هو صديق مخلص جداً، وغادرت إخواني المحبوبين إليّ كثيراً، الذين كانوا حزينين كثيراً ومحبطين، لم أستطع أن أمنع نفسي من ذرف دموعي.

وبعدما جرى جمع الحقائب التي نويت حملها معي، وبعدما وضعتها على ظهر الحصان الذي كنت قد اشتريته، امتطيت حصاني، وبت على نية السير والابتعاد برفقة خادم الكونت، لكن حدث لدى امتطائي لحصاني أن تحلق جميع إخواني الرهبان من حولي، ورجوني أن أتنبه وأن أعتني بكتابة مذكرات عن جميع الأماكن المقدسة التي سأراها، وأن أكتب رواية عنها وأجلبها معي إليهم، وذلك من أجل أن يتمكنوا أيضاً بأفكارهم — طالما لم يستطيعوا بأجسادهم — من الحصول على متعة زيارة الأماكن المقدسة، وقد وعدت إخواني بفعل ذلك، وخرجت برفقة خادم الكونت وقتها من الدير، وسرنا بدون جلبة وكأننا مخفين لأنفسنا، وخرجنا من المدينة، وعبرنا نهر الدانوب عبر الباب الذي يقود إلى جسر الضأن، وصدف أن هذا الحج قد توافق مع الحج الآخر، فيما يتعلق باليوم الذي بدأ به، ذلك أنني كنت قد بدأت حجي المتقدم في يوم عيد القديسين تيبورتيوس وفالنتاين.

وفي الحقيقة بدأت بعد مضي عامين رحلتي الثانية في اليوم نفسه والساعة نفسها، مثل الرحلة الأولى، وسرت أنا وخادم الكونت فوصلنا بسرعة إلى قرية ديسين Dissen ، وصعدنا بعد ذلك إلى القلعة القائمة فوقها، التي سكن فيها مولاي الكونت، وكان السبب في إرساله خلفي هو مايلي: كان يوجد في قرية جيدينشيم Jedensheim أو إيهديمشيم Iheidemsheim ، القائمة عند سفح الرابية التي قامت فوقها القلعة، كان يوجد هناك فتاة قد فقدت عقلها، التي من الممكن

تبيان أنها متلبسة من الشيطان، وقد أراني الفتاة وعرضها عليّ لأنظر إليها وأتفحصها، حتى يمكنني تقرير ما الذي يمكن العمل معها، وكان قراري أنها كانت فاقدة لعقلها، ولهذا كان الأجدى العهدة بها لعناية أطباء وليس لعناية لاهوتيين.

ومع انتهاء هذا العمل أخبرت مولاي الكونت، بأنني قد بدأت رحلتي، ورجوته أن يبعث معي بخادم يرافقني حتى سفح جبال الألب، لأنه بالنسبة للطريق خلال تلك المسافة غالباً ما يكون خطيراً، وقد خفت من السير وحيداً، وبناء عليه غادرت ثيسا Thyssa في ذلك اليوم نفسه مع الخادم الذي عين لي، وسافرنا حتى ميمنجن حيث أمضينا الليل.

وسافرنا في اليوم الخامس عشر مسرعين من ميمنجن حتى كامبتن Kampten، وهناك تناولنا طعام الغداء معاً، وبعد الغداء صرفت الخادم وطلبت منه العودة إلى سيده، ذلك أنني خشيت من احتمال أن يغادر مولاي انسبروك Innspruck قبل وصولي إلى هناك، ولذلك سافرت حتى قرية ريوتي Reutte القائمة على ضفتي نهر ليكوس Licus، وهو الذي يعرف بشكل عام باسم ليخ Lech، حيث أمضيت الليل هناك.

وغادرت في يوم السادس عشر ريوتي وحيداً، وكان ذلك في الصباح الباكر، وشرعت في تسلق ألب ريهتك Rhaetic، في مكان يقوم فيه المدخل إلى ريهتك الألب، وذلك فوق طريق منحدر، يكون في أوقات الأمطار سيئاً جداً للسفر عليه، لأنه عميق وموحل، وقد وجدت الطريق سيئاً جداً، لأنه كانت هناك أمطار في اليوم المتقدم، وتساقط الثلج في الليلة التالية فوق الوحول، ولهذا لم أستطع رؤية التجمعات المائية والحفر العميقة، وعلى هذا غرق حصاني الذي قدته طوال الطريق صعوداً حتى بطنه أثناء كل خطوة، وغرقت أنا مثله حتى ركبتي، فضلاً

عن هذا غرقنا معاً في حفر عميقـة، ومهما يكن من أمر لقد عبرت حتى حدود الريهتك ألب Rhaetic Alps ، التي هي موجودة عند مكان اسمه ايهرنستين Ehrenstein ، ووصلت إلى حيث يقود الطريق صعوداً فـوق مونـز فيريشيوس Mons Fericius، وعندما وصلت إلى قمة هذا المكان ونزلت إلى الجانب الآخر، وجـدت أنه مايزال أمامي جزء من النهار، ولهذا عبرت خلال قـرية الناصرية، وتسلقت ثانية جبلاً عاليـاً جداً ووصلت إلى قـرية Schneckenhusen ، حيث قررت إمضاء الليل.

وجلس في النزل بعـض عمال المناجم من مناجم الفضــة، وكـــانوا يقمـرون،ويشربون ويمتعــون أنفسهم، وقـد نظرت إليهـم نظرة ريبـة، وكنت حذراً في كلامي معهم، ووضعني صاحب النزل في غرفة صغيرة لوحدي، حيث قمت بإغلاق الباب بكل اتقان وحذر، ورحت نائماً.

وفي الصباح الباكـر من اليـوم السابـع عشر، عندما استيقظنا جميعـاً، كـــانـت هناك ضجــة كبيرة في دار النزل، لأن اثنين من الحمالين كـــانا يشتكيان بأنهما فقـدا نقودهما مع أموالهما كلها، لأنهما عندمـا كانا نائمين، دخل عمال المناجم إلى غــرفتهما، وسحبــا حــافظتي نقـــودهما من تحت وسادتيهما، وأفـرغاهن ورموهن في الحديقة المجـاورة لدار النزل، ونجوا مع المال، بينما كان كل إنسان نائم.

وعندما أشرقـت الشمس غادرت ذلك المكان، ومضيت مسـافراً على طريقي تخالجني المخـاوف مـن أن يكون أولئك اللصـوص قـد جلسـوا كامنين لي على الطريق، وعلى كل حال لم يلحقني أي ضرر، ووصلت في منتصف النهـار إلى بلدة إينسبروك Innspruck حيث أملت بلقـــاء مـولاي، لكن خـاب أملي، ويطلق على إينسبروك اسم بونتينا Pontina في اللاتينية، وذلـك اشتقاقاً من عبـارة بونز إن Pons Ini ، ذلك أن الجسر القـــائم على نهر إن Inn ، هو المعنـي بالألمانيــة بـــــاسم

إينسبروك، ولدى اقترابي من جسر البلدة، وعندما كنت على وشك الدخول إليه، قابلت خمسة رجال مسلحين، كانوا من أتباع موالي، حيث كانوا قد صرفوهم عائدين إلى موطنهم، عندما كانوا أنفسهم قد انطلقوا من اينسبروك في ذلك اليوم نفسه، وكانوا يعملون في بلاط الدوق منذ أيام طويلة، وكانوا متعبين من ذلك، ولذلك ما أن أنهوا أعمالهم هناك، حتى استأذنوا بالانصراف، قبل يوم واحد قبل الموعد الذي كان السيد جون التروخسيس قد حدده للقاء معي، وكانت الأعمال التي كان عليهم تصريفها مع الدوق هي أنه عهد إليهم بالمسؤولية عن كل ما خلفه وراءه هو ومن معه، أي:أزواجهم، وأولادهم، وأراضيهم، وقراهم، وبلداتهم، وقلاعهم، وكونتياتهم وإقطاعياتهم، فضلاً عن هذا كانوا قد تسلموا من الدوق رسائل توصية موجهة إلى أعيان وشيوخ البندقية، وكانوا عندما أكملوا هذا كانوا قد شرعوا بالانصراف.

وبما أنني لم أجد موالي في البلدة، عبرت من خلالها مسرعاً، من أجل اللحاق بهم، وتسلقت الجبال، وبعد عبوري الكثير من الممرات الملتوية بين الجبال، وصلت إلى واد كبير اسمه ماتري Matrae وأمضيت الليل هناك.

وفي يوم الثامن عشر تسلقت جبالاً أكثر علواً، وعبرت الممر الذي اسمه برينير Brenner ، حيث عانيت من البرد القارص، لأنه يوجد هناك دوماً حتى في الصيف جليد، وبخار على شكل صقيع، وذهبت من ذلك الشرف نزولاً إلى الطرف الآخر عبر طريق طويل سرت عليه حتى وصلت إلى بلدة ستيرتزنغ Stertzing حيث وجدت موالي في النزل مع نبلاء آخرين وأتباعهم، والذين وجدتهم هناك كانوا : السيد هينريخ Heinrich فون ستوفل، والسيد جون التروخسيس، والسيد أوسوس فون ريخبيرغ، غير أن العضو الرابع من جماعتنا، وهو السيد جون ويرنر Werner ، بارون فون سيمبيرن، كان قد مضى في

مقدمتهم وسبقهم، من أجل أن يحضر مكان إقامة موائم في البندقية من أجل السادة جميعاً، ومن هم في جماعتنا.

وفي يوم التاسع عشر من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد الغداء، ولدى مرورنا بدير نيوستفت Neustift ، العائد إلى طائفة كهنة نظاميين، على مقربة من بركسن Brixen ، خرج راعي الدير لاستقبالنا وأخذنا جميعاً إلى الدير برفقته، وقد فعل ذلك صدوراً عن احترامه للسيد جون التروخسيس، الذي عدّه حاميه، لأنه جاء من وولسي Walsee ، مقر السيد جون التروخسيس، وبفضله جرى تعيينه راعياً لذلك الدير، ولم يرغب راعي الدير المتقدم ذكره بأن يدعنا نذهب، بل أجبرنا على البقاء هناك، وعاملنا باحترام عظيم، ذلك أن الدير كان عظيماً جداً وثرياً، ونادراً ما رأيت في أي مكان آخر مثل الكثرة التي رأيتها هناك من صحون الذهب والفضة في قاعة طعام راعي الدير، ويمتلك هذا الدير كنيسة كبيرة، مزينة بشكل ثري، كما يحتوي على مكتبة جيدة، والرجال هناك متزمتين ومحترمين، ويرعون إقامة القداسات الربانية، ولاأعتقد أنني سمعت في أي مكان آخر مثل صحة غناء الجوقة وجودته في هذا الدير.

وفي يوم العشرين، الذي كان يوم أحد عرف باسم«اليوبيل» بقينا لسماع القداس الرباني، ومن أجل الغداء في نيوستفت، ثم غادرنا الدير، ومررنا مسرعين من خلال بلدة بركسن، لأن السادة قد علموا بأن الطاعون كان منتشراً هناك، وفي مرات مقبلة عندما مررت من هناك أمضيت الليل فيها، ويوجد فيها أسقفية غنية، وكان غالباً ما تنشب إثر وفاة الأسقف هناك صراعات بين النبلاء، حول الأسقفية، وهذه المنطقة كلها مشحونة بالخلافات والصراعات اللاهوتية، وكانت المنطقة كلها محرومة لاهوتياً، ويمكنني أن أتذكر الوقت الذي وضع فيه دوق النمسا الحالي سيغسموند Sigismund ، والمنطقة كلها تحت حرمان واضح

دقيق، وكانوا جميعاً محرومين كنسياً بسبب ما كان يتفجر من خلافات حول الأسقفية، وبناء عليه فإن كل إنسان عبر خلال تلك المنطقة، سواء أكان عارفاً أم جاهلاً، أصبح محروماً.

ويوجد هناك كنيسة كاتدرائية جميلة، فيها وقفت مرة مع واحد من إخواني الرهبان من طائفتي ورددنا الساعات القانونية في تلك الكنيسة، وبناء عليه قام مولاي رئيس تلك الكنيسة والقانوني الكبير فيها، فبعث شماسه إلينا، وسأل عما إذا كنا رهباناً متسولين، وعندما عرف صدق ذلك منحنا صدقات جيدة وسخية، ويمكن لدير لرهبان جيدين أن يكون مفيداً جداً هناك، لأنه لايوجد في الأسقفية كلها دير للرهبان المتسولين، فالرهبان القانونيين هناك متزمتين ومحترمين، ولذلك ليس هناك أي راهب سوى الذين هم في ريكوليت Recollets في نيوستفت، والدير في نيوستفت هو من ممتلكات هؤلاء الرهبان القانونيين، وليس قبل وقت طويل جداً كانت الكنيسة في نيوستفت كنيسة كاتدرائية، لكن عندما نقلت إلى البلدة، جرى وضع الكهنة النظاميين هناك.

وغادرنا بركسن وخلفناها وراءنا، فوصلنا إلى كونترسويغ Kun-tersweg ، حيث تابعنا سيرنا من جانبها بسهولة، لأن دوق النمسا قد حصنها بقوة، ويذهب الآن إلى أعلاها وأسفلها بعربات ذوات دواليب، وقد تخلو عن ممرات الخيول القديمة، وكان الدوق المتقدم الذكر يبني لهذا بناءً عالياً بنفقات عظيمة، ليكون بمثابة بيت طويل، وقبل أقل من سنتين مضيتا كان هذا الطريق على درجة كبيرة من السوء، وخطيراً إلى حد أن الانسان يستطيع عبوره وسط أعظم المخاطر، وهو يقود فرسه خلفه، وأنا أعرف درجة المخاوف والمخاطر عبر هذا الطريق عندما مررت به أثناء سفري في حجي الأول، لأنه يوجد على جهة اليمين وديان عميقة جداً، وكان الطريق شديد الضيق،

لوجـود شعاب جبليـة عـالية على يسـاره، ونظراً لأن هذا الطريق كـان ضيقـاً وخطيراً كان الأدلاء الشعبيـون يغنون حـوله، لكن الآن — كما قلت — بذل الدوق جهوداً فنية لكي ينسف الصخور بوساطة البارود، حتى يقطع واجهـات الشعاب الجبليـة، ويجرف بعيداً كميـات كبيرة من الصخور، وجعل بالانفاق العظيم من الأماكن الوعرة أماكن سهلة، ولم يقتصر هذا على هذه المنطقـة فقط، بل شمل منـاطق كثيرة من -Rhae tia التي هي خاضعة لحكمه.

وكـان طول الطريق المتقـدم الـذكـر ميلين ألمانيين، وعندمـا عبرناهما وصلنا إلى بلدة بوتزن Botzen، التي وجـدناهـا لسـوء حظهـا قـد تعـرضت مؤخـراً للحـريق كلياً تقـريبـاً، وفي الحقيقة لم تكن النيران قـد زالت كليـاً، بل إننا رأينا اللهب، وشممنا الدخـان وكان مـايزال ينبعث من بين أكـوام الخرائب، وكـانـت الديرة والكنائس قـد بقيت دون أن تتعرض للنار،وكان دير طائفتنا للرهبـان المبشرين قد تعرض للنار، لكن بفضل جهـود الرهبان الغيـورة، الذين عملوا من فوق الأسطحـة أمكن إطفـاء اللهـب، ومع ذلك تمكنت النيران من الانتشـار بقـوة، حتى أن ديرنا، لم يكن بالامكان إنقاذه إلاّ بأكثـر من العون البشري، لأنه عندما التهب سقف المهجع — كما أخبرني عدد من الشهـود الصادقين — قام رئيس الدير المحترم، الأب نيقـولا مـونخبيرغـر Munchberger، بالركوع على ركبتيه تحت اللهب، ودعا طالباً العون من العذراء المباركة، وهو ما تلقاه.

وكـان قـد حـدث قبل سنين كثيرة مضت، أن جـاءت النار إلى باب المدينة على مـرأى من جميع الناس، وانتشرت خـلال جميع الشـوارع، وأحرقت البلدة كلهـا، ومثلما ساد اعتقاد بأن النار المتقدمـة كانت بكل وضوح قد جـاءت انتقاماً من السماء، كذلك هو الاعتقـاد نفسه بالنسبة لهذه النار الأخيرة، لأن الناس هنـاك آثمين جـداً، سلمـوا أنفسهم إلى

السكر، وإلى المتعة والتكبر بلا حدود ولاقياس.

وفي الحقيقة كل شيء هناك رخيص جداً، وهناك وفرة عظيمة بالأشياء الجيدة، والخمرة هي بشكل خاص جيدة، وجميع الفواكه حلوة، لكن الهواء غير صحي، لأنه قد قيل بأنه يوجد من الجانب الذي من الممكن أن تهب منه رياح جديدة جبال عالية جداً، وقد دلني عليها إخواني الرهبان، وفي الوقت نفسه يوجد في الجزء الذي تتلقى منه البلدة الرياح، مستنقعات آسنة جداً، ونتيجة لهذا كله، هناك دوماً كثيراً من الأشخاص يعانون من أعراض الحمى، ومن الدارج كثيراً المعاناة من الحمى، لأنهم لايعدون الحمى مرضاً.

وعندما يلتقي واحد منهم بصديق، ويراه ممتقع اللون، ووجهه متغير يقول له:«ياصديقي، ما القضية أراك ممتقع اللون ومتغيراً»؟ يجيبه: في الحقيقة ياصديقي، إنني أشكر الرب لأنني غير مريض، لكن الحمى غيرت مظهري»، وهكذا حدث عندما كنت أزور بوتزن في إحدى المرات بصحبة صديق علماني نظر إلى البلدة وقال لي:«انظر إلى هناك يا أخي، أنا لاأعتقد أن هناك بلدة في العالم هي أبرد من هذه البلدة» واندهشت لقوله، فقلت له:«ليس الأمر كذلك، أعتقد أنها من أكثر البلدان دفئاً»، فأجابني:«إنني لم أقدم قط إلى هذه البلدة، حتى في أكثر الأيام حرارة، في أيام الصيف، دون أن أرى دوماً كثيراً من الناس جالسين هناك في فرائهم الشتوية، وهم ممتقعي اللون من البرد، وأسنانهم تصطك»، وقد قال هذا على سبيل المزاح، مشيراً بذلك إلى المعاناة من الحمى، ويعتقد كثير من الناس أن الشعب لايصاب بالحمى بسبب الهواء السيء، بل بسبب الخمرة الجيدة، والطبخ الجيد الذي يلتهمونه بأنفسهم فيصبحون مرضى.

وكانت هذه البلدة قبل سنين قليلة بلدة إيطالية، واللغة الايطالية كانت هي اللغة الرائجة فيها، بين الناس، وفي الحقيقة إنني أعرف كاهناً

إيطالياً، لايمكنه التفوه بكلمة ألمانية، وقد كان في شبابه ساعياً وواعظاً في الدير في بوتزن، لكن مع مرور الأيام، مع ازدياد تعداد الألمان، غدت البلدة بلدة ألمانية، والدير الذي كان من قبل من أملاك منطقة القديس دومينيك Dominic ، قد ألحق الآن بمقاطعتنا.

وقد أمضينا الليل في هذه البلدة، ورأينا كثيراً من الشقاء والتعاسة، لأن كثيراً من الناس كانوا يعيشون بين خرائب بيوتهم بدون أية أسقف، أو مكان للإيواء، وكان عدد كبير منهم يغادرون البلدة كمتسولين، مع أنهم كانوا حتى وقت قريب أناساً أثرياء، والآن يجري إعادة بناء البلدة، والأبنية التي يقيمونها الآن في تكاليفها أعلى من الأبنية التي كانت موجودة قبل النار.

وفي الحادي والعشرين من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد سماعنا القداس وتناولنا الغداء في دير طائفتنا، وقد جعلنا على جهة اليمين نهر أثيسيس Athesis أو لافيسيوس Lavisius(أدجي Adige) ، وهو الذي يعرف بشكل عام باسم ايتسخ Etsch ، ورأينا عبر أدجي منطقة هضبية خصبة جداً، مليئة بالقلاع وبالقرى، القرية الرئيسية بينها اسمها ترامينجم Tramingum التي هي قرية واسعة، وعلى مقربة منها هناك كروم تنتج خمرة ممتازة تصدر إلى سوابيا حيث هي معروفة هناك باسم ترامينجر Tramminger اشتقاقاً من اسم القرية.

وكان بيننا وبين أدجي، باتجاه بلدة ميران Meran مستنقعات عميقة، ويوجد خلف هذه المستنقعات في مقابل بلدة ترنت Trent تلال منخفضة، يقوم على قرنتها قلعة قديمة اسمها فيرميانوم Fir-mianum ، منها جاءت وصدرت أصول الأسرة النبيلة للوردات فيرميانوم، الذين رأيت بعضهم، وهذه القلعة مملوكة الآن من سيغسموند دوق النمسا، الذي يعيد الآن عمارتها على مستوى أوسع،

مع أسوار سميكة جداً، محيطاً إياها بأبراج كبيرة وعالية، وقد بلغت سماكة السور عشرين قدماً متعلاً، وتحتوي في زواياها الأربعة على أماكن إقامة واسعة وقد بنيت بقوة حيث واحدها منفصل عن الآخر بأسوار معترضة وبأبراج، ولكل مكان إقامة وسكن ساحة خاصة، واسطبلات للخيول خاصة، وبناء على ذلك يمكن لأربعة من الأمراء أن يقيموا هناك بأمان، وقد دخلت إلى القلعة، وكنت بها ورأيت كل ما فيها، وليس فيها ماء إلاّ ما ينضحونه بالدولاب من نهر أدجي، الذي يجري عبر الصخرة التي تقف عليها القلعة.

وكان هذا المكان سيء السمعة وممجوجاً كسكن بسبب النتانة الصادرة عن المستنقع، مما كان يسبب بسرعة موت السكان، وبناء عليه ولإزالة هذا كله، قام الدوق بالأمر بحفر مجاري في المستنقع، وذلك من نهر أدجي حتى الجبال، ولذلك يوجد الآن مروجاً جميلة، حيث كان من قبل مستنقع ناعم موبوء، والأقنية أنفسها مليئة بالماء المجرور من المستنقع إلى حد أن الناس يعبرونها صعوداً ونزولاً بالقوارب.

وأمر الدوق بزرع كروم طويلة جداً على ضفاف الأقنية من كلا الجانبين، حيث يجمع منها في موسم الجني حمولة ما يزيد على عشرين عربة من العنب الممتاز، ومع هذا، وعلى الرغم من زوال نتن المستنقع، لقد قيل ليس بمقدور أي إنسان أن يعيش في القلعة أطول من ذي قبل، وسبب هذا كما حدثني مؤخراً حاكم القلعة، هو أنها عالية شامخة، وفيها هواء صحي قوي، يجعل الناس الذين يعيشون هناك يشعرون دوماً بالجوع والعطش، وشهيتهم مثارة بشكل عظيم، حيث لو حاول إنسان أن يشبع فوق حده، يدمر نفسه، لأنه لايوجد خدم هناك، بل المائدة دوماً ممدودة وجاهزة عليها انتشرت الأطعمة، والخمور ليست مخبأة أو مقفول عليها، وتجعل هذه الوفرة المكان ليس عزيزاً على النفس.

وسألت حاكم القلعة عن الغاية التي جعلت الدوق يتكلف هذه

النفقات العظيمـة في مثل هذه القلعة المحصنة بشكل غـريب، في وقت نجـد فيه أن المنطقـة هناك من حـولها ملك لكونتيـة تيروك Tyrok ، فأجـابني بأنه فعل ذلك، من أجل أنـه إذا ما حـاول عـامـة الناس طرد رئيسهم، وتحرير أنفسهم من التـابعية الاقطاعيـة له، مثلما فعل الـ -Hel vetions ، أو السـويسريون، فـوقتهـا يمكن للدوق أن يلتجىء إلى تلك القلعة، وبذلك يمتنع من الذين سيرغمـوه على القبول والرضوخ، لأن القلعـة — حسبما يمكن للانسـان أن يقول — لاترام، وقـائمـة في حلقوم ذلك الوادي.

وتابعنا سفرنا، ووصلنا إلى نيـومارك Neumark ، التي هي قرية كبيرة واسعــة، حيث توقفنا لمدة سـاعــة في نزل حتى نعلف لخيــولنا ونريحها، وجاء في ذلك الحين رجل خادم إليّ، من البيت القائم في مقابلة النزل، وقــال بأنه أرسل من قبل واحــد من رهبــان طائفـة الرهبـان المبشرين، ليسألني مـن أنا ومن أين قــدمت، فأجبتـه إذا مــا أراد ذلك الراهب أن يعرف من أنا، ومن أين قدمت، يمكنه أن يأتي إليّ، ولسوف أعطيه جـواباً أدبياً، ثم قلت:«ذلك لأنني لـن أعطي أي جواب لخادم»، وقـد قلت هذا له على هذه الصـورة لأنني شككت به أن يكون واحـداً من الرهبـان المتجـولين التـابعين لطائفتنـا، الذين يتجـولون حـول تلك المنطقـة التليـة، لأن رهبـاناً غير راضين وهاربين مـن طائفتنا والطوائف الأخـرى، قـد حملوا أنفسهم إلى هذه المناطق وإلى المنطقـة التليـة، حيث يمكنهم العثور على أفضل أماكن الاختبـاء سلامة، ولأن كل شيء هناك رخيص ويمكنهم العيش حيـاة هانئـة، وهم يزورون الناس في المنطقـة، ويخبرونهم عن قيمـة القداسات العـالية، ولهذا يشتري الذيـن يستمعون إليهم القــداســات منهم لهم ولأقــربائهم الموتى، غير عــارفين بأن إثم السيمـونية يقترف بمثل هذا العمل، وبنـاء عليه يعطون هؤلاء الرجـال المال حتى يقرأوا عليهم القداسات، ويكون الأفضل منحهم المال بمثابة

هدية وكـرم منهم، لأنهم لايقتربون مطلقاً من المذبح لتقـديم أي احترام للرب، ولقد رأيت هناك أناسـاً تعساء من كل طائفة دينيـة يتجولون في هذه الجبال، ولاحظت أنهم يعـاملون بالفعل بشيء من التغاضي من قبل الأساقفة والكهنة.

وسرنا من نيـومارك خـلال الوادي الذي يقـود إلى ترنت Trent ، ويردد العامـةقولاً متـوارثاً بأنه خلال هذا الوادي أو القناة تـدفق البحر حتى ميران Meran، وأن نهر أدجي جـرى نزولاً من الجبـال فـوق ميران، وصب بالبحر هناك، وفي برهان على صحـة هذا، أنه يتم العثور حتى الآن في صخور الجبـال على حلقات حديدية، كـان من المعتاد ربط السفن بها، وعلى هذا فإن المنطقة كلها التي يجري فيها نهر أدجي ليصب في البحـر المتـوسط، كـانت فيما مضى بحـراً، بسبب أن البحـر كـان في العصور القديمة أعلى مما هو عليه الآن.

ووصلنا إلى قرية اسمها نوفا Nova حيث يجري هناك جدول جبلي سريع، يشكل الحدود مـا بين إيطاليا وألمانيـا، ويقوم فـوق الجدول من جهتنا بيعة، جـرى فيها دفن ما في جـوف القديس أودالريخ Udal-rich أسقف أوغـزبورغ Augsburg ، وتذهب الحكاية إلى القول بأن القديس المتقدم الذكـر كان في روما، وعلى طريقه إلى الوطن، مـرض مـرضـاً شـديداً، لذلك توسـل إلى الرب أن يسمح له بالموت في ألمانيا، وليـس في إيطاليا، وهذا مـا حدث وكان، لأنـه ما أن عبر الجسر المقـام على هذا الجدول مات، ولـذلك جرى دفن أحشـائـه هناك، لكن جسده جرى حمله إلى أوغزبورغ.

وسافرنا من هذا المكان إلى مدينة ترنت، وأمضينا الليل هناك، وترنت واحـدة من المدن القـديمـة جـداً، التي تأسست في هذه الجبـال من قبل تراجـان الذي جـاء إلى هناك بصحبـة أنتينور Antenor ويجري نهر أدجي عـابراً أسـوارها، وهي مقامـة في وضع هو الأكثـر جمالاً، وهواء،

وصحة، وهي تتألف — كما يمكن القول — من مدينتين، المدينة العليا، والمدينة التحتا، بسبب الجنسين البشريين اللذان يسكناها، ففي المدينة العليا يسكن الطليان، ويسكن في المدينة التحتا الألمان، وهذان الشعبان مختلفان باللغة، وبعادات الحياة، ونادراً ما كان أحدهما بسلام مع الآخر، وفي الحقيقة، غالباً ما جرى تهديم المدينة قبل أيامنا، وجرى تهديمها أيضاً من قبل الطليان صدوراً عن كراهيتهم للألمان، وأحياناً من قبل الألمان أيضاً صدوراً عن كراهيتهم للطليان، وقبل سنوات قليلة مضت، كان الألمان مجرد قلة من الغرباء في تلك المدينة، وهم الآن بيرجوازية المدينة وحكامها، وسيأتي اليوم قريباً — لابل إنه جاء وحلّ بالفعل — عندما سيقوم فيه دوق أثيسيس Athesis(كذا) صاحب إينسبروك بضمها كلها إلى ممتلكاته ومن ثم إلى ألمانيا، مثلما حدث في بوتزن، لأن تعداد الألمان يزداد هناك يومياً، ولكن ما هو سبب هذا التزايد، ولماذا يتوجب على شعبنا الانتشار في بلدان الشعوب الأخرى، بدلاً من انتشارهم في بلداننا؟ هذا ما لم أتفهمه، ما لم نكن قد اخترنا — كما يقال — عدم التعلق ببلادنا، بسبب فقرها وجدبها، ولذلك دفعنا إلى بلدان أخرى، أو بسبب حدة طباع الألمان، الذين لايمكن لشعب آخر أن يتحمل البقاء إلى جوارهم، بل يتهربون من أمامهم، ويفسحون لهم المجال ولايواجهون غضبهم، غضبهم الذي لايمكن لانسان أن يقاومه.

وأقام عبر المدينة وفي مواجهتها، فوق ضفتي نهر أدجي، الرهبان المبشرون ديراً جميلاً حقاً، من حوله أجمل الحدائق، واسمه دير القديس لورانس، وكان هذا الدير قد بني من قبل القديس جوردان Jor-danes الخليفة المباشر لأبينا القديس دومينيك، في رئاسة طائفتنا، لكن لايوجد فيه قداسات أو نظام للحياة، والذي هو موجود فيه مجرد عدد من الرهبان، يسكنون هناك من دون هدف، وفي هذه المدينة جرى

استشهاد الطفل المقدس سمعان في سنة ١٤٧٥، على أيدي اليهود، بعدما عذبوه كثيراً، ولهذا حكم على اليهود بالشنق بعد تعرضهم لعذاب عظيم، وأنا شخصياً كنت قد رأيت أجسادهم الملعونة معلقةعلى المشانق عندما ذهبت في السنة التالية إلى روما، وعندما تم العثور على جسد الطفل المقدس، صار مشهوراً بسبب المعجزات التي صنعها، وهو مايزال مشهوراً، ولهذا يأتي الناس من أجزاء نائية من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا حاجين إلى هناك، ويجلبون معهم تقدمات من الشمع، والأقمشة، وصحون الذهب والفضة، والمال، وكل ذلك بكميات مدهشة عندما تنظر إليها.

ونتيجة لهذا هدموا كنيسة القديس بطرس القديمة، التي من المعتاد حفظ الجسد فيها، وبنوا كنيسة أوسع فوق الموقع نفسه، وأنفقوا عليها من خلال هذه التقدمات، فضلاً عن هذا قاموا بتنظيف بيت الشهيد، وكرسوه كنيسة[من أجل رواية عن استشهاد هذا الطفل انظر ملحق أخبار الأيام — السفر ١٥ص ١٧٧]، وهكذا عندما خلعنا نحن الحجاج ملابس سفرنا، ذهبنا إلى الكنيسة للحصول على غفران، ورأينا في كنيسة القديس بطرس جسد الطفل المقدس، والمكان الذي استشهد فيه، والكنيسة الكاتدرائية القديمة، والبيع الأخرى والكنائس،لأن هذا ما يتم صنيعه من قبل الحجاج المحترمين الذاهبين إلى القدس، أي يتوجب عليهم عندما يتوقفون في أية بلدة على طريقهم، فيسألون عن الكنائس، وعن آثار القديسين ويقومون بزيارتهم، وهذا ما فعله موالي، وفعلت ذلك معهم، حسبما سأتحدث عن ذلك فيما بعد.

وعندما كان الوقت متأخراً، وكنا جميعاً جالسين نتناول العشاء، جاء زمّار، أو بهلواني، ومعه زوجته، وكان يحمل مزماراً، وقد غنت زوجته لحناً جيداً، فيما كان هو يلعب بمزماره، وكان هذا الرجل عاقلاً بما فيه الكفاية، ومع ذلك عمل أثناء لعبه أعمالاً بليدة، وكشر وكأنه كان أحمقاً،

وجعلتنا حماقـاته هذه نضحك من صميـم قلوبنا، وذلك بالاضـافـة إلى متعتنا لدى سماع الموسيقـى، وعندمـا فـرغ مـن لعبـه تشـاور سـادتي البارونات، كما جرت العادة، واحدهم مـع الآخر، حول ما الذي سوف يدفعونه إلى البهلوان، وعلى كل حال قال واحد من النبلاء إنه لن يدفع، وأوضح بأن الكاهن في أسقفيتـه، غالبـاً ما قـال في قداسـاته بأن إعطاء المال أو تسلمـــه في مثل هذه الحالات هو ذنـب مـدان، وإثـم عظيم، وقال:«وبما أنني الآن في حج مقـدس، إنني أكره أن أتلوث بصرف المال بشكل آثم، وإنني سوف أدفع المال إلى الفقراء»، وبناء عليه تفجر نقاش عظيم بين النبلاء،وتناقشوا مطولاً وهم في حالة غضب.

وسألوني أخيراً القيـام بفض هذه القضيـة، وقـالوا بأنهم سـوف يلتـزمـون بقـراري وحكمي، وبناء عليـه أعلنت وقـررت بدون خـوف وجـوب إعطاء المال إلى البهلوان، وبناء عليـه أعطوا هـدايا إلى لاعب المزمار وإلى زوجته، وبعـد عودتي إلى البيت بحثت في كتابات المفتين من العلماء فيما إذا كنت قد قررت بشكل صحيح، وقد وجدت القرار الذي اتخذته مرتين لدى غيرسون Gerson (١) وفي مكانين، عندما عالج الشرور في قضية سبعـة ذنوب مهلكة، وفي معارضـة المذنبين، أوضح أن اللعب بـالمزامير، والاضحـاك وأعمال البهلوان لاتستحـق الادانة، وأن مثل هذه الأشيـاء يمكـن أن تقـال وأن تمارس، دون اقتراف لإثم كبير، ومع أن الكلمات التي قـد تقال هـي عبثية، وفيهـا مـزاح، وأحياناً فيهـا أخطاء، لكن طالما أنه ليـس فيهـا مـا هو مخجل قـولاً، وطالما أنها تعمل لمجـرد التسلية، فصحيح ممارستهـا، إذا كان ذلك للتسليـة والربح، ومن أجل تأمين انفـراج لدى الأمراء والنبـلاء، وعندمـا يكونون تحت ضغط المسؤوليـة، وقد اكتشفنا أن هذا هو الحال مع هذا البهلـوان، الذي كان حرفياً مقيماً في ترنت، والذي كان لايمارس اللعب بشكل دائم، بل فقط

١ — جون غيرسون، قنصل باريس، كتب في اللاهوت وفي مواضيع أخرى، توفي حوالي ١٤٢٩.

لدى وصـول أمراء ونبلاء، وذلك أنـه عندما كان يعلـم أنهم حجاج إلى الأرض المقدسة، كـان يلعب من أجل تسليتهم، ومن أجل فائدته، ومن أجل أن نضع حزننا وقلقنا جانباً لوقت قصير.

وسمعنا في الثاني والعشرين قداساً عند مذبح سمعان الطفل المقدس، وبعـد تناولنا لطعـام الغـداء في النزل، أسرجنا على خيـولنـا، وغـادرنا المدينة، وخارج باب المدينة مباشرة صعدنا إلى هضبة شـديدة الانحدار، وتخلينا عن الطريق المنخفـض الذي يسـاير وادي أدجي إلى فيرونا Ve-rona، وإلى جانب كون هذه الهضبـة منحدرة، هي مكونة من قطعة واحـدة من الرخـام الأحمر القاسي، ولهذا فإن جميع أسـوار مـدينة ترنت وأبنيتهـا معمـولة من رخـام ثمين وجميل، مع أنه غير مصقـول، وبعـد تسلق طويل، نـزلنا عبر الجانب الآخـر مـن الرابيـة، ووصلنا إلى قـرية فيرسا Persa .

وفيرسا قـرية واسعة، ويقوم على الصخـرة فوق القرية قلعـة عظيمة، كأنها مدينة، ولها أبراج عالية، وسور عظيم يحيط بها، ويتفق معي بالرأي عـدد كبير من الناس، ويرون أنه من اسم هذه القلعـة يمكن أن نعـرف أنها بنيت من قبل فيرسوس Perseus ، أبو النبلاء الاغريق، وهي تعرف في هذه الأيام بـاسم فيرسا صدوراً عن اسمـه، ومثل ذلك مملكة فـارس، وهو اسم اشتق من الاغـريقيـة، ومن استيلاء الاغـريق عليهـا عرفت باسم فارس، ويحتفظ دوق النمسـا دوماً بعدد كبير من الجنود في هذه القلعة، يتولون حراسة كل من القلعة والمقاطعة.

ومـررنا عبر هذه القلعة واجتـزناها، ووصلنا إلى بحيرة، يتدفق منهـا نهر اسمـه برنتـا، وهـو يجري من هناك إلى بادوا، ويصب بعـد هذا في البحر على مقربة من البندقيـة، وعبر هذا وصلنا إلى واد طويل وعريض وخصب، ثم وصلنا إلى بلدة اسمهـا بالعـامية الدارجة فـالسيـان Val-scian، حيث توقفنا مـن أجل استراحـة قصيرة، ويـلاحظ أن هذه

البلدة، والمنطقة كلها امتداداً حتى البحر، تتكلم الايطالية، وعلى كل حال كانت غالبية السكان تعرف كل من الألمانية والايطالية، وقد سألت أحدهم عن معنى اسم فالسيان، ولماذا أطلق هذا الاسم على البلدة ، وقد أجابني بأن معنى فالسيان هو«الوادي الجاف»، وقد نال هذا الاسم،لأنه في العصور القديمة جداً، وقبل أن ينزل البحر إلى مستواه الحالي، كان البحر ممتداً حتى هذا الوادي، وكان الوادي بأكمله مليئاً بالماء، ولهذا من الممكن أن نرى على جنبات الجبال، التي تطل على الوادي، من كل جانب حلقات حديدية كانت، لربط السفن حتى يمكن بقاءها مثبتة إلى الصخور، وعندما تراجع البحر، أصبح الوادي جافاً، وهكذا حافظ على اسمه فالسيان.

ومن هذه القصة كنت قادراً على إدراك أن جميع الوديان في هذه الجبال، التي هي متجهة نحو البحر، كانت فيها مضى مليئة بالماء، وكانت هي أقنية تقود إلى البحر المتوسط، مثلما يحدث الآن في أراض مجاورة للبحر، كما قلت من قبل، ويطلق الألمان على فالسيان اسم إن در بورغ In der burg ، لأنه يوجد هناك قلعتان تطلان على البلدة، والبلدة قائمة بين سور القلعة، وتابعنا من فالسيان سفرنا، وسرنا متقدمين، ووصلنا في وقت متأخر في الليل إلى قرية اسمها سبتلي Spiteli ، أي«مشفى صغير» حيث توقفنا لإمضاء الليل.

وفي يوم الثالث والعشرين، كان عيد القديس جرجس، الفارس والشهيد، وسألني السادة في الصباح بأن نحتفل بعمل قداس القديس جرجس لهم، ولجميع النبلاء، الذين ينظرون إلى القديس جرجس بتبجيل خاص، وكانت هناك بيعة واحدة في القرية، بدون كاهن، وواجهت مصاعب جمة للحصول على أدوات القداس العائدة للكنيسة، ولفتح هذه البيعة، والحصول على الأشياء الضرورية لإقامة القداس، وبعدما ارتديت ثيابي الكهنوتية، واجتمع سادتي النبلاء وأهل القرية مع

بعضهم، بوساطة صوت الناقوس، وكما جرت العادة أردت إعداد الخميرة قبل صلاة الاعتراف، فلم أجد لاخبزاً ولارقاقة عجين في الصندوق في الخزانة، كما لم يتوفر شيء من هذا القبيل في القرية كلها، لذلك التفت بذاتي نحو الناس وأخبرتهم بعدم وجود خبز القربان، ولكي لانذهب جميعاً فارغين، قرأت من المذبح القداس لوحده، وجميع أدعية القداس، وتركت ما بعد صلاة التقدمة لوحده، مثلما يفعل تماماً في السفن في البحر، ويطلق على هذه القداسات اسم القداسات«الحارة» أو «الخام» أو «الجافة» أو «الفارغة».

وبعد أداء هذا القداس التفت نحو الناس وقدمت عرضاً قصيراً عن القديس جرجس وكان عرضاً مشجعاً، وعندما كنت أفعل ذلك، وقف أهل القرية ونظروا إليّ بدهشة، لأنهم كانوا طليان، ولعلهم لم يسمعوا قط قداساً يتلى في كنيستهم بالألمانية إلاّ من قبلي، وبعد الفراغ من هذا رجعنا إلى نزلنا لتناول طعام الافطار، وبعد الانتهاء من الطعام، بدأت تمطر، ومع هذا امتطينا خيولنا وغادرنا القرية، وازداد المطر ثقلاً وكثافة، وتبللنا حتى الجسد، وكنا مبللين جداً عندما وصلنا إلى مدينة فلتر Fel-tre ، وبما أنها كانت تمطر بكثافة، دخلنا إلى نزل هناك، وبنيتنا البقاء هناك لمدة ساعة أو ساعتين، ومن ثم نغادر عندما يتوقف المطر، وعلى كل حال ازداد المطر سوءاً فسوءاً، وبذلك كنا مرغمين على البقاء هناك لمدة يوم، كان غير مريحاً، لأن النزل كان صغيراً، وكان مليئاً بإيطاليين من أهل المنطقة، وتحدث صاحب النزل، وصاحبته، وجميع العاملين فيه بالايطالية فقط ،فضلاً عن هذا لم يكونوا معتادين على خدمة النبلاء، ولم تكن لديهم المواد اللازمة لخدمتهم بشكل لائق واحترام،وكانوا على كل حال جيدين، وأناساً بسطاء، وقد فعلوا كل مايستطيعون، الأمر الذي قدرته، لكن خدم النبلاء كانوا غير راضين عنهم.

وفي يوم الرابع والعشرين استمرت تمطر بدون توقف، مثلما فعلت في

اليوم المتقدم وفي الليلة السالفة، وسبب هذا تدفق المياه، وقاد إلى جريان السيــول الجبليــة، وعلى كــل حــال، وعلى الرغم مــن المطر، ذهبنا إلى الكنيســة التي تقــوم فوق البلدة، وبعــد سماعنا للقــداس شــاهدنا البلدة نفسهــا، وكــانت إحــدى البلدات التي بنيت من قبــل أنتينور، من أجل الدفاع عن المنطقة الجبلية، وهي بلدة قــديمة جداً، كما تبرهن أبنيتها على ذلك، وهي بلدة طويلة جــداً، تمتــد على طول جــرف جبلي، ولها أسقف وفيهــا بعض الديرة القائمــة عند سفح الرابيــة التي تقوم عليهــا المدينة، وعدنا إلى نزلنا، وتناولنا طعــامنا، وعندما كنا جــالسين إلى المائدة توقف المطر، وهكذا أسرجنا على خيــولنا وغادرنا فلتر، وأخــذنا طريقنا وسط خطر عظيم، بسبب ارتفاع المياه، لأن أصغر المجاري تضخمت وصارت أنهاراً سريعة، وكانت مجاري الوديان الجافة تفيض بالمياه.

وعلى كل حــال صارت أحــوال المناخ طيبــة، وأخذت الميــاه تتناقص بشكل تدريجي، وكنا قد غادرنــا فلتر قبيل حلول المساء، وقد وصلنا إلى نهر عظيم، عبرنا ضفتيه بوساطة بيت حــراسة بندقي، ومن هناك وصلنا إلى بلدة اسمها أوور Ower، حيث أمضينا الليل، وكــان نزلنا الآن مثل بقية القرية، قائماً على سفح رابية جميلة مليئة بالأعشاب، وفي الوقت الذي كان يجري فيــه إعداد طعام عشــائنا، خرجت مع موالي إلى ســاحة البيت، وكنا ننظر فيما حــولنا عندما قلت: «انظروا لو أن إنســاناً كان على قمــة تلك الهضبة، لكان بــإمكانه رؤية البحر المتــوسط»، وعندمــا سمع موالي هذا قالوا: «دعونا نصعد إلى هناك، لنرى البحر، الذي ربما سيكون قبرنا»، ومبــاشرة تسلق ثلاثة من موالي مع اثنين من خــدمهما وأنا، تلك الرابيــة، التي كــانت أعلى بكثير مما تصــورناه، وألقينا بأبصــارنا باتجاه الجنوب، فرأينا وراء الجبــال سهل إيطاليا، وخلف السهل منطقــة البحر المتــوسط، ولدى رؤيتنا له، وقف مــوالي، الذين كــانوا شبــاباً ذوي نشأة رفــاهية، وقفــة فيها شيء من التفكــر، مما عكس الشعور بالمخــاطر التي

ننظرهم في البحر، وكنت بهدوء قد مددت بصري نحوه، لأنني كنت قد ذقت مرارته، لأنه كما بدا من هذه التلال، كان له مظهراً مرعباً، ويبدا قريباً جداً، وتسلطت أشعة الشمس على الجزء الذي كان هو الأقرب منا، وبقية البحر التي لم يكن بإمكان أحد رؤيتها، بدت عالية، وغيوماً سميكة سوداء، على شكل ولون الهواء المظلم.

وبعدما شبعنا بما رأيناه منه، تحولنا بعيداً لننظر إلى الجبال التي قامت من حولنا، وقد شاهدنا عدداً كبيراً من القلاع القديمة المهدمة، وعلى الجبل نفسه الذي وقفنا عليه هناك، كان يوجد تحت أقدامنا خرائب أسوار ضخمة وخندق يطوق شطراً من الجبل، وصهريج جميل مايزال يحتوي على الماء، ورابية لرعاية القطعان، قائمة في الأعلى داخل الأسوار، ومن المعتقد أن هذه القلاع كلها قد بنيت من قبل أنتينور، أو تراجان، الذي بعدما بنى مدينة بادوا في السهل، صعد إلى المنطقة التلية، وبنى البلدات والقلاع للدفاع ضد الشعب الذي كان موجوداً وراء الألب، حيث كان في ذلك الحين مايزال متوحشاً، يعيش في الغابات، مثل الحيوانات الضارية، وعندما كنت أنا وموالي وقوفاً نتحدث فوق الجبل، غابت الشمس، وبدأنا نحن بالنزول، وعندما وصلنا إلى النزل صارت الدنيا أكثر ظلاماً، وتناولنا عشاءنا على ضوء الشموع، ثم أوينا إلى الفراش.

وكان يوم الخامس والعشرين هو يوم عيد القديس مرقص، وتمنينا لو كنا في البندقية، لأنه يحتفل بالعيد هناك، بشكل محكم ورائع الشكل، وسمعنا — على كل حال — القداس من أجل عيد القديس مرقص في القرية، وتناولنا بعد ذلك طعامنا، ومن ثم انطلقنا مسافرين على طريقنا، ويقود الطريق من تلك القرية نزولاً إلى سفوح الجبال، ثم يخلفهم بالوراء، وهكذا وصلنا إلى منطقة منبسطة، وخصبة جداً، ومليئة بالحبوب، وبأشجار الفواكه، والكروم، التي ارتحلنا خلالها حتى وصلنا

إلى قرية تـريفيسو Treviso ، حيث عزمنا على البقـــاء لعدة أيام، وذلك حتى نستطيـع بيع خيـولنـا، ذلك أننا لم نعــد الآن بحـاجــة إلى الخيول،لأننا صرنا مجاورين للبحر.

وكـان يوم السادس والعشرين يوم عيـد القديس ديسيــديروس De-sidrius، الذي هو مـدفون في كـاتدرائية تريفيســو، واحتفل سكان المدينة بالعيـد بشكل فخم بوساطة مسيرة مهيبـة خلال المدينة، وعندمـا اجتمع عامـة الناس في ساحة السوق الأكبر، مثلوا لعبـة المعجزة، حيث ظهر القديس في الحكاية، من خلال الممثلين المدربين لهذه الغاية، بمظهر فخم جداً، نظرنا نحن الحجاج نحوه بإعجاب، ولست أدري فيما إذا كنا قد فعلنا ذلك بتقوى أيضاً.

وجـاء بعـد الغـداء عـدد كبير من الايطـاليين إلى نزلنا، طلبـوا رؤية خيـولنا لابتياعهم، وأثناء بيعنا لهم اختلف الايطاليـون فيما بينهم بشكل مثير، حيث ركضوا نحونا، محاولاً كل واحد منهم إبعاد الآخر، وتدخل كل واحـد منهم بشراء الآخـر، وصب كـل واحـد منهم الاهانات على الآخــر، وكـانوا كلهم ســواء، حتى الشيــوخ، والأغنيـاء، والرجــال المحترمين، حيث كـان كل واحد منهم يتقـاتل مع الآخر مثل الأطفـال، ويعـرض كـل واحـد منهم سعــراً أكبر مما تسـاويـه الخيـول مــراغمـة للآخرين، وكل منهم يعرض عن تعمـد سعراً أكبر من أسعار الآخرين، وبينما كان هذا الشجـار مستمراً وقفنا نحن بدون حـراك، وحافظنا على صمتنا، وبعنا خيولنا بشكل جيد، وهكذا مضى النهار.

ولابدمن أن نلاحظ بأنني وصفت الأمـاكن مـا بين فلتر وإنسبروك، لأننا عندمـــا عـدنـا إلى الوطن ثانيـة، لم أســافــر عبر ذلك الطريق إلى إنسبروك، بل جئـت عبر طريق آخــــر، وذلك حسبما سـأتحدث عنه في مكانه الصحيح، وبعــد هذا المكان لن أقـوم بوصـف أي مكان خـلال رحلتنا كلهـــا، بل سـأتولى وصف جميع الأمـــاكن التـي مكثت بها أثناء

رحلتنا عائدين إلى الوطن، ولهذا سوف أحتفظ بوصفي لتريفيسو والمدن الأخرى، حتى يحل موعد عودتي، لأنني الآن متعجل للوصول إلى القدس، التي وجهت نحوها وجهي بشكل ثابت ولن أصرفه وأستريح حتى أرى تلك المدينة الأعظم شهرة، والمرغوبة أكثر من سواها.

وفي يوم السابع والعشرين، الذي كان يوم أحد، واسمه -Can tate، سمعنا قداساً في تريفيسو وتناولنا الطعام ، وبعد تناول الطعام اكترينا بعض الخيول التي يدعونها باسم Martyrs ، لتحملنا نحن أنفسنا وحقائبنا إلى البحر، وانطلقنا نحو شاطىء البحر، ووصلنا إلى بلدة ميستري Mestre ، وكنا راغبين بالمتابعة حتى ملغيرا -Mal ghera التي هي قائمة على شاطىء البحر المتوسط، والتقينا على كل حال في البلدة المتقدمة الذكر بألماني، سأل عما إذا كنا جماعة اللورد بارون فون سيمبيرن Cymbern ، وعندما سمع بأننا كنا نحن هم، أخذنا إلى نزل، وأرانا مائدة ممدودة بالأطعمة والأشربة، وأخبرنا بأن اللورد جون فون سيمبيرن قد أمر بهذا لنا، وأخذنا أيضاً إلى حديقة البيت، وأرانا مركباً ضخماً في النهر الذي يجري هناك نزولاً من الجبال ليصب في البحر، وأن القارب قد أرسل من البندقية إلى ميستري من قبل اللورد بارون فون سيمبيرن، حتى يمكن لنا الابحار إلى هناك عبر النهر، ولدى رؤيتنا لهذا سررنا وتحمسنا بأرواحنا،وجلسنا وأكلنا وشربنا الذي أعد لنا سلفاً، وبعد هذا حملنا جميع حقائب اللوردات إلى ظهر المركب، ثم صعدنا جميعاً على ظهره، فصارت الحمولة ثقيلة إلى حد كبير، لأنه كان هناك عدد كبير منا، وكانت حقائب اللوردات وخدمهم كبيرة الحجم، وإثر هذا قلنا وداعاً لليابسة، وعهدنا بأنفسنا إلى المياه، وكان ذلك بعد إقلاعنا، حيث أبحرنا نزولاً مع النهر حوالي الميل نحو البحر، وعندما وصلنا إلى المكان الذي ينزلق فيه النهر إلى بين فكي البحر المتوسط، عند حافة البحر وحدوده، وأبحرنا داخل البحر المالح المياه، وقتها بدأنا نغني

بصوت مرتفع وبنغمات فرحة، مزمور الحجاج، وهو الذي اعتاد المسافرون إلى الضريح المقدس لربنا على غنائه مرددين:"In gottes Namen Fahren wir, Seiner genaden begehren wir: Nurhelff uns die Gottiche Kraft, und das heylige grab: Kyrie eleyson » والذي معناه مترجماً عن اللغة اللاتينية كما يلي: «باسم الرب نحن الآن مبحرون، نحن نحتاج إلى نعمته، فلعل قدرته تحمينا، والضريح المقدس يقينا:« Kyrie elee-son».

وبينما كنا في الوقت نفسه نقترب من قلعة ملغيرا Malghera ، ونعبر البرج الذي اسمه«برج ملغيرا» التقينا بقارب كان يجذف به عدد من الشباب الأقوياء، ويدفعونه بعنف شديد نحو مارغيروم Marger-um ،وقد اصطدم بقاربنا، وبذلك ارتطم قوسا قاربينا ببعضهما بعضاً، واندفع قاربنا إلى أحد الجوانب بالصدمة، واصطدم بعمود كان قائماً في وسط الماء، مما هدد بانقلابه، ففي الحقيقة كاد أن ينقلب مع جميع الناس الذين فيه والأشياء، وكان ذلك مرعباً ومؤلماً، وتبادل بحارة القاربين الشتائم فيما بينهم، وهكذا تابعنا السير على طريقنا، وبعد وقت قصير التقينا بقارب آخر على ظهره مجموعة من الناس، سألنا أحدهم:في أي النزل ننوي النزول في البندقية؟ وعندما أخبرناه في نزل القديس جورج، حيث كان اللورد فون سيمبيرن قد حجز غرفاً لنا فيه، بدأ يشتم ذلك النزل ويشتم صاحبه، ووقف على قوس قاربه، محاولاً منعنا من الذهاب إلى هناك، ومشيراً إلى نزل آخر لنذهب إليه، وفيما هو واقف هناك وهو يصرخ محاولاً إقناعنا، أصيب فجأة بحادث، وسقط من على قوس قاربه إلى البحر، الذي سحب منه بوساطة رفاقه بعد مصاعب جمة، وبذلك أنقذ من الموت، وما لبث أن ارتدى ثياباً حريرية جديدة، تلقت التعميد معه، مما سبب ضحكاً كثيراً على ظهر قاربنا.

وبعدما سرنا مسافة صغيرة نحو الأمام، وجدنا أمام أعيننا، مدينة البندقية الجليلة، والشهيرة والعظيمة، والغنية، سيدة البحر المتوسط، وهي قائمة بشكل رائع في وسط المياه، بأبراجها العالية، وكنائسها العظيمة، وبيوتها وقصورها الرائعة، ودهشنا لدى رؤيتنا مثل تلك الأبنية المرتفعة والعالية والتي تقوم أساساتها في الماء، وأبحرنا فوراً إلى داخل المدينة، وسرنا عبر القناة العظمى حتى ريالتو Rialto ، حيث رأينا على الجانبين أبنية لها جمال رائع وارتفاع مدهش، وتحت ريالتو خرجنا من القناة العظمى، ودخلنا إلى قناة أخرى، يقوم على ضفتها اليمنى فونداكو دي تديستشي Fondaco de Tedeschi ، من حيث تابعنا سيرنا بين البيوت حتى وصلنا إلى باب نزلنا، الذي يعرف باسم نزل القديس جورج، ويعرف بالألمانية بشكل عام باسم Zu der Fleuten ، ونزلنا هناك، وصعدنا حوالي الستين درجة حجرية من البحر إلى الغرف التي كانت معدة لنا، وقد حملنا جميع حاجياتنا إليها.

واستقبلنا هناك السيد جون، وصاحب النزل، والسيدة مرغريت صاحبة النزل، استقبلونا بسرور وحرارة، وحيوني بعبارات صديقة خاصة، لأنني كنت الوحيد بين فريقنا الذي عرفوه من خلال حجي السالف، حيث كنت ضيفاً في بيتهم لأيام كثيرة، واستقبلنا بقية العاملين، وحيونا وأبدوا تشوقهم للقيام بخدمتنا، وكان جميع العاملين بالنزل بما فيهم صاحبه وصاحبته، وكل الخدم من الرجال، وجميع الوصيفات، من الشعب الألماني ويتكلمون الألمانية، ولم نسمع كلمة إيطالية في النزل، مما سبب راحة كبيرة لنا، لأنه مزعج جداً أن تعيش بين قوم دون أن تستطيع التحدث معهم، وأخيراً جاء بعد الجميع، عندما دخلنا، الكلب الذي يحرس النزل، جاء لتحيتنا، وكان كلباً أسود كبيراً، وقد عبر عن سروره الكبير بتحريك ذنبه، وقفز علينا مثلما اعتادت الكلاب أن تفعل مع الذين تعرفهم، وكان هذا الكلب يستقبل

جميع الألمان بالسرور نفسه، وذلك سواء من أي جهة من ألمانيا قد قدموا، لكن عندما يدخل إلى النزل إيطاليون، أو لومبارديون، أو غاليون، أوفرنسيون، أو سلافيون، أو إغريقيون، أو أي أناس من أي بلد غير ألمانيا، يصبح غاضباً جداً، إلى حد أنك تظن بأنه صار مجنوناً، ويركض نحوهم، وهو ينبح بصوت مرتفع، ويقفز بحدة عليهم، ولا يتوقف عن إزعاجهم حتى يقوم أحد الناس بتهدئته.

ولم يتعود بعد حتى على الايطاليين، الذين يسكنون في البيوت المجاورة، بل تراه ثائراً ضدهم، وكأنهم غرباء، وثابر على عداوته لهم، فضلاً عن هذا ما كان ليسمح بأي شكل من الأشكال لكلابهم بالدخول إلى النزل، لكنه كان لايعترض على الكلاب الألمانية، وكان لايهاجم المتسولين الألمان الذين يقدمون يسألون الصدقات، بل كان ينقض على المساكين الايطاليين، الذين يودون الدخول للتسول والحصول على الصدقة، ويطردهم بعيداً، وغالباً ما أنقذت رجالاً فقراء من بين أسنان هذا الكلب، ويقول الألمان بأن هذا الكلب برهان على أنه طالما هو عدو غير متهاون مع الايطاليين، كذلك الألمان لايمكن أن يتوافقوا مع الايطاليين من صميم قلوبهم، وكذلك الطليان معنا، لأن كل أمة لديها كراهية متجذرة في طبيعتها تجاه الأمة الأخرى، وبما أن الحيوان غير عاقل، وتتحكم فيه انفعالاته فقط، فإنه يتخاصم مع الايطاليين لأن طبيعته تأمره أن يفعل ذلك، ولكن بما أن الانسان قادر على التحكم بمشاعره بمعونة عقله، فهو يستطيع إخفاء مشاعر الكراهية المزيجة بطبيعته.

ووجدنا في النزل عدداً كبيراً من النبلاء من مختلف أجزاءألمانيا، مع بعض من هنغاريا، كانوا جميعاً قد ارتبطوا بالعهد نفسه، مثلما فعلنا نحن أنفسنا، وكانو عازمين على عبور البحر إلى أقدس الأضرحة العائد إلى ربنا يسوع في القدس، وكان في النزل الأخرى المزيد من الألمان، وكلهم

قـد شكلوا أنفسهم في مجمـوعـات كان بعضهـا كبيراً، وبعضهـا الآخـر صغيراً، وكان الآن في مجموعتنا اثني عشر حـاجاً، كلهم مع بعضهم من نبلاء وخدم أسماؤهم هي كمايلي:

اللورد جـون ويرنهر، بارون فـون سيمبيرن، وكـان رجـلاً وسيماً، وعاقلاً، ومتميزاً بأخلاقه الرفيعة، وكان يعرف اللغة اللاتينية.

اللورد هنري فون ستوفل، بارون الامبراطورية المقدسة، وكان رجلاً قـوياً، وفعالاً، تمتع بسمات الرجـولة، مثلما يكون الرجل السـوابي النبيل الحقيقي.

اللورد جـون تروخسيس فون وولدبورغ، وكـان رجلاً نبيـلاً، طويل البنية، وكـان رجلاً محترماً له أخـلاق رفيعة، وجـدياً، وكان مهتماً بعمق حول إنقاذ روحه.

اللورد بير Ber (أورسوس) فـون ريخبيرغ، وكان رجـلاً نبيلاً من أسرة هوهنـريخبيرغ، وكـان أصغـرهـم سناً، وأكثـرهـم حيـوية، وشجاعة، وطولاً، وأعظمهم سروراً،والأكثر لطفاً وكرماً في المجموعة.

وكان هؤلاء النبلاء الأربعة معهم رجـال حاشيتهم للقيام بخدمتهم، وفيمايلي أسماؤهم مع وظائفهم مرتبة كالتالي:

بالثـازار بوخلر Balthazar Buchler ، وكـان رجـلاً عـاقـلاً، صاحب خبرة عظيمة، اقتـاد بنصيحته جميع اللوردات وتحكم بهم، ذلك أنهم عدّوه بمثابة أب لهم.

آرتوس Artus ، حـلاق اللوردات، وكـان رجـلاً بإمكانه أن يلعب ببراعة وجـودة على جميع الآلات الموسيقية، إلى حد أن الانسـان لايعتقد أنه من الممكن العثور على مثله في أي مكان.

جون الذي كنيتـه شمدهانز Shmidhans ، وكان جنديـاً، قاتل

في معارك كثيرة، وقد جاء في هذا الحج بمثابة خادم للوردات.

كونراد بيك Beck ، وكان رجلاً محترما وعاقلاً، وقد كان من أهل مدينة ميرينجن Merengen، وكان المسؤول عن مؤن اللوردات، كما كان حاجبهم.

بطرس، وكان إنساناً بسيطاً، صبوراً تحت الشدائد قدم من بلدة وولدسي Waldsee ، وقد عمل طباخاً للنبلاء وللجماعة كلها.

أولرك فون رافنزبورغ Ulric von Rafenburg ، وكان رجلاً عمل فيما مضى في البحر بمثابة عبد غليون، وقد عانى كثيراً من المآسي، وكان من حيث اختصاص العمل تاجراً، أما وظيفته فكان ترجمان اللوردات.

جون، وكان مسالماً، متشوقاً لخدمة اللوردات، وكان من قبل معلم أولاد، ورئيس مدرسة في بابنهوزن Babenhusen .

الراهب فيلكس فابري، كاهن من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، حاج للمرة الثانية إلى الأرض المقدسة، شماس للوردات ولجميع الذين تقدم ذكرهم.

واجتمع هؤلاء الاثني عشر مع بعضهم منفردين، وعاشوا على الحساب العام للوردات الأربعة المتقدم ذكرهم، وبناء عليه استدعى اللوردات الأربعة صاحب النزل إليهم، وعملوا معه الترتيبات من أجل إقامتهم، ومائدتهم، وجميع الأشياء الأخرى العائدة له، والتي سوف يستخدمونها، وعندما عملت هذه الترتيبات أمامنا جميعاً، فكرت بخطة أخرى من أجلي شخصياً، وبدون معرفة موالي اللوردات، ذهبت بقارب إلى ديرالقديس دومينيك، وسألت رئيس الدير أن يستقبلني بمثابة ضيف حتى يحين موعد مغادرة غليون الحجاج الميناء، الأمر الذي تمكنت بعد معالجات كثيرة، من إقناعه بعمله، ذلك أنني وجدت أنه من

غير اللائق بالنسبة لي، ومناقض لتفكيري، أن أعيش كلياً بين أشخاص علمانيين، وبناء عليه عدت إلى نزلي، وحزمت أمتعتي، ثم زرت موالي، وأخبرتهم بها نويته، ولم يرضهم هذا الاقتراح، وفي الحقيقة أزعجهم كثيراً، ولم يوافقوا على تركي لهم بأي حال من الأحوال، ومن أجل إمكانية بقائي معهم برضاي، عملوا ترتيبات مع صاحب النزل، فأعطاني غرفة خاصة بي، حيث يمكنني أن أجلس بهدوء لوحدي، ويمكنني أن أنام، وأن أصلي، وأن أقرأ وأكتب، وأن أنجو من ضجيج النزل كله، بحيث أكون كما لو أنني في قلايتي في أولم، وعلى هذا بقيت مع بقية جماعتنا الوقت كله الذي مكثناه في البندقية، لكن غالباً — في الحقيقة مرة كل يوم — ما اعتدت على زيارة دير رهبان طائفتنا.

وخرجنا في الثامن والعشرين من نزلنا في الصباح، وسرنا خلال شوارع التجار، وذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص لحضور القداس هناك، وبعد انتهاء القداس سرنا حول الساحة المفتوحة أمام قصر الدوج، وقام في هذه الساحة، أمام الباب الكبير لكنيسة القديس مرقص، علمان ثمينان جداً، وقد نشرا عالياً فوق رمحين طويلين، وكان لونهما أبيض، ورسمت عليهما علامة صليب أحمر، فقد كانا علما الحج إلى الأرض المقدسة، وأدركنا من هذين العلمين بأنه جرى إعداد غليونين وتعيينهما لنقل الحجاج، ذلك أن سادة البندقية عرفوا عدد الحجاج الذين تدفقوا إلى هناك واحتشدوا مع بعضهم، ولذلك وقع اختيارهم على اثنين من النبلاء من بين شيوخهم، وعهدوا إليهما بالعناية بالحجاج.

وكان اسم الأول من هذين الشيخين:المعلم بطرس دي لاندو Lando ، واسم الثاني المعلم أوغسطين كونتاريني Contarini ، ووقف خدم هذين النبيلين إلى جانب العلمين، ودعا كل واحد منهم الحجاج للابحار مع معلمهم، وبذلوا جهودهم لاقتياد الحجاج

وجذبهم: فئة أولى إلى أوغسطين والفئة الثانية إلى غليون بطرس، وأطرت الفئة الأولى وكالت المديح لغليون أوغسطين، وشتمت غليون بطرس، وفعلت الفئة الثانية عكس ذلك، ونتيجة لهذا غدا هذان السيدان: أوغسطين وبطرس عدوان أحدهما للآخر حتى الموت، وشتم أحدهما الآخر، وشهّر به أمام اللوردات والحجاج، وحاول كل منهما أن يجعل من الآخر مكروهاً من قبل الحجاج، وطلب من الناس فعل ذلك.

وبدأ ينشأ عن هذا شر آخر، هو أن الحجاج أنفسهم تحزبوا ووقف كل فريق منهم مع إحدى جماعتي هذين القبطانين، وبات كل واحد متعصباً لقبطانه وقائده، واحتار موالي ولم يعرفوا بعد إلى أي من هذين القبطانيين الأفضل أن يعهدوا بأنفسهم، وسبب ذلك لما سمعوه من آراء مختلفة بشأن كل واحد منهما، أما أنا شخصياً، فقد وافقت على القبطان أوغسطين كونتاريني، الذي عرفت أنه رجل عاقل، ويمكن الوثوق به، لأنني عبرت البحر في حجي المتقدم على ظهر سفينته، لكن الآخرين شتموه وامتدحوا الآخر، ولذلك ومن أجل خاطر السلام، لم أتدخل في هذه القضية، وأعلنت أن كليهما كانا قبطانيين جيدين، إذا ما حملانا بسرعة إلى الميناء الذي نقصده، وأضفت أنني لو عرفت أي واحد من الاثنين سوف يكون الأسرع، والمستعد حالاً للابحار، فهو الذي سوف أوصي الحجاج باختياره، وعلى كل حال، وعد كلاهما، أنهما سوف يشرعان برحلتهما فوراً، الأمر الذي عرفت أنه كذب.

وفي يوم التاسع والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس بطرس الشهيد، لدى طائفة الرهبان المبشرين، أخذت سادتي إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولس، حيث كان هناك ديراً في غاية الفخامة والعظمة للرهبان المبشرين، واستمعنا هناك للقداس، الذي نفذ بشكل مهيب جداً، وكان هناك اندفاع كبير للناس في هذا اليوم إلى كنيسة هؤلاء الرهبان، لوجود عيد هناك، وقد احتشد الناس ووصلوا بتزاحمهم حتى

أطراف المذبح، فقد تقاطر الناس إلى هناك من المدينة كلها لسماع القداس، ولتقبيل آثار الشهيد المقدس، ولشرب ماء القديس بطرس، هذه المياه التي بعد مباركتها باسم الرب، وبعد لمسها بآثار الشهيد المقدس، يعتقد أنها ثمينة ومفيدة للجسد وكذلك للروح، ولهذا يأخذ المؤمنون من معظم أجزاء العالم ماء القديس بطرس هذا، ويعطونه للنساء في أثناء خوفهن لشربه، حيث ينقذهن من خوفهن، ومثل هذا إنه يعطى للمرضى من الحمى، فبوساطته يمكن أن يصبحوا أصحاء، ويحمله الملاحون أيضاً في سفنهم، ويصبون قليلاً منه في الأوعية حيث يجري حفظ الماء، وبفضله تبقى المياه الأخرى وتحفظ من أن تصبح آسنة، ومهما كانت المياه قديمة، فإنها لاتفسد أو تتغير رائحتها، إذا ما صب فوقها بعضاً من هذا الماء، وقد عرف البحارة أن هذا صحيحاً من خلال الممارسات اليومية.

وهكذا بعدما سمعنا القداس، وقبلنا آثار هذا القديس، وتذوقنا بعض نقاط من هذا الماء المانح للحياة، عدنا إلى نزلنا لتناول الطعام، وبعد تناولنا للطعام، أخذنا مركباً وجذفنا في خلال شوارع البلدة حتى القديس مرقص، ومن هناك ركبنا إلى قصر دوج البندقية، على القناة العظمى، حيث رسا غليونا القبطانين، بغرض أن نراهما معا، وجذفنا أولاً نحو غليون المعلم بطرس دي لاندو، وصعدنا من قاربنا إلى ظهر الغليون، ومن إلقاء النظرة الأولى كان كل من السادة وأنا راضين عن مظهر المركب، لأنه كان غليوناً له ثلاثة صفوف من المجذفين، وهو واسع وعريض، وبالاضافة إلى ذلك كان جديداً ونظيفاً، وفي الوقت الذي كنا نسير فيه هناك، جاء معلم الغليون بطرس لاندو، الذي هو القبطان، على ظهر قارب، ورحب بنا باحترام كبير، ومدّ مائدة طعام على مؤخرة المركب، حيث قدم لنا بعض الخمرة والمربيات من الاسكندرية، وعاملنا بكل احترام، وذلك كإنسان يود أن يأخذنا معه

كركاب.

واقتادنا بعد هذا نحـو الأسفل، عبر بعض الدرجات، إلى القمرة، ثم إلى المكان الذي يجلس فيـه الحجاج، ووضع تحت تصرفنا مسـاحة كبيرة من القمـرة، حيث يمكننا اختيـار اثني عشر فراشـاً لاثني عشر شخصـاً على أي طرف نرغب فيه، وبعدما تفحصنا هذا الغليون، أخبرنا القبطان بأننا سوف نعلمـه بالغد فيما إذا كنا قـد نوينا الابحار معـه أو مع انسان آخـر، وهكذا عدنا إلى قـاربنا ثانيـة، وجذفنا نحـو الغليون الآخـر، أي غليـون المعلم أوغسطين كونتـاريتي، الذي وجدناه جـالساً على ظهـره، وقد استقبلنا بتـواضع كبير، وقادنا حول غليونه، وأعطانا الخيـار لانتقاء مكان لاثني عشر شخصاً، وقدم إلينا بعض الخمرة واللحم الحلو، وأكد لنا أنه سوف يتعامل معنا باخلاص، وقد عرفني بشكل جيد، وأشار إليّ كشـاهد على صدقـه وأمانتـه قائـلاً: «ها هو الراهب فيلكس، شماسكم، الذي يعـرف كيف أتعـامـل مع الحجـاج، وأنا أرجـوه أن يقـول الحق، ولسـوف تقررون البقـاء معي»، وقـد نظرنا جميعـاً خلال الغليـون، فلم يرضنا مثلما أرضـانـا الآخـر، لأنـه كـان يحتـوي فقط على صفين من المجـذفين، ومساحتـه أقل، ومظهره قـديم ورائحتـه كريهة، وأنا أعـرف ذلك شخصيـاً، وكنت قــد عـانيت من كثير من المتـاعـب فيـه، وبعـد تفحصنا لهذا الغليون عدنا بالقارب إلى نزلنا.

وفي يوم الثـلاثين من نيسـان، الـذي هو اليـوم الأخير من الشهـر، استمعنا إلى قـداس في نزلنا، بسبـب وجـود لورد كبير من النمسـا كـان مقيماً هناك، مع أنه لم يكن حاجاً، وبعـدما تلا شماسه القداس في البيت، اجتمعنا نحن الاثني عشر مع بعضنا لنتباحث حول مع أي من صاحبي الغليـونين سـوف نبحر، وأية شروط سـوف نعمل معهما، وقـرر مـوالي وجـوب ذهابهم مع المعلم بطرس لاندو، في غليـــونه ذي الصفـوف الثـلاثة، ومن جهتي أنا، كنت أفضل الذهاب مع القبطان الآخـر، وهو

أوغسطين، لكنني نفرت من غليـونه ذي الصفين، وذلك بسبب المتاعب العظيمـة التي عـانيت منهـا على متنه، ولهذا قـررنا الـذهاب مع المعلم بطرس، فضلاً عن هـذا وضعنا عشرين شرطاً، حددنا فيهـا إطار عقدنا معه، وأوضحنا أن القبطان ملزم بتنفيذ ذلك لنا.

وكان **الشرط الأول**: إن على القبطان أن يأخذنا حجـاجاً من البندقية إلى يافـا، وهو ميناء في الأرض المقـدسة، وأن يعيـدنا ثانيـة من هناك إلى البندقية، ولهذا الغرض عليه أن يكون جـاهزاً خلال أربعة عشر يوماً في الخارج، أي أن عليه عدم الإقامة هنا أكثـر من أربعة عشر يوماً بعد هذا اليوم.

والثـاني: هو أن يجهـز الغليـون بشكـل لائق ببحـارة ذوي خبرة، من الذين يفهمـون فن الملاحـة مع أي نـوع من الريح يمكن أن تهب، وأن يكون معـه على ظهر الغليـون ما يكفي من سـلاح للدفاع عن الغليـون ضد هجمات القراصنة، إذا ما حدث شيء من هذا القبيل.

والثالث: على القبطان أن يكون متيقظاً، فـلا يتوقف في أي ميناء غير اعتيـادي أو غريب على طـريقه، بل عليـه أن يتـوقف فقط عند الموانيء التي اعتـاد أن يحصل منهم على الميرة لغليـونه، وأن يأتي توقفـه عبـوراً، ذلك أن عليـه أن يتجنب التـوقف في أي ميناء، بل أن يتـابع المضي على طريقه، ومرغوب منه بشكل خـاص تجنب مملكة قبرص، وعدم التوقف هناك، وإذا ما فعل ذلـك، عليه عدم البقـاء في الميناء لمدة تزيد على ثلاثة أيام، لأن لدينا اعتقــاد متـوارث بأن هواء قبرص غير صحـي بالنسبـة للألمان، وعلى كل حــال، إذا مــا رغـب واحــد من جماعتنا أن يقــدم التحيـات لملكة قبرص ومن ثم خـدمتهـا في نيقوسيـا، وأن يتسلـم منهـا شـارة طائفتها، على القبطان القيـام بانتظاره حتى عـودته، ذلك أن هذه عادة قديمة بين النبلاء ما دام هناك ملك في تلك المملكة.

والرابع: هو إن على القبطان تقديم وجبتين من الطعام والشراب، إلى الحجاج كل يوم بدون انقطاع، وإذا ما حدث لأي سبب أن واحداً منا لم يرغب بالجلوس إلى مائدة القبطان، أو أن يحضر طعام العشاء في المساء، أو اننا جميعا اخترنا البقاء في مخادعنا، على القبطان إرسال الطعام والشراب إلينا من دون إثارة أية خلافات.

والخامس: ويتوجب على القبطان أن يزود الحجاج، أثناء رحلتهم من البندقية إلى الأرض المقدسة، ومن هناك عائدين إلى البندقية، بما يكفي من الخبز الجيد، والبقسماط، والخمرة الجيدة، والماء العذب، الذي وضع حديثاً على ظهر المركب، وباللحم، والبيض، وجميع الأطعمة من النوع نفسه.

والسادس: هو إن عليه في كل صباح، قبل أن نتناول طعامنا، أن يعطي كل واحد منا قدحاً صغيراً من الخمرة المالوفيه Malovoisie، حسبما جرت العادة على ظهر السفن.

والسابع: إذا ما طلب الحجاج انزالهم إلى الشاطىء قرب أي ميناء، توقف الغليون على مقربة منه، دون رغبة في الدخول إليه، أو لأي سبب معقول آخر، مثل الحصول على الماء أو الدواء، أو حاجيات ضرورية أخرى، وقتها القبطان ملزم باعطائنا قارب، وطاقم قارب ليتولى نقلنا إلى ذلك الميناء.

والثامن: إذا ما قام القبطان بالتوقف على مقربة من أحد الموانىء غير المسكونة، حيث لن يستطيع الحجاج الحصول على الضروريات لأنفسهم، هو وقتها ملزم بأن يزودهم بالطعام وكأنهم ليسوا في ميناء، ومن جهة أخرى إذا ما توقف في ميناء جيد، هم ملزمون وقتها بالتزود بما يحتاجونه لطعامهم.

والتاسع: القبطان ملزم بحماية الحجاج، في كل من داخل الغليون

وخارجـه، من الاعتداء عليهم، ومن سوء سلوك عبيـد الغليون، وذلك إذا ما رغب الحجـاج بالجلوس مع العبيد، وهو أيضـاً ملزم بمنع العبيد من السخـرية بهم فوق اليـابسة، وذلـك بقدر مـا يستطيع، وعليه عـدم وضع أية شيء في مخادع الحجاج.

والعـــاشر: ينبغي على القبطان أن يترك الحجـــاج يبقـــون في الأرض المقدسة طوال المدة المستحقة ولـن يستعجلهم كثيراً جداً، وعليه قيادتهم إلى الأمـاكن المعـروفـة، وأن يصـاحبهم شخصيـاً، ونحن نرغب بشكل خـاص أن لايثير أي اعتراض في قيـادتهم إلى نهر الأردن، وهو الأمـــر الذي يجد الحجاج دوما صعوبة في تحقيقه والقيام به، وهو سوف يجنبهم وينقذهم من جميع المشاكل مع الكفار.

والحادي عشر: جميع المكوس، وجميع الأمـوال من أجل المرور الآمن، ومن أجل الحمير والنفقـات الأخرى، مهما كان اسم المطـالبة بها، أو أية مـدفـوعـات في أي مكان يتـوجب دفعهـا، هذا كله على القبطان القيـام بدفعـه من قبله وحده لصـالح جميع الحجاج، الذين ينبغي أن لايدفعـوا شيئاً أو أن يطالبوا بأية مـدفوعـات، ومثل هذا عليه أن يدفع الايجارات الكبيرة، وأما الايجارات الصغيرة فنحن سوف نتدبر شأنها بأنفسنا.

الثاني عشر: وفي مقابل جميع هذه النفقات، ومقابل جميع ما سيتحمله القبطان، يتـوجب على كل حـاج أن يدفع إليـه أربعين دوقيـــة ducats من النوع الذي اسمه de zecha، أي المسكوكة حديثاً، على شرط، أن يدفع الحاج نصف هذا المبلغ في البندقية، والمتبقي في يافا.

الثالث عشر: وإذا ما حدث وتوفي أحـد الحجاج، لن يتدخل القبطان بأي حال من الأحـوال في أشيائه التي يخلفها بل عليـه ترك هذه الأشياء دون أن يلمسها في حـوزة الشخص أو الأشخاص الذين ترك الميت لهم وصيته.

الرابع عشر: وإذا ما مات أحد الحجاج قبل الوصول إلى الأرض المقدسة، القبطان ملزم بإعادة نصف مبلغ المال الذي تسلمه من قبل، حتى يتصرف به الأوصياء وفقاً لتعليمات المتوفى.

الخامس عشر: وإذا حدث ومات واحد من الحجاج على ظهر الغليون، لن يقوم القبطان مباشرة بالأمر برمي جسده في البحر، بل عليه أن يتدبر أمر أخذه إلى الشاطئ ودفنه في احدى المدافن، وإذا كان الغليون— على كل حال— بعيداً عن اليابسة، سوف يتم الاحتفاظ بجسد الميت حتى تتاح الفرصة للوصول إلى أحد الموانىء، أو أن يوافق رفاق الميت على رمي جسده في البحر.

السادس عشر: إذا ما رغب أحد الحجاج بالذهاب إلى القديسة كاترين في جبل سيناء، يتوجب على القبطان أن يدفع لكل شخص عبّر عن مثل هذه الرغبة عشر دوقيات من المبلغ الذي دفع إليه من قبل.

السابع عشر: قبل أن يغادر القبطان القدس مع الحجاج، عليه باخلاص مساعدة الحجاج الذين سوف يسافرون إلى القديسة كاترين، بأن ينظم اتفاقية صداقة فيما بينهم وبين دليلهم.

الثامن عشر: يتوجب على القبطان أن يعين للحجاج مكانا موائماً على ظهر الغليون، ليحتفظوا فيه ببعض الفراخ والطيور، وأن يسمح طباخيه لطباخ الحجاج باستخدام نارهم ليطبخ للحجاج عندما يرغبون بذلك.

التاسع عشر: إذا ما وقع أحد الحجاج مريضاً وهو على ظهر الغليون، ولم يعد قادراً على البقاء في مخدعه وتحمل روائح النتن، وقتها يتوجب على القبطان أن يعطي مثل هذا الانسان مكانا ليرتاح عليه في الطبقة العليا، أو في القمرة، أو على المؤخرة، أو أن يعطيه واحداً من مقاعد المجذفين.

العشرون: إذا ما ترك شيء وأغفل ولم يرد ذكره في اتفاق التعليمات

هذا، أو وجد أمر لم يوف حقه بالتعبير عنه، أو لم يشرح بما فيه الكفاية، إنما هو بحكم القانون والعادة من واجبات القبطان وعليه فعله، وقتها يعدّ هذا وكأنه قد ورد ذكره في هذه التعليمات، وسيعدّ وكأنه قد كتب بينها.

وبعدما وضعنا هذه الشروط وكتبناها، بعثنا بها إلى المعلم بطرس، وهو القبطان الذي كان يتولى انتظارنا في النزل، وقد قرأ هذه الشروط حسبما وضعناها، وأخبرناه إنه إذا كان راضياً بالتعامل معنا وفقاً لروحها، وعلى استعداد لأن يقسم يمينا بأن يفعل ذلك، نحن على استعداد لعقد عقد معه واتفاق كما تقدم القول، ولدى سماع القبطان بهذا، أخذ قائمة الشروط، وقرأها واحداً واحداً بعناية كبيرة، وأما بالنسبة للشرط الأول، فقد قال: إنه بالنسبة للفقرة الأولى من الشرط الأول، هو على استعداد لقبولها، ولسوف يأخذنا إلى يافا ويعيدنا ثانية، أما بالنسبة للفقرة الثانية من الشرط فهو لايمكنه الموافقة عليها وتعلل بعدة أسباب، على أساسها كان من غير الممكن له الابحار خلال شهر أيار، وبناء عليه هو لايمكنه الاقلاع بنا خلال أربعة عشر يوماً، ولاحتى خلال ستة وعشرين يوماً، إنما عندما تنقضي الأيام الستة والعشرين، هو سيشرع في أي ساعة تتوفر فيها ريح طيبة، وبالنسبة للشرط الثاني عشر، أعلن أنه لن يأخذ أقل من خمس وأربعين دوقية من كل واحد من الحجاج، وتعلل لهذا بأسباب كثيرة، وبالنسبة للشرط الخامس عشر، قال بأنه سوف يبقي جثة الرجل الميت على ظهر السفينة، غير أنه أوضح أن البحر لن يسمح بذلك، وأن ذلك سوف يعيق رحلتنا، ويمكن للقارىء أن يرى مدى الصدق في هذا في الصفحة ١٩٨ المقبلة، أما بالنسبة للشروط الاخرى فقد أعلن عن رضاه بها، وبناء عليه وبعد أحاديث طويلة عقدنا اتفاقاً معه.

وبعدما عقدنا اتفاقنا، أخذنا جميعا إلى القديس مرقص حيث قصر

الدوج، وأحضرنا أمام شهود عدل المدينة، الذين عندما سمعوا السبب الذي حضرنا من أجله أمامهم، كتبوا اسماءنا وأوضاعنا الحياتية في كتاب كبير، وكان اسمي قد كتب فيه من قبل، عندما ذهبت في حجي المتقدم، وبذلك تأكد اتفاقنا وتأصل، وبعد الفراغ من هذا كله، ذهبنا في قارب مع القبطان إلى الغليون، واخترنا مكاناً لاثني عشر شخصاً على جانب اليد اليسرى، وقام القبطان بتقسيم ذلك الفراغ إلى اثني عشر مخدعاً، أو سرير، وكتب اسم كل انسان على مخدعه بالحكك،من أجل أن لايأخذ انسانا آخر هذه الأماكن، وبالنسبة لي وافقني حظ طيب، فحصلت على أفضل مخدع، أو سرير بين جماعتنا، والمخدع أو السرير، هو مكان لإنسان واحد، يمتد طوله من رأسه حتى قدميه، يعين له للمنامة، والجلوس، والعيش فيه، سواء أكان مريضاً أو معافى.

وبعدما فرغنا من هذه الإعدادات، جذفنا عائدين الى مقرنا في النزل، ونحن راضين تماماً بكل شيء، إلاّ بأننا كنا مرغمين على البقاء مثل هذه الأيام الزائدة في البندقية، وهذا كان محزن جداً بالنسبة لنا.

هنا نهاية الفصل الأول .

الفصل الثاني

ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيار

وفر لنا شهر أيار السار والبهيج وقتاً للتعبد التقوي في يومه الأول في عيد القديسين الرسولين: فيليب وجيمس، وبناء عليه في الصباح الباكر، عندما استيقظ موالي وبقية جماعتنا أعدوا أنفسهم للذهاب إلى الكنيسة والاستماع للقداس، وسألوني: في أي الكنائس يتوجب علينا سماع القداس في هذا اليوم؟ فأجبتهم: «أيها السادة، خذوا بعين التقدير، أننا أقلعنا بقصد الحج باسم الرب، وليس من اللائق بالنسبة للحاج الوقوف من دون نشاط، وطالما نحن محاطون بالماء من كل جانب، لايمكننا حبس أنفسنا وتمضية الوقت بزيارة حدائق الورود، أو السهول المشرقة، أو الغابات الظليلة، أو المروج الخضراء، أو الحقول البهيجة، أو الأشجار، والورود، والزهور والليلك، كما لايمكننا التسلي بالصيد، وفي الوقت نفسه ليس من اللائق بنا حضور المبارزات أو احتفالات الرقص، وبناء عليه إن نصيحتي، هي: أننا مادمنا هنا، علينا أن نحج كل يوم إلى احدى الكنائس، ونزور أجساد وآثار القديسين، حيث يوجد حشد عظيم منهم في هذه المدينة، وبذلك يمكننا خلال شهر أيار أن نقطف، ورود وزهور وليلك الفضائل، والنعمة، والغفران»، وعندما سمعوا هذا، وافق الجميع على نصيحتي، وجاءت الموافقة بالاجماع بأن علينا أن نركب في القارب أو أن نسير على الأقدام في كل يوم إلى احدى الكنائس، وإذا لم نذهب نحن جميعا، ينبغي على الأقل أن يذهب بعض جماعتنا، وأن يفعلوا ذلك، حتى يمكنهم فيما بعد اخبار البقية بما رأوه.

وبناء عليه قمنا في اليوم الأول من شهر أيار باستئجار قارب، ذهبنا به إلى كنيسة الرسولين المقدسين: القديس فيليب، والقديس جيمس،

وحضرنا القداس هناك، وبعد القداس صعدنا إلى المذبح وقبلنا الرأس المقدس للقديس فيليب، الذي كان محفوظاً هناك، والذراع المقدس للقديس جيمس، وكان هناك اندفاع عظيم وضغط شديد بين الناس لرؤية الآثار المقدسة وتقبيلها، وعندما انتهى القداس ذهب الناس، لكننا بقينا نحن حتى يمكننا أن نحصل على مشهد أفضل للآثار دون التعرض للدفع والضغط، ويمكننا أن نلمسهم بمجوهراتنا، لأن الحجاج إلى الأرض المقدسة قد اعتادوا أن يحملوا معهم إلى الأماكن المقدسة خواتم منتقاة من الذهب أو الفضة، أو بعض الحبوب من الحجارة الكريمة من أجل أن يعمل منها رقى أو سبحات، أو يكون المحمول سبحاتهم المصنعة، أو بعض الصلبان الصغيرة من الذهب أو الفضة، أو أي شيء مماثل هو ثمين، وسهل حمله من الحلي، التي عهد بها إليهم من قبل آبائهم أو أصدقائهم، أو أشياء اشتروها في البندقية أو من أي مكان من بلدان ما وراء البحر لتكون هدايا للأشخاص العزيزين عليهم، وكانوا كلما التقوا بأية آثار مقدسة، أو وصلوا إلى أي مكان مقدس، كانوا يأخذون هذه المجوهرات، ويلمسون بها الآثار أو الأماكن المقدسة، علهم يحصلون بذلك على بعض القداسة من عملية اللمس، وبذلك يعودون إلى أصدقاء الحجاج أثمن وأكثر قيمة من ذي قبل.

وكنت أنا شخصياً الأقل بين الجميع، وأفقر واحد في جماعتنا، ومع هذا كان معي كثيراً من الجواهر الثمينة أعيرت إليّ من قبل أصدقائي، أو نصرائي أو نصيراتي، من أجل أن ألمس بهن الآثار والأماكن المقدسة التي سأزورها، ثم سأعيدهن إليهم، وأتسلم جائزة لقيامي بذلك، وكان بين هؤلاء من آخرين صاحب السيادة السيد جون اخنغر Echinger، وكان في تلك الأثناء عمدة أولم، فقد عهد إلي بخاتم ثمين جداً وعزيز لأنه كان خاتم والده جيمس اخنغر، فقد كان قد سحبه من اصبعه في

ساعـاته الأخيرة وأعطاه إلى ابنه، مثلما تسلمه من أبيـه من قبله، وأعتقد مؤكـداً أنه يساوي بـالنسبة إليه أكثـر من مـائة دوقية، وأنـه يقدره الآن بأكثر من مائتي دوقية.

وهكذا بعدمـا انسحب الناس، اقتربنا— كما تحدثت— أكثر، ولمست آثار الرسولين المقدسين، وكان واجبي أن أحمل جميع المجوهرات العائدة إلى الحجـاج العلمانيين في الأماكن المقـدسـة، أو في الأماكن التي كـانت الآثار محفـوظة فيهـا، وبيـدي لمست الأشيـاء المقـدسـة، بكل قطعـة من المجـوهرات، ثم أعدتهم جميعـاً إلى أصحـابهم، لكن بعض النبلاء أبقـوا مجوهراتهم في يدي طوال الحج، وفعلنا هذا في جميع الأمـاكن المقـدسـة، ومع جميع الآثار التي وجـدناها خـلال حجنا كله، شروعاً من سمعـان الطفل المقدس في ترنت، وبناء عليـه عندما فرغنـا من هذا كله عدنا إلى النزل لتناول طعام الغداء.

وفي اليـوم الثـاني من أيار ذهبنا في الصبـاح إلى القـديس مـرقص، وحضرنا القداسات في الكنيسة الكبرى للقديس مرقص، وعندما انتهت القداسات ذهبنا إلى قصر دوج البندقية، حتى نقـابله شخصيا لنقدم إليه الرسالـة التي بعثها صاحـب السمو العظيم سيغسمونـد، رئيس دوقات النمسـا، والتي عهد بها إلى مـوالي لتقـديمها إليـه، وذلك حسبما قلنا في الصفحـة ١٥٣، لدى الحديث عن اليـوم السـابع عشر، وهكذا صعـدنا على السلم الحجري من سـاحة القصر إلى الرواق المعمـد، ووقفنا خارج قـاعـة القضـاء، وطلبنا أن يسمح لنا بالدخـول إلى الشيخ Senate، وسمح لنا على الفور بالدخول إلى مكان القناصل، ثم وضعنا في حضره الدوج والشيخ، وقـام اللورد جـون، بارون فـون سيمبيرن وهو حـامل الرسـالة عـالياً، أي رسـالة رئيس دوقـات النمسـا، ومشى نحو الأمـام بطريقة جريئة حتى وصل إلى وسط القاعة، ثم توجه نحو الدوج، وقدم الرسالة إليه باحترام وأدب، ثم عاد.

ونظر الدوج إلى الختم، ولدى تعرفه عليه، قبل الرسالة، ثم ناولها إلى الشيوخ الذين جلسوا معه، حتى يقوموا أيضاً بتقبيلها، ثم أمر بقراءة الرسالة على مسامع جميع الحضور، وعندما استمع إليها وقف الدوج، وعرض— من خلال ترجمان— خدماته على الحجاج، ودعا إليه كل واحد منهم على التوالي، وقدم يده لكل رجل منهم، ثم سحبه إليه وقبله وفق الطريقة الايطالية، والتمس بعد هذا موالي منه رسائل توصية إلى قائد البحر العام، وإلى حكام الجزر، من أجل أنه إذا توفرت الحاجة أن يحصلوا على حماية هؤلاء الأشخاص الذين تقدم ذكرهم، وتمت الاستجابة لهذا الطلب مباشرة، وكتبت الرسائل وسلمت إلينا.

وفي اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد اكتشاف الصليب، ذهبنا بالقارب إلى كنيسة القديس الصليب، وبعد سماعنا للقداس هناك، رأينا وقبلنا جسد القديس أثناسيوس، الذي هو راقد هناك، ولمسناه بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي قدمناه عن اليوم المتقدم، وكان هذا القديس من أعظم أبطال الدفاع عن الايمان وأقدرهم، وقد كتب ضد الهراطقة وليوقع الاضطراب بينهم عقيدة: «من الذي سوف يتم إنقاذه» الخ، وعدنا بعد هذا إلى نزلنا لتناول الغداء.

وبعد الغداء ذهبنا عبر الماء إلى أعظم ديرة الفرنسيسكان، وشاهدنا البناء، الذي كان كبيراً جداً، وفي بيعة مرتبطة بالكنيسة، هناك حصان قد بني بطريقة فنية رائعة، ذلك أن البنادقة يقلدون عادات الأمم الكافرة، وعلى هذا الأساس قرروا مكافأة واحداً من قادتهم البحريين، كان قد قاتل بشجاعة في سبيل الجمهورية، وربح بشجاعته كثيراً من المناطق الجديدة لصالحها، مكافأته بإقامة نصب تذكاري دائم له، فنصبوا تمثالاً من البرونز للحصان ولراكبه في واحد من شوارع المدينة أو ساحاتها، ومن أجل أن يجري تنفيذ ذلك بأروع ما يمكن، أرسلوا وراء النحاتين الموجودين في بلادهم، وأمروا كل واحد منهم أن يصنع حصاناً من أية

مادة يختارها، وقالوا بأنهم سوف يختارون واحداً من الثلاثة الأفضل من بين الخيول، ومن ثم يأمرون بصب حصان من النحاس حسب النموذج الذي اختاروه، وإلى جانب ثمن هذا التمثال، اقترحوا إضفاء تشريف خاص على الفنان الذي صنع شكل حصان.

وبناء عليه اجتمع النحاتون مع بعضهم في البندقية، وصنع واحد منهم حصاناً من خشب، غطاه بجلد أسود، وهو الحصان القائم في البيعة المتقدمة الذكر، وجاء هذا التمثال مشابها جداً لحصان حي، لكن مع فارق هو أنه جاء بحجم غير معتاد، ولايمكنه التحرك، لأنه حصان مصنوع بشكل فني، وصنع فنان آخر حصاناً من الطين، وشواه في الفرن، وقد جاء بشكل يجذب الاعجاب ولونه أحمر، وصنع الثالث حصاناً مدهشاً بشكله من الشمع، واختار البنادقة هذا النموذج الأخير، لأنه صنع ببراعة أعظم من الجميع، وأجازوا الفنان، لكن كيف سيصبونه، لم أسمع عن ذلك، ولعلهم تخلوا عن المشروع، وبناء عليه، بعد ما رأينا هذا الدير، والأشياء المتقدمة الذكر، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الرابع، الذي كان يوم أحد اسمه Vocem Jucunditatis ، وكان ذلك عيد العذراء الأكثر قداسة، أي القديسة كاترين المدفونة في جبل سيناء، وقد عبرنا من مكان الاعتكاف والتوبة للقديس دومينيك إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولص، ورأينا هناك مسيرة مهيبة، وحضرنا قداساً، وكانت الكنيسة كلها محتشدة بالناس، وكان هناك عدد كبير من النساء قد لبسن مثل الـ Beguines، وعندما انتهى القداس، ذهبت إلى دير الرهبان، ووجدت هناك راهباً من طائفتي، مقيماً هناك وهو مسافر على طريقه، وكان يحمل شارات حاج إلى الأرض المقدسة، وقد جاء من بلاد فرنسا، ومن دير تابع لطائفتنا موجود في جزيرة فرنسا، وكان ينوي الإبحار معنا، ولهذا تعرفت عليه، واتفقنا على أن يتحمل أحدنا صحبة الآخر، وعلى كل حال، هو لم

يسافر على غليوننا نفسه، بل على الغليون الآخر، ومع هذا كان يزورني دوما في القدس، وغالباً ما زرته أنا هناك، وقد تحملنا صحبة أحدنا الآخر.

وبعد تناول طعام الغداء ذهبت وحيداً في قارب إلى دير القديس دومينيك، لرؤية كهنة الدير هناك، وقد أروني ذراعاً كاملاً للعذراء كاترين المباركة جداً والمدفونة في جبل سيناء، وكان ذراعاً كبيراً جداً، وجميلاً، وفيه جلده كله وعظامه، وقد قبلت هذا الذراع مرات كثيرة، ووجدت في الدير نفسه راهباً آخر من رهبان طائفتي، قدم من نابل، وكان يحمل شارات الحج، وهو أيضاً لم يبحر في غليوني، وعدت بعد هذا بالقارب إلى النزل.

وذهبنا في اليوم الخامس بالماء إلى جزيرة الامبراطورة القديسة هيلانة، وهناك قرأت قداساً لموالي، وبعد القداس فتح الرهبان قبر القديسة هيلانة من أجلنا، ورأينا جسدها كله، مع آثار أخرى كثيرة، وبعد تقبيلهم ولمسهم بمجوهراتنا، عدنا إلى النزل، وبعد الغداء، ذهبنا في قارب إلى الغليون الذي استأجرناه، ورأينا القبطان قد أمر بوضع ألواح فوق الجزء المنخفض من مخادعنا، وقد اصطدم بعضهم بأقدامنا وكان في المكان الذي أردنا أن نضع فيه أحذيتنا وصندوق آنيتنا، ولهذا أخبرنا الرجال الذي كانوا مسؤولين عن الغليون، أنه ما لم يقم في الغد بنزع هذه الألواح، سنعدّ اتفاقنا ملغى، ذلك أننا رأينا في عملهم هذا مخالفة للشرط التاسع، وبناء على ذلك نشب خلاف فيما بين الحجاج وبين القبطان، وقررنا على كل حال أنه إذا أراد الحفاظ علينا، يتوجب عليه تدمير العمل الذي أقامه، وبعدما فرغنا من تنظيم مخادعنا على هذه الصورة، عدنا إلى نزلنا.

وذهبنا في اليوم السادس في قارب إلى القديسة لوسيا Lucia، وبعدما سمعنا هناك قداساً شاهدنا جسد تلك العذراء وقبلناه، ذلك أنه محفوظ

هناك في ضريح وسط تكريم عظيم، وذهبنا في ذلك اليوم نفسه إلى السوق، واشترينا كل ما يمكن أن نحتاجه في غليوننا من أجل الرحلة، من وسائد وفرش، ومخاد، وشراشف، وأغطية، وحصر، وجرار، وما تبقى من أشياء لكل مخدع، وسألتهم أن يشتروا لي فراشاً محشياً بشعر البقر، وكنت قد جلبت أغطية صوفية معي من أولم، من أجل أن أنام على ظهر الغليون مثلما أنام في قلايتي، لأنني رأيت أنه لايصح بالنسبة لي أن أنام على مكان أنعم فوق ظهر الغليون مما أفعل في قلايتي.

وفي اليوم السابع، الذي يوم عيد انتقال القديس بطرس الشهيد، ذهبنا في قارب إلى خارج البندقية، إلى جزيرة مورانو، واستمعنا إلى قداس دومينيكاني في كنيسة القديس بطرس الشهيد هناك، ثم ذهبنا إلى الكنيسة الأبرشية، وهناك عرض علينا كهنة الأبرشية، الأجساد الكاملة لعدد كبير من الأبرياء المقدسين، وكانوا جميعا ممددين في قبر واحد، حيث قبلناهم، ثم قصدنا إلى أفران صنع الزجاج، حيث يجري هناك صنع آنية من الزجاج بفن عالي الجودة والرقي، ذلك أنه لايوجد مثل أعمال الزجاج هذه في أي مكان آخر في العالم، وهم يصنعون آنية غالية السعر من الكرستال، وأشياء أخرى كثيرة رائعة من الممكن مشاهدتها هناك، وبعدما شاهدنا هذا كله عدنا في قاربنا إلى نزلنا في البندقية.

وفي اليوم الثامن، الذي كان يوم عيد صعود ربنا، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، من أجل حضور القداس هناك، وللتمتع بالمشهد العظيم، ذلك أن أعداداً لاتحصى من الناس تتدفق على هناك وتحتشد في ذلك اليوم، وعندما احتشد الجميع واجتمعوا، سار البطريرك مع إكليروسه ورجال الدين من جميع الديرة، والدوج والشيوخ ونقباء الحرف، ساروا جميعا بعدما وقف كل فريق منهم في مكانه المحدد، وقد لبس كل منهم لباسه الخاص مع شعاراته، وأعلامه، ومشاعله، وذخائره، ومشوا في مسيرة من كنيسة القديس مرقص إلى البحر، وهناك

صعدوا على ظهر سفن أعدت خصيصاً لهم، وأقلعوا بها، وصعد البطريرك مع الدوج والشيوخ على ظهر الـ Bucentaur (في اللاتينية Bucephalus ، وسميت هكذا على اسم حصان الاسكندر الكبير) التي كانت سفينة عظيمة تشبه خيمة العهد، وكانت مطلية، ومغطاة بالذهب وبشقق الحرير المعلقة، وأخذ هذا مكانا وسط احتفال فخم، وقرع لجميع نواقيس المدينة، وزعق الأبواق، وغناء مختلف أنواع التراتيل من قبل رجال الدين، وعندما ابتعدت الـ Bucentaur من الشاطىء بضربات مجاذيفها، التي كان تعدادها أكثر من ثلاثمائة، صاحبها ما يزيد على خمسة آلاف مركب، وقد أبحروا حتى القلاع التي تشكل ميناء البندقية، وعندما عبرت السفن جميعها وصارت خارج الميناء في البحر، بارك البطريرك البحر، حسبما جرت العادة بمباركة المياه في مثل هذا اليوم.

ولدى الفراغ من احتفال المباركة، انتزع الدوج خاتماً ذهبياً من اصبعه ورماه في البحر، وبذلك اقترنت البندقية بالبحر، وبعد احتفال الخاتم، خلع كثيرون ثيابهم وغطسوا نحو الأعماق بحثا عن الخاتم، وكان الذي يعثر عليه، يحتفظ به لنفسه، وفوق ذلك يسكن طوال ذلك العام في المدينة وهو معفى من الأعباء التي يخضع لها سكان تلك الجمهورية، وفي أثناء القيام بهذا كله تتجمع السفن كلها حول Bucentaur، وهي تضغط بشدة وتتأرجح، وتصدر أصواتاً باطلاق المدافع، والنفخ بالأبواق وقرع الطبول، وبالصراخ والغناء، إلى حد بدا فيه البحر وهو يهتز، وكنا حضوراً أثناء هذا العرض، في مركبنا المستأجر.

وبعد الفراغ من المباركة، وعملية الاقتران بالبحر، جذفوا بالـ Bu-centaur نحو دير القديس نيقولا على الليدو Lido، ولدى الوصول إلى الشاطىء هناك، نزلوا جميعاً من جميع السفن، ودخلوا إلى الكنيسة، التي لم يستطع جزء من مائة من الناس الدخول إليها، مع أنها كانت

كنيسة عظيمة، ولم يكن بين ذلك الجمهور العظيم ولا امرأة واحدة، ذلك أن الذين نفذوا الاحتفال كانوا من الرجال فقط، وعندما يكون البطريرك سائراً نحو الكنيسة، وهو مرتدياً لثيابه الحبرية، ومعه الدوج الذي برفقته حاشيته كلها، يأتي راعي الدير، وعلى رأسه قلنسوته الحبرية، وبرفقته جميع الرهبان بأرديتهم المقدسة، نحو الخارج لاستقبال الجمهور، ولاصطحاب البطريرك والدوج بيده ولأخذهما نحو سدة الكنيسة حيث يعقدون القداس لذلك اليوم، وسط مهابة عظيمة، ويعودون بعد هذا إلى سفنهم، ويتوجه كل انسان نحو بيته لتناول طعام الغداء.

ولقد رأيت في بعض الأحيان مثل هذه المشاهد في أماكن أخرى، وبالنسبة لذلك انظر الصفحة ٢١٠، في القسم الثاني، وفي خلال الاسبوع الذي يلي يوم الصعود، ينعقد هناك سوق تتوفر فيه مشاهد رائعة.

وذهبنا في اليوم التاسع بالمركب إلى دير اسمه دير الرهبان العكاكزة، وبعد سماعنا للقداس هناك أرونا جسد القديسة بربارة مع كثير من الآثار الأخرى، التي قبلناها باحترام، ثم عدنا إلى نزلنا، وذهبنا في اليوم نفسه إلى بيت، كان موجوداً فيه فيل، الذي هو حيوان ضخم ومخيف، وقد رأيناه، واندهشنا لدى رؤيتنا لمخلوق بمثل هذا الحجم غير الاعتيادي، وقد تلقى تدريبات عظيمة، ذلك أنه كان يقوم بأعمال رائعة، فعلها أمام أعيننا، بإشارة من سائسه، وقد اشترى هذا الرجل هذا الحيوان مقابل خمسة آلاف دوقية، وأخذه من البندقية إلى ألمانيا، وكسب من ورائه مالاً كثيراً، لأنه لم يدع انساناً يراه، دون أن يدفع لذلك، وأخذه بعد ذلك إلى بريطانيا، وهناك رماه البحارة فوق ظهر السفينة أثناء احدى العواصف فهلك.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم سبت، ذهبنا بالقارب إلى كنيسة

اسمها كنيسة القديسة مريم ذات النعمة، وسمعنا قداساً، وذهبنا من هناك بالقارب إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، فهناك قد بنوا كنيسة ذات جمال رائع مع دير جميل جداً، وفي أثناء حجي الأول كان الناس قد بدأوا يتدفقون على ذلك المكان، حيث لم تكن آنذاك بيعة هناك، بل مجرد صورة للعذراء المباركة فوق رافعة مثبته إلى جدار، وقد قيل بأن معجزات قد صنعت هناك، ولذلك أخذت جماعات من الناس تأتي إلى هنا، وتوفرت تقديمات كثيرة، مما أدى إلى بناء كنيسة بنفقات عالية، وهي الكنيسة القائمة الآن هناك في ذلك الموضع، والتي أطلق عليها اسم كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، ولسوف أذكر المزيد عنها في القسم الثاني — الصفحة ٢٠٨.

وفي اليوم الحادي عشر، وكان يوم أحد ضمن الأسبوع التالي ليوم الصعود، استمعنا إلى قداس في أقرب الكنائس منا، وكانت واقعة في مقابل النزل الذي نحن فيه، وذهبنا بعد الغداء بالقارب إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة القلعة، حيث يسكن بطريرك البندقية، وحيث يتم الحصول في كل يوم على توبة وغفران، وشاهدنا المكان، وكانت الكنيسة واسعة وقديمة، وقد وجدنا هناك واحداً من رهبان طائفة المبشرين، وهو الذي كان يتولى الوعظ، مع أننا لم نفهم ما قاله في القداس، لكن بعد انتهاء القداس رجعنا إلى النزل.

وفي اليوم الثاني عشر، الذي كان يوم عيد الشهداء نيروس Nereus وآخيليس Achilles وبنكرايتوس Pancratius ، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديس زكريا، وحضرنا قداساً هناك، وبعثنا بعد القداس برسالة إلى راعية الدير المرتبط بالكنيسة سألناها فيها السماح لنا برؤية الآثار، وهؤلاء الراهبات ثريات ونبيلات، وهن متساهلات جداً بنظامهن، الذي هو نظام القديس بينيت، وقد فتحن لنا الضريح الذي فيه أجساد الشهداء الثلاثة، الذين كنا نحتفل بعيدهم، أي: القديس نيروس،

والقديس آخيليس، والقديس بنكرايتوس، ورأينا في ضريح آخر مصنوع من الفضة الجسد الكامل للقديس زكريا، والد يوحنا المعمدان، وفمه مفتوح، وإلى جانبه جسد القديس غريغوري نازيانزن Nazianzen ، وجسد القديس ثيودور المعترف، وجسد القديسة سابينا، العذراء الشهيدة، ودهشت إزاء ثراء هذه الكنيسة بالآثار، وقد أخبرت بأن ابنة أحد الأباطرة، كانت مرة راعية للدير هناك، وأن الامبراطور، حباً لابنته، جلب هذه الأجساد إلى هناك،وهكذا بعدما رأينا هذه الآثار وقبلناها، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الثالث عشر، ذهبنا إلى الكنيسة الكاريثية Carthusian العائدة للقديس أندرو، حيث يوجد هناك دير عظيم وكبير جداً، وعلى جزيرة خاصة به، مع أربعة أروقة وقلايات جميلة وواسعة، ورأينا هناك كثيراً من الآثار، من ذلك إصبع القديس أندرو الرسول، وذراع القديس لورانس الشهيد، وهكذا كثير، وعدنا بعد هذا إلى مكان اقامتنا.

وذهبنا عبر الماء في صباح اليوم الرابع عشر إلى دير القديس جرجس، القائم في مقابل قصر القديس مرقص، وذلك عبر القناة العظمى، وجعلنا رهبان ذلك الدير يغنون لنا قداساً عن القديس جرجس، وبعد القداس أرونا الآثار المقدسة التي لديهم، وهي: رأس القديس جرجس، وذراعه الأيسر ويده، وكذلك رأس الرسول القديس جيمس الأصغر، والجسد الكامل للقديس بولص، دوق القسطنطينية، وقطعة من الليفة التي منحت لربنا، وأشياء أخرى كثيرة، وعندما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، عدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي يوم الخامس عشر الذي كان نهاية الاسبوع التي أعقب الصعود، وعدّ مقدساً مثل اليوم الأول من الصعود، ذهبنا باكراً إلى القديس مرقص، وبعدما استمعنا إلى القداس، أمكننا رؤية كنز القديس مرقص، الذي لايمكن تقدير قيمته لا بالذهب ولا بالفضة ولا بالحجارة

الكريمـة، فقـد رأينا هناك ضريح وجسـد القـديس ايزيدور Isidore، وأمـا جسد القـديس مـرقص، الذي جلبـه البنادقـة من الاسكندرية إلى مـدينتهم، فلم نره، لأنه قـد قيل بأن راهبـاً قد استـولى عليـه، وحمله إلى ألمانيا إلى أويا Owia ميجر، وحول هذه المسائل سوف تتوفر رواية أكثر كمالاً، في ص ٢٠٦ من القسم الثاني.

ومن الكنيسـة ذهبنا إلى قصر الدوج، حيث تولى واحـد مـن رجـال بلاط الدوج ارشـادنا والطواف معنا حـول الغـرف الـداخليـة للدوج، وشمل ذلك أيضا خزانة الدوج، التي رأيناها، وكـان هذا اليوم يوم عيد خاص للنسـاء، وقد شاهدنا عـرضاً للنساء المزينات بزينة دنيـوية كانت ثمينة جداً، وكان رائعاً مشاهدتهن.

وفي اليـوم السـادس عشر، وبينما نحن في فـرشنا، سمعنا أسرة النزل يبكون وينتحبـون، لأن صـاحب نزلنا المعلم جـون، قـد توفي في الليل، وكـانوا يتجهـزون لدفنه، وبناء عليـه، اعتقـد بعـض منا، أنه ربما هناك طاعون قد نزل هناك، لذلك استأجروا قوارب وأبحروا إلى بادوا، حيث أقـاموا لعـدة أيام، أمـا أنا والذين بقيـوا، فقد ذهبنا عبر الماء إلى كنيسـة القديس روخ Roch ، في مدينة البندقية، وطلبنا عون القديس المتقدم الذكر، الذي هو معين خاص للذين يخافون من الوباء، وذلك خشية أن نصاب بالعدوى.

وفي يوم السابع عشر، الذي كـان عشية عيد الحصـاد، ذهبنا بالقارب إلى دير القـديس يوحنا، العـائد لطائفـة الرهبـان البيض، وهناك حضرنا قـداساً، وقبلنا الآثار، وذهبنا بعـد الغداء إلى مخزن سـلاح المدينة، الذي يسمـونه آرسنال (دار الصناعـة)، ورجـونـاهم السماح لنا بالدخـول، وعندمـا سمح لنا، شـاهدنا كميـات رائعـة من آلات الحرب، مع مخازن تابعـة للدولة لتـزويد الرجـال للقتـال في البحر، أو خيـالة، أو رجـالة، وذلك حسبما سيأتي وصف ذلـك في الصفحـة ٢٠٥ من القسم الثـاني،

ومثل ذلك، ذهبنا بعد هذا إلى بيت الخبازين، الذين يتولون خبز البقسماط للاستخدام في البحر، ودهشنا لدى رؤيتنا الأفران الكبيرة، والنيران، والأعمال والعاملين، وقفلنا بعد هذا كله عائدين إلى النزل.

وفي يوم الثامن عشر، الذي كان يوم أحد، ويوم عيد الحصاد،ذهبنا في الصباح إلى كنيسة القديس بارثلميو الرسول، التي هي الكنيسة الأبرشية لنزلنا، واستمعت هناك إلى اعترافات بعض الحجاج، وبعد الحصول على أذن المغادرة من الكاهن الأبرشي للكنيسة المتقدمة الذكر، توليت إدارة قداس القربان من أجلهم، وبقينا في الكنيسة خلال جميع وقت القداس، وذهبنا بعد الغداء عبر الماء إلى كنيسة الروح القدس، التي تدفق عليها جمهور كبير للحصول على الغفران، ولمشاهدة مسيرة مهيبة للنقابات التي يسمونها مدارس.

وذهبنا في اليوم التاسع عشر بالماء إلى الكنيسة التي اسمها القديسة مريم ذات الشفقة، التي هي فائقة الجمال، وهي أيضاً الأغنى والأكثر قدماً من أية كنيسة أخرى في المدينة، وحضرنا هناك قداساً، وعجبنا لرؤية الرسوم والمنحوتات التي زينت بهم، ولدى عودتنا إلى نزلنا زرنا كثيراً من الكنائس الأخرى، حصلنا فيها على الغفران، وسيكون مرهقاً لي تولي كتابة أسمائهم جميعاً.

وذهبنا في اليوم العشرين في الصباح الباكر، وقبل أن ترتفع حرارة الشمس، إلى كنيسة القديسة مريم الجميلة، وكانت الكنيسة في الحقيقة واسعة وجميلة: وهكذا استمعنا هناك قداساً، وقفلنا بعد ذلك عائدين إلى نزلنا، ولم نتجرأ خلال بقية ذلك النهار على الخروج، بسبب الحرارة العالية جداً، لأن الحر كان أعظم مما عرفته البندقية قط من قبل، وبسبب هذه الحرارة جفت الآبار، وصار الماء العذب عزيزاً جداً، ذلك أنه لم يعد ماء الشرب متوفراً هناك، إلا الماء الذي جلبته السفن من نهر برنتا Brenta وقد بيع هذا الماء بثمن مرتفع جداً، وجرى صبه من حول

الآبار، على أمل أن يتصفى خلال الأرض، وينفذ إلى الآبار.

وذهبنا في اليوم الحادي والعشرين بالقارب إلى دير القديس أنطوني، وكان على مقربة من دير القديس دومينيك، وحضرنا هناك قداساً، وخرجنا بعد ذلك نتجول هناك، وشاهدنا الأبنية العملاقة التي كان سادة البندقية يقيمونها هناك في ذلك المكان، واستولى علينا العجب تجاه النفقات الكبيرة لمثل هذه الأعمال، لأنهم كانوا يقيمون جدراناً ضخمة في ماء البحر بالذات، وكان مكلفاً جداً عمل الأساسات هناك، وبسبب هذا المبنى كان الدوج مع أعيان البندقية الآخرين، غاضبين جداً من أخواني رهبان القديس دومينيك، لأنهم طلبوا من الرهبان منحهم نصف أرض حديقة ديرنا، من أجل توسعة دير القديس أنطوني، لكن إخواني الر هبان لم يوافقوا، ووقفوا في وجه الدوج والشيوخ وقفة جريئة مما أثار غضباً كبيراً ضدهم.

ولكي يحصلوا على موافقة الرهبان، عرضوا منحهم المساحة التي أرادوا من الأرض في البحر، باتجاه الشرق، وحسب اختيارهم وقبولهم، وأن يقوموا بارساء الأساسات على حساب الدولة، لكن رئيس الدير، وكان جريئاً، رفض مطلقاً إعطاء الموافقة، وكان سادة البندقية يتولون عمارة هذا البناء بهذه الروعة، مع بيوت جميلة وكثير من الغرف، من أجل استقبال الحجاج الذاهبين إلى القدس، وإقامتهم فيها، لأنهم أدركوا أنه من غير اللائق، أن يقيم الحجاج في نزل عامة، مع أنهم عازمون على القيام بالحج المقدس، وأنه في مثل هذه المدينة العظيمة ليس لديهم من مكان يأوون إليه إلاّ الخانات العامة، لأن سمعة النزل العامة، كانت فيما بينهم سيئة وغير محمودة، ولذلك عندما كانت تزورهم بعض الشخصيات الكبيرة، كانوا يعينون لها بعض البيوت الخاصة، ليحولوا دون نزولها وإقامتها في النزل، فضلاً عن هذا، كانوا غير راضين، أن تذهب وجبات الأطعمة التي كانوا يرسلونها إلى الغرباء المهمين على

الحساب العام، وتؤخذ إلى النزل، وكان إذا ما أرسل شيء إلى أحد النزل، كان كمية صغيرة ورديئة.

وعندما تسلم موالي وجبة أهديت إليهم من قبل الدولة، أخبروهم أنهم لو كانوا مقيمين في أي مكان غير النزل العام، لبعث إليهم أعيان البندقية بالوجبات بشكل متواصل، ولتعاملوا معهم بكرم أعظم، ولهذا السبب كانوا يتولون عمارة هذا البيت بنفقات عظيمة إلى هذه الدرجة، من أجل أن يتمكن الحجاج ذوي المكانة من الإقامة هناك، ولكي ينالوا التكريم على أيديهم، وذهبنا من هناك بوساطة القارب إلى غليوننا، ووجدنا عدداً كبيراً من الرجال يعملون عليه، في تثبيت مقاعد المجذفين، والمجاذيف، والسواري، والأشياء الأخرى المحتاجة، وكانوا يثقلونه ويوازنونه بالرمل، وعندما رأينا هذا ابتهجنا، آملين بالإقلاع في القريب العاجل.

وفي اليوم الثاني والعشرين، ذهبنا عبر الماء إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة الرسل، وحضرنا القداس هناك، وبعد القداس أرونا جسد القديسة مريم العذراء، التي يوجد حولها رواية رائعة في القسم الأول من كتاب«حياة الآباء»(ص٤٩)، وبعد الغداء ذهبنا ثانية إلى الغليون، وأخذنا بعض الصناديق والخزائن لوضعها في مخادعنا، وذهبنا في القارب أيضاً إلى المكان الذي ترسو فيه السفن ذات الحجم الأعظم، وصعدنا إلى ظهور هذه السفن، وتملكتنا الدهشة تجاه ما رأيناه، وتساءلنا كيف يمكن تحمل مثل هذه العمائر الضخمة، وهذا الوزن العظيم.

وذهبنا في اليوم الثالث والعشرين عبر الماء إلى كنيسة القديس إرميا، حيث أرينا بعد القداس جسد القديس الأسقف مغنوس Magnus الذي كان أول أسقف لمدينة البندقية، ومضينا من هناك إلى كنيسة القديسة مريم، التي اسمها القديسة مريم صاحبة العذراوات، ورأينا كثيراً من آثار القديسين هناك، وزرنا بيعاً أخرى كثيرة في ذلك اليوم،

نسيت أسماءها.

وفي اليوم الرابع والعشرين الذي هو يوم انتقال القديس دومينيك، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديسة آن Anne ، التي هي بالجوار، حيث شاهدنا كثيراً من الآثار، وفي طريق عودتنا إلى مقر إقامتنا، ذهبنا إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة الكرمة، فهناك يمتلك الرهبان الفرنسيسكان ديراً جميلاً جداً، هو الذي يعملونه يومياً أكثر نفاسة، وقمنا هناك بتوجيه التحية إلى العذراء المجيدة، وعدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي اليوم الخامس والعشرين، الذي كان يوم أحد، وكان أيضاً يوم عيد الثالوث المبارك، نهضنا باكراً، وعبرنا القناة العظيمة إلى كنيسة الثالوث المقدس، حيث يوجد هناك البيت العائد للرهبان الألمان النظاميين، وهناك حضرنا مسيرة وقداساً، ودعينا إلى الغداء من قبل السادة هناك، وكان في هذا اليوم حشداً عظيماً من الناس هناك، وكانت القناة طوال اليوم مليئة بالقوارب فيها أناس قادمون، وأناس ذاهبون، وعندما عدنا إلى نزلنا علمنا بأن السادة قناصل البندقية قد أصدروا أوامر إلى كل من القبطانين بالاقلاع مع حجاجهم في ذلك الأسبوع، وعدم الانتظار مدة أطول، ولدى سماعنا بهذا ابتهجنا، لأننا كنا قد بدأنا نملّ كثيراً من الاقامة في البندقية.

وعبرنا القناة في اليوم السادس والعشرين إلى كنيسة القديس اسطفان، حيث يوجد دير القديس أوغسطين، وسمعنا قداساً هناك، وبعد القداس أرانا الرهبان بعض الحجارة التي من المعتقد أن القديس إسطفان قد رجم بها في القدس، وفي ذلك اليوم أصدر قبطاننا الأوامر بوجوب إحضار جميع خزائننا وحقائبنا ووضعهم على ظهر الغليون، الأمر الذي نفذناه مباشرة وسط سرور عظيم،لأننا كنا نتطلع بشوق عظيم لموعد مغادرتنا.

وذهبنا في اليوم السابع والعشرين إلى كنيسة القديس كارتيانوس CARTIANUS، حيث كانت الكنيسة كنيسة أبرشية، فيها سمعنا قداساً، وبعد القداس أرانا رجال الدين جسد الأسقف القديس مكسيموس، المحفوظ بعناية داخل غلاف فضي، وذهبنا أيضاً إلى كنيسة فيها يرقد جسد راعي الدير، القديس سابا، وبعدما قبلنا هذه الآثار، عدنا إلى نزلنا، وعملنا في ذلك اليوم بنشاط كبير، في إعداد أمورنا على ظهر الغليون، وبدا لنا أن الأيام التي بقيت لنا لنقيم بها في البندقية تكاد لاتكفي لإكمال استعداداتنا.

وفي اليوم الثامن والعشرين ذهبنا باكراً عبر الماء إلى كنيسة القديسة مريم الكرملية، وذلك حيث يمتلك الرهبان الكرمليون ديراً، وبعد سماعنا قداساً عدنا إلى نزلنا بسرعة أكبر مما اعتدنا عليه، ذلك أن موالي قد عينوا موعداً مع طبيب كان سيتناول طعام الغداء معنا،وتسلموا منه أحكاماً مكتوبة ينبغي اتباعها في البحر، وذلك كل رجل حسب أوضاعه الجسدية، وأعطاهم وصفات أدوية، وأخذ كثير منا منه أشربة مطهرة، لأن من الضروري بالنسبة للمسافرين عبر البحر تناول الشراب المطهر قبل السفر.

وفي اليوم التاسع والعشرين الذي كان عيد«جسد المسيح» الأكثر قداسة، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، وحضرنا مسيرة مهيبة هناك، فنحن لم نر قط مثل الفخامة التي رأيناها في ذلك اليوم في البندقية، وكانت المسيرة رائعة، وقد حوت حشداً عظيماً من الرهبان ورجال الدين التابعين لجميع الطوائف، وكانوا جميعاً يرتدون أرديتهم المقدسة، ويحملون آثاراً ثمينة جداً من كل نوع، ومشوا وفق نظام محدد حول الساحة الكبيرة للقديس مرقص، التي كانت مغطاة بأقمشة كتانيةمن جميع جوانب الدائرة التي تحركت فوقها المسيرة من الباب الأول لكنيسة القديس مرقص حتى الباب الآخر، وحمل البطريرك خبز القربان،

ومشى إلى جانبه الدوج، وهو واضع قبعة الدوقية الثمينة جداً، وجاء من بعدهما رعاة الديرة، وهم يرتدون قلنسواتهم، ثم شيوخ البندقية جميعاً، وإلى جانب العرض اللاهوتي، الذي كان رائعاً جداً، كان هاماً رؤية مهابة السادة الشيوخ، وثيابهم الجميلة وغير الاعتيادية، وقد جاء من بعدهم كثير من الأصناف، ثم العامة من الناس، وقد مشى رجال الدين والرهبان من نظاميين وعلمانيين في الطليعة، وسط الغناء وعزف آلات الموسيقى والألحان والمشاهد العرضية من كل نوع، وفي هذه المسيرة ما من دير، أو نقابة ظهروا من دون عرض خاص بهم وأبهة ذاتية لنيل الاعجاب، ولإدخال السرور إلى قلوب المشاهدين، وزين الرهبان المبشرون التابعون للقديس يوحنا والقديس بولص المسيرة بوساطة عروضهم المضحكة وتمثيلياتهم الجميلة، ولقد رأينا هناك كثيراً من الذهب والفضة، وكميات كبيرة من الأحجار الكريمة، والملابس الثمينة، مما لايمكن لانسان أن يقدر أثمانها، والذي كان هناك هو حشود متداخلة تركض وتتدافع في فوضى.

ومضينا بعد الغداء عبر الماء إلى دير جسد المسيح، حيث تقيم سيدات نبيلات وغنيات من البندقية، هن راهبات في طائفة القديس دومينيك، وفي الحقيقة، جاءت المدينة كلها تقريباً، بعد الغداء، عبر الماء إلى تلك الكنيسة، وكان هناك حشد عظيم وضغط شديد من أجل مشاهدة المسيرة، لأن الرهبان التابعين لثلاثة أديرة، هي: دير القديس يوحنا، والقديس بولص، ودير القديس دومينيك، ودير القديس بطرس الشهيد، قدموا جميعاً إلى هناك، وعملوا مسيرة فائقة الجمال مع جسد المسيح، وكانت مسيرتهم طويلة جداً فوق القناة العظمى، وقدموا كثيراً من العروض، ولايمكن لانسان أن يتخيل كم من العروض العبثية قد عرضت وسط هذه المباريات المقدسة، وكم من الملابس العظيمة البذخ التي ارتدتها النساء، وكم من التصرفات غير اللائقة التي صدرت عن

رجـال الدين، والأعمال غير النظـاميـة التي مـارسهـا رجـال الدين النظاميون وغير النظـاميون، هذا كله لايمكن لانسـان أن يتصوره، وأن يتصـور العـدد الهائل من الجمهـور الذي احتشـد هناك، وفيما إذا كـان التشريف المضفى على القـداس الأعظم مكانة، قـد دنس على هذه الصورة؟ الرب وحده الذي يعرف الأشياء كلها، يمكنه أن يقول ويخبر، وبعدما انتهى هذا كله، عدنا إلى مقر إقامتنا لتناول طعام العشاء.

وذهبنا في اليـوم الثلاثين إلى القـديس دانيـال، وسمعنا قداسـاً هناك، وأرونا بعد القـداس الجسد الكامل لشهيد اسمـه القديس يوحنا، وقبلنا هذه الآثار، وعـدنا إلى مقـر إقامتنـا، وفي ذلك اليوم بالـذات، قام عـدد كبير من الحجـاج، بعـد تناول طعـام الغـداء بحـزم أمتعتهم، وذهبـوا بوسـاطة القـارب إلى الغليـون، حيث صعـدوا إلى ظهـره، ومن هناك لم يعودوا ثانية إلى المدينة، بل مكثوا على ظهر الغليون حتى أقلع بنا جميعاً.

وفي اليـوم الحادي والثـلاثين الذي كـان اليـوم الأخير في شهـر أيار، نهضنا باكراً، وذهبنا لسماع قـداسات في كنيسـة القديس المخلص، حيث يوجد هناك رهبان نظاميون يتولون مراعاة الأعمال التعبدية بشكل دائم، واستأجرنا بعد هذا مـركباً، وتدبرنا أمر الذهاب إلى الكنائس التي حماتها من القديسين يقدمون خدمات خاصة إلى الذين على نية السفر إلى الحج، لأن موعـد مغادرتنا بات قـريباً، وكنا نرغب بـالتوجه بالـدعاء إلى جميع القديسين من أجل الحصول على عونهم، وبناء عليه ذهبنا أولاً إلى كنيسة القـديس رافـائيل، الذي هو رئيس للمـلائكة، حيث صلينا للرب حتى يرسل إلينا رئيس الملائكة المقدس لديه، ليتـولى قيادتنا مثلما فعل لطوبيا، ومن هناك ذهبنا بالقارب إلى كنيسـة القديس ميكائيل الذي كـان رئيساً للمـلائكمـة، ورجـوناه أن يحطم تحت قـدميـه كل شيء شرير يمكن أن يهاجمنا، سـواء أكان من الأعـداء المرئية أو غير المرئيـة، وذهبنا من هناك إلى كنيسـة القديـس كريستـوفـر ورجوناه أن يحملنـا سالمين عبر البحـر

الكبير، ذلك أنه يوجد فيما بين البندقية وجزيرة مورانو جزيرة ، عليها تقوم كنيسة جميلة وجديدة هي كنيسة القديس كريستوفر، وذلك مع دير للرهبان البيض، وفي تلك الكنيسة هناك لوحة قد رسمت عليها خريطة جميلة جداً للعالم.

وذهبنا بالقارب من تلك الجزيرة إلى كنيسة القديسة مرثا، السيدة التي أكرمت الرب يسوع وخدمته، ورجوناها أن تهتم بنا وتزودنا بنزل جيدة ومحترمة، أو في جميع الحالات أن تزودنا بالصبر حتى نتحمل نواقص النزل التي سوف نسكن بها خلال رحلتنا الطويلة، ويسكن من حول تلك الكنيسة راهبات يرتدين أردية بيضاء، وانظروا كيف أننا عندما كنا نقيم في المدينة، لم نستطع منع أنفسنا عن القيام بالحج، ولقد دونت فقط المشاهد الرائعة والمحترمة والجولات التي قمنا بها في مدينة البندقية، وكل ما قمنا به بدافع الفضول، أو استحق المشاهدة، تجاوزت ذكره، مع أننا فعلنا ذلك أيضاً.

وهنا تنتهي جولاتنا في البندقية، وكنا طوال ذلك اليوم مشغولين في إعداد أنفسنا للذهاب والصعود على ظهر السفينة غداً، وعملنا تسوية مع طبيبنا، ودفعنا ما علينا من استحقاقات للسيدة مرغريت، صاحبة نزلنا، وعهدنا بالأشياء التي لافائدة منها في البحر، إلى السيد نيقولا فرج Frig وكان ألمانيا، وكان هو وكيل المؤونة في النزل، وانتظرنا قدوم الغد.

وفيما يلي بعض الأشياء، التي من الضروروي تبيانها من أجل فهم جولاتنا ورحلاتنا فوق البحر. وقبل الشروع في تدوين أخبار جولاتنا ورحلاتنا في البحر، رأيت من الضروري التمهيد لذلك ببعض الايضاحات الضرورية، لتبيان كثيراً من المصاعب التي لابد من أن تقوم أثناء الحج في البحر، لأن الحج إلى الأرض المقدسة، ينفذ جله عبر البحر، ويتم تمضية الجزء الأكبر من الوقت في الرحلة البحرية، ولذلك عزمت على كتابة ثلاثة تماهيد لذلك.

والتمهيد الأول: حول أنواع البحار الكثيرة، وطبيعتهم، والمخاوف فيهم.

والتمهيد الثاني: حول الغليون ذي الصفوف الثلاثة للمجذفين، وتراتيبه.

والتمهيد الثالث: حول النظام وطبيعة الحياة على ظهر الغليون، ونصيحة إلى الذين يبحرون في غليون.

وعندما يجري فهم هذه التماهيد بشكل صحيح، فإن الانسان الذي لم ير البحر قط، يمكنه أن يرتاح راضياً، [أي أنه سوف يفهم حكايتي].

حول أنواع البحار الثلاثة

يتألف البحر بطبيعته من ثلاثة أنواع هي: البحر الكبير، والبحر الأكبر، والبحر الأعظم، والبحر الكبير هو البحر المتوسط، الذي يطلق عليه اسم بحرنا، والبحر الأكبر هو بحر بنطش، والبحر الأعظم هو المحيط الذي يمتد حول العالم، وسوف نقوم أولاً باستعراض موجز للمحيط، وبعد ذلك للبحرين الآخرين، والمحيط، أو البحر المحيط الأعظم، هو الذي يحيط بالعالم كله ويغلفه، ويلتف حوله مثل الخاتم، وهو يسمى بالمحيط من قبل كل من الإغريق واللاتين، لأنه يجري حول العالم، وجاء ذلك إما بسبب سرعته، لأن معنى محيط هو يجري Ocius، أي يسرع، أو بسبب ضم عبارة Ce مع Coelum التي تعني السماء، لأن هذا البحر فيه شبه للسماء باللون، ومهما كان لون السماء، سيكون المحيط له اللون نفسه، وينشأ المحيط وينمو من العالم، وجذوره وبداياته في العالم، فضلاً عن ذلك فإن بداية الأول هي عند نهاية الآخر، ومثل هذا فإنه أصل جميع المياه في العالم، فمنه تتدفق وإليه تعود، وبناء عليه أطلق على المحيط اسم بيت الأنهار، ونبع الأمطار، ومع ذلك هو لايزداد بتدفق نهر من الأنهار، ولاينقص بعدم تدفق نهر آخر، لأنه يعيد

من المياه بقـدر الكميات التي يتلقاها، ومـع هذا إنه ليبدو أمرا مـدهشاً، أن نرى مثـل هذا العـــدد الكبير من الأنهار تصب في المحيـط، وبشكل متواصل، وتتدفق بكميات غير محدودة من المياه، ومع ذلك لايغدو هذا المحيط أكبر بسبب ذلـك وليس أقل عجبـاً أنـه مع أن كثيراً من الأنهار تنبع من قاعه، وأن النجـوم تسحب شطراً كبيراً من مياهه، لأن الشمس والنجوم الأخـرى تتولى بقوتها النارية الحادة سحب كميـات عظيمة من المياه، وتصبها حـول جميع النجوم لتلطف الجزء الناري منهم، ومع ذلك إن هذه المياه التي تأخذها النجـوم من المحيط لاتنقصه، لأنه كما قلنا من قبل، يسترجع ثانيـة بقدر مـا يفقـده من هذه المياه التي تشربها النجـوم، وكيف حصل هذا وانتظم، الله وحده هو العليم بذلك، لأن العالم صنع يديه، وهو وحده يعلم جميع أجزائـه، ويتبع هذا البحر، دون سواه مسار القمر، ولهذا فإن الـدوامة التي تبتلع الميـاه والسفن، وتقذف بهم مجدداً، وهي تبتلع مياههـا ثم تقذفها بقـوة تيار أعظم، عندمـا يكون هناك قمر جـديد، ويطلق على هذه الدوامـة اسم المهواة العظيمـة، وهكذا نقـرأ في سفر التكويـن: ٧/ ١١ «انفجرت كل ينابيع الغمر العظيـم»، ويوجد في مقابل هذا أغـواراً عظيمة، وكهوفـاً مفتوحة وواسعـة، فيها تنشأ الرياح وتهب من خـلال تنفس الميـاه، ويمكن تشبيـه هذه الكهـوف والأغـوار بفتحتي أنف العالم، واسم التنفس في الكتابات المقـدسة، روح العاصفة، وتقـوم الرياح بتحـركها في داخل هذه الكهـوف المفتـوحـة بسوق ميـاه البحر نحـو المهاوي العميقـة، وترغمهم على الاندفـاع ثانية بقـوة أكثر، وبتيـار أشـد عنفـاً، وقـد نوقشت هذه المسـائل بتـوسع من قبل Vin-centius في كتـــاب «Speculum Naturae»، ومياه هذا البحر مالحة، مثل ميـاه البحار الأخرى، وهو ما سـوف نشرحه فيها بعد، وفيما يتعلق بحجم هذا المحيط واتسـاعـه لايمكن لشيء أن يقـارن به، ويبلغ عرضـه مقداراً عظيماً بحيث لايمكن عبوره، ولايوجـد خلفه بلاد، بل إن ذلك البحـر محاط فقط بغيـوم وبهواء كثيف يشكل حـدوده، وهناك

على كل حال أرض تحته، فتبعاً للنظام الطبيعي للخليقة، كان وجه الأرض كلها ستغطيه المياه، غير أن الله برحمته اللامحدوده تفضل بإبقاء جزء من الأرض جافاً لسكنى البشر والحيوانات، وذلك عندما قال: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة» [التكوين: ١/ ٩]، وهذا الجزء القائم فوق الماء، هو الذي عني عندما قيل عن العالم نفسه بأنه «قد أقامه فوق البحار» (المزامير: ٢١/ ٢)، وعليه كانت المياه ستغمر الأرض، لولا أن الأمواج قد صدت بقوة الخالق، ولذلك قال في المزمور: «أنت وضعت لها تخماً لاتتعداه، لاترجع لتغطي الأرض» [١٠٤/ ٩]، وقال أيضاً في أيوب [٣٨/ ٨]: «من حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج»، وكل من يرغب أن يمتلك فهما واضحاً لهذه الأشياء، عليه أن يقرأ شروح بولس أوف بورغوس Burgos، على الـ Postilla لدي ليرا Lyra حول ما وقع في اليوم الثالث من أعمال حيث قرأنا: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد»، ومن هذا البحر وإليه وفيه تصب مياه البحار الأخرى: البحر المتوسط، وبحر بنطش، والبحر الأحمر، وهي بذلك تشبه أغصان جذع واحد.

ويطلق على بحر بنطش اسم البحر الأكبر، لا لأنه في الحقيقة أوسع من بحرنا، بل لأنه غير مقسم بوساطة أية جزر، أو لأنه لاجزر فيه تقريباً، واسمه بحر بنطش، لأن جميع تلك المياه التي فيه تتدفق خلال قناة ضيقة، عبرها اكسرسيس بوساطة جسر (Pons) مصنوع من السفن، ولهذا السبب أطلق على هذا المضيق اسم هيلوسبونت -Hel lespont أو من الممكن تسميته ببحر بنطش، لأنه بدون جسر، ولايمكن عبوره بوساطة جسر، وكذلك من الممكن تسميته ببحر بنطش من كلمة «نقطة Point »، لأنه كما قيل هو مستدير مثل نقطة أو بقعة، وأيضاً من الممكن تسميته ببحر بنطش بسبب قصره، ويعرف هذا البحر بشكل عام باسم بنطش يوكسينوس Pontus Euxinus، وذلك

بسبب طباع سكانه، وذلك حسب رواية ايذيدور، لأنه تبعاً لبطليموس امتلك شعب يوكسين Euxine أسوأ طباع ممكن توقعها من الجانب الأخلاقي، ولهذا ما من أحد يمكنه التمازج معهم، ولقد كان أشبه بملجأ إليه يفر الناس من البلدان الأخرى بغرض اللجوء، وفضلاً عن هذا فان نهر اكسوس Euxes ، الذي ينبع من جبل القوقاز، يصب في هذا البحر، وبالتالي أعطاه اسمه، أو ربما نال النهر اسمه من البحر، ويوجد خلف بحر بنطش مستنقعات واسعة جداً، هي التي تتلقى مياه نهر تانيس Tanais، الذي يشكل الحدود فيما بين أوربا وآسيا، وهو ينبع من جبال ريفائين Rhiphaeon ، وبحر بنطش يوكسينوس هذا مياهه أقل ملوحة من مياه البحار الأخرى، وذلك بسبب عدد أنهار المياه العذبة التي تصب به، وفي الحقيقة نجد أن نهرنا الدانوب، الذي ترفده مياه ستة أنهار كبيرة، يصب لمدة سبعة أشهر في بحر يوكسين.

والبحر الكبير هو الذي نسميه «بحرنا»، و«البحر المتوسط»، ومقصدي الحديث عن هذا البحر أكثر من الحديث عن سواه، ومن حيث البداية أطلق عليه اسم «البحر الكبير»، لأنه بالمقارنة معه نجد البحار الأخرى والبحيرات أصغر منه، وثانيا، أطلق عليه اسم «بحرنا» لأنه معروف من قبلنا، وقريب منا، ويستخدم من قبلنا، وثالثا، أطلق عليه اسم «المتوسط» لأنه قائم في وسط الأرض، فمن الغرب حتى الشرق، نراه قائماً بين الأجزاء الرئيسية للعالم، أي بين أوربا، وآسيا، وأفريقيا، ويفصل فيما بينهن ويرسم الحدود فيما بين كل واحدة منهن بنفسه وبفروعه، ففي الغرب والشمال منه هناك أوربا، وفي شرقيه آسيا، وعلى جنوبه أفريقيا، ولهذا فإن الحاج الذي يذهب إلى القديسة كاترين، سوف يلامس البحر عند كل واحد من هذه الأجزاء الثلاثة للعالم، ذلك أنه يبدأ رحلته من أوربا، ويصل عبر كريت ورودس وقبرص إلى آسيا، وعندما يصل إلى الاسكندرية في مصر سوف يكون في أفريقيا، لأن نهر

النيل يفصل فيما بين آسيا وأفـريقيا، وهناك على الجانب الأفـريقي توجد الاسكندرية، ويتصل بحرنا بالبحرين المتقدمي الذكر، ومياه بحر بنطش والبحر المتوسط هي نفسها، وتتدفق هذه المياه — كما نرى — من مملكة إسبـانيا وتمر بغـاليـا، وإيطاليـا، وصقلية، وكـريت وصـولاً حتى مصر، ويطلق بشكل صحيح على الفرع الذي يصل المحيط قـرب اسبانيا، اسم مضيق المغــرب، فهـو يفصـل فيما بين مملكة المغـرب — الموجــودة في أفـريقيـا — وإسبـانيـا، وفيما بين هاتين المنطقتين يتلقى البحـر المتـوسط ميـاهه من المحيـط من خـلال المضيق المتقـدم الذكـر، الذي لايتجـاوز عـرضه ربع ميل، ذلـك أن النساء الغسـالات في اسبـانيا قـد يقفن على أحد الشواطىء، وتقف في مقابلتهن النساء الكافرات في المغرب، وتشتم كل فئة منهن الفئة الأخرى، وهناك تنفصل أفريقيا عن أوربا.

ويصلها ذراعها الآخر الذي اسمه الهيلوسبونت — أو ذراع القديس جرجس — ببحر بنطش، ويفصل هذا الذراع أوربا عن آسيا الصغرى، التي يطلق عليهـا الآن اسم تركيا، لأن الأتراك قـد استولوا على المنطقـة كلها، وفي الدارجـة يطلق على هذا الذراع اسم خليج القسطنطينية، لأن مدينة القسطنطينيـة قائمة على شاطئه الأوربي، ويقـال بأن مدينة طروادة القديمـة والقوية، قـد قامت عند المكان الذي يبـدأ فيه هذا الذراع بترك البحـر المتوسط، وذلك على سـاحل آسيا الصغـرى، ولم يتبرهن — على كل حال — بتأكيـد كامل بأن مدينة طروادة قـد قامت هناك، وعلى كل حـال إن تسمية بحـرنا بالبحر المتـوسط، تسمية صحيحـة، لأنه واقع في وسط البـلاد، ويحتل المكان الوسط فيما بين البحرين الآخـرين، وتصب جميع الأنهار المعـروفة من قبلنا في هذه البحـور الثلاثة، فنهـرنا الدانوب يحمل نفسه ويتجه نحو الشرق ليصب في بحر بنطش، الذي عرف أيضاً باسم يـوكسين، وجميع الأنهار التي تنبع من جبـــال الرايتك Raetic ، فنهـر الرايـن ينبع من جبـال يوكسين، ثم يجري بـاتجاه الغـرب، ويحمل

عدداً لايحصى معه من الأنهار إلى البحر المحيط، ونهر الرون الذي نبعه قريب من نبع الراين، يجري باتجاه الجنوب، ويحمل معه المتبقي من الأنهار إلى البحر التيراني Tyrrhenian ، وكذلك أنهار الأدجي، وبرنتا، فهي تنبع من جبال الألب، وتصب في البحر المتوسط.

وهناك بحار أخرى معروفة بشكل جيد بالنسبة إلينا من خلال الكتابات المقدسة، وهي مرتبطة بواحد من البحار المتقدمة الذكر، بأقنية نحن لانستطيع رؤيتها، أو كما هو معتقد بوساطة أنهار تحت الأرض: من ذلك على سبيل المثال، يوجد في الشرق بحر الخزر، الذي هو منعزل، وليس له اتصال ظاهر مع أي من البحار الأخرى، ومع ذلك قد قيل بأنه يتدفق بشكل سري من تحت الأرض ويصب في بحر بنطش، فضلاً عن هذا لقد قيل بأن بحر الجليل، والبحر الميت يصبان بوساطة قناة خفية في البحر الأحمر، الذي يتلقى المياه من المحيط، وهناك لسان من المحيط حيث حدود كل من بلاد فارس وشبه جزيرة العرب، ومنه يبحر الناس إلى الهند، فهذا ما حكاه جيروم في رسالته إلى فابيولا Fabiola .

فضلاً عن هذا، ينبغي أن نعرف أن البحر المتوسط هذا، مع أنه بحر واحد، له مع ذلك أسماء مختلفة تبعاً للبلدان المتنوعة التي تشاطئه، وهذا مثل الأرض، مع أنها واحدة، لها أسماء متنوعة، فهو يستعير أحياناً أسماءه من البلدان، من ذلك على سبيل المثال، إنه يسمى البحر الآسيوي، والبحر الشامي، والبحر الايبيري، وينال الأسماء أحياناً من الجزر، فيسمى البحر البيلياركي Balearic والبحر الصقلي، والبحر الكريتي، أو البحر القبرصي، وأحياناً من قنن الجبال مثل البحر الايجي أو البحر المالي Malean وأحياناً من أسماء الشعوب، مثل البحر الألماني، والبحر الغالي، والبحر الايطالي، والبحر الدلماشي، وأحياناً من المدن المجاورة، مثل البحر الأدرياتيكي، والبحر التيراني، والبحر

اليـافاوي، والبحـر الاسكندراني، أو البحـر البندقي، وبناء عليه عندمـا تقـرأ في جولاتي عن بحـار مختلفـة، ينبغي أن تعرف أن المعني هو بحـر واحد، لكن له أسماء مختلفة.

وهذا البحـر مثله مثل المحيط والبحـار التي تصدر عنه، يحتـوي على مياه مـالحة، ومرة، وغير سـائغـة وغير صحيـة، وهي بشكل عـام غير صالحة للشرب، وملفـوظة أكثر من البـول، من قبل الانسـان والحيوان، وسبب هذه الملوحة هو سر عظيم غامض، وذلك استناداً — فيما أعرفه — إلى أن الفلاسفة القـدماء بذلوا جهوداً كبيرة وشاقـة في سبيل معرفة سبب ذلك، ويبدو أنهم أخطأوا وابتعـدوا كثيراً عن الحقيقة في تحديدهم لأسبـاب ذلك، وذلك مثلما أخطأوا في مسألة النيل، ومكان ينابيعـه،كما سنرى في الصفحـة ١١٩ من القسم الثـاني، وقد وقعـوا بحماقـات أكبر عندما بحثـوا في أسباب ملوحة البحر، ذلك أن علماء الأصـول القدماء جـداً لم يتمكنوا مـن الارتقـاء فـوق الأفكار الحسيـة، حيث ذكـروا في أسطورة مخترعة أن الكائن الأول الذي هـو أبو الأشياء كلها، قـد انتزع كتلة نارية كبيرة من جبل Acroceraunus وبعــدما ضغطهـــا مع بعضها وصنع منهـا كرة صلبة، أسقطها ست مـرات في المحيط، ونتيجة لذلك الانغمار، بدأت الميـاه كلهـا بالغليان، وصـارت حـارة، ولولا أنه سحب تلك الكرة مباشرة وأخرجها، لصارت مجموعة المياه الهائلة كلها، وتحولت إلى ملح يابس، وبما أنه رغب ببقـاء البحـر بقيت الميـاه ميـاهاً، لكن مالحة.

فضلاً عن هذا نجـد لدى أرسطو في كتابه الثاني حول الأنواء نقـاشاً حول أسباب ملوحة البحر، وبالاضافة إلى ما قاله أرسطو نفسه، أوضح بعضهم، أنه عندما تصير الأرض دافئة بوسـاطة الشمس تتعرق وتصدر ما فيها من رطوبة، وبناء عليه تشكل البحر باجتماع هذا التعرق، وبما أن العرق مـالح، كذلـك صار البحر مـالحاً، ذلك أن عرق الأرض مـالح،

وبناء عليه يقول هؤلاء الناس بأن البحر ليس إلاّ مجرد العرق الذي يتدفق دوماً من على سطح الأرض، ويقول بعضهم بها أن البحر قائم فوق الاقليم الحار للأرض، صار سميكاً بسبب حرارته، وذلك مثلما تصير المياه مالحة من خلال الحرارة، وكذلك يقول آخرون، بأن بعض أجزاء الأرض مالحة، وعندما امتزج البحر معها صار مالحاً بسبب هذه الأرض، وذلك على سبيل المثال مثل المياه التي تجري تصفيتها من خلال الرماد تصبح مالحة، ويقول آخرون بأن الملوحة تنتج من خلال امتزاج التبخر الدافىء مع جزئيات الماء، لأن العرق والبول يتفاعلان فوق النار، ويصبحان ملحاً، ويقول آخرون بأن مياه البحر قد جفت بفعل حرارة الشمس، لأن الشمس تجفف وتشرب كل شيء، وهكذا يتداخل الطعم المالح وينتشر في البحر،لأنه مفتوح بشكل واسع لتلقي حرارته، وهكذا فإن المياه بعدما تغلي بحرارة الشمس والنجوم، تصبح مالحة، والانسان الذي يشرب خمرة حلوة وماء عذباً يخرج منه بول مالح، بسبب أن الحرارة تنتج ملوحة، ويقول آخرون بأن الشمس تمتص جميع الحلاوات والجزيئات الرقيقة، التي من السهل جذبها بوساطة قوة النار، وبذلك فإن الجزيئات الخشنة والأسمك تبقى متخلفة، ولهذا فإن وجه البحر حلو كثيراً، وقعره عظيم المرارة، والآن إن القمر يتغذى بالمياه العذبة لكن الشمس تتغذى بالمياه المالحة، والمياه المالحة لاتتجمد بسرعة مثل المياه العذبة، لكنها تصبح حارة بشكل أسرع، ولهذا فإن الحلاوة والملوحة قد امتزجتا في البحر، ويمكن البرهنة على ذلك فيمايلي: إذا ما جرى صنع وعاء من الشمع، وأغلق من جميع الجهات، بحيث لايمكن للمياه أن تدخل إليه، ثم جرى وضع هذا الوعاء في البحر، عندها تأخذ مياه البحر بالتسرب إليه من جميع الجوانب، ووقتها يصبح مافي داخله عذباً وسائغاً للشرب، وجميع الجزيئات المالحة سوف تزول منه، وكأن ذلك حدث بوساطة مصفاة، فضلاً عن هذا إذا ما حفر إنسان حفرة على الشاطىء قرب البحر، فإن الماء الذي يتسرب إليها من البحر،

يصبح عذباً بسبب مروره من خلال الرمال، وسائغاً للشرب.

ويعزو آخرون ملوحة البحر إلى سبب لاهوتي: ولهذا إنه لائق أكثر أن نقول بأن البحر قد خلق مالحاً من قبل الرب، وأنه مثلما كل عنصر من العناصر الأخرى له طبيعته الخاصة، كذلك ملوحة البحر لها طبيعتها الخاصة، لأنها مالم تكن ممزوجة بالملح، لصارت آسنة مثل بقية أنواع المياه الراكدة النتنة، وبعض البحيرات القذرة: ولهذا السبب قُضي من قبل الرب بقاء البحر بحركة دائمة، فبتلك الحركة يمكن لعناصره البقاء بدون فساد، لأنه بوساطة الحركة الدائمة يتصفى ويحفظ من الفساد، ولقد قضي من قبل الحكمة الإلهية بهذه الملوحة من أجل أن تتمكن السفن من الابحار فوق مياه البحر بسهولة أكبر، لأن الماء المالح أغلظ وأكثر وزناً من الماء العذب، لأن الماء العذب مصفى ومنقى، وبناء عليه فإن الماء المالح أفضل لحمل السفن، ذلك أن السفن التي لايمكن أن تغرق في المياه المالحة تغرق في الغالب في المياه العذبة، وهذا يمكن البرهنة عليه، بسبب أن البيضة تغرق بالماء العذب، لكنها تطوف في الماء المالح، فضلاً عن هذا، إن في ملوحة البحر خدمات عظيمة لصحة الانسان، لأنه لو كانت مياه البحر قابلة للشرب، لايمكن للناس عبوره أحياء إلاّ بصعوبة بالغة، لأنه من خلال حرارة الشمس، والتعب في البحر، تجد البحارة دوماً على درجة عالية من العطش، ولوكانت لديهم مياه عذبة للشرب بقدر ما يريدون، فإنهم يدمرون أنفسهم، ولذلك إنه مفيد من أجل الحفاظ على حياة الذين يبحرون فوق سطح البحر، أن تكون مياه البحر مالحة.

ومياه البحر غليظة وممجوجة، ولهذا عندما تنضح من البحر، وتُصب فوق صخور، تتغطى هذه الصخور على الفور بالملح بسبب حرارة الشمس، ومن طبيعة ملوحة البحر هذه اشتق اسمه، وصار يدعى باسم البحر (Mare) ، وذلك بسبب مرارته (Amaritudo) ، وقد ورد ذكر

هذا البحـر في سفر عامـوس:٥/ ٨، «اطلبه ... الـذي يدعو ميـاه البحر ويصبها على وجه الأرض، الرب هو اسمه»، وقد علق جيروم (الكتاب السـادس ص٣) كمايلي:« يدعو الرب ميـاه البحـر، عندمـا يرفعها نحـو الأعلى، كما هي مـالحة، لكـن من خـلال حـرارة الهواء وبوسـاطة ذلك تتصفى وتصبح نقيـة وعـذبة من خـلال ميـاه المطر»، وبالنسبـة لملوحـة البحـر انظر «Speculum Naturae »— الكتـاب السـادس، الفصل التاسع، وتمتلك مياه البحر سمات متباينة، قامت وتكونت وفق مايلي: بما أن الأرض فيهـا تجاويف، وبما أن الماء سائل، فإنه يجري نحـو الأسفل، ويمـر خــلال مجار للميـاه، حيث يتصفى ويصبح أكثـر رقــة، ومن ثم يمتلك سمات متبـاينة من خـلال طبيعـة الأرض، لأنه يمـر من خـلال أرض رمليـة وأخـرى صخـرية، فيحصل من هناك على طعم العـذوبة، ويصبح نقيـاً، ومتماسكا وباردا، وإذا مــا مـرت الميـاه من خـلال أرض ملحيـة، أو من خلال أرض مـوحلة، تصبح ذات طعم مقيت، وإذا مـا مرت من خلال أماكن كبريتيـة، أو كلسية، أو نحاسية، تصبح مرة، وإذا ما مرت من بؤر مليئة بالشب والكبريت، تكسب عناصر منهما، فتصبح حـارة وذات روائح كـريهة، وعلى هذا تملك سمات متبـاينة تبعـاً لتبـاين أنواع الأرض، التي تنبع منهــا، كما أن ألوانها تتغير تبعــا لتبــاين أنواع الرياح، فتجـدها في وقت من الأوقات صفـراء، وفي وقت آخر بيضـاء، ثم في وقت بعـد ذلك سوداء، وسـاعـة موحلة، وسـاعـة أخـرى داكنة، وساعـة صافيـة، ومرة أخـرى سميكة غير صافية، وأحيـاناً لونها ذهبي، وفي حين آخـر لونها مـائل إلى الاحمرار، فـأي لون من الممكن رؤيتـه في السماء يمكن رؤيتـه في البحـر أيضاً، وعلى كـل حال تبـدو بعض الميـاه للذي ينظر إلى نوعين من المياه مع بعضهما ويقـارن بينهما أنهما في الغالب مختلفين، وفي كثير من الأحيان قد تبدو السماء صاحية ومشرقة ومع هذا يبـدو منظر المياه أسـود مثل الفحم، ويحدث هذا لأن الميـاه تأخـذ لونها أحيانا من الرياح الهابة، وأحيانا من أشعة قبة السماء.

المخاطر المتنوعة التي تواجه الذين يرتحلون بوساطة البحر

تخضع الرحلة بوساطة البحر إلى كثير من المصاعب، والبحر نفسه عظيم الإيذاء إلى الذين لم يعتادوا عليه، وهو خطير جدا في كثير من الجوانب، من ذلك إنه يلقي الرعب في النفس، ويسبب الصداع، ويثير الغثيان وعدم استقرار المعدة والدوار ويدمر القابلية للطعام والشراب، ويعمل بشكل مرهق على جسد الإنسان، ويثير الانفعالات، وينتج كثيرا من الشرور الغريبة، وهو يسبب كثيرا من المخاوف القاتلة، وغالبا مايقود الناس إلى حالات موت مرعبة، وأعظم مخاطره ارعابا هي أن العاقل يكون أكثر الناس خوفا منه، في حين ينظر الأحمق إليه نظرة استخفاف، وبناء عليه عندما كان الفيلسوف العظيم أرسطيبوز Aris-tippus في عاصفة في البحر، يعاني من الدوار، وغثيان في المعدة، وأثقل بالصداع، بات خائفا من أجل حياته، وعندما عاد الهدوء، ورجعت الأمور طيبة كما كانت من قبل، جاء انسان ثرثار، وقال للفيلسوف:« ماهو السبب في أننا نحن الأناس العاديون شجعان، وأنتم الفلاسفة مرعوبون»؟ فأجابه:«لأننا لانمتلك نوع الحياة نفسها حتى نعتني بها، وسيكون أمرا استثنائيا بالنسبة لك أن تهتم أو تعتني بحياة واحد بلاشعور أو اهتمام مثلك، لكن عندما أكون أنا في خطر، تجدني محقا حين أخاف على الفيلسوف من الموت، لأن الرجل الغني يخاف من اللصوص أكثر من المعدم، ذلك أنني أحمل في ذاتي روحا مليئة بالفضائل، ولهذا إنه مسوغ بالنسبة لي في أن أخاف من أكثر اللصوص براعة، ومن أعظم قطاع الطرق والسارقين خطورة ووحشية، وهو البحر».

ولايمكن البرهنة على هذه المخاطر البحرية المتقدمة الذكر من قبل انسان عرفها من خلال القراءة في الكتب، أو من خلال الاصغاء إلى الرحالة، مثلما يفعل ذلك انسان عرفها من خلال المشاعر التي كسبها

بخبرته، وانظر في الالهيات، الاصحاح:٣/ ٥/ ٢٦(٢٤) قوله:« الذين يبحرون على ظهر البحر يتحدثون عن المخاطر فيه، وعندما نسمع ذلك بآذاننا يتولانا العجب نحو ذلك»، وكقاعدة يعاني الذين يعبرون البحر من مخاطر، سببها إما البحر، أو الرياح، أو السفينة، وهناك على كل حال مخاطر خاصة لايمكن تعدادها، تتأتى اما من وضع الإنسان الخاص، أو من رفقة السوء، أو من الحاجة إلى الشراب، أو من رجال القيادة السيئين، أو من الحرارة الزائدة جدا، أو من البرد القارص، أو من سوء التجهيزات وما شابه ذلك، وفي الحقيقة هناك مخاطر لو أردت ذكرها جميعا، وحاولت ذلك، لأعوزتني الكلمات ولعجزت عن ذلك نحوها جميعا، ولهذا سوف أتحدث بعض الشيء حول المخاطر العامة للبحر، أما المخاطر الخاصة فسوف أتحدث عنها خلال مجرى حديثي، وقد وصفت بعض هذه المخاطر إلى حد ما في الرواية التي قدمتها عن حجي الأول.

ويصدر الخطر الأول الذي يقع فيه البحارة عن البحر، لأن البحر إذا كان غليظا مليئا بالصخور والنتوءات، كما هو الحال بين الجزر التي اسمها سيكلاد Cyclades وفي بحر أثينا، وخارج ساحل إيليريا Il-lyria ودلماشيا، فهو في مثل هذه الحال لايمكن عبوره من دون رعب، ففي تلك الأجزاء من غير الممكن الإبحار في الليل بسبب الصخور والرؤوس والنتوءات، وخاف من هذا الخطر البحارة الذين حملوا القديس بولص، وذلك حسبما نقرأ في أعمال الرسل:٢٧/ ٢٩، وغالبا ما وجدت أنا شخصيا في هذا الخطر، أو ثانية إذا كان قعر البحر ليس مستوياً، بل هو مرتفع في أحد الأماكن بأكوام من الرمل، أو هو عميق جداً مثل الهاوية في مكان آخر، أوهو في جميع الأحوال غير مستوي، فيه حفر عميقة ووديان، ففي مثل هذه الأماكن من الصعب بالنسبة للسفن العبور، لأنه مع أن البحر يبدو مستوياً في كل مكان (حيث يسمى في بعض الأحيان باللاتينية aequos) عندما تصل السفينة إلى مكان غير

مستـو، تتوقف قليـلاً، ومالم تكن هناك ريح لتـدفعها كي تتـابع سيرها، سيكون من الصعـب تحريكهـا ونقلهـا من هناك، وقـــد تعلمت هذا بالتجربة والخبرة كما وضح في ص١١٦.

وثانيـا: إنهم يعـانون من رعب الريح، ذلك أن أي ريح لطيفـة تحول البحـر إلى بحـر غير هادئ، وعـاصـف، وقـاس، يفـور ويمـور، ولهذا السبب، غالبا مـاأطلق على البحر اسم Fretuem باللاتينية، وخطير أن يقلع الإنسان في بحر عاصف، وغـائم، ورطب، ومظلم الأنواء، خاصة عندمـا توضع السفينة في خطـر، والخطر (لا) يمكن رؤيتـه، والذي هو أكثر ارعـابا وخطرا هو الريح العنيفة جـدا، ولاسيما عندما تكون الرياح مضـادة، وتهب بشكل مفاجئ، فعندهـا يصبح جنوح السفينة وغرقهـا مرعب حقا، وهذا الخطر عام، ووقعت فيه شخصيا مرارا.

وينشأ الخطر الثالث عن ضعـف السفينة نفسها، وعدم كفـايتها، لأنه ليس من الأمان أن يعهد الإنسـان بنفسه إلى سفينة صغيرة جدا، أو هي ضعيفة، أو محطمة أو قـديمة، لأن مثل هذا النوع من المراكب ليس أميناً أثناء حـركة العـاصفـة، لأنها أمـا أن يتم قهرها بـالأمواج بسبب صغـر حجمهـا، فتنقلـب، أو أنها تتحطم بسبب ضعفهـا، ويكون ذلـك بقـوة الرياح والأمواج، وفي بعض الأحيـان يحدث من خلال الحاجة إلى قـائد بارع أن المركـب يستهلك وقتـــا أكثـــر مما ينبغي حتى يصـل إلى المرفأ المنشود، وعلى هذا من الممكن إضافة عامل رعب رابع عام إلى اللائحة، وهو الرعب الـذي ينشأ عن جهل، أو كسل، أو إهمال، أو نوم قبـــاطنة السفن، وهذا أيضا قد جربته.

وإنه لمرعب رؤية المخـاطر وأنت هناك تنتقل من الغليـون إلى قـارب صغير وقت هبـــوبها، أو وقـد انتقلـت من الغليـون إلى قـــارب صغير، ووقتهـا على الإنسـان أن يعمل خطـوة واحـدة أو أن يقفـز قفـزة، وإذا حـدث ولم تصل قـدم الإنسـان إلى الغليـون أو القـارب، فـلابد من أن

يسقط في البحر، ويهلك دون أمل بالحصول على عون، انظر ص٢٨١ .

زد على هذا هناك خطر آخر، لايخطر على بال غير المجرب أبدا، كما أنه غير موجود في كتب الكتّاب الذين تحدثوا عن مخاطر البحر، وهذا الخطر مزعج جدا، مع أنه لايسبب الرعب، فعندما تكون الرياح جميعها هادئة، والبحر صامت ساكن، والهدوء موجود في كل مكان، أصرح قائلاً: الحقيقة أن هذا النوع من هدوء البحر وسكون الريح هو أكثر ازعاجاً للمسافرين في البحر من المخاوف المتقدمة الذكر، وذلك باستثناء غرق السفينة الفعلي، لأنه عندما لاتهب الرياح، ويكون البحر بلاحركة، والسفينة واقفة ثابتة في مكانها، وقتها يكون كل شيء على ظهر السفينة قد صار عفنا، ونتناً، ومتجمدا، وتبدأ المياه بالتحول إلى آسنة، وتغدو الخمرة غير قابلة للشرب، وتصبح اللحوم، حتى وان كانت جافة ومدخنة، مليئة بالدود، التي تغدو كلها حية بشكل مفاجىء، ويصير هناك أعداد لاتحصى من الذباب، والبعوض، والقمل، والبراغيث، والديدان، والفئران، والجرادين، فضلا عن هذا يصير الناس جميعا على ظهر السفينة كسالى، نائمين، ومنزعجين من الحرارة، ويشعرون بالنكد من المعاناة الشريرة بالمينالوخيا، والغضب، والاثارة والاضطراب مع الآخرين كمن فقد السيطرة على نفسه، ولقد رأيت قليلاً من الناس يموتون على ظهر السفينة أثناء العواصف، غير أنني رأيت عدداً أكبر يمرضون ويموتون في أوقات السكون المتقدمة الذكر، وهذا كله سوف يرد ذكره في سياق قصتي.

وهناك مخاوف في البحر تعرف باسم الانحلال من عنف الأمواج، أو باسم Syrtis أو Charybdis، والانحلال يكون عندما يندفع بحران مع بعضهما، فذلك الاندفاع يعرض السفينة للخطر، و Syrtis هو اسم مكان توجد فيه أكوام من الرمال، وحيث يكون قاع البحر غير مستو، فبذلك يكون الماء في مكان عميقاً، ومجاوراً لما هو غير عميق، أو تتوفر

هناك بعض الصخــور الخفيــة التي من الممكن أن تـرتطم السفينة بها، وكانت Charybdis تبعاً لحكايات الشعـراء امرأة عجـوزا جشعة، ولأنها سرقت ثور هرقل رماها جوف Jove بصاعقة، وألقى بها في البحـر، وهي حتى هذا اليـوم تطوف خلسـة حـول قاع البحـر جـاهدة لسحب السفن العابرة إليها نحـو الأسفل، حتى يمكنها سرقتها، حسبما اعتادت فيما مضى، ولهذا السبب فإن الأماكـن التي غرقت فيها السفن، وحيث هناك متـاهات أعماق خفيـة، مثل الأمـاكن الموجـودة بين جـزر غوزابولس Gozapolis، التي ورد ذكرها في ص١١٤، قد أطلق عليها اسم Charybdises، ويدعـى الخطر نفســه بـاسم Charybdis ، نسبـة إلى المرأة القــديمـة Charybdis، التي يعتقـد القــدمـــاء بأنها أغرقت سفناً في أماكن مثل هذه.

وهناك مصـدر رعب آخـر، يسميـه بعضهم خليج، وهو مـايواجهـه البحارة عندمـا تهب الرياح مندفعة من كهوف وسط الجبـال بقوة ترمي بالسفن وتقلبهـا على جنبها، وهناك مصـدر رعب آخر اسمـه Grupp، وهذا يحدث عندمـا تحارب الرياح بعضهـا ضـد بعض، وتتلقى السفينة فيما بينهم الضربات من الجهات المتعاكسة، وهناك خطر آخر من الممكن مـواجهته، يطلق عليـه اسم Troyp اشتقـاقـاً من اسم سمكة Troys، التي عندمـا تعـرف بوجـود سفينة، تنطلق نحـوها من الأعماق، وتخرق السفينة بأنيـابها، لأن لها أنيـاب مثل مثقب النجار بشكلهـا، ومـالم تطرد ويتم ابعادها، يمكنهـا خرقها، والنفـاذ فيها، ومن غير الممكن طرد هذه السمكة وإبعادها عن السفينة إلا بوسـاطة نظرة انسان لاتعرف الخوف، وبناء على ذلك على الانســان الانحناء من فـوق السفينة والنظـر بعـدم خوف في عيني السمكة، حيث تنظر السمكـة إليه في الوقت ذاته وتحدق به بشكل مرعب، وإذا ما ظهـرت ملامح الخوف على الرجل الذي ينظر إلى السمكة ويبدأ يشيـح بناظريه، تقفـز السمكـة على الفـور، وتلتقطه

مباشرة، وتأخذه إلى تحت الماء وتلتهمه، وليكن في هذا كفاية حول المخاوف في البحر.

حول السفينة التي عبر الحجاج البحر بها، والتي اسمها غليون، وكم كان حجمها كبيراً، ومن أي الأنواع هي

يمتلك البحر أنواعاً من السفن مختلفة، منها ماهو كبير الحجم، ومنها ماهو متوسط الحجم، ومنها ماهو صغير، وفي البداية لم تكن هناك سوى السفن الصغيرة في البحر، واستمر ذلك حتى أيام ياسون Jason الذي بنى له أرغوس Argus سفينة كبيرة، حيث أبحر هو ورفاقه الأرغونيون Argonauts إلى كولخيس Colchis ، وبنى بعد ذلك أمينودس Aminodes سفناً ذوات ثلاثة مجاذيف من أجل أن يستخدمها الكورنثيون ضد كورسيرا Corcyra، ويحكى أن أول من اخترع السفن هو أثلس Athlas في ليبيا، وهو الذي أبحر في البحر.

وأنوي — على كل حال — أن اتحدث هنا عن نوع السفن التي اعتاد الحجاج على عبور البحر بها إلى الأرض المقدسة، وهو النوع الذي اسمه غليون، وهو اسم أطلق على هذا النوع من المراكب حتى في كتب الشريعة من الكتابات المقدسة، كما أنه موجود في روايات اليهود والمسلمين، والغليون هو نوع من المراكب المتوسطة الحجم العاملة في البحر، وهو ليس النوع الأكبر، وبالوقت نفسه ليس النوع الأصغر، واسم هذا المركب باللاتينية Bireme أو Trireme، وأطلق ايزودورس في كتابه التاسع عشر حول أصول الكلمات Etymologies على هذه السفينة اسم درمون Dorma ، وعلى كل حال أطلق عامة الناس سواء من الألمان أو الطليان عليها اسم غليون، ومنحت هذه السفينة هذا الاسم لأن مقدمتها لها شكل الخوذة (gALEA)، وذلك عندما ينظر إليها من الأمام، ولأنها تواجه الأمواج مثل رجل مسلح، والغليون هو مركب مستطيل الشكل يتحرك بكل من المجاذيف

والأشرعة، والغلايين متشابهة، أو شبه متشابهة بالشكل، غير أنها تختلف من حيث الحجم، لأن بعض الغلايين كبيرة، ويطلق عليها اسم Tri-remes، وبعضها صغير اسمه Biremes كما أن هناك فوارق أكبر، ذلك أن بعض الغلايين هي سفن حرب، وبعضها الآخر سفن حمولة، وذهبت في حجي الأول عبر البحر في Bireme ، وفي حجي الثاني في Trireme، والـ Bireme هي سفينة تتحرك بواسطة زوجين وزوجين من المجاذيف، ولكن الـ Trireme هي السفينة التي تتحرك بوساطة ثلاثة وثلاثة من المجاذيف، وبالقدر نفسه المحتاج من المجذفين، ويمتلك الغليون الذي عبرت على ظهره في المرة الثانية، ستين مقعداً متصالباً، حيث جلس على كل مقعد ثلاثة من المجذفين مع مجاذيفهم، ولو أن هذا الغليون كان مجهزاً على أن يكون حربياً، يكون فيه أحد الرماة مع قوسة فوق كل مقعد، وذلك مع المجذفين.

وكان طول الغليون ثلاثة وثلاثين ذراعاً، على أساس أن الذراع يساوي مقدار امتداد ذراعي أحد الرجال، وهذا الطول هو مقياس مابين المقدمة والمؤخرة، وعرض الغليون هو سبعة أذرع، وهو المقياس عبر السفينة حيث توجد السارية، هذا وإذا ماأردنا قياس العرض كله، بإزاحة المجاذيف ووضعهم جانباً على كلا الجانبين، فوقتها يكون هذا العرض ثلاثة عشر ذراعاً، أما بالنسبة للارتفاع فإذا قسناه من البئر إلى القبة الموجودة فوق السارية، في القمة المستديرة، فإنه يساوي أكثر من ثمانية عشر ذراعاً.

هذا وإن الغلايين ذات الحجم الواحد متشابهة كثيراً من جميع الجوانب، إلى حد أن انساناً إذا ماانتقل من غليونه إلى ظهر غليون آخر، سيكون من الصعب كثيراً عليه أن يلاحظ أنه صار على ظهر غليون آخر، باستثناء تمييز القباطنة والملاحين الموجودين فوق الغليون، لأنهم مختلفون عن أولئك في غليونه، ذلك أن الغلايين العائدة للبنادقة يشبه

أحدها الآخر مثل تشابه أعشاش السنونو، وقد بنيت هذه الغلايين من أمتن الأخشاب، التي ربطت مع بعضها بعدد كبير من المسامير الملولبة، والسلاسل، والحديد، والجزء الأول والمتقدم من الغليون، الذي اسمه القيدوم، هو حاد حيث يواجه البحر، وله منقار قوي، صنع شبيها برأس التنين إلى حد ما، ذلك أن له فم مفتوح، وكله مصنوع من الحديد، وبه من الممكن ضرب أي سفينة قد يواجهها، ويوجد على جانبي المنقار فتحتين، في خلالهما يمكن لانسان أن يضع رأسه، فمنهما تمر حبال المراسي، ومن خلالهما يمكن سحب المراسي ورفعها، ولايمكن للبحر أن يمر من خلال هاتين الفتحتين إلاّ أثناء العواصف العظيمة، ويمتد منقار القيدوم عالياً، ومنه يبدأ جوف السفينة بالامتداد والاستدارة أمام البحر، وللقيدوم شراع خاص به اسمه dalum وعليه يطلق بشكل عام اسم trinketum ، ويوجد تحته حجرة صغيرة، فيها يجري خزن الحبال والأشرعة، وفيها ينام قبطان القيدوم، الذي له ملاحين خاصين به، وهو يسكن هناك وليس في أي مكان آخر، ويقوم ملاحوه بأعمال ووظائف ذلك الجزء من السفينة، وهذا الجزء أيضاً هو مكان الفقراء التعساء الذين يلتقطهم عبيد القيدوم، ومعلق على جانبي القيدوم مرساتين حديديتين عظيمتين، تلقيان نحو قاع البحر في الوقت المناسب، والمؤخرة الموجودة في النهاية القصوى الأخرى للغليون، ليست حادة في المكان الذي تواجه به البحر، أي ليست مثل القيدوم، كما أنه ليس لها منقار، بل هي عريضة، وهي تنحني من الأعلى نحو الأسفل حتى الماء، وهي أعلى بكثير من القيدوم، ويوجد فوقها بناء يطلقون عليه اسم القلعة، ومعلق منها هناك نحو البحر الدفة، أو عمود الدفة، حيث يوجد فوقها حجرة شبكية، هي للموجه الذي يمسك بيديه ذراع الدفة، وتتألف القلعة من ثلاثة طوابق، يجلس في الأول منها الموجه للدفة، والمسؤول عن البوصلة، وهو الذي يخبر الموجه للدفة عن مؤشرات البوصلة، وهناك أيضاً الذين يتولون مراقبة النجوم والرياح، ويشيرون

إلى الطريق عبر البحـر، والطـابق الوسط هو الذي فيـه قمـرة صـاحب السفينة وقبطانها، ومعه رفـاقه النبلاء، وخـدم المائدة، والطابق المنخفض هو المكان الـذي تقيم فيـه السيـدات النبيـلات في الليل، وفيـه يضع القبطان أمواله وثروته، ولاتتلقى هذه الحجـرة النور إلاّ من خلال فتحة باب جـانبي موجود في السطـح فوقه، ويجري على طرفي المؤخـرة تعليق القاربين، اللذين أحـدهما كبير، وثانيهما صغير، ويجري انزالهما في الموانيء إلى سطح البحر، لاستخـدامها في انزال الناس إلى اليابسـة، ويوجد على الجهـة اليمنى السلالم، التي تستخـدم للنزول عليهـا إلى القاربين عندمـا يكونا على سطـح البحـر، أو يتم الصعـود عليهـم إلى ظهـر المركب، وللمؤخرة شراعهـا الخاص، وهو أكبر من شراع القيدوم، وهم يطلقون عليـه اسم Mezavala أي الشراع الأوسط، واسـم هذا الشراع باللاتينيـة epidromus ، ويرفع العلم دوما على المؤخرة، لإظهار الاتجاهات التي تهب فيهـا الريح، وهناك مقعـديـن خلف البيت على المؤخـرة، وذلك على الجهـة اليمنـى، فهناك مكان المطبـخ، وهو غير مغطى، ويوجـد تحت المطبخ مخزن الأطعمـة، ويوجـد أيضـاً إلى جـانب المطبخ الاصطبل المعمـول من أجل حيـوانات الذبح، وعليـه يوجد فيـه أغنام، ومـاعـز، وعجـول، وثيران، وأبقـار، وخنازير كلهـا واقفـة مع بعضهـا، وبعيد ذلك، يوجـد على الجانب نفسه مقـاعد متصـالبة عليهـا مجاذيف وهي ممتـدة حتى القيـدوم، ويوجد على الجانـب الأيسر مقاعـد مجذفين، وذلك طوال الطريق مـن المؤخـرة حتى القيـدوم، وهناك فـوق كل مقعد ثلاثة مجذفين مع رامي للقوس، ومعلق بين مقعدين على حافة السفينة على كل طـرف من الطرفين bombarda بوصلة حـديدية متحركة، كما ويوجد على كلا الطرفين bombardana ، منها يجري في أوقات الضرورة رمي الحجارة.

وتقف في وسط السفينة السارية، التي هي طويلة، وسميكة، وشجرة

قوية معمولة من عدد من الجذوع، مربوطة مع بعضها، وهي تدعم العارضة بالـ accaton أو بالشراع الرئيسي، ويوجد على رأس السارية حجرة يطلق عليها الألمان اسم «السلة»، والطليان «القبة»، وهي باللاتينية carceria، وعلى ظهر المركب، هناك إلى جانب السارية مكان مكشوف، يجتمع الناس فيه للتحادث، مثل ساحة سوق عائدة للغليون، ويتألف الشراع الرئيسي من ثلاث وخمسين قطعة قماش، طول كل قطعة أكثر من ذراع، ومن أجل مواجهة مختلف أنواع الأنواء يجري رفع أنواع متعددة من الأشرعة، إنما ليست بسعة الـ occaton، ويسكن فوق ظهر الغليون ضباط الغليون، وعبيد الغليون، حيث يجلس كل انسان فوق مقعده، وهناك ينامون، ويأكلون ويعملون، ويوجد بين المقاعد على كل طرف من الطرفين فسحة واسعة إلى حدما، يقوم عليها صناديق كبيرة مليئة بالسلع والبضائع، ويوجد فوق هذه الصناديق طريق يصل مابين القيدوم والمؤخرة، يسعى عليه الضباط صعوداً ونزولاً أثناء عمل المجاذيف، وبجوار السارية توجد الفتحة الرئيسية للباب نحو الأسفل، حيث ينزل الإنسان سبع درجات إلى القمرة، التي هي المكان الذي يعيش فيه الحجاج، أو حيث توضع حمولات وبضائع الغليون، وتمتد هذه القمرة طوليا من غرفة المخزن في المؤخرة إلى الحجرة الصغيرة الموجودة في القيدوم، وأما من حيث العرض فهو من الطرف الأول للسفينة إلى الطرف الثاني، وبذلك تشكل المساحة مكاناً كبيراً وغرفة واسعة، وهي لاتتلقى إنارة إلاّ ما يأتي من خلال فتحات النزول الأربعة، ويمتلك كل حاج في هذه القمرة مخدعه الخاص أو مكان نومه، وجرى ترتيب المخادع بحيث غطت كل السفينة، أو بالحري القمرة، وكل مخدع هو ملاصق للآخر من دون أية فسحة فيما بينهما، ويضطجع كل حاج إلى جانب الآخر، على طرفي السفينة، وقدما كل واحد منهما ممتدة نحو قدمي الآخر، وفي المكان الذي تكون القمرة فيه عريضة، وضعت صناديق الحجاج وحقائبهم فيما بين المخادع، وهي ممتدة من

غرفة المخزن حتى الحجرة الموجودة في القيدوم، وفيها يحفظ الحجاج حاجياتهم الخاصة، وتمتد أقدام النائمين من على الجانبين حتى هذه الصناديق، ويوجد تحت الحجاج فسحة واسعة، تصل حتى قعر الغليون، ويطلق على هذه الفسحة اسم معدة الغليون، لأن قعر الغليون ليس مستوياً، مثل السفن الأخرى، لكنه حاد من الدفة حتى المؤخرة، وبناء عليه ينتهي الغليون بالأسفل بقدم حادة، وهي حادة إلى حد أنه عندما يكون الغليون خارج الماء، لايمكنه الوقوف قائماً فوق الأرض، بل لابد من أن يميل على أحد جانبيه، ويجري تعبئة هذا الفراغ الحاد بالرمل، حتى دعامات ظهر السفينة، ويدفنون في الرمال الزجاجات التي يحفظون فيها الخمرة، والبيض والأشياء الأخرى التي تحتاج إلى البقاء باردة، ويوجد في الأسفل حيث يعيش الحجاج بئر من أجل الماء الآسن، وهو موجود إلى جانب وسط السارية، ولايحتوي هذا البئر على القاذورات البشرية، بل يحتوي على جميع المياه المرئية وغير المرئية التي تدخل الى الغليون وتتسرب إليه، وتتجمع بعد ذلك في ذلك البئر، وهي ذات رائحة مقيتة، وهذه الرائحة الصادرة عنها أبشع من أية روائح صادرة عن الغائط البشري، ويتوجب نضح مياه هذا البئر كل يوم، ولكن في الأنواء القاسية يجري تصريف المياه منه بدون توقف، ويوجد على طرفي الغليون أماكن أعدت للمقاصد الضرورية.

والغليون كله مغطى من الداخل ومن الخارج ومطلي بأشد أنواع الاسفلت سواداً، ويفعل مثل ذلك بالحبال لابل حتى بالألواح الخشبية، وبكل شيء آخر، من أجل الحيلولة دون الاهتراء بالماء، وتحتل الحبال التي هي من أجل عمل الأشرعة والمراسي حيّزاً كبيراً في الغليون، وذلك لكثرتهم، ولطولهم، وغلظتهم، ولكثرة أنواعهم، ومن المثير للدهشة النظر إلى حشد الحبال وربطاتهم، ولفهم من حول المركب، ويشبه الغليون الدير، لأن مكان الصلاة موجود على الظهر إلى جانب

السارية، وذلك حيث يوجد مكان السوق، ويشغل المكان الوسط من المؤخرة مكان المائدة العامة، ومقاعد عبيد الغليون، ومخادع الحجاج مكان مهجع النوم، ومكان القداس موجود أمام المطبخ، والسجون موجودة تحت المقدمة والمؤخرة، والمخزن، والمطبخ، والاسطبل كلها أماكن مفتوحة نحو السماء، وذلك فوق ظهر المركب، وهكذا بمرورنا بأشياء كثيرة، تملكنا صورة للغليون.

وقارن القديس جيروم في رسالته إلى الرجل المريض العالم بالبحر، والدير بالسفينة، وكذلك الأوضاع الأخلاقية والخلقية هناك، وقد أوضح كيف أن البحر يشبه العالم، لأنه بطبيعته غير مستقر، وهو صاخب من دون ريح، ثائر حتى في وقت الهدوء، حاد وفيه أمواج مرعبة، وهو حتى عندما لايؤذي الذين لايعومون فوقه، فإن سعته، حتى عندما لايؤذي، تقذف الرعب في القلب، ويعاني الذين يبحرون فوقه دوما من الرعب، ومن تضارب الأمواج وهياجها، ومع ذلك قد ينشر الموجه للسفينة بعد هياجها جميع الأشرعة من دون خوف، وفي العالم مثلما هي الحال في البحر، الإزدهار نادر، والفوضى عامة، وكلاهما مليئين بالمنغصات وبالرعب، والانزعاج أيضاً، ليس معدوماً، والملجأ الأمين الوحيد هو الموت.

النظام الذي يدار الغليون به

جرى إعداد نظام السفينة بدقة متناهية مثل بقية الأنظمة، ولهذا السبب استقى أرسطو مع الكتاب الآخرين حول السياسة أمثلتهم من أنظمة الملاحة، واستقوا شواهد منها، كما هو في بداية الكتاب الأول من كتاب «الأخلاق»، لأنه في السفينة أكثر من أي مكان آخر يوجد في مكان الجماعة العام الموضع الذي يضم جميع الشعوب الأخرى، لأنه بدونه من غير الممكن وجود أي مملكة، أو مدينة، أو قرية، وهو الأول بين الجميع، هذا ويضم البيت الكامل ثلاث جماعات هي: الزوج

والزوجة، أو السيد والخادم، أو الأب والابن، ولايحتوي البيت في السفينة على الجماعة الأولى من هؤلاء، والجماعة الثانية موجودة فيه بالتمام والكمال، وهو يحتوي على بعض الشبه مع الثالث، حيث يوجد فيه السيد والقبطان، مع كثير من الخدم، والسيد هو مثل الأب، وهو الحامي للحجاج، الذين هم بمثابة أولاده، وحدد أرسطو في الكتاب الأول من كتاب «السياسة» الأشكال الثلاثة من أحكام هذه البيوت، ففي البيت الأول الحكم للزوج على زوجته، وهذا ثانية موجود في السفينة، الذي معناه أنه بالوسائل العامة يمكن لجماعة البيت الاستمرار، لكن ما من أحد يحاول الإبقاء على جماعة السفينة، بل يسعى إلى فضها في لحظة الوصول إلى المرفأ المرغوب، والثاني هو نظام أحكام الأبوة، أي حيث يحكم الأب أولاده، وهذه الصلة قائمة فيما بين القبطان والحجاج، بقدر ماتقتضي الطاعة، حيث يرى الحجاج أن من واجبهم إطاعة القبطان، والثالث هو نظام التسلط الطغياني، حيث القبطان الذي هو المحرك الأول والمعلم، يتولى تعيين الوظائف والأوامر بالنسبة للآخرين، ويحدد لهم درجات السلطة لأحدهم فوق الآخر، ويبقى هو ثابتاً لايتحرك مثل الملك أو الحاكم، الذي تنفذ السفينة أوامره مهما كانت، وهو لايتدخل بفن الملاحة، كما أنه لايفهم هذا الفن، بل الذي يقوم به هو مجرد إعطاء الأوامر إلى السفينة لتبحر إلى هنا أو إلى هناك، ويقف جميع الذين في السفينة مرعوبين منه، ويحال كل خصام شديد بين الحجاج أو بين طاقم الملاحين إليه، ومامن أحد يجري تعيينه قبطانا لغليون، خاصة الغليون الذي يحمل فرساناً حجاجاً، مالم يكن نبيلاً، وقوياً، وغنياً، وحكيماً، وشريفاً، وعندما يجري تعيينه، يصطحب معه بعض الأصدقاء، الحكماء، والمجربين، حيث معهم يتشاور، وإليهم يبوح بأسرار أفكاره، فضلاً عن ذلك، كان يتولى اختيار واستئجار أحد الرجال الشجعان ممن لديه امكانات قتالية، وله خبرة في الحروب البحرية، فيعينه قائداً حربياً، أو كما يقولون «معلما للسلاح»، ويزود

الغليـون بالمدافع، والمجـانيق، والقسي، والرمـاح، والعصي، والسيـوف، والدروع، والترسة، ولدى القبطان أيضاً حـاجب، يتولى توفير كل شيء له علاقة بالأطعمـة، وهم يطلقون عليه اسم Schalk، وهو يتولى إدارة مخزن الأطعمة والمطبخ، ويراقب أمور الخبـز والخمرة، والحيوانات المعدة للذبح، ويصدر كل يوم الأوامر إلى الطهاة، وإلى صاحب مخزن الأطعمة بأن يقومـا بكذا وكذا من الترتيبـات المتعلقة بالطعـام والشراب، وإذا ما حـدث نقص بالطعام أو الشراب، فتلك لـن تكون سوى غلطتـه، وهو وحـده يتحمل المسؤوليـة عن ذلك، ولهذا السبب نجـد أن الـ Schalk مكروهين بالعادة على ظهر السفينة، فضلاً عن هذا للقبطان موظف آخر قوي، يسمـونه الخليفة، فهو الذي يتـولى حكم الغليون، والنظر في جميع أجـزائه، فيرى هل هناك أي شيء غلط، أو أي جـزء منه محطم، أو أي شيء يعيق إبحاره، فهـو الذي يتولى ترتيب البضائع، ويتـولى اصلاح أو ترميم مافسد، ويرعى شـؤون الغليون من بئره إلى رأس ساريته، وذلك من قيـدومه حتى مـؤخرته، وهناك مـوظف قوي آخـر للسفينة يسمى القرصان Pirate، ونفترض نحن الألمان أن اسمه يعنـي المرشد Pilot، فهو يعـرف أكثر الدروب سـلامة وأقصرها عبر البحـر، وتأخذ السفينة طريقهـا وتتوجه وفقـاً لأوامره أو نصـائحه، وإذا مـاوصل إلى مكان في البحر غير عـارف به، يأمرهم بالرسـو في أقرب ميناء، وهناك يتخلى عن عمله، في حين يقوم القبطان باستئجار مرشد آخر، يعرف ممرات البحر، وذلك خشيـة أن تتـواجـه السفينة من خـلال الجهل مع charYbdi أو syrtis أو Bythalassium.

ويكون مع المرشـد نفسـه، بعض الرجـال البـارعين، والفلكيين، والمنجمين، الذين يتولون مراقبة علامات النجوم والسماء، ويقررون أي نوع من الرياح سوف تهب، ويقدمون المشورة إلى المرشد نفسه، وهؤلاء الرجـال كلهـم مثل بعضهم على دراية واسعـة بفنهم، إلى حـد أنهم

بنظرتهم إلى السماء يمكنهم أن يخبروا سلفاً هل ستكون هناك عاصفة أم هدوء، ذلك أنهم يستطيعون قراءة الشارات في لون البحر، وفي تجمع الدلافين مع بعضها مع حركتها وكذلك الأسماك الطائرة، وفي دخان النار، وفي رائحة الماء الآسن، وفي بريق الحبال والكابلات في الليل، وفي لمعان المجاذيف لدى غطسها في البحر، ويعرفون في الليل جميع الساعات بالنظر إلى النجوم، ولديهم إلى جانب السارية بوصلة، وبوصلة أخرى في الحجرة العليا للقلعة، وإلى جانبها مصباح مشتعل بشكل دائم طوال الليل، وهم لايزيحون أعينهم عن المصباح لدى إبحارهم أثناء الليل، بل يتوجب على أحدهم التحديق بالبوصلة بشكل دائم، والغناء بنوع من الأغنيات الحلوة، تظهر أن كل شيء يسير على مايرام، ويغني باللحن نفسه إلى الذي يمسك بعصا الدفة، موضحاً إلى أي اتجاه ينبغي للدفة أن تتحرك، ولايتجرأ الممسك بالعصا والموجه للسفينة على تحريك الدفة مطلقاً إلاّ بناء على أوامر الذي يراقب البوصلة، فهو الذي يرى فيما إذا كانت السفينة تسير بشكل مستقيم، أو متخبط، أو جانبي، وانظر حول هذا الموضوع فيما يلي، ولديهم أيضاً أدوات أخرى، يمكنهم بوساطتها معرفة مسارات النجوم، وهبات الرياح والممرات في البحر، من ذلك على سبيل المثال لديهم خريطة، طولها ذراع، وعرضها أيضاً ذراع، عليها جرى رسم البحر كله بآلاف وآلاف الخطوط، ورسمت البلدان وعلمت بنقاط، أما الأميال فبالأرقام، ومن خلال هذه الخارطة يمكنهم معرفة أين هم، حتى عندما لايمكنهم رؤية أية أرض يابسة، والنجوم أنفسها مغطاة بالسحب، ويمكنهم اكتشاف ذلك بمدّ خط منحني من خط إلى آخر، ومن نقطة إلى أخرى ببذل جهد رائع، ولديهم أيضاً أدوات أخرى كثيرة بوساطتها يجدون طريقهم فوق البحر، وهم يجلسون كل يوم يتباحثون حول ذلك.

ويأتي بعد هذا الموظف الرئيسي للغليون، والذي يتولى القيام بالعمل

الفعلي، والذي يتلقى أولاً أوامر الابحار ويتسلمها، موظف آخر اسمه cometa وهو وكيل ربّان الغليون، ومكانه هو تحت القلعة فيما بين مقاعد المجذفين والطابق الأعلى، وإليه يبوح القبطان برغباته، وبناء على ذلك يقوم هو بتحريك طاقم الملاحين، وهو قد علق حول رقبته صفارة فضية، بوساطتها يعطي الاشارة للبحارة ليقوموا بالأعمال المتوجب تنفيذها، ويتم سماع هذه الصافرة في كل وقت من النهار والليل، ويستجيب لها على الفور جميع الرجال باصدار صفير جواباً له، ويأمرهم هذا الموظف بالرسو في أحد الموانيء أو بالخروج منه، أو بانزال المراسي أو سحبها، أو بنشر الأشرعة أو طويها، أو بالعمل بوساطة المجاذيف أو بالتوقف عن العمل، أو بتحريك السفينة للوقوف عند الشاطيء في الصباح، أو بانطلاقها، ويخاف الموظفون الذين دونه منه مثلما يخافون من الشيطان، لأنه يضرب بالعصي، ويعاقب كل من أراد بقبضتيه أو بأطراف الحبال، ولايتجرأ أحد بالتمتمة ضده، لأن الجميع سوف ينهضون ويهاجمون المتمتم عندما تعطى الاشارة اليهم، ولقد رأيت ممارسة أعظم الأعمال الوحشية من قبل هؤلاء والوكلاء على عبيد الغليون المساكين.

ويوجد تحته موظف آخر اسمه البارون، أو عريف الملاحين في الغليون، وهو الذي يحُرك ويتحرك بوساطة أوامر الوكيل، ويعيش بشكل دائم في وسط الغليون قرب السارية، وهو أيضاً يحمل صافرة علقها حول رقبته لاصدار الأوامر بها، وحيث لايوجد وكيل للربان يركض عريف الملاحين وهو يصفر، ويصرخ، ويشجع الرجال على العمل، ومسؤوليته الخاصة هي عن الحبال، والأشرعة، والمراسي، بأن يكونوا دوماً موائمين، وجاهزين للاستخدام، وله امتيازات خاصة وحقوق على ظهر السفينة، ويوجد تحته موظف آخر يعرف باسم «تحت البارون sub parono »، وهو يتلقى أوامره، ويعطيها إلى الآخرين.

ويأتي بعد هذين بعض الرجال الذين اسمهم compani، أي الرفاق، وعددهم حوالي التسعة، وبعض هؤلاء يرأسون آخرين في العمل، وهؤلاء الرجال هم الذين يعرفون كيف يعتنون بالحبال مثل السنانير، وهم الذين يتسلقون على القلع بسرعة كبيرة وصولاً حتى الرأس، ويركضون على طول عارضة الشراع، ويقفون منتصبين حتى في أشد العواصف، وهم الذين يرفعون المراسي، ويغطسون عميقاً في الماء، إذا ماالتصقت المراسي ولم تتحرك، وهم الذين يتولون القيام بأخطر الأعمال على ظهر السفينة، وهم بشكل عام شباب على درجة عالية من النشاط، وهم لايعرفون السكون في حياتهم، وهم أيضاً شجعان وأقوياء في الغليون مثل أتباع البارون المسلحين، ومجدداً يوجد تحت هؤلاء آخرين يسمون الملاحين، وهم يغنون أثناء القيام بالعمل، ويكون الغناء بقيام واحد بالغناء بالأوامر الصادرة، ويردد العمال خلفه مغنين متجاوبين معه، ويقف هؤلاء الناس إلى جانب الذين يعملون، ويغنون لهم، ويشجعونهم، ويهددونهم بتوجيه الضربات لهم، وبهذه الواسطة يجري سحب أوزان كبيرة، وهؤلاء بالعادة رجال متقدمين بالسن ومحترمين، ودون الجميع في الغليون العبيد من الطبقة الأولى والطبقة الثانية، وهم الذين نسميهم باللاتينية remiges ، أو المجذفين، وهم الذين يجلسون على المقاعد المتصالبة للعمل بالمجاذيف، ويوجد عدد كبير منهم، وهم جميعا رجال لهم أحجام كبيرة، ذلك أن عملهم مناسب فقط للحمير، وهم يحرضون على تنفيذ أعمالهم، بالصراخ، والضربات، والشتائم، مثل حال بعض الخيول وهي تتولى جرّ عربات مثقلة بالأحمال صعوداً فوق طريق منحدر، وكلما جروا أكثر وأثقل، كلما جرى تحريضهم أكثر ودفعهم، ولدى قيام هؤلاء التعساء بالجر أكثر يتعرضون للضرب ليجروا بشدة أعظم، ولقد أعيتني الكتابة، وإنني لأرتجف وأنا أفكر بعذاب وعقوبات هؤلاء الناس، ذلك أنني لم أرقط حيوانات تحميل ضربت بمثل هذه الوحشية التي ضرب هؤلاء بها، وكثيراً

مـاأرغموا على ترك قمصـانهم ومـآذرهم معلقة من أوسـاطهم، والعمل بظهـور عـارية وأذرعـة وأكتـاف، وذلـك من أجل أن تصل الأسـواط والمقارع إليهم.

والشطر الأعظم من عبيد الغليون هؤلاء، قـد شريوا بمثابة رقيق من قبل القبطان، أو أنهم أناس مـن سـوية متـدنيـة، أو سجناء، أو رجـال فـارين، أو مطرودين مـن ديارهم، أو منفيين، أو تعسـاء، لايمكنهم العيش أو كسب مـورد للعيش على اليـابسـة، وكلما توفـرت خشيـة من فـرارهم كـانوا يربطون إلى مقـاعـدهم بالأغـلال، وبشكل عـام هم من مقدونية، أو رجال من ألبانيـا، أو آخيا، أو إليريا أو سكلافونيا، ويكون في بعض الأحيـان بينهم أتراك ومسلمين، يخفـون — على كل حـال — دينهم.

وأنا لم أرقط عبـد غليـون ألماني، لأن مـامـن ألماني يمكنه أن يعيش ويبقى حياً وسط هذه التعاسة، فعبيـد الغليون قد اعتادوا على تعاستهم، إلى حـد أنهم يعملون بضعف شـديـد وبدون قصـد، مـالم يقف انسـان فـوقهم، ويقـوم بضربهم مثل الحمير، ويلعنهم، وهـم يطعمـون بتعاسـة متناهية، وتراهم دوماً نائمين على مقاعد تجذيفهم، وهـم دوما في كل من الليل والنهار جـاهزين في العراء للعمـل، وعندما تكون هناك عـاصفة، يقفـون في وسط الأمواج، وهم بشكل عـام لصوص، ولايوفـرون شيئاً يجدونه، مع أنهم يتعـرضـون مقابل كـل جريمـة إلى التعـذيب الوحشي الذي لاحدود له، وعندما يكونون بدون عمل يجلسون ويلعبون بالورق والنرد من أجل الذهب والفضـة، مع أيمان لاتحتمل وتجديفـات، وأنا لم أسمع قط مثـل هذه الأيمان المرعبـة التي سمعتهـا على ظهـر المركبين المتقدمي الذكر، لأنهم لايفعلون شيئاً سواء أكان بادرة خير أو أمانة، من دون تجديف قـذر جداً، وشتم للرب وللقـديسين، ويكون بينهم أحيـاناً بعض التجـار المحترمين، الذي أخضعـوا أنفسهم لمثل هذه العبـودية

القاسية جداً، من أجل إمكانية الترويج لتجاراتهم في الموانىء، وبعضهم ذوي اختصاصات فنية، مثل الخياطة أو صناعة الأحذية، حيث يمكنهم في أوقات الهدوء صناعة أحذية ومآزر، وقمصان على ظهر السفينة، وبعضهم عمال غسيل، يتولون غسل القمصان على ظهر المركب، مقابل أجر.

وفي الحقيقة، بالنسبة لهذا المجال، جميع عبيد الغليون كلهم سواء، فهم جميعا تجاراً، وكل واحد منهم لديه شيء ماللبيع موجود تحت مقعده، وهو يعرضه للبيع عندما يكون في أحد الموانىء، والتجارة قائمة يومياً فيما بينهم، فضلاً عن هذا، هم بشكل عام، يعرفون على الأقل ثلاث لغات هي: السكلافونية، والاغريقية، والايطالية، ويعرف الشطر الأعظم منهم التركية أيضاً، ويوجد حتى بين عبيد الغليون أنظمة ودرجات، ذلك أن بعضهم لديهم سلطة كلفوا بها فوق آخرين، والذين هم محل أعظم ثقة بينهم يوضعون حراساً حول ممرات ومجازات الغليون، ويطلق عليهم اسم «الحراس»، ويتولى بعضهم العمل في قيادة القيدوم، وبعضهم على جهة اليمين، والآخرين على جهة اليسار، ويخدم بعضهم في دفة القيادة، ويعامل هؤلاء بشكل أفضل، ويوجد أيضاً في أغلب الغلايين ثلاثة أو أربعة شباب أقوياء قد تعلموا الركض فوق الحبال، وقد دربوا أنفسهم على الأعمال الأخرى التي تحتاج شجاعة، وإلى جانب عبيد الغليون هناك بعض اختصاصيي المدفعية، وبعض الذين ينفخون بالأبواق، فهؤلاء يزعقون بأبواقهم في الصباح وفي المساء، وقبل الغداء، وبعد الغداء، وفي جميع الموانىء، ويجري استخدام بعضهم في تنظيف الغليون وتزيينه، ويوجد على ظهر الغليون حلاقين على الأقل، هما بالوقت نفسه طبيبان وجرائحيان، وإلى جانب ذلك هناك معذبون أشرار، هم مثل الذين يفسحون الطريق أمام الحكام، يلقون على الشاطىء ويعذبون كل من يأمرهم القبطان بتعذيبه، وهناك

موظف آخر صاحب سلطات عظيمة في الغليون، يطلقون عليه اسم «الكاتب» أو «المحاسب»، وهو الذي لديه أسماء جميع الأشخاص الذين على ظهر الغليون، قد دونت في كتبه، ويأخذ أسماء الذين يصعدون إلى ظهر الغليون وأسماء الذين يغادرونه في كل ميناء من الموانىء، وهو الذي يتولى فض جميع الخلافات التي تثور حول أماكن النوم، ويجعل الناس يدفعون أجور عبورهم، وعليه واجبات كثيرة، وهو —كقاعدة — مكروه من كل انسان سواء، وأكثر بكثير من جميع موظفي الغليون.

حول العدالة والقضاء ورعايتها بكل دقة على ظهر الغليون

ومن أجل الحفاظ على السلام بين مثل هذا الحشد من الناس، جرى إفراد مكان خاص من أجل العدالة، ويجري تطبيق عدالة دقيقة فوق الغليون، حيث يوجد على ظهر الغليون قضاة يجلسون في كل يوم — إذا قضت الحاجة — لممارسة أعمال القضاء، حيث يستمعون إلى الطرفين المتخاصمين، ويقررون الأسباب، والإجراءات القضائية دقيقة جداً على ظهر المركب، فضلاً عن هذا إذا ما اختلف بعض الأشخاص حول أي شيء وقع في الغليون، إنهم إذا لم يقوموا بفضه بوساطة قضاء المحكمة البحرية، غير مسموح لهم بالشكوى ضد بعضهم بعضاً في أية محكمة لاتعقد في البحر، كما أنه مامن انسان مجبر على الالتزام بأي عقد أبرم مع آخر، بعد مغادرته السفينة، كما لايجوز لأي قاض يعمل على اليابسة التدخل بعقود أبرمت في البحر، وإذا ما أقرض انسان رجلاً آخر عشر دوقيات في البحر، وقال الرجل الآخر بعد الذهاب إلى اليابسة بأنه لم يستلمهم مامن قاض يمكنه أن يرغمه على إعادة الدفع، كما لايمكن الاستماع إلى أي شاهد ضده، وهكذا يقول الملاحون: سواء أكانت الحقيقة هكذا، أو بالفعل كان الأمر كذلك، كل واحد يمكن أن يقرر ذلك حسب هواه، ولهذا السبب روعيت الإجراءات القضائية بدقة، وكانت تتم عقوبة اللصوص، لكن بشكل خفيف، ولايدان أحد

بالإعدام، بل كـانت أقسى العقوبات التي تصدر على ظهـر السفينة ضد أي واحد اقترف جـريمة كبيرة، هي أن يجلد حتى يفقـد وعيه، ويضرب على قـدميـه، وبعد إنزال هـذه العقوبة به كـان يلقى به على اليـابسـة في أقـرب مكان، ويترك يذهب في سبيلـه، حيث تبحـر السفينة مخلفـة إياه، ولقد رأيتهم يتعاملون على هذه الصورة مع لوطي، ويكفى ماقلناه حول هذا الموضوع، ونتابع الآن الحديث عن:

الخدمات الدينية وعن كيفية اقامة القداسات على ظهر الغليون

علينا عـدم حذف معـرفة كيف يتصرف الذين يذهبـون بالبحر نحـو الرب، في تأديتهم للقداسـات، لأن عليهم في الحقيقة أن لايكونوا ناسين للرب، في وسط مثل هذه المخـاطر والمخاوف، وتجري عبـاده الرب على ظهر السفينة ثلاث مـرات في اليوم، أولاً في الصباح البـاكر، عند اشراق الشمس، عندما يقـوم واحد من خـدم القبطان، يكون واقفاً عاليـاً فوق رأس القلعة، فيأمـر بالصمت بوساطة صـافرته، ويرفع بعـد ذلك لوحاً من الخشب، مـرسوم عليـه صورة العـذراء المبـاركة، وهي تحمل طفـلاً بذراعيهـا، ولدى رؤيتها يقـوم الجميع بالركوع وقـول الـ AVE MA-RIA وقــول صلوات أخـرى حسب الاختيـار، ومـا أن يقـــوم بنقل الصـورة وإبعادها حتى يبـدأ البواقـون بالنفخ بأبواقهم، وعندها يمضي كل انسان إلى عمله.

والمرة الثانيـة هي في حوالي الساعة الثـامنة قبل منتصف النهار، حيث تعطى شارة الصلاة ثانية، ويجري تغطيـة صندوق قائم على ظهر المركب قـرب السارية، بغطاء قماشي جيـد، ويتم هناك وضع شمعـدانيين، وبين الشمعدانيين تمثال للصليب، وكتاب للقداس، وكأن القداس على وشك القيام به، ويأتي جميع الحجاج إلى ظهر السفينة ويتحلقون حول السارية، ثم يقـدم راهب واضعـاً بطرشيل حول عنقـه، ويبـدأ بالـ Confiteor، ومنه يقـرأ القـداس التالي، ويدع القـانون دون أن يقـرأه، لأنه لايكمل،

وبذلـك يؤدي القــداس مـن دون تضحيــة، منهيــاً إياه بما جـنـاء في الانجيل:«في البـدء كـانت الكلمـة»، ويطلق على هذه القـداسـات اسم «الجافـة» أو «الحارة»، وأنـا لا أتذكـر أنني قــرأت في أي مكان، فيما إذا كانت هذه الطريقـة بقراءة القداس قـد تأسست على الشريعة القـانونية، والذي أعــرفـه أن بعض العلماء غير راضيين عن ذلك، ويقــولون بأن قراءة ذلك الجزء من القداس، الذي يجري الغناء به بشكل مكشوف من قبل فـريق الأداء هو عمل غير معترض عليه، لكن أن تقـرأ ذلك الجزء وأنت لابس البطرشيل مع كل توابعـه، وبمهابة كهنوتيـة، فهذا خـداع، وهم ينشـدون مثل هذه القـداسات، مثـل قداسـات أيام الأعيـاد، لكن تقدمة القربان لم تكمل قط على ظهر السفينة.

وقبل أن أقـوم بتفحص هـذه القضيـة بشكل دقيق، غـالبـاً مـاكنت أصاب بالدهشة تجاه ذلك، وعـزوتها إلى إهمال أساقفتنا، الذين كما يبدو لي، أبدوا قليلاً مـن الاهتمام تجاه خلاص أبناء الكنيسة، وكـان ذلك أقل ماينبغي ومماهو صحيح، خاصة عندما نقـرأ أنهم أقاموا قداسات في أيام القديس غريغـوري على ظهر السفن، حسبما يمكن رؤية ذلك في حواره الثـالث، حيث نقــرأ أن بعض الناس الـذين كــانوا في خطر بالبحـــر الأدرياتيكي شـاركـوا جـزئياً بجسـد الرب ودمـه، وانظر أيضـاً حكاية القـديس لويس، ملك فـرنسـا، ويبدو في الحقيقـة الأمـر بالنسبـة لي أنه يحتـوي على شطر كبير من الاهمال من جـانب الكنيسـة، حيث لم تتخـذ إجـراءات منذ زمن طويل مضى بالعهـدة بإدارة القـداسـات إلى رجـال يكونون في وسط مثل هذه المخـاوف، وبشكـل خاص للحجـاج، الذين يتحملون هذه المخـاوف من أجل محبة الرب وتشريفـه، وبعدمـا قدرت هذه المسألـة بكل عناية، وفكرت بشكـل منطقي حــولها، وجــدت أن كنيستنا الأم المقـدسة والحكيمـة لم ترغب بكمال قداس القـربان الأعظم قداسة، وبعدم مراعاته تمامـاً على ظهر السفينة، وكـان هذا لعدة أسباب،

أولها: أن هذا القداس ليس قداساً ضرورياً، بل فيه كفاية الخلاص لانسان امتلك النية بالمشاركة بذلك في وقت مناسب ومكان موائم، هذا ولايوجد على ظهر السفينة مكان مناسب، كما سنرى ذلك فيما بعد، لابل حتى وإن توفر وقت (٤٩ب) الوقت أيضاً في كل حين غير موائم، وثانيا: لأنه لايوجد على ظهر السفينة كاهن مناسب تكون وظيفته الخاصة وواجبه الاحتفال بقداس العشاء الرباني المقدس، وذلك حسب توجيهات القانون، لأن مامن أحد يعرف إلى أي الأبرشيات تنتمي السفينة، لذلك جرى حذف ذلك، وثالثا: من غير الممكن الحفاظ بشكل جيد على خبز القربان هناك، لأنه الأرغفة المخبوزة بشكل جيد لاتعيش طويلاً على ظهر السفينة، بل تصبح بعد مضي عدة أيام مليئة بالماء ومتفتتة مثل التراب، وبناء عليه كم أقل وقتئذ سيبقى هناك الخبز من النوع الأرقى والذي غير مخبوز بشكل جيد؟ ولايمكن لخبز القربان أن يبقى في الأنواء الرطبة أكثر من ثلاث ساعات، يذوب بعدها ويصبح عجينا مائعاً، ويحدث الشيء نفسه للرقائق التي هي غير مناسبة للاستخدام في الأنواء الرطبة، ورابعاً، من المفترض الاحتفاظ بخبز القربان في الكنيسة وفي مكان مقدس، ومعلوم أن السفينة ليست كنيسة، وليست مكانا مكرساً، كما أنها ليست مكانا للاقامة الدائمة، وخامساً، ينبغي أن نبقي إلى جانب قداس القربان مصباحاً مشتعلاً بشكل دائم، وهذا أمر غير ممكن على ظهر الغليون، لأنه بقوة الرياح، واندفاع الأمواج، غالباً مايكون الغليون مغطى بالماء، ولايمكن الحفاظ على ضوء مشتعل سواء في مشعل أو مصباح، وسادساً ينبغي عدم إقامة القداس على ظهر الغلايين مع عدم الاحتفاظ بخبز القربان هناك، بسبب عدم التأكد من المخاطر التي من الممكن أن تحل بهم، لأنه فجأة وبغمضة عين يمكن للعاصفة أن تثور، حيث تسبب تأرجح السفينة بعنف لدى قدومها، حتى أن الكاهن إذا ماكان واقفاً قرب المذبح، لايمكنه المحافظة بالوقوف على قدميه، ولا الكأس أو الصليب، كما أن

المنضـده لايمكن أن تظل في مكانها، بل في لحظة ينقلب كل شيء عاليـه سافله، وسـابعاً إنه بسبب عنف الرياح، نجـد أنها عندما تهب، لايمكن للضوء أن يبقى مشتعلاً، ولالغطاء المذبح والأغطيـة الأخرى البقاء، بل سيتم رميهـا من على المذبح، وثامنا بسبب عـدم التيقن من حـركـة الماء التي تجري الآن إلى هنا ثم بعد ذلك إلى هنـاك، حتى عندما يكون هناك قليل من الريح، وعندما لايكون أحداً متوقعاً حركة المياه أو خائفاً منها، نجـدها تغطي فجأة الغليـون بكميات كبيرة، فتفسـد كل شيء تلمسـه، وتاسعـاً، بسبب الحاجـة إلى وقـار حقيقي، ذلك أنه لايوجـد على ظهـر السفينة مكان لايعرف الإثارة والاندفاع في بعض الأوقات، فالبحارة في أثنـاء سعيهم وراء أعمالهم المطلـوبة، مـن غير الممكن ابـداء الاحترام إلى الراهب وهو يقـوم بأداء القداس، أو إلى القداس نفسـه، بل إنه سيقلب كل شيء، ويزيح الكاهن والمذبح، والقـربان كلهم سواء، لأن العمل في البحر ينبغي القيام به فجأة، وبسرعة مثل البرق، وهو ضاغط ولايمكن تأجيله، فضـلاً عـن هذا، الناس نيـام في كل جـزء مـن الغليـون، وهم تجدهم يأكلون ويشربون، ويتسـامرون ويكـذبون ويحلفون ايمانا كـاذبة، وكل هذا مـدمـر للوقار الجديـر بالقداس، وعـاشراً، لاينبغي الاحتفـال بالقـداس على ظهـر السفينة، بسبـب وجـود أناس غير أهل بالاحترام، لأنه غـالبـاً مـايكون هناك على ظهـر السفينة: يهود، وأتراك، ومسلمين، ومنشقين، وهراطقة، وخارجين على القانون والقضاء، ومحرومين كنسياً، وإذا لم يجتمع هـؤلاء الناس غير الجديـرين بـالاحترام مع بعضهـم، ولم يكونوا مـــوجـــوديـن جميعـــاً لابد مـن وجـــود بعضهم هنـاك، حيث بحضـــورهم لايجوز الاحتفـــال بالقـداس، وأحـــد عشر بسبب الذنوب الكبيرة الهائلة التي تقترف على ظهـر السفينة، لأن الرجال يلعبـون هناك يوميا بالورق والنرد، ويشتمون الرب بشكل مـرعب وكذلك القديسين، ويحنثـــون بأيمانهم، ويكذبون، وينشلـون، ويسرقـــون، ويأكلـون بنهم، ويحشون أنفسهم، ويسكرون، هذا ولقد سمعت مراراً — وأصلي للرب

أن لايكون ذلك صحيحا — أن رقيق الغليون الشرقيين، يقترفون الاثم العظيم الذي لايمكن الحديث عنه، وهو اللواطة، على ظهور الغلايين، وبناء عليه ان المكان الذي تقترف فيه مثل هذه الآثام وتمارس غير جدير بأن يؤدى عليه مثل هذه التقدمات والقداسات، وثاني عشر، إن رائحة النتن وقذارة كل من الغليون والرجال الذين على ظهره تجعل المكان غير مناسب، وثالث عشر، ينبغي عدم الاحتفال بالقداس بسبب سخرية الكفار، وعار حضورهم، لأنهم إذا ماسمعوا بأن ربنا كان حاضراً على ظهر السفينة في القربان، حسبما نعتقد في ديانتنا، ومع هذا رأونا ونحن نعيش مذنبين، أو متخاصمين، فهذا لاشك سيجلب عاراً فظيعاً، ولسوف يسخرون من القربان الأعظم قداسة، ورابع عشر، بسبب الحمقى من المسيحيين والسيئين منهم، لأنه إذا ماكان القداس قائماً على ظهر الغليون، وهبت عاصفة في البحر، وأصبحت السفينة في حالة خطر، ولم يأت الفرج أو العون على الفور، سيتحول هؤلاء الحمقى من المسيحيين فوراً إلى أعمال النقد ضد القربان المقدس، ولسوف يقولون بقلوبهم، إن لم يكن بشفاههم:«إذا كنت أنت المسيح أنقذ نفسك وأنقذنا»، ولقد رأيت حالة من هذا النوع بعيني، ففي إحدى المرات عندما استمرت العاصفة طويلاً وكانت تزداد عنفاً، قمت أنا وأشخاص من الطوائف المقدسة، وكهنة بالتوجه بأنفسنا نحو الرب، وغنينا ابتهالات، والتمسنا العون من قديسي الرب، لأن العاصفة كانت خطيرة، وبينما هي في ذروتها، قال بعض النبلاء الذين تلقوا الفروسية في القدس، لكنهم كانوا بلا إيمان، بوجوب توقفنا عن الدعاء، لأنهم اعتقدوا أن العاصفة كانت تزداد شدة وحدة بسبب أدعيتنا، وقالوا لدى إيقافهم لغنائنا للمزامير والابتهالات:«لو أن أدعيتكم لاقت أي قبول من الرب، لتم انقاذنا منذ زمن طويل من هذا الخطر»، وبناء عليه، إنه بدون شك لو أن القداس جرى الاحتفال به على ظهر السفينة، لحدث الشيء نفسه، لأن الجهلة وغير المؤمنين من الناس العلمانيين، يخيل إليهم

أنه عندما يكون القربان موجوداً بينهم، مامن شر يمكن أن يلحق بهم، وإذا مالحق بهم أي شيء من هذا القبيل سوف يعزونه لحضوره.

فهكذا فعل بنو اسرائيل، عندما أخذوا تابوه الرب وحملوه إلى المعركة معهم، معتقدين أنهم بذلك لن يلحقهم أي شر أو أذى على أيدي أعدائهم، لكن على الرغم من ذلك، تعرضوا للهزيمة، وسلب تابوه الرب وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحاح الرابع من سفر الملوك الأول، لأن التعامل بدون احترام أو وقار وحمل الأشياء المقدسة يثير غضب الرب، أكثر من التعامل معهم بتواضع وأدب، ومثل هذا نجد بعض الفلاحين يجعلون مساعدي الخوارنة لديهم يحملون القربان إلى حقولهم وخلالها، من أجل أن لايجري تدمير محاصيلهم بهطولات البرد، وإذا ماجاءت المحاصيل جيدة تراهم غير شاكرين، لكن إذا جاءت سيئة تراهم ناكرين، ويتمتمون ضد الرب.

والسبب الخامس عشر الذي يدعو إلى عدم القيام بالقداس على ظهر السفينة، هو بسبب سهولة تقيؤ الناس هناك وحدوث ذلك بشكل مفاجىء، لأنه لو ثارت عاصفة مباشرة بعد انتهاء الكاهن من الاحتفال بالقداس، سيكون مرغماً بفعل قوة الطبيعة على التقيؤ بالقربان، حيث لايمكنه الاحتفاظ به، وهذا أمر من المرعب الحديث عنه، وبناء عليه، ينبغي التوقف عن أداء هذا القداس في البحر، لأنه يتعارض مع التقوى.

والمرة الثالثة التي يحمد الناس فيها الرب على ظهر الغليون، هي عند غياب الشمس، فوقتها يجتمعون كلهم حول السارية الرئيسية، حيث مكان الاجتماع على ظهر الغليون، فهناك يجثون على ركبهم ويغنون Salve, Regina، ويقدمون لذلك بابتهالات، عندما يكونون في أوضاع صعبة جداً، وبعد الـ Salve يطلق حاجب القبطان دعوة بصافرته، ويقف على الفور على القيدوم، ويتمنى لكل واحد ليلة سعيدة

باسم سيده، ويقوم ثانية كما في الصباح بعرض صورة العذراء المباركة، التي لدى رؤيتها يغني الجميع Ave maria ويرددون ذلك ثلاث مرات، كما جرت العادة بفعل ذلك على الشاطىء بناء على صوت الناقوس، وبعد الفراغ من هذا ينزل الحجاج إلى القمرة إلى أماكن نومهم.

وبعد نزول الحجاج إلى الأسفل، يقف محاسب الغليون على القلعة، ويبدأ ترنيمة طويلة باللغة الايطالية الجارية، ثم يصلها بابتهال، يرددها معه جميع رقيق الغليون وموظفيه، وهم جاثين على ركبهم، وهم يستخدمون كلمات كثيرة، وتأخذ صلاتهم هذه حوالي الربع ساعة، وغالباً ماكنت حاضراً أثناء هذه الصلاة، وكان في النهاية يرجو كل واحد ليقول pater, Noster وكذلك Ave maria من أجل روحي والدي القديس يوليان، وهم يفعلون ذلك كل ليلة، ولم يتخلوا عنه قط، فضلاً عن هذا تقصيت لماذا توجب القيام بالصلاة من أجل روحي والدي القديس يوليان، لأن هذه الصلاة تقدم كل مساء على ظهر السفينة، وتلقيت لهذا السؤال جواباً مزدوجاً، فأخبرني بعضهم بأن هذه الصلاة كانت تقدم مديحاً لسمعان المجذوم وشكراً له، فهو قد كان اسمه أولاً يوليان، وهو قد تلقى بأريحية ربنا، ولقد قيل إنه من أجل وساطته حتى يصل الملاحون إلى ميناء جيد، وأن يستقبلوا بأريحية، يفعلون ذلك، وأجبت على هذا بأن الصلاة لم تصنع لشكر هذا القديس، بل من أجل روحي والدي القديس يوليان وتساءلت: ولو أنهم توجهوا بالصلاة من أجل الاستقبال بأريحية، لماذا بالحري لم يتوجهوا بالصلاة إلى مرثا المباركة التي استقبلت ربنا بأريحية خاصة؟ ولم يمكنهم الاجابة على هذا، وقال آخرون بأنهم عملوا هذه الصلاة من أجل والدي القديس يوليان، الذي عنه نقرأ في «Speculum Nat-crae of vincentius» الجزء الثاني — الكتاب العاشر، الفصل

١٥— الذي عندما كــان شـاباً، وفي حـالة الجَهـالـة قتل أباه وأمـه في فراشهما، حيث تصـور بأن أمه كانت زوجتـه، وأن أباه كان يمارس الزنا معهـا، فهذا مـانقرأه هناك، لكن كيف تأسست هذه العـادة مامن أحـد يعرف، وعلى هذا كـان ماتقدم هو المتعلق باستخـدام القداس الديني في البحر، إنما بالإضافة إلى ذلك، هناك كثيراً من الأدعية يتلوها الحجاج في الليل والنهار.

ومـاأن يصلوا إلى أي ميناء حتى تراهم يركضـون جميعـاً إلى الكنيسـة بتقوى متناهية لسماع القداس، أما مايتعلق بالاحتفال بأيام الآحاد، وأيام القديسين في البحر، فإنهم يراعون ذلك بشكل مخجل جداً، وأنا لاأشك بأن الشيطان يبـذل جهوداً مضنية بـالقاء المعيقات في سبيـل الحفاظ على أيام الأعيـاد المقـدسـة، ولقد لاحظت مـراراً، أنه في أيام العيـد المهيبـة، يكون هناك دوماً فوضى واضطراب على ظهر السفينة، أكثر من أي يوم معتاد، وفي بعض الأحيـان، عندما نكون قـد توقفنا في أحد الموانىء لمدة أربعـة أيام أو خمسة، مـاأن يحل مساء يوم السبت حتى نصبح جـاهزين للاقـلاع، ولإبحـارنا ليـلاً، يبات من غير الممكـن إقامـة قـداس في يوم الأحد، ولقد حدث هذا على ظهر السفينة التي أبحرت بها مراراً، وكأنه صنع عن قصد، وفي الحقيقـة، كلما كان اليوم أكثر قـداسة، يكون العمل في البحر أشـد قسوة، وهذا مايمكن رؤيته في سيـاق حكايتي، وكان من عادتي على ظهـر السفينة الوعظ بقداس في الأيام المقدسـة، لكنني سوف أتحدث باختصار عما وقع لي في هذا العمل التقوي.

ففي أثناء حجي الأول، وعندمـا كنت أقـوم بالوعظ، قام واحـد من أبناء الشيطان بمقاطعة كلمة الرب عدة مرات يضحكه، ولم يمكن ابقائه هادئاً لا بالكلام الحسن ولا بالضرب، لابل ازداد ضحكاً، ومـاكان مني إلا أن حافظت على هدوئي، ولم أقم بعـد هذا بالوعظ بكلمة الرب، مع أن كثيرين رجـوني فعل ذلك، لأن الرجل العاقل قـد قال في الإلهيـات:

٣٢/ ٦:«لاتتفوه بالكلام حيث ليس هناك من يسمع»، وقال ربنا في متى: ٧/ ٦:«لاتعطوا القدس للكلاب، ولاتطرحوا درركم قدام الخنازير»، وكان —على كل حال— في حجي الثاني على ظهر السفينة رجال أكثر نبالة واحتراما، وكانوا رفقة جيدين، وقد اعتادوا على الطلب مني الوعظ بكلمة الرب لهم، الأمر الذي قمت به في جميع الأيام المقدسة، ومع هذا نلت بوعظي عدم رضا كثير من النبلاء، الذين اعتقدوا بأنني قد وصمتهم واتخذتهم أثناء وعظي أمثلة لاقتراف بعض الآثام، ذلك أنه مثلما يفعل الخنوع فيعطي بعض الأصدقاء، كذلك تفعل الحقيقة فتجني الكراهية.

ودفن الموتى هو أيضاً جزء من الخدمات الدينية، وكان يمارس على ظهر الغليون وفق الطريقة التالية: عندما كان أي انسان يقع مريضاً، كان يعترف لأي كاهن يختاره، لأنه في مثل هذه الحالة، تسود حالة الضرورة، التي فيها أي كاهن هو قادر على اعطاء الغفران، وعندما كان يقترب من الموت كان رفاقه يتولون خدمته والسهر عليه، لأنه — كما سلف وقلت — لايوجد قربان هناك، كما لايوجد مسح بالزيت، لأن الاستعدادات لم تتخذ لمثل هذا أيضاً، مع أن هذا الطقس من الممكن مراعاته، بما أن الزيت ليس هو المقصود، بل الاستخدام الذي صنع من أجله، والذي يتضمنه القداس، وعلى هذا يموت الرجل المريض بعد الاعتراف فقط، وعندما يصبح ميتاً، يلف بكفنه، ثم يضعونه في قارب، وينقلونه إلى أقرب شاطىء، إذا كانوا على مقربة من اليابسة، وهناك يقومون بدفنه بالمقبرة، إذا وجدت كنيسة هناك، وإذا لم يوجد يودعونه في الأرض في أي مكان كان، وإذا ماكانوا على مقربة من اليابسة، لكن البلاد هي من بلاد الكفار،لايأخذونه إلى الشاطىء، بل يلقون بجسده في البحر، وإذا ماكانوا بعيدين عن اليابسة، يأخذون الكفن، ويجلبون رملاً من قعر السفينة، ويصبون الرمل فوق الكفن، فيمددون الجسد

على الرمل، ويلفونه، ويربطون حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ثم يقوم الكاهن بحضـور كل الذين في السفينة ويغني libra me Domine، ثم يأخـذ عبيـد الغليـون الجسـد، ويدعـونـه يسقط في البحـر باسم الرب، ومباشرة يغرق الجسد، وقـد أثقلته الحجارة، في الأعماق، وتصعد الروح إلى السماء، وغـالبـاً مـارأيت طريقـه الـدفن هذه، غير أنني لم أر طريقـة الدفن الأخـرى، التي يقول بعضهم بأنهم رأوها، حيث فيهـا يجري لف الجسـد بكفنه، ثم يربط إلى لوح، ومـن ثم يلقى به في البحـر مع اللوح، وهنا صحيح أنه عنـدمـا يكون الميت بـدون رفـاق، يفعلون مـايريدون بجسده، ويلقـونه بالبحر إما بدون حجـارة أو مع حجارة، أو مع لوح، وعندما يجري تمديد الجسد، يقوم محاسـب الغليون فيعمل لائحة مكتوبة بكل الممتلكات التي خلفها الميـت، ويقدمها إلى القبطان، ويقـوم بسداد ديون الميت، إذا لم يكن له رفـاق، أمـا إذا كـان له أصـدقـاء، فهم الذين يتدبرون هذا له، ويتولون دفنه في المرسى التالي الذي يصلون إليه، ومالم يكن الحجاج قـد عقدوا سلفاً إتفـاقاً مع القبطان، كما فعلنا نحن أنفسنا، يتسلم القبطان الفراش وجهاز النوم، والملابس العـائدة للميت، ويعتقد كثيرون أن هذه أفضل طريقـة للدفن، وهي مفضله على أن يهرس بوزن الأرض، وبناء على هذا يقـوم الأثيوبيون في الوقت الحالي بـرمي أمواتهم في نهر النيل — وذلك حسبما أخبرنا ديودور — لأنهم يـرون بأن النهـر أفضل من كـل ضريح آخـر، فسـواء أجـرى أكل الجسـد من قبل الحيوانات، أو أنه اهترأ هنـاك، فهو لن يلوث لاالهواء ولا الأرض، وإذا مـامـات واحـد من أعيـان البنادقـة في البحـر، يدفنون جسـده بالرمـال الموجـودة في داخل السفينة، ويحضرونه إلى البندقية، فهـذا قد رأيتـه، كما سأتحدث عنه في الصفحة ١٦٥ من القسم الثاني.

كيف يمضي الناس وقتهم على ظهر الغليون

يختلف أسلوب الحياة بين الحجاج على ظهـر الغليون تبعاً لأوضاعهم

المتنوعة، فهم يشغلون أنفسهم بمشاغل متنوعة في سبيل تمضية الوقت أثناء ابحارهم، ومالم يعرف الانسان كيف يتخلص من الوقت على ظهر الغليون فلسوف يجد الساعات طويلة جداً، ومتعبة كثيراً، ولهذا فإن بعضهم ماأن يغادر المائدة، حتى يبدأ بالتجوال حول الغليون وهو يبحث عن مكان لبيع أفضل الخمرة، فيجلس هناك ويمضي النهار كله وهو يشرب الخمرة، وهذا يعمل بالعادة من قبل السكسون، والفلمنك، وأناس آخرون من الطبقة الدنيا، ويلعب بعضهم من أجل المال، ويلعب بعضهم باللوح والنرد، وآخرون بالنرد فقط، وبعضهم بالورق، وآخرون بالشطرنج، ويمكن للانسان أن يقول بأن معظمهم ينشغل في هذا النوع من تمضية الوقت، ويغني بعضهم بعض الأغاني، أو يمضون وقتهم مع العود، والمزمار، ومزمار القربة، وآلات وترية، والقانون، وآلات موسيقية أخرى.

ويتولى بعضهم مناقشة قضايا دنيوية، ويقرأ بعضهم الكتب، ويصلي بعضهم مع الخبز، ويجلس بعضهم يتأملون بدون حركة، ويصرخ بعضهم بصوت مرتفع وبسرور صادر عن القلب، ويضحك بعضهم، وبعضهم يصفر، ويعمل بعضهم بأيديهم، وينام بعضهم صدوراً عن الكسل، ويمضي بعضهم الوقت كله تقريباً وهم نيام في مخادعهم، ويركض بعضهم فوق حبال الأشرعة، ويقفز بعضهم، ويعرض بعضهم قوته برفع بعض الأوزان الثقيلة، أو تنفيذ بعض البراعات الأخرى، ويرافق بعضهم هؤلاء جميعاً، ينظر إلى الأول قليلاً، ثم يقف فينظر إلى الآخر، ويجلس بعضهم فينظر إلى البحر وإلى اليابسة التي يعبرونها، ويكتب عن ذلك، ويعمل كتب رحلات، وهذا ماكنت أفعله واشتغل به يومياً، وذلك خارج الساعات الدينية المتقدمة الذكر، لأن الرجال المنشغلين لايملون من الحياة حتى على ظهر السفينة، ولقد كتب جيروم رسائل جميلة جداً إلى آسيلا Asella حول الأصدقاء المزيفين عندما كان

على ظهر السفينة، وذلك لدى عودته من روما إلى القدس.

وأخيراً هناك شغل آخر بين جميع ركـاب البحر، شغل مع أنه مقيت، هو عام جـداً يومياً، وضروري، وأعنى بذلك اصطيـاد وامساك القمل، والهوام، وإذا لم يمض الانسان عدة سـاعات في هذا العمل عندما يكون حـاجـاً، فإنه لن ينام نومـاً هـادئـاً، ونقـرأ في «حيـاة الفـلاسفـة» عن الفيلســوف هوميروس، بأنه كـان في أحـد الأيام يمشي على شـاطىء البحر، وإذا بسفينة تتوقف هناك، على ظهـرها جلس رجال يبحثون عن القمل ويضحكون، وعندمـا سألهم الفيلسـوف، لماذا يضحكون، أجـابه أحـدهم قائـلاً:«نحن نضحك لأن كل الذي أمسكناه، لم نحصل عليـه، والذين لم نمسكهم نحتفـظ بهم»، ووقتهـا صرف هوميروس تفكيره إلى اصطيـاد السمك، ولم يستطع فهم هذا اللغز، ولهذا أصبح متألماً جـداً في قرارة نفسه، وصار مجنونا، وقتل نفسه بالشنق.

ويتم الانشغـال بهذه الأعمال والاهتمام بها تبعاً لأحـوال الأنواء، لأن أوضاع الناس تتباين بشكل مدهش في البحر، أكثر مما يكون عليه الحال فـوق اليـابسة، وذلـك تبعاً لتأثير الأجسـام السماوية، ولفعـاليـة الهواء، وحـركـة البحـر، وغـالبـاً مـارأيت أيامـاً، كنا فيهـا جميعـاً مبتهجين، ومسرورين، ورفقة جيدين، فما من أحد نائـم، بل كل واحد فرحان من قلبـه، وبالمقابـل رأيت أياما، كـان فيهـا صمت عميق، وسكون رهيب، حيث من غير الممكن سماع صـوت انســان، والجميع إما قــد غلبهم النعاس، أو جلسـوا وهم يشعرون بالحزن، وغـالباً مارأيت الحجـاج قد اتحدوا مع بعضهم في حـالة سـلام عظيم ووئام، وكـأنهم جميعاً أخـوان، وأبناء أم واحـدة، كما أننـي بالمقـابل رأيت في بعـض الأحيـان كثيراً من المشاحنـات، وتفجر للخـلافات من أسبـاب لاقيمة لها مطلقـاً، إلى حد يغدو الغليون فيـه مثل الجحيم بشتائمهم ولعناتهم، ولقد كتبت هذا من أجل تبيان حقيقـة أن حركة الانفعالات الانسـانية، هي أكثر عنفـاً فوق

الماء منهـا في أي مكان آخر، وهكذا رأينا كيف يمضـون الساعـات على ظهر السفينة، وبالنسبة لي كان اليوم دوما ينقضي قبل أن أنهي عملي.

كيف يأكل الحجاج على ظهر الغليون

عندما تقترب سـاعة الغداء أو العشـاء من الحلول، ينهض أربعة ممن ينفخ بالأبواق، ويصـوتون بأبواقهم دعـوة إلى المائـدة، ولدى سماع هذه الدعـوة يركض جميع الذين كـانوا جـالسين إلى مـائـدة القبطان، بأقصى سرعـــة نحـو القيـــدوم، ويفعلون ذلك كي يحصلـوا على مكان مناسب يجلسـون فيه بشكـل مريح، ويوجـد هناك ثلاث مـوائـد نصبت بشكل نظامي فوق القيـدوم، والذي يمكنه الجلوس إليهم سوف يكـون بحالة مرضيـة، لكن الذي يأتي متأخراً يتوجب عليه الجلوس خـارج القيدوم، على مقاعد عبيد الغليون، وذلك بشكل غير مريح في الشمس، أو المطر، أو الريح، وفي الجلوس إلى المائـــدة لايوجـد ترتيـب، بل الذي يأتي أولاً يجلس حيث يريد، ولايقوم الرجل الفقير بافساح الطريق إلى الغني، ولا الفـلاح إلى الغني، ولا العـــامل للكاهن، ولا الرجـل العـادي للحكيم المتعلم، أو الخادم للراهب، وذلك مـالم يظهـر أحدهم تقـديرا واحترامـاً لآخر من باب الصداقة الخاصـة، وسبب الحاجة إلى النظام والتقدير فيما أتصور، هو أنهم جميعاً يدفعـون المال نفسه إلى القبطان، العظيم والصغير في ذلك سواء.

وأعتقد تماماً لو أن الشخصيـات من المراتب العليا دفع أحدهم ستين دوقية ودفع الانسـان العادي البسيط عشرين، أوقام القبطان فأخـذ مالاً من كل انسان حسب مكانته، وقتها من الممكن اظهار التقدير والاحترام من الصغير إلى الكبير، ولهذا السبب يأكل النبـلاء الذين لديهم خـدمهم معهم، دوماً على مقـربة من السارية (على ظهـر السفينة)، أوفي مخادعهم (تحت) مع استخـدام الاضاءة، حتى في منتصف النهـار، لأن الجو هناك مظلم، وقبل بداية الوجبة يقدم دومـاً لكل واحد خمرة حلوة، أما الطعام

الذي يلي ذلك، والذي يقدم إلى جميع الضيـوف، فقد أعـدّ وفق الطريقة الايطاليـة، حيث هناك سلطة خس أولاً مع الزيت، وإذا توفـرت توابل خضراء تقـدم أيضـاً، وفي وجبـة الغـداء هناك قطعـة مـن اللحم مع معجنات، أو صحن مـن الخبيص، أو طحين قمح أوشعير مطبـوخ، أو ثريد مع جبنـة رقيقـة، وفي أيام الصـوم، عندمـا لايؤكل اللحم، يجري تقـديـم نوع من السمك الصغير الـذي اسمــه Zebilini، وهو مملح، ويكون معــه زيـت وخل، أو معجنة مصنوعــة من البيـض، وكـذلك حلوى، ويجري تقـديم خبز طازج عندمـا تكون السفينة على مقـربة من أحـد الموانىء، لأنه من غير الممكن الحفاظ على الخبـز طازجاً على ظهـر الغليون، بعـد اليوم الخامس، ولـدى عدم توفـر الخبز الطازج، يقـدمون كعكاً خبـز مرتين، وهم يدعـون هذا النوع باسم البقسماط، والذي يبلغ من القسوة حداً أنه مثل الحجـارة، لكنه يصبح على الفور ليناً، إذا جرى صب الماء و النبيذ عليه، ويعطى لكل واحـد من الخمرة بقدر مايستطيع أن يشرب، وأحيـاناً تكون الخمـرة سميكة، وأحيـاناً رقيقة لكنهـا دومـاً جيـدة المزج والخلط بالماء، ويجري تقـديـم وجبـة الغـداء بسرعـة، ويتم جلب كل شيء إلى الحجـاج بسرعـة، ولـدى الفـراغ من تناول طعــام الغـداء، ينفخ حملة الأبواق بأبواقهم، وبعـد إزالة أغطيـة الموائـد، يجري ثانيـة وضع الأطعمـة عليها بشكل مهيـب للقبطان ولأركانه، ومـائـدته اقتصـادية أكثر من مـائدة الحجـاج، لكن طعامـه يجلب إليه في صحـون فضيـة، ويجري تذوق مشروبه قبل ان يقـدم إليه، مثلما يفعل للأمـراء في بلادنا.

ولا تأتي النساء من الحجاج إلى المائـدة العامة، بل يبقين في مخادعهن، ويأكلن هنـاك وينمن، هذا وامتلك مـوالي طبـاخهم الخاص، ومكان خـاص بهم للأكل، ويأكل عبيـد الغليـون بشكل جماعي كل ثلاثة منهم مع بعضهم، على مقاعد تجذيفهم وهم يقومون بتحضير طعامهم، وغالباً

مـارأيتهم يأكلون لحماً مـايزال لـونه أحمر بدمـه، وإذا مـارغب الحجـاج بالحصول على شيء خـاص من المطبخ، يتوجب اظهـار المال للطباخين، لأن هناك ثلاثـة أو أربعـة من الطبـاخين سريعي الغضـب، وليس من الممكن تهدئتهم إلا باعطاء المال لهم، ولايهتمـون مطلقاً بالوعـود بالمال، هذا وليس عجباً أن يكون الطباخين سريعي الغضب إلى هذا الحد، حين نرى أن المطبخ ضيقـاً، وهناك أوعيـة وآنيـة كثيرة، وكثيراً مـن الأشيـاء المتنوعـة التي ينبغي طهيهـا، والنـار صغيرة، وكثير من الصراخ يدوي خارج المطبخ، وعدد كبير من الناس يطلبون صنع أشياء لهم، يضاف إلى هذا إن عمل الطبـاخين يثير دومـاً شفقـة الانسـان، ويرفـض النبـلاء والفرسـان دوماً الطعام الذي يقدمـه القبطان، وتراهم يعطون الطباخين مبالغ كبيرة من المال، للحصـول على وجبات خاصة من الطعـام أعدت لهم، ويقومـون بالوقت نفسه بإعطاء طعام القبطان إلى الفقـراء من عبيد الغليـون، واللحم الذي يقـدمـه القبطان مقـرف بشكل خـاص، لأنهم يذبحـون الحيـوانات التي يرون أنها لـن تبقى حيـة، وكـذلك الأغنام المريضـة، وهـم في الحقيقة يذبحـون الحيـوانات التي يرون أنها مريضـة، وسوف تموت ذاتياً، وباستثناء ساعـة الغداء مامن خمرة تقدم إلى الحجاج من مخزن القبطان، لكن عبيـد الغليـون أنفسهم كـانوا قـد اشتروا خمرة ممتـازة، يقومـون ببيعها إلى الحجـاج، وفي الأنواء العاصفـة يجري الأكل والتقيؤ في الوقت نفسه.

كيف أن نوم الحجاج على ظهر السفينة غير هادىء

يجلس الحجـاج بعـد العشاء، ويتحـدث أحـدهم مع الآخـر، ويكون ذلك على الطابق العلوي من السفينة وعلى مقربة من السـارية الرئيسية، ولايذهبـون إلى الفـراش إلاّ ومعهم مصـابيـح، وعندمـا يذهبـون نحـو الأسفل مـن أجل الاستراحـــة، سيكون هنـاك اضطراب هائـل، أثناء اعدادهم لفـرشهم، فالغبـار يثور، وتتفجـر خلافات عظيمـة بين الذين

يتمـددون بجـوار بعضهم، خصـوصـاً في البـداية، قبل أن يعتـادوا على ذلك، ذلك أن كل واحـد يلوم جاره لتجـاوزه على مخدعـه مع فراشـه، وينكر الآخـر ذلك، ويصر الأول على أنه فعل ذلك، ثم يستـدعي كل واحد رفاقه للمساعدة، ويحدث أحيـاناً أن جماعات الحجاج كلها تتقاتل مع بعضهـا بعضـاً، ولقـد رأيت أثناء هذه الخصـومـات بعض الحجـاج ينقض أحـدهم على الآخـر بسيوف مجردة، وخناجـر، وهم يصرخـون، محدثين فـوضى مـرعبـة، ووقتهـا لو تدخل محاسـب الغليـون —الذي وظيفته هي توزيع المخادع بشكل متساوي — لجرى تمزيقه إلى قطع من قبل الحجاج، ولدى انتهاء هذا الخصام، أوالافتراض أنه لن ينفجر ثانية، يأتي بعضهم إلى فـراشـه متأخـراً، ويجعلون أنفسهـم غير متـوافقين مع الآخرين بمصابيحهم المضاءة، وأحاديثهم العالية الصوت والطويلة.

ولقد رأيت بعض الحجـاج الحادي الطباع يلقـون بمبولة الغـرفة على المصـابيح المشتعلة، وعندها يتفجر للمـرة الثانيـة خصام عظيم، ويقـوم بعضهم بعد اطفاء الأنوار بتسويـة مشاكل العالم مع جيرانهم ويستمرون أحيـانا بالحديث حتى منتصف الليل، وإذا ماقـام أي واحد بتـوبيخهم، وطلب منهم السكوت سوف يصرخون أكثر، ويبـدأون خصاماً جديداً، وعلى هذا إن لم يكـن هناك بعض ذوي الفضـــائل ورجـــال مـن أهل الاحترام، يتولون تسـوية هذه الخصومات، لن تمر الليلة بسلام، خـاصة عندما يكون هناك فلمنكيين سكارى.

هذا وهناك معيقات كثيرة للنـوم إلى جانب ماتقـدم ذكره، فـالرهبان الذين اعتادوا على النوم لوحدهم في قلاياتهم، يجدون من الصعب النوم على ظهـر السفينة، بسبب عـدم استقـرارهم، أو بسبب شخير جيرانهم، فخـلال عدد كبير من الليـالي لم أغمض عينيي أبداً، وعـلاوة على ذلك، ان ضيق المكان من أجل فراش الانسان الواحد، وقسوة الوسائد، تجعل الانسان غير مستقر، حيث من الصعب أن يتحرك أحد الحجاج دون أن

يلمس جـــاره، فضـــلاً عن هذا،المكان مغلـق، وعظيم الحرارة، وملىء بالروائح القذرة المتنوعة، حيث لابد للانسان من أن يتعرق طوال الليل، ممايفسد راحـة الانسان بشكل عظيم، والقمـل والبعوض والهوام تسرح هناك بأعـداد لاتحصى، وهناك أيضـاً فئران وجـرذان، ويمكنني القـول أنني غالباً ماقمت بهدوء كل ليلة، وصعدت نحو الهواء الطلق، فشعرت وكأنني تخلصت من سم قذر.

وتعاق الراحة أيضاً من قبل أنـاس لايعرفون الاستقرار أثناء نومهم، ثم إنهم يشخـرون ويتكلمون وهم نيـام، ويئنون وهم مرضى، وكـذلك بسبب سعالهم ولعناتهم،وكنت في إحدى المرات لبعض الوقت على ظهر غليـون، حيث وقفت الخيـول والبغـال على الظهـر فـوقنا، وقـد تابعـوا أحداث الضجـة المستمرة بحـوافرهم على الألواح طوال الليـل والنهار، ونضيف إلى هذا ركض البحـارة هنا وهناك فـوق رؤوسنا، وصـوت البحر، وأشيـاء أخرى كثيرة، تذهب براحـة الحجاج، هذا وهناك الكثير للقول حول هذا الموضوع.

***　　　　***

وبالإضـافة إلى هـذا كله، هناك الحر الصادر عن الشمـس فوق ظهـر المركب، والظـلام في القمـــرة، والاكتظاظ، والحرارة القـــذرة، والهواء الملوث الثقيل، ومع أن هبوب الريح أسـاس للذين يبحرون في السفينة، هو مع ذلك غير مـريح كثيراً، لأنه عندما تبـدأ السفينة بالتأرجح بسبب الريح، يصير الحجـاج سكارى ومـرضى، وكل واحـد منهم يرتجف إلى حـد أنه يتقيـأ كل مـافي معـدتـه، وتصبح أحشـاؤهم كلهـا تعـاني من الجيشـان، كما أنه لن يكون من الممكن البقـاء على ظهـر المركب، بسبب قـوة الريـح، وبسبب الميـاه التي تنقـذف فـوق السفينة، وعمل، وسعي الملاحين إلى هنا وهنـاك، كما أنه من غير الممكن للحجـــاج البقـــاء في مخادعهم، إذا مارفع الشراع فوق المكان الذي فيه مخادعهم، حيث عليهم

وقتها العبور إلى الجانب الآخر، وعلى الانسان إدارة فراشه، بأن يضع القدمين في المحل الذي كان الرأس فيه، والرأس أيضاً محل القدمين، وذلك بسبب ميلان السفينة إلى جانب واحد، من خلال قوة الأشرعة، علاوة على ذلك يملأ الدخان الصادر عن المطبخ السفينة أثناء هبوب الرياح، وفي بعض الأحيان يضايق الحجاج كثيراً.

وفي أثناء العاصفة يصير الأصحاء من الرجال مرضى، ويزداد المرضى ضعفاً، يضاف إلى هذا أن استمرار نضح المياه القذرة مثير للحجاج بسبب الرائحة النتنة الصادرة عنها، ولأنهم وقتها يمنعون من الصعود إلى ظهر السفينة، أو النزول من الظهر، طالما النضح مستمر، والذباب أيضاً الذي يملأ السفينة، هو مصدر اضطراب عظيم، وكذلك القمل والبعوض، وكذلك التعاسة الصادرة عن التعرق تجلب من الضيق إلى الانسان أكثر من الهوام الحية.

ومع مرور الأيام تتوالد الفئران والجرذان في السفينة بأعداد هائلة، وتراهم يسعون طوال الليل، ينقبون أوعية الانسان الخاصة، ويشقون طريقهم إلى داخلهم، فيلوثون الطعام، ويتلفون الوسائد والأحذية، ويفعلون هذا كله أو بعضه في أوقات مختلفة، لأنهم لايظهرون دوماً على ظهر السفينة، بل فقط في موسمهم الخاص، فعندما تهب رياح محددة تختفي جميع المخلوقات الحية الموجودة على ظهر السفينة أو تهلك، وذلك من أمثال الذبان والقمل والفئران، وماشابه ذلك، ولاتعود موجودة، لكن عندما تختفي هذه الريح أو تتغير، تتوالد ثانية، ويزعج البعوض في موسمه الحجاج كثيراً بأصواته ولسعه، فضلاً عن هذا يلد من الرطوبة على ظهر السفينة علق أبيض سمين يدب في كل مكان، ويأتي خلسة فوق أرجل الرجال ووجوههم، وعندما يعي الانسان وجودهم، ويضع اصبعه عليهم، ظاناً أنهم ذباب، يتفجرون ويلوثون المكان الذي يكونون متعلقين به، بالدم، ومع هذا كله هناك هوام قذرة كثيرة تتولد من

العفـونة على ظهـر الغليون، لكن مـامن شيء سـام يمكنه أن يتـوالد أو يعيش هناك، حيث لاوجـود هناك للعقارب أو للأفـاعي، أو للعلجوم، أو الثعابين السامـة، أوالعناكب، لأن مياه البحر تطرد السم، وتشفي من لسع العقارب، ومن عضـات الأفاعي والثعـابين، وهي عدو للزواحف من كل نوع، ولولا أن الحكمة الالهية قد أمرت بذلك، مامن انسان كان بامكانه أن يعيش على ظهر سفينة قديمة واسعة.

وهناك أمر مـزعج آخر للحجاج هو مدّ فـرشهم في المساء، ولفّهم في الصبـاح حيث يتوجب في الصبـاح على كل انسـان، لف فراشـه وربطه بحبل، وذلك مع الأغطيــة، والوسـائـد، والبيــاضـات، وتعليقهم على مسامير جرى تثبيتها على جانب السفينة، فوق رأسه، ويكون ذلك حتى نهاية النهار، والغرض من ذلك توفير ممرات بلا عوائق (خلال القمرة)، ويأخـذ الحاج في المســاء فـراشـه وينزله، ويحله، ويـرتبـه، ويسبب هذا متاعب كثيرة.

وأخيراً إن انعـدام الثقـة بعبيـد الغليـون وسرقـاتهم، يزعج الحجـاج كثيراً، لأنه لايمكن تأمينهم على أي شيء، لأن عبـد الغليـون يسرق كل مــاتطاله يـده أو يضعهــا عليــه، ولهذا محظور على الملاحين النزول إلى الأسفل حيث مخادع نوم الحجـاج، هذا ولايتجرأ أي منهم على الإقـدام على ذلك، وهـم لايتجرأون حتى عندما يدعوهم الحجاج، ولاينزلون إلى الأسفل.

تحذيرات من الأشياء التي ينبغي على الحاج أن يكون محترزاً منها عندما يكون في رحلة بحرية

على الحاج إلى الأرض المقـدسـة أن لايكون محترزاً فقط من أن يذنب في عقله، وأن يجلب الخوف إلى نفسه، بل أن يحترز ضـد الاهمال، خشية أن يتلقى جـرحـاً لجسـده ولحيــاته، ولهذا أريد في هذا الموضع أن أدون

التحـذيرات التي يحتـاجهـا الحاج عندمـا يعبر البحـر، ولا أريد تقـديم النصيحـة التي هـي من اختصـاص الطبيب، حيث هـو الذي يتـولى تقـديمهـا، بل تحذيرات صـديـق مع الذي تعلمتـه بالخبرة، لأن الطبيب يحذر بشكل عـام الحجاج بأن يكونـوا منتبهين من الفواكـه، ومن شرب الماء، ومن هواء البحـر، ومن السمـك، ويقـدم الطبيب النصيحـة ضـد الحر، وينصح طبيب آخـر ضـد البرد، أمـا ضـد العطش، والامسـاك، والاسهال المفرط، فيقدمون كثيراً من العلاجات، وطرق الخلاص، وأما بالنسبة لفقدان الوعي، ولتشجيع شهية الطعام، وللتخلص من السموم، فإنهم يقـدمـون كثيراً آخـر من طرائق الخلاص، كما يقـدمـون كثيراً من النصائح الأخرى إلى الذين يسافرون بالبحر، وهي أشياء من المؤكد أنها مفيـدة وجيـدة، وبالنسبـة لهذه القضـايـا، من المنطقي اتبـاع توجيهـات الأطبـاء دون ســواها، ومع ذلك أعترف بأن مـايلي هو مـاقــد رأيتـه شخصياً: فلقـد عرفت حجـاجاً كـانوا حريصين ومنضبطين تمامـا باتباع نصائـح أطبائهم، إلى حد أنهم كـانوا لايتجرأون على ابتـلاع أو فعل أي شيء مـالم يكونوا قـد أوصـوهم به، ومع ذلك يصبح بعضهم مـرضى، وضعفاء أثناء حجهم، وبعضهم يموت.

وبالمقابل، رأيت أناساً يأكلـون ويشربون، ويفعلون كل مايرغبون به، وفي البحـر وعلى اليـابسـة، ولايحافظون على نظام، أو قـواعـد للطعـام، وتراهم في الغالب يتطرفـون ويبالغون ومع ذلك لم يذهبـوا إلى فراشهم، وهم دومــا مبتهجين، وسعـداء، وأنا حين أكتب هذا ليس لـدي رغبـة للإيحاء إلى أن المتقــدمي الذكــر يمـوتون بسبب شــدة عنايتهم بأخــذ الأدوية، وأن الأواخـر يبقون أحيـاء بسبب إهمالهم، بل إظهار أن مـامن شيء هو مــؤكـد حــول الحظ، ولندع الحاج يدع نفســه أولاً إلى عناية الرب، وبعـد ذلـك إلى عناية أطبـائــه إنما بدرجـة معتـدلـة، وعليـه في المجـالات الأخرى أن يـراعي التحذيرات التـاليـة: على الحاج أن يكون

حذراً تجاه السباحة في البحر العميق من أجل الاغتسال، لتوفر مخاطر مضاعفة حتى بالنسبة للذين يعرفون السباحة بشكل جيد، وليكن متيقظاً تجاه كل شيء، عندما يكون على ظهر السفينة، عندما يعبر من مقعد متصالب إلى مقعد آخر، خشية أن يسقط، لأن السقوط في أي مكان على ظهر السفينة خطر، وعليه دوماً أن يصعد من، أوأن ينزل إلى المكان الذي فيه المخادع أو أماكن النوم بالتيقظ الموجب، فأنا شخصياً قد وقعت مرتين على هذه السلالم نفسها، وإنه لعجب أنني لم أتمزق إلى قطع، وبعد هاتين الوقعتين صرت أصعد وأنزل وأنا حذر ومتيقظ، ولقد رأيت بعض الناس يسقطون ويكادون يقتلون أنفسهم، وليكن حذراً جداً لدى الذهاب إلى موضع الخلاء، لأن طريق النزول إلى هناك خطر، وعليه عندما يكون سائراً على جانب السفينة، أن لايثق بأي من الحبال، مالم يقم بشده بيده، والتأكدمن أنه ممدود بشكل ثابت وقوي، لأن الحبل إذا انفلت لدى محاولته الامساك به، سوف يجعله يسقط في البحر، وليحذر الحاج من إهانة أو اغضاب عبيد الغليون التعساء، لأنه قد يحدث أن يكونوا ذوي فائدة عظيمة له، أو أنهم قد يؤذونه ايذاء كبيراً ويجرحونه، وعليه أن يحسن التعامل مع بقية رجال السفينة، وأن لايثير الكراهية ضد نفسه، ذلك أنه أمر مدمر بالنسبة إلى أي انسان أن يكون له أعداء على ظهر السفينة، فلقد رأيت حاجاً متكبراً أهان فأغضب عدداً كبيراً من الناس، ثم آل الحال بهذا الرجل نفسه إلى وضع تعيس على ظهر السفينة، فقد أرغم على التماس العون من الذين أهانهم، حتى أن بعض الناس الأكثر تقوى عندما قدموا بعض المساعدات له، تشكك بأنهم يحتقرونه، لأنه عرف بأنه يستحق الاحتقار.

وعلى الحاج الحذر من احتلال مكان سواء على الظهر أوفي الأسفل عائد لانسان آخر، إلاّ إذا حدث ذلك بموافقة ذلك الانسان التامة، وله في النهار الحق بالوقوف على مقربة من السارية، فذلك المكان عائد إلى

الجميع، لكن في الليل لاحق له بأي مكان، إلاّ بمخدعـه، لأنه إذا ماقام انسان بالتردد ليـلاً على مكان إلى جانب مخدعـه، يعدّه الذين لايعـرفونه لصـاً، وعلى كل حـال، إنه إذا لم يستطع —لسبب مـا— الجلوس بهدوء في مخدعه، يمكنه الصعود إلى الظهـر، وأن يجلس على بعض المصنوعات الخشبيـة على جوانب السفينة، وأن يدع قـدميه تتأرجحـان نحو البحـر، وأن يمسك بالحبل الذي يدعم السارية، ولسـوف تعلم التجربة الانسان كثيراً حول هذه القضايا، التي قد يجد مـن الصعب تصديقها عندما يخبر بها للمرة الأولى.

وعلى الحاج أن يكون متيقظاً عندمـا يجلس على سطح المركب، حتى لايجلس على أي من الحبال، خشية أن تتغير الريح فجأة، فيقذف به فوق السطح، أويجرح بوسـاطة الحبال، وعليـه أن لايلمس الحبال، بأي حـال من الأحـوال، لدى شـدهم لها، حتى لاتتمـزق يده، أو تنفصم اصبعـه بسبب العنف، لأنهم يشـدونها بعنف عظيم، ويحركـون بـذلك أوزاناً هائلة.

وعلى الحاج عـدم الجلوس في أي مكـان تعلق فيـه البكرات فـوقـه، حيث يمكن في وقت طيران السهم أن يصاب بجـراحة بليغة أوأن يقتل فـوراً، كما حـدث لموجـه الغليـون الذي أتيت على ذكـره في ص١١٨، وعليه أن يكون حذراً من الحصول في طريق الملاحين عندما يكونوا على وشك الانطلاق نحـو أعمالهم، لأنه مهما كـان عـالي المقـام، لابل حتى لوكان أسقفاً، هم سيدفعـونه، ويلقونه أرضاً، ويدوسونه، لأن العمل في البحر ينبغي أن ينجز بسرعة مثل البرق، ولايقبل أي تأخير، كما أن عليه عدم المشاركة في أعمالهم، لأن هذا يزعجهـم، وفوق كل شيء عليه عدم البقـاء معهم على السطـح أثناء الليل أثناء العـاصفـة، وعليـه أن يكون متيقظاً ومتنبهـاً إلى المكان الذي سيجلـس عليـه، خشيـة أن يلتصق بمقعـده، لأن كل مكان مغطى بالزفت، الذي يصبح ليناً بسبب حـرارة

الشمس، وكل من يجلس فوقه يرجع بثيابه وقد اتسخت.

وعليه أيضاً أن يكون متيقظاً، عندما يجلس مريحاً نفسه على جانب الغليون، وأن لايمسك بيده أي شيء ثمين، حتى لايسقط في البحر، فأحد النبلاء كان جالساً مرة إلى جانبي سقطت من يده سبحة ذات أحجار ثمينة، وكانت لديه غالية جداً، وكان على غير استعداد للتخلي عنها مقابل عدد كبير من الدوقيات،وقد ضاعت منه دون أمل باستردادها، وحدث أنني عندما كنت جالساً هناك أقرأ قداسا مسائياً من أجل الميت، سقط الكتاب من يدي في البحر وتلف، وسقطت أشياء كثيرة وفق هذه الطريقة من أيدي الناس بسبب قلة الانتباه، ولاسيما القبعات، حيث كانت تطير من فوق الرؤوس عندما تكون هناك ريح قوية.

وعلى الحاج عدم حمل مصباح على السطح أثناء الليل، لأن البحارة لايحبون هذه الأعمال الغريبة، وليس بإمكانهم تحمل الضوء أثناء عملهم، ولهذا السبب يطفئون المصابيح كلها أثناء العواصف أو يغطونها بالمكاييل، حتى في داخل القمرة، وعلى الحاج أن يحرس بعناية مقتنياته، وأن لايتركهم بدون حراسة، حتى بين أصدقائه، لأنه ماأن يدير وجهه حتى تكون قد ذهبت، وعليه أن لايترك ماله في صندوق في مخدعه، بل عليه حمل هذا المال معه دوماً، موضوعاً حول جسده، وأن لايعهد به لا إلى خدمه أو رفاقه، لأن الناس ميالين بشكل غريب إلى ممارسة دور اللص على ظهر السفينة، مع أنهم قد يمقتون اللصوصية عندما لايكونون في البحر، وأكثر مايكون عرضة للسرقة الأشياء الشخصية مثل المناديل، والأحزمة، والقمصان، وماشابه ذلك، لأنه حتى بين الرفاق يسرق أحدهم مثل هذه الأشياء من الآخر، لأن الانسان غالباً مايحتاج إلى أشياء على ظهر السفينة ولايمكنه العيش بدونها، فيحصل عليها بأية طريقة، سواء أكانت صحيحة، أم خاطئة، ويزود نفسه بها.

وعلى سبيل المثـــال، في أثناء قيـــامك بـالكتـابـة، إذا وضعت قلمك، والتفت بوجهك، فـإن قلمك سـوف يضيـع، حتى وان كنت بين أناس أنت تعرفهم، وإذا مافقدت قلمك سوف تواجه متاعب عظيمة في سبيل الحصول على قلم آخـر، وهذه هي الحال مع أشياء أخـرى كثيرة، ويبدو أن القانون البحري مايزال يحتفظ بالشريعة المصرية القديمة جداً، التي لم تحرم اللصـوصيـة، بل أمرت كل الذيـن رغبوا في أن يكونوا لصـوصـاً، بتـدوين أسمائهم في بيت الكاهن الرئيسي، وأن يحملوا إلى هناك مبـاشرة كل شيء سرقوه، وبالطريقة نفسها طلب من الذين سُرق منهم أي شيء أن يكتبـوا رواية عن ذلك يذكرون فيهـا الوقت، واليـوم والساعـة التي فقـدوا بها مقتنيـاتهم، وبهذه الـوسيلة كـان ممكنا بسهـولـة البحث عن اللص، وترد الحاجــة المسروقـة، باستثناء ربعهـا، الـذي كـان يعطى إلى اللص، فبما أنه كان من غير الممكن منع اللصـوصية، رأى المشرع أنه من الأفضل أن يعـاني الانســان من خسـارة شطر من حـاجيـاته بدلاً من فقـدانها كلهـا، ومن الممكن قـراءة هـذا في الكتـاب الثـاني من التـاريخ القديم لـديودور — الفصل الثالث، ومثل هذا جـاء في الأمثال: ٦/ ٣٠ قـوله:«ليـس هناك ذنب عظيم في السرقـة»، وفي الحقيقــة، في الشريعـة القـديمـة لم يكن اللصـوص يعـاقبـون بالموت، كما هو واضح من سفـر الخروج:٢٢/ ١، بل كانوا يغرمـون بالتعويض عن ذلك، وعلى كل حال إنه إذا كانت الشريعة كاملة، ينبغي اعدام اللصوص في المجتمع الانساني العـادي، لكن على ظهر السفينة يبـدو أن الأمـر مختلف، لوجود الرغبـة بالسرقة، خاصة السرقات الصغيرة، وهذا يزداد بين الرجال أثناء السفر.

وفي الموانيء على الحاج أن يكون حـذراً فـلا يغـادر غليـونه، فيضل سبيله هنا وهناك، لاسيما في الأماكن المنعـزلة قرب الشـاطيء، خشية أن يقع فجأة بأيدي القرصـان، فيجعلون منه عبداً في منتهى التعـاسة طوال حياته كلها، وهذا أمر غالباً مـاوقع لكثير من الرجال، فأنا أعرف فارساً

أمسك وحيداً على مقربة من البحر، تحت أسوار المدينة، وسلبت منه أمواله والأشياء الثمينة التي كانت معه من قبل السكان هناك.

وعليه أن يكون حذراً فلايدخل أي بيت لدى إغرائه من قبل النساء، لأن في ذلك خطر عظيم إذا فعل ذلك، وليس ذلك متعلقاً بشرفه وحاجياته، لابل حتى بحياته، وعلى كل من يسعى وراء الاستقامة والشرف، ويريد الحفاظ على حجه المقدس دون تلويث، عندما يكون في الموانىء، السير في الخارج في النهار، لكن عند اقتراب المساء، عليه العودة إلى غليونه، والنوم هناك سليماً في مخدعه، لأن النزل على جزر البحر، هي بيوت سيئة السمعة، كما وضح مماجاء في ص١٢٧، ومامن أحد يستقبل حجاجاً ألمان في بيته، إلاّ أصحاب البيوت السيئة السمعة، ومعظم هؤلاء من الألمان، الذين يسكنون هناك مع عاهرات، مع أنهم يبعدوهن عندما يدخل الحجاج إلى بيوتهم، وبناء عليه يمكن للحاج الجيد والتقي الإقامة في بيت من البيوت خلال النهار مع رفاقه، لكن لايجوز له النوم هناك مطلقاً، والتجربة سوف تعلم الانسان أشياء أخرى عليه تجنبها والابتعاد عنها. ويتوجب عليّ الآن العودة إلى سياق خبر أدائي لجولاتي ورحلاتي.

هنا نهاية الفصل الثاني.

الفصل الثالث

ويحتوي على وصف لأعمال الحجاج إلى الأرض المقدسة خلال شهر حزيران، الذي وصلوا فيه إلى حدود الأرض المقدسة

في اليوم الأول من شهر حزيران بدأنا رحلتنا البحرية، وكان هذا اليوم هو يوم الأحد الأول بعد عيد الثالوث المبارك، فقد نهضنا في ذلك الصباح باكراً قبل شروق الشمس، وحملنا جميع حاجياتنا في قارب كبير اكتريناه وقد وقف على باب نزلنا، وبعدما قلنا وداعاً لكل واحد في النزل، أقلعنا وعبرنا من خلال القناة الكبيرة إلى خلف المدينة، وتابعنا سيرنا إلى القديس نيقولا في الليدو، وتركنا هنا واحداً يتولى حراسة أغراضنا في القارب، ودخلنا إلى الكنيسة، وكانت كنيسة كبيرة، مع دير للبندكتيين ملاصق لها، وبحثت عن المسؤول عن القداسات، وطلبت منه رقائق الخبز التي كان قد وعدنا بها، وطلبت منه تزويدنا بزجاجة من الخمرة الجيدة، وذلك بالإضافة إلى نبيذ القداسات، وأن يضعها على المذبح، وعندها وضعت عليّ ألبستي المقدسة، وذهبت إلى المذبح، حيث عملت قداساً أعددته ليوم الأحد، وكان ذلك بحضور الحجاج، وبعد القداس توليت مباركة الخمرة التي جلبت إلينا في الزجاجة بمباركة القديس يوحنا الانجيلي، وأعطيتها إلى موالي الحجاج ليشربوها محبة للقديس يوحنا، حتى تكون رحلتنا سعيدة وناجحة، وبعد إنجاز هذا بكل تقوى صعدنا ثانية إلى قاربنا، وأبحرنا حتى ميناء البندقية، القائم بين قلعتين، كانتا تتوليان حراسة مدخل ذلك الميناء، ذلك أن غليوننا كان راسياً في البحر على بعد حوالي الميل خلف الميناء، وفيما نحن في طريقنا هبت ريح قذرة، فأعاقتنا، حتى أننا احتجنا إلى ساعتين للوصول إلى الغليون، وكان ذلك مع صعوبة كبيرة، وعندما وصلنا

أخيراً إلى هناك، وجدنا الغليون مليئاً بالناس، ورفاقنا الذين بعثنا بهم مقدماً إلى هناك قبل أربعة أيام، ضعفاء كثيراً، بسبب السفينة، التي كانت تتأرجح وهي راسية، إلى مختلف الاتجاهات، وكان ذلك بسبب قوة الرياح، وقد جعلهم ذلك مرضى، وعلى كل حال، عندما رأونا ابتهجوا، وبدأوا يتحسنون، وقد حدثوا سادتهم عن المصاعب المريرة للبحر، التي تذوقوا قليلاً منها فقط، وفي ذلك اليوم نفسه التمس مني أحد الفرسان أن أعود معه في القارب إلى المدينة لاحضار صندوق كان قد أمر بصنعه لنفسه، ليكون مخدعاً له، ولكي ينام عليه في الليل، لأنه كان متكبراً جداً، وأبت نفسه النوم على الأرض، وقد كان موضع نومه واسعاً إلى حد يمكنه أن يضع فيه الصندوق، وبناء عليه دخلنا معاً إلى المركب ورجعنا إلى البندقية، وبعدما تسلمنا الصندوق عدنا به إلى الغليون، إنما بعد صعوبات، لأن الرياح كانت ضدنا، وكان الوقت متأخراً مساء عندما أنزلنا الصندوق إلى القمرة، ووضعه الفارس في مكان نومه وهو مبتهج، وهو يأمل أن ينام عليه بشكل جيد، لكنه لو أنه عرف المستقبل، لما كان مسروراً بأي حال من الأحوال، ولقام برميه، ولرفض عدّه مريحاً، لأنه على ذلك الصندوق بالذات مات ذلك الفارس ميتة وحشية وبشعة، وعلى كل حال، هو لم يكن منتمياً إلى جماعتي، بل إلى جماعة أخرى، وقمنا الآن بترتيب أماكن نومنا وفرشنا لننام فيها، وكان ذلك مع كثير من الفوضى والجهد، والخلاف، لأننا لم نكن قد اعتدنا على ذلك بعد، وعندما باتت الدنيا مظلمة، وبعدما أطفئت جميع المصابيح، وصار كل شيء هادئاً، فجأة هبت ريح عنيفة جداً، جعلت السفينة تتأرجح، فصرنا خائفين، وبوضع غير مريح، وقد بقينا متمددين بهدوء وسكون، ونائمين في الظلام والرعب، وحدث فجأة أن واحداً من النبلاء، وكان مرعوباً من منام مخيف، بدأ يصرخ بصوت مرتفع بشكل مزعج جداً، وكأنه يركض هناك بسيف، وأفاق كل انسان على ظهر السفينة بسبب صراخه، ولأنهم كانوا نياماً في

الظلام، أصيبوا بفوضى، وافترضوا ان هذا الفارس قد طعن من قبل واحد من اللصوص، وأفاق النبلاء وحاولوا العثور على سيوفهم في الظلام، وحاول آخرون تدبر أمر نجاتهم، خشية منهم أن شراً ماقد أعد للحجاج، وحدث اضطراب خطير في داخل القمرة الرئيسية للغليون، لكن الرجل الذي كان متمدداً إلى جوار الذي صرخ، قد أدرك الذي حصل وفهمه، فصرخ بصوت مرتفع وطلب من كل انسان العودة إلى مكانه والتمدد فيه، وهكذا مضت تلك الليلة مع فوضاها، ولم يكن القبطان قد جاء بعد، ولم يصعد إلى ظهر الغليون.

وفي اليوم الثاني من حزيران، جاء القبطان قبل اشراق الشمس، مع خدمه وآل بيته جميعاً، وجلب معه أيضاً بعض الحجاج الذين تلقاهم مؤخراً، ليكونوا ركاباً على ظهر السفينة، وكان بين هؤلاء رجلاً فلمنكيا مع زوجته، وعندما وصلت هذه المرأة إلى ظهر السفينة، غضب عدد كبير من الناس لذلك، لأنها كانت المرأة الوحيدة على ظهر السفينة، لأنه قبل وصولها لم يكن بيننا ولا امرأة، ذلك أن المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخر، كان قد جمع كل النساء على ظهر مركبه، ولم يكن هناك واحد على ظهر غليوننا لم يكن مزعوجاً من قدوم هذه المرأة العجوز، ومن التفكير بوجود امرأة واحدة سوف تعيش بين مثل هذا العدد من النبلاء، لاسيما عندما بدت —لدى إلقاء النظرة الأولى عليها — أنها لاتعرف الاستقرار، وفضولية، كما تبرهن أن ذلك كان حقيقة، لأنه صدقاً، كانت النسوة السبعة اللائي رافقننا في الرحلة الأولى التي قمنا بها، حسبما رأيت في ص١١٧، المتقدمة، كن أقل ضجيجا من هذه العجوز الشمطاء، فقد سعت مابين هنا وهناك حول السفينة بشكل غير ضروري، وكانت مليئة بالفضول، راغبة في سماع كل شيء ورؤيته، فجعلت بذلك نفسها مكروهة إلى أبعد الحدود، وقد بدا زوجها أنه كان رجلاً عاقلاً، ومن أجله أمسك كثيرون عن الكلام، ولولا وجوده هناك

لسارت الأمور معها بشكل صعب، فلقد كانت هذه المرأة شوكة في أعيننا جميعاً.

وعندما أصبحنا جميعاً على ظهر الغليون، وأضحى النهار، صدرت الأوامر إلى بعض الملاحين بتزيين الغليون، فقاموا بتعليق سبعة من الأعلام الحريرية الواسعة، وذلك امتداداً من القلعة إلى القيدوم، ومن القمة أيضاً، وزينوا القمة نفسها بقطعة من السجاد بأن لفوها من حولها، وكان أكبر الأعلام وأولها هو علم السادة الحجاج إلى الضريح المقدس، وكان أبيض اللون، عليه صليب أحمر ممتداً من أول طرف حتى الطرف الآخر، وكان العلم الثاني هو علم سادة البندقية، أي علم القديس مرقص، وكان أبيض اللون أيضاً، عليه أسد أحمر، كان تحت قدميه الأوليين البحر، وتحت قدميه الخلفيين اليابسة، وكان العلم الثالث هو علم مولانا البابا سكتوس الرابع، وكان لونه لون الهواء، عليه شجرة بلوط خضراء تحمل جوزات بلوط ذهبية، ومفتاحي الرسولين، وكان العلم الرابع هو علم القبطان، وكان مكوناً من أنواع مختلفة جميلة، وعرض الخامس أذرع البندقية مع ذراعي القبطان مع بعضهم، وكان هناك علمين آخرين، كلاهما متشابهين، على كل واحد منهما أسد أسود وأبيض.

وبعد الفراغ من تزيين الغليون، بدأوا بالاستعداد للانطلاق، لأنه كان لدينا رياح لطيفة، كانت تحرك الأعلام في الأعالي، وبدأ الملاحون بصوت مرتفع يرفعون المرساتين ووضعهما على السطح، وبرفع عارضة الشراع نحو الأعلى مع الشراع الرئيسي accaton يخفق فوقها، وجرى أيضا رفع قاربي الغليون واخراجهما من البحر، وجرى انجاز هذا كله بعد جهد كبير وصرخات عالية، واستمر ذلك حتى أطلق الغليون من رباطاته، فأقلع بسرعة وهو ممتلىء بالريح، وأبحرنا وسط بهجة عظيمة وابتعدنا عن اليابسة، لأن البواقين زعقوا بأبواقهم وكأننا كنا على وشك

الالتحـام بالقتـال، وصرخ عبيـد الغليـون، وغنى جميع الحجـاج مع بعضهـم:« In Gottes Nahmen Fahren Wir » حسبما يمكـن القراءة عن ذلك في ص٣٤٣.

وفي الوقت نفسه مخر الغليون بقوة خلال البحر، وابتعدنا بسرعة عن مـدينة البندقيـة، وخلفنا مـرسـاها الذي انطلقنا منه بعيـداً وراءنا، وكنا مسرورين كثيراً لمغادرتها، وكأننا قد أطلق سراحنا من السجن، ذلك أننا رغبنا باصرار بالـوصـول إلى القـدس، وسيقت السفينة بسرعـة كبيرة بفضل قـوة الريح الطيبـة، إلى حـد أننا لم نعـد قـادرين على رؤية أياً من الجبال، أو أي جزء من الأرض، أو أي سـاحـل أو أي جزء من اليابسة، بل كـان أمـام أعيننا السماء فقط والماء، ذلك أننا قطعنا مسـافـة كبيرة في ذلك الوقـت القصير وصرنا في أعـالي البحـار، وصرنـا أعلى فأعلى من أعالي جبال الألب، ولم نعـد قادرين على رؤيتهم، لأنهم صاروا الآن — كما هو الحال — منخفضين مع الانحناء الاعتراضي للبحر بينهم وبيننا.

وأمـا وقـد غدونا الآن بعيـدين عن رؤية العـالم، أنزل البحـارة جميع التزيينات التي زينت بها سفينتنا، وكانوا يلقون نظرة عليها في كل يوم، جـاعلين إيـاها جـاهزة للعمل، وبعـد منتصف النهـار، عندمـا تناولنا الطعام، رأينا على يسـارنا، باتجاه الشمال جبال ايستريا، وهـي منطقة من مناطق مقـاطعـة دلماشيـا، ورغبنا بالـوقـوف هناك في ميناء بارينزو Pa-renzo ، لأن ريحنا الطيبـة توقفـت عن الهبـوب، وعلى كل حـال لم نتمكن من الوصول إلى بارينزو، بل تجاوزناها، ومع ذلك لم نقطع مسافة جيدة، لأنه مع انتهـاء النهار، انتهت الريح أيضـاً، ومكثنا الليل كله من دون التقدم نحو الأمام بل كنا نراقب بدون راحة، ونتأرجح هناك.

وهبت في اليوم الثـالث من حزيران، عند الصباح، ريح كـانت قذرة تماماً، وأُرغمنا على العودة نحو جبال ايستريا، وبعد جهود عظيمة نجونا من الريح المعـاكسة، واقتربنا من الجبـال، وجلبنا سفينتنا إلى ميناء روبينا

Rubina (Rovigno) وذلك على مسافة ميلين خلف بارينزو، حيث كان القبطان الآخر مع حجاجه، وميناء مدينة روبينا هذا، ليس ميناء مطروقاً، لكنه آمن وغني، وفي هذا الميناء تفضل علينا القبطان، بتنشيطنا وانعاشنا بغداء لأننا دخلنا إليه في وقت الغداء، وهو أمر متوجب عليه فعله، لرؤيته أننا كنا في ميناء جيد، حيث يمكننا التزود لأنفسنا، وبعد الغداء نزلنا من الغليون إلى القارب، وذهبنا به إلى المدينة، حيث صعدنا إلى الكنيسة الكاتدرائية وصلينا هناك للرب وللقديسة يوفيميا Eu-phemia العذراء، التي جسدها كله ممدد هناك وملفوف في ضريح من الرخام كبير، وهذا الضريح المتفوق التابع للكاتدرائية، فتح لنا، وقد أرونا الجسد المقدس، ولسوف أتحدث لكم وأنا عائد، عن كيفية انتقال جسد القديسة يوفيميا الخلقيدونية إلى هاهنا، وسأصف لكم مدينة روبينا، كما سأتحدث عن مرساها، وقد مكثنا في هذه المدينة حتى وقت العشاء، وتعشينا على حسابنا في إحدى الحانات، وكان عشاء جيداً، عدنا بعده إلى غليوننا، آملين أن نتمكن خلال الليل من الابحار، لكن تلك الريح القذرة —ولا أجرؤ على تسميتها شريرة— هبت طوال الليل، جاعلة تلك الليلة ليلة غير مستقرة تماماً بالنسبة لنا، ومع أن سفينتنا كانت مربوطة بالمرساتين والأربطة الأخرى العائدة للميناء، أرجحتها الريح وهزتها بكل عنف، وجعلتنا نصاب بدوار البحر بكل شدة.

وفي اليوم الرابع لم تكن الريح لطيفة، ولهذا نزلنا من الغليون وغادرنا حيث ذهبنا إلى كنيسة القديسة يوفيميا حيث قرأنا واستمعنا إلى قداسات، وتغدينا بعد القداس مع مضيفنا، وكانت حانتنا مجرد كوخ صغير، استأجرناه من رجل فقير، حيث قام طباخ مولاي فأعد لنا الطعام الذي جلبناه له، وكانت هناك أشياء كثيرة يمكن الحصول عليها، لكن لم يكن في تلك البلاد حانات كما هو موجود في بلادنا، وأية حانة

هناك كانت تعيسة جداً، ليس فيها لاقدور، ولا أوعية قلي أوغلي، ولاأيضاً مايكفي من صحون أو ملاعق، وعلى هذا وجد الحجاج النبلاء أنفسهم مع أنهم في بلدة جليلة واسعة، مرغمين على الدخول إلى البيوت العامة السيئة السمعة، حيث كان من الممكن الحصول على الضروريات، وذلك حسبما قلت من قبل في ص٢٥٨، وقد عانى الحجاج من مصاعب كثيرة، بسبب الحاجة إلى نزل، وعانى بشكل خاص الذين ليس لديهم تجهيزات خاصة بهم للطبخ بها، وبعد الغداء ذهبنا بالقارب إلى جزيرة صغيرة، وإلى كنيسة القديس أندرو القائمة هناك، وكان على مقربة من الكنيسة دير صغير، كان فيه فيما مضى رهبان من طائفة القديس بندكت، وعندما تخلى هؤلاء عن هذا المكان أخذه الرهبان الفرنسيسكان، وتملكوه، وبنوا ديراً جميلاً هناك وفق طرائق طائفتهم، فضلاً عن هذا قاموا بزراعة الجزيرة الصغيرة نفسها، وجعلوها وكأنها جنة من الجنات، ومن هناك يمكن للانسان أن يحصل على الأخشاب وأشياء أخرى لها حاجة، ذلك أن تربة الجزيرة هذه غنية وخصبة، كما أن الأراضي في الجزر القريبة كلها متشابهة، وخصبة.

*** ***

وبعد ماتمشينا لساعات حول الجزيرة المتقدمة الذكر بقيادة الرهبان، عدنا إلى الدير، حيث احتفي بنا بلطف بتقديم وجبة لنا، الأمر الذي عوضهم عليه اللورد جون التروخسيس بكرم، عندما غادرنا، وفي أثناء تناول الطعام انتبهت لوجود واحد من الرهبان، كنت قد رأيته أثناء حجي الأول فوق جبل صهيون، حيث كان نائب الوصي في الدير هناك، وهو أيضاً قد تذكرني، وقد حياني بلطف، وقد تلقيت منه بعض النصائح، وعندما انتهينا من الطعام، صعدنا إلى قاربنا، ووصلنا إلى روبينا مع صعوبات كبيرة، لأن الريح كانت معاكسة، وتناولنا العشاء في البلدة، وعزمنا على البقاء بعيداً عن الغليون طوال الليل، وآثرنا النوم

على المقاعد على أن نكون على ظهر السفينة، لأننا أمضينا ليالي تعيسة على ظهر الغليون عندما كان راسياً، يتأرجح بقوة الريح، لكن الذي حدث، هو أننا ماأن فرغنا من تناول العشاء، حتى كان القبطان قد أمر بالنفخ ببوقه (Buccina)، وكان ذلك شارة للجميع حتى يعودوا إلى ظهر الغليون.

وفي ذلك المساء، وقبل غياب الشمس، قام الملاحون برفع المرساتين، وبحل أربطة الغليون واطلاقه، وأبحرنا خارجين من الميناء، مع أنه لم تتوفر ريح لطيفة في البحر، ذلك أنهم رأوا عن بعد أوغسطين مع غليونه، وخشيوا من أن يحصل على الأولوية علينا، ولهذا قمنا بهذه المحاولة المخفقة، لأننا ماأن صرنا خارج الميناء، حتى دفعنا مسافة بعيدة في البحر بريح معاكسة، وهكذا أمضينا تلك الليلة نتأرجح فوق الأمواج، وكنا غير مرتاحين بمافيه الكفاية.

وفي اليوم الخامس، استمرت الريح نفسها، فكان أن حملنا خلال الأمواج إلى أسوأ جزء من ذلك البحر، الذي كان اسمه كورنيروس (Quarnero) Cornerus فهناك الذين يبحرون يكونون دوماً في خطر، لأن البحر يتدفق من هناك بتيار سريع جداً نحو أنكونا An-cona، ويتوجب على البحارة المحافظة على السفينة بعناية كبيرة، وجهد عظيم لمنعها من مسايرة تيار البحر، الذي كان في بعض الأحيان يدفع السفن بعنف ويلقي بهم إلى داخل ميناء أنكونا، وذلك وسط رعب عظيم ومخاطر للسفن وللذين على ظهرهم، وعندما كنا في ذلك الخليج رأينا الجبال التي تفصل دلماشيا وكرواتيا عن مملكة هنغاريا والهنغاريين، الذين يحجون إلى سيدتنا صاحبة لوريتو Loretto، يأخذون سفينة من هناك ويبحرون إلى مكان العذراء المقدسة.

وقطعنا في ذلك اليوم مسافة قصيرة، ومع ذلك استمرت السفينة طوال الوقت وسط حركة عنيفة، وإنه لأمر مدهش للانسان الذي هو

غير معتاد على البحر، أن يرى السفينة وهي تجري بسرعة كبيرة، لكن دون أن تتمكن من قطع أي مسافة على مسارها، الأمر الذي هو في غاية السوء، وعند حلول المساء، أصبحت الريح القذرة أشد، ولقد أمضينا ليلة غير هادئة تماما، حيث أصبح معظم الحجاج مرضى كثيراً، لأنهم باتوا يعانون من دوار في رؤوسهم ومن معدة مضطربة، وكان الغثيان العنيف والشديد نصيب الجميع، علماً بأن بعضهم صاروا أضعف من آخرين لتلك الأسباب، وعندما صارت العاصفة أشد، أراد البحارة تحويل اتجاه الشراع الرئيسي، وكانت عارضة الشراع قد رفعت نحو الأعلى إلى مافوق رأس السارية، مع الشراع الرئيسي accaton منشور من حولها، لكن عندما تركوا عارضة الشراع تطير حول الطرف الآخر، انفلت الشراع ونزل على المجاذيف على ذلك الجانب، وعندما ملأت الريح الآن الشراع بشكل مفاجىء، وأخذت برفعه بقوة كبيرة، تعلق بين المجاذيف، ومالت السفينة كثيراً نحو ذلك الاتجاه حتى أن عارضة الشراع نفسها لامست الماء، وباتت السارية، لابل في الحقيقة الغليون نفسه مهدداً بالانقلاب إلى ذلك الجانب، ولهذا كان هناك ركض إلى هنا وهناك، وصراخ على السطح الأعلى، أما نحن تحت في مخادعنا فقد قذفنا نحو الجانب الآخر، واستعد القبطان في القيدوم لانقاذ نفسه، فقد أمر بقطع الحبال التي تمسك القارب الصغير، حتى يسقط في الماء، حتى إذا ماغرقت السفينة، يمكنه أن يقفز إليه، ولم يعرف الحجاج الذين كانوا في الأسفل بهذا، ولو عرفوا به لحدث اضطراب عظيم، وفوضى مرعبة، من التسارع الذي كانوا سيقومون به في ركضهم نحو السطح، وبعون الرب، انتهى هذا الأمر على كل حال، ووصل إلى نهاية سليمة، حيث رفعت الريح الشراع خالصاً من بين المجاذيف، وبدأت السفينة تبحر متقدمة كما كانت من قبل، ولو أن السفينة جنحت وانقلبت إلى ذلك الجانب، كما كانت على حافة وقوع ذلك، مامن أحد من الحجاج الذين كانوا في القمرة الرئيسية، كان سينجو من الموت.

واستمرت الـريح في اليوم السادس قـذرة، وقد أسفنا لمغـادرتنا ميناء روبينا، ووجهنا السفينة مجدداً نحـو الجبـال، علنا نستطيع دخـول أحـد الموانىء التي هناك،والانتظـار هناك هبـوب ريح لطيفـة، وتقـوم فـوق الجبال القريبة من البحر شـارات من خلالها يعرف البحارة مكان وجود ميناء آمـن، وأين يمكنهم الاقتراب من اليـــابســـة، ومـــالم يـروا هذه الشـــارات، لايتجـرأون على جلب هذه السفـن الكبيرة وتقـريبهـا من اليـابسـة، وبعد رؤية واحـدة من هذه العـلامـات، ومن ثم التأكـد من وجود ميناء، مع امكانيـة القدرة على الوصول إلى اليـابسة، وجهنا رأس غليـوننا نحو الجبـال، فـوصلنا إلى مابين جـدارين من الصخـر، وجلبنا المركب إلى وادي حيث وجـــدنا ميناء آمناً، وبنـاء عليـه القينا المرســاة، وربطنا السفينة بالصخـور، وثبتنا وقفتها، ولم يكن الميناء أكثـر من مكان بين تلال وجبـال، فيـه يمكن للسفينـة الوقـوف دون التعـرض لتهـديد الرياح، ومع هـذا لايكفي أن يكون مـوقع الميناء آمنـا، بل هناك مطلب آخـر، هو أن يكون البحـر هناك عميقــاً، وأن تقيم ميناء هناك، لم تكن هناك حـاجـة لوجود سكان قـاطنين على مقـربة منه، بل كـان يكفي أن تكون السفينة قـادرة على الوقـوف هناك، وهي آمنة من الرياح العنيفـة، سواء أكان المكان مسكونا أم لا.

وكــان هذا الميناء في بقعـة مهجـورة، على إحـدى الجزر التي اسمهـا أســارو Assaro ، وكـان محاطـاً من كل الجوانب بشعــاب وجبـــال وعـرة، وبعـدمـا تناولنا طعـــام الغـداء على سطح الغليـون طلبنا إنزال القــارب إلى البحر، وذهبنا به نحـو الشـاطىء، وقد تمشينا فـوق الجزيرة لتمضية الوقت، وكان نامياً هناك أعشاب ذات رائحة جميلة، وكثيراً من نبات القصعين الصغير بلاحدود، وكف مريم agnus costus وبعدما اجتـزنا بعض التـلال، وصلنا إلى حقـول شعير، وكنا بذلك مسرورين، على أمل أننا كنا على مقـربـة من احـدى المزارع، حيث يمكننا الحصـول

على خبز طازج وبيض للبيع، وبعدما مشينا بعض الشيء على الطريق وصلنا إلى كوخ تعيس، كان يسكن فيه بعض الفقراء المعدمين من السكلافونيين، الذين لم يكن لديهم أي شيء على الاطلاق في بيتهم، سوى بعض الجذور، كانوا يجففونها في الشمس، وعندما تصبح يابسة كانوا يطحنونها، ويتخذون منها طحينا، يتخذون منه خبزاً، وقد أعطونا بعضاً من هذا الخبز، لكنه كان أسود جداً وبلا طعم، ولم يكن هناك بيت آخر غير هذا على الجزيرة، وبعدما رأينا هذا كله، عدنا إلى الشاطىء، إلى مقابل المكان الذي رست فيه سفينتنا، ورأى كثيرون أن الشاطىء أكثر كآبة من السفينة، فعاد هؤلاء إلى ظهر السفينة مجدداً، وبقيت أنا مع عدد من النبلاء على الشاطىء، ساعياً لإعطاء رفاقي الراحة، وقمت بتسلق أحد الجبال وحيداً لأنظر من حولي، وهنا رأيت ليس بعيداً، انسانا يلبس ملابس الرهبان المبشرين،يركض نحوي، ولذلك ركضت نحوه، للقائه، وحييته، وسألته من أين جاء، وإلى أين هو ذاهب، لكن هذا الراهب المسكين، لم يعرف لغة يحادثني بها، فهو لم يعرف لا اللاتينية، ولا الايطالية، ولا الألمانية، لأنه كان إما دالماشي، أوسكلافوني، فقد كان على طريقه نحو الغليون للتسول.

***   ***

وذهبت بعد هذا إلى شاطىء البحر، حيث وجدت واحداً من الملاحين، يقتلع عشباً كان ناميا بين صدوع الصخور، قال بأن له نكهة عظيمة في السلطة، وقال بأن اسم هذه العشبة كان Porcella، وكانت طيبة الطعمة، ومالحة، ونكهتها حادة (occtosa) وهي مثل الكبوسين، لكن أثخن وحجمها أكبر، وتساءلت كيف أمكن لعشبة جيدة أن تنمو بين الصخور وان يكون طعمها مالحاً، ولعل ذلك بسبب أن الملح منتشر على الشاطىء، أو بسبب أنه في أثناء العواصف تضرب المياه المالحة الصخور وتغطيها، حيث تشرق الشمس بعد ذلك وتضرب بأشعتها

ذلك الماء فتجففه وتجعل منه ملحاً، وطبيعة الملح تجعل الأرض جرداء، ومع ذلك نمت هذه العشبة في الملح، على الرغم من طبيعة جميع النباتات، ووجدت أيضاً أغصاناً من أفضل أنواع نبات كف مريم فأخذتها، علني أطرد بها روائح نتن السفينة من مخدعي، وحول هذا النبات، انظر عرضاً مطولاً في القسم الثاني ص١٨٩.

وحدثنا النباتيون، ولاسيما ألبرتوس ماغنوس Albertus Mgnus في De veget tractatus,i,c,5 بأن هذه العشبة قد عرفت باسم كف مريم agnues castus، بسبب عصارتها، وزهورها، وأوراقها، التي هي مفيدة من أجل التحريض على فعل الخير، فبوساطة حرارتها يجف الأساس المنوي البشري، والريح التي تمدد الأجهزة المولدة، ولهذا السبب قام الحكماء الاغريق برسم هذا النبات على أرضيات منازلهم، حتى تزدهر الفضيلة بين عقيلاتهم، وقد قيل أيضاً بأن هذا كان عقيدة الفيثاغورسيين، لأن هذا النبات كان يحوّل الانسان إلى مخلوق هادىء ولطيف مثل الحمل، ولهذا السبب أقدم كهنة الشمس والعذراءات المكرسات لخدمة الربة فيستا Vesta، والذين تحتضن ديانتهم القسم بالطهارة، على نشر أوراق كف مريم على أسرة نومهم وفي بيوتهم، وأنا أعرف هذا النبات منذ أيام طفولتي، ذلك أنني عرفته في بازل Basle، حيث كان ينمو في حديقة ديرنا، وكان قد زرع من قبل رجل جاء من البحر في أيام مجمع بازل.

وقد قيل بأن هذا النبات لايمكن نقله وزرعه في مكان آخر، بل ينمو فقط حيث زرعه الرجل، لكن هذا غير صحيح، لأنه في الوقت الذي كنت فيه هناك باقامة عابرة، اقتلعت غصناً مع الجذور وزرعته في حديقة مأوى العجزة، فهناك نما وصار شجرة كبيرة، ولهذا النبات أوراق فيها بعض الشبه بأوراق الجوز، إنما أنعم وأقل قسوة، وزهورها مثل زهور الأقحوان، ولهذا يطلق عليها اسم جوز البحر، ولها رائحة

جميلة وحادة ومفيدة، وبعضهم على كل حال يمقتون رائحتها، ولايستطيعون تحمل شمها.

وهكذا عدت إلى ظهر الغليون، آخذاً معي حزمة من الـ Porcella من أجل السلطة، وكف مريم من أجل الرائحة ومن أجل تزيين مخدعي، وبعد عودتي لم أشارك أصحابي بالعشاء، بل صنعت سلطة تعشيتها، وكنت راضياً بها، ومع حلول المساء ازدادت قوة الريح المعاكسة، وهبت بشدة جعلتنا نخاف مع أننا كنا مانزال في الميناء، وأرغم البحارون على الحصول على مزيد من الحبال لربط المركب، لأن التيارات انجرفت وتحركت عبر البحر المفتوح، واندفعت ضد الشعاب الصخرية ومن حولنا، ووصلت حتى إلى المكان الذي وقفنا فيه، وثارت في حوالي منتصف الليل عاصفة مرعبة جداً رافقتها رياح عنيفة، ورعد وبرق، وأمطار ثقيلة، إلى حد أن مياه المطر جرت إلى داخل حجر نومنا، لذلك لم نعرف الراحة في تلك الليلة،وكان هناك خوف عظيم، مع أننا كنا في ميناء، لأن الماء ضرب بعنف شديد جوانب الغليون، حتى كان عجباً كيف أمكن لأي خشب تحمل مثل هذه الضربات.

وفي اليوم السابع لم تكن الأنواء مناسبة لرحلة جيدة، ولهذا قمت بعد الغداء ثانية بالذهاب إلى الشاطيء، وكان ذلك في القارب، كما فعلنا في اليوم المتقدم، ولم نذهب جميعاً، بل ذهب بعضنا فقط، وكنت أنا بين الذاهبين، وبصعوبة وخطر أمكننا الخروج من الغليون إلى القارب، لأن البحر كان هائجاً، وهز كلا من القارب والغليون وأرجحهما صعوداً وهبوطاً، ولهذا لم يتجرأ قائد القارب على تقديمه إلى جوار الغليون، خشية منه أن تحمله الريح فيضرب جانب الغليون، فيتحطم إلى قطع، لأنه ارتفع عالياً بوساطة الأمواج، فكان أعلى من الغليون، ثم هبط عميقاً إلى حد أننا الذين كنا على سطح الغليون لم نعد قادرين على رؤيته، بسبب الأمواج التي كانت فيما بيننا، وفي مثل هذه الأنواء على

كل من يرغب بالخروج من الغليون والحصول في القارب، الوقوف على سلم الغليون، والانتظار بحذر اقتراب القارب من الغليون، حتى يمكنه الوصول إليه قفزاً، لأن الناس لـن يسمحوا للقارب بالاقتراب أكثر من هذا، ويتوجب عليك القفز في اللحظـة التي يقترب فيها القارب، لأنك مـالم تقفز، سـوف يبتعد عن الغليـون بقوة الأمـواج، ولدى قفزه نحـو القـارب، لايمكنه أن يصون نفســه من الوقوع في الأمـام أو في الخلف، على وجهه أو على قفاه، ويقوم الذين على ظهر القارب بايقافه.

وكـانت هذه أعظم اللحظات ذات الخطر العام، التي كـان يخضع لها الحجاج، إنها وإن بدت صعبة في البداية، كان ماأن يعتاد الانسان عليها، حتى تصبح مسألة روتينية عـادية، بعدما كـانت من قبل لايجرؤ الانسان على التفكير بها، أو تجربتهـا بسبب الرعب، ولقـد رأيت نســاء كن في البداية مليئات بالرعب، لم يتجـرأن على النظر إلى البحر، لكن بعد ذلك أصبحن جريئات — بسبب الممارسة — إلى حد أنهن كن يغامرن بالقفز من الغليـون إلى القارب، وقـد يعتقـد الانسان في البـداية أن الأفضل له البقـاء على سطح الغليـون، وتحمل شقـاء البقـاء هناك، على أن يغـامـر بالقفـز، ومن ثـم الحصـول في ميناء جيـد ومنعش، ولكن بعــدمـا يجد الانسان نفسه قد تعرض للقـذف بالعواصف وبالمصاعب، وجاع بسبب العـوز إلى الطعام على ظهـر السفينة، تراه يقـدم لدى الوصـول إلى ميناء جيد، ويتجـرأ على القفز خمس قفـزات خطيرة، مفضلاً ذلـك على البقاء على ظهر السفينة، وهناك أيضاً المصاعب نفسها عندما يصل القارب إلى الشاطىء، لأنه إذا كـان الشاطىء صخريا ومنحدراً، لايتجـرأ الملاحون على الاقتراب منه، إذا كان البحـر هائجاً، ولذلك يتـوجب على الانسان أن يقفـز ثانية، إمـا على الصخـور أو في البحر، وفي جميع الأحـوال على الانسان أن يكون متنبها وحذراً تماماً تجاه عمق البحر، لأنه عندما يكون البحـر هائجاً قـد يغطي الصخـور العـالية، ولهذا يوجـد بشكل عـام في

الموانىء رجال للخدمة، الذين عندما تتراجع مياه البحر، يسرعون إلى القارب، ويحملون كل واحد من الذين سوف يعطيهم بنساً، وكل من يعبر البحر، يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى كثيرة من هذا النوع.

ودعوني الآن أعود إلى سياق حكايتي، فقد وصلت إلى الشاطىءمع بعض الحجاج والبحارة، وعملنا ناراً على الشاطىء، ومشينا حول التلال، وبذلك أمضينا الوقت حتى المساء، وكان الوقت متأخراً عندما عدنا لتناول عشائنا على ظهر الغليون، وقد تغلبنا على مخاوف القفز من القارب إلى الغليون.

وفي اليوم الثامن، الذي كان الأحد الثاني بعد الثليث، استمر الجو مظلما، والهواء معاكساً، وفي حوالي مابعد الغداء ذهبنا جميعاً تقريباً إلى الشاطىء بالقارب، وهناك ركض بعضهم حول الهضاب التي بلاممرات، بينما جلس بعضهم الآخر بلا حراك يتحدثون، وقد تمتعنا بيوم بهيج، من ثم كانت الأوضاع على ظهر ذلك الغليون رائعة إلى أبعد الحدود، وكان هناك سلام ووئام، وصداقة، ووحدة بين جميع الحجاج، وكان الوضع هو المعاكس على ظهر غليون حجي الأول، حيث كان هناك، غضب، ونزاع، وخلاف، وكثيراً من الشتائم بقدر مايمكن رؤيته في ص١١٠—١١١، وعليه عندما كانت الشمس على وشك الغياب، عدنا إلى ظهر الغليون، من أجل تناول طعام العشاء، ولم نتحرك في تلك الليلة، ذلك أن قوة الريح بدأت تتلاشى.

وفي اليوم التاسع جلب الرب كنوز خيراته وقدمها لنا، فقد توفرت رياح طيبة، كنا مسرورين لها كثيراً، فرفعنا المرساتين، وحللنا حبال الربط، ونشرنا الأشرعة، فامتلأوا بالهواء، ولم يمض سوى وقت قصير حتى غادرنا الميناء، ومن ثم صرنا في أعالي البحار، وقبل الظهر وصلنا إلى ميناء في دالماشيا اسمه يادرا (زارا)، وهنا طوى القبطان الأشرعة، وأنزل مرساة واحدة، وأنزل القارب، وأرسل بعض البحارة إلى المدينة

مع أوعيـة لجلب الماء، لأن الماء الذي جلبنـاه معنا من روبينا، كـان قـد نفد، ولم يكن على جـزر أسارو، ولاقطرة مـاء للشرب، ولم يدع القبطان ولاواحـداً من الحجـاج يغـادر السفينة، لأنه عـزم على الاقـلاع ثانيـة مبـاشرة، ويـا للعجب عندمـا كنـا راسين هناك، وصل المعلم أوغسطين أيضـاً مع غليـونه وتجاوزنا، ولمدة طويلة كـان بـامكاننا رؤية غليـونه في البحـر، مبحـراً أمـام ريح طيبـة، وأمام هذا المشهـد كـان قـادة غليـوننا غاضبين جداً، لأنهم عزموا، واستخدموا كل جهد في سبيل ابقاء غليوننا أمـام غليونـه حتى الأرض المقدسـة، ولكن مشروعهم حقق الإخفـاق، وعندمـا أحضرت المياه إلى الغليـون، لحقنا مباشرة بأوغسطين، وأبحـرنا على طول مسار جيد جداً، حيث كـان على جانبينا قرى، وقلاع، وأرض مزروعة، ووصلنا إلى يادرا القديمـة، ورأينا خرائبها العظيمة، واستطعنا بعون الريح انجاز رحلة جيدة طويلة في ذلك اليوم.

وعلى كل حال توقفت ريحنا الطيبـة عند غياب الشمس، وهبت ريح قذرة، تراجعنـا أمامها ووجهنا سفينتنـا نحو الجبال، خشيـة أن تدفع بنا بعيـداً عن مسـارنا، وعندمـا أصبحنا بين الجبـال، ربطنا سفينتنا في ميناء مهجـور، وأمضينا ليلة مليئـة بالعـاصفـة والرعب بسبـب سـوء الأنواء والبرق والرعـد، وعليـه كـان الجو مليئاً بأشيـاء غير مـوافقـة للناس في البحـر، أكثـر من الذين سكنـوا فـوق اليـابسـة، وكـان اسم ذلك الميناء أونيوم Oneum، وهو في كراواشيا Crawacia، التي هي مقاطعة في دالماشيا.

ولم تكن هناك ريح في اليـوم العاشر، سوى الريـح القذرة، وذلك في الصباح البـاكر عند شروق الشمس، ويئسنا من مغـادرة أونيوم في ذلك اليوم، لكن على كـل حال، تغير الهواء بعد مضي سـاعتين، فحلوا أربطة الغليون، وساقوه خارج الميناء بوساطة المجاذيف، ووجدنا في الخارج في البحـــر ريحاً جـــانبيـة، لم تكـن نافعـــة كثيرة لنا، وقـــد حملتنا على طول

الأطراف حتى وقت الغداء، وبعد انتهاء وقـت الغداء هبت ريح مواتية وقوية وسعيدة، دفعت السفينة بشكل مفاجيء وبقوة على امتداد طريقها الحقيقي فـوق البحـر، ولكي تمضي أسرع رفع البحـارة الشراع الأمـامي (Trin Ketum) فـوق القمـة الأسـاسيـة، وعلقـوه حتـى عنق القمـة الأساسيـة، وذلك فوق العارضـة الرئيسية للشراع، فضـلاً عن هذا لقد أخرجوا الظلة، أو غطاء السفينة، الذي يغطى به أحيانا الغليون كله من البـداية حتى النهاية، ليحمي الغليـون من الشمس والمطر، وجرى مـدّه بشكل منحــرف عبر الغليـون حيث تقــوم الســارية، وذلك تحت قلع الشراع الأساسي، وقـد وصل من طرف إلى طرف، وأمسك الريح كلها من الخلف حتى يســاعـدنا ذلك على طريقنا، ولذلـك مضينا في طريقنا مسرعين جداً، وتجاوزنا مدينة ليسينا، ثم مـدينة كورزولا، وكذلك مدناً أخرى كثيرة، سوف أتحدث لكم عنهن — بعون الرب — أثناء عودتي، واستمرت هذه الريح السعيدة والمبهجة ذلك النهار كله، والليلة التالية، التي نمنا خلالها بعمق، ونحن نسير بسرعة وعذوبة، لأن طريق الغليون لم يكن على الجانب، بل كــان مستقيما نحـو الأمـام، جعلنـا ميـالين إلى الهدوء، لأنه عندمـا تكون الريح هادئة ولطيفـة، وليست قوية جـداً، لن تكون هناك أية حـركـات يشعـر بها الذين في القمـرة نظراً لسير السفينة بهدوء، وبدون ضجيج، وينام كل من الحجاج تحت، وعبيد الغليون على السطح بهدوء، ويكـون كل شيء ســاكنـاً، باستثنـاء الذين يـراقبــون البوصـلات، والذي يمسك عصا الدفة، لأن هؤلاء يقـومون عن طريق التناوب والترداد بتقديم الشكر من أجل رحلتنا السعيدة، والحظ الجيد، ودوما يحمدون النسيم، ويشكرون الرب، والعذراء المباركة، والقديسين، ويرد أحـدهم على الآخـر، ولايلتزمـون الصمت مـادامت الريح طيبـة، وكل واحد على ظهر المركب يسمع هذا الغناء الصادر عنهم، سوف ينام حتى وإن كـان بالعـادة لاينام، مثله في ذلك مثل الطفل الذي لايعـرف الاستقرار والدائم الصراخ، فتقوم أمه فتهدئه عن طريق أغانيها الشجية،

لكن عندما يكون كل شيء هادئاً تراه يصرخ، لأنه مع الأغنية يغطّ في نوم عميق لأن الأغنية تؤكد له حضور أمه، ذلك أن تأثير الحضور أعظم من حلاوة الغناء، ومثل هذا كان الحجاج أكثر هدوءاً، لأنهم بهذا الغناء كانوا يدركون ويتأكدون أن السفينة مبحرة نحو الأمام باستقامة، وأن كل شيء على مايرام، وهذا أكثر أهمية من الأغنية نفسها، وكانوا يتناوبون النداء، مثلما فعل حراس مدينة أولم، عندما كانوا ينادون بساعات الليل، ولايعيق هذا النداء أي انسان ويمنعه من النوم، بل يرسل القلقين من الناس إلى النوم.

وفي أثناء العواصف، عندما تكون الريح معتدلة وقوية، تركض السفينة بعنف مع تأرجح واهتزاز صعب، ويكون ذلك وهي على مسارها بسرعة فائقة العظمة، سرعة لايمكن أن يجاريها سهم أطلق من قوس زيار أوقوس عادي، وغالباً مابرهن الملاحون على صحة ذلك، بالوقوف في المؤخرة مع قوس وارسال سهم باتجاه القيدوم، وهنا لايلحق السهم السفينة، حيث تتغلب عليه بسرعتها، وتدفع الريح السفينة، تدفعها نحو الأمام بوساطة أشرعتها، بقوة تبدو معها مياه البحر وكأنها تسعى لمواجهة القيدوم، ويبدو منقار القيدوم أيضاً وكأنه يشق مياه جدول أو نهر بكل عنف، ولذلك تعلو المياه أحيانا فوق قرني القيدوم، ولأن الماء يندفع بعنف كبير ضد المؤخرة، غالباً مايقفز حتى إلى حجرة القبطان الخاصة، وطالما أن الريح مالىء للأشرعة ويدفعهم بقوة متناهية، يبدو الماء وكأنه يجري بالاتجاه المعاكس والمضاد للمؤخرة، بسرعة عظيمة، هذا ومن الصعب لنظر الانسان أن يتابع فيه سرعة البحر.

ويبدو — على الأقل بالنسبة لي — أن السهم عندما يطلق من القوس لايمكن أن يسير بسرعة تساوي جريان الغليون، ذلك أن للغليون سرعة أعظم بعشر مرات من سرعة البحر، حيث أن السفن

تسير بسرعة من الصعب تصديقها، عندما يكون الريح والبحر في هذه الوضعية، وأنا أعتقد أن الابحار خلال يوم وليلة مع ريح طيبة، تقطع السفينة خلالها مسافة تساوي مابين كولون والبندقية، لأنه عندما تكون السفينة، تتقدم نحو الأمام ببطء، ويعدّ تقدمها كأنه لاشيء، تراها مع ذلك لايستطيع حصان أن يعدو بسرعة تعادل حركتها البطيئة تلك، وعندما نقول بأن سرعتها متلاشية، مامن سباق يمكنه أن يجاريها حتى وإن كانت تزحف زحفاً، وعلى كل حال يصدف أن لاتتحرك السفينة مطلقاً، أو تقف كلية، وسوف يكون ذلك مزعجاً جدا للذين هم على ظهرها، وبناء عليه تقدمنا تقدماً عظيماً على طريقنا، في تلك الليلة ذات السرعة الكبيرة، والأنواء اللطيفة، ومات في تلك الأثناء فارس نبيل هولندي، حيث جرت عملية دفنه حسبما أوضحنا فيما تقدم في الصفحة ٢٥٤، وقد دفناه في أعماق البحر.

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كان يوم عيد القديس برنابا الرسول، تابعنا الابحار والتقدم بنجاح، واجتزنا مدينة راغوثا، وهي المدينة الرئيسية في دالماشيا كلها مع سكلافونيا، التي سوف أحدثكم عنها أثناء عودتي، ورأينا في ذلك اليوم حدود الممالك، وهو المكان الذي تتصل به إمارات دالماشيا، وإليريا، ودوقية ألبانيا، والمورة أو آخيا، ومملكة هنغاريا، ومملكة البوسنة، ومقدونيا، تتصل به مع بلاد الاغريق، ذلك أن هذه الممالك تمتد حتى شاطىء البحر، وتشكل حدود المسيحية نحو الشمال، لأن آخيا، وألبانيا، والبوسنة، ومقدونية تابعة للأتراك، وهكذا أمضينا يوماً ممتعاً، مع ريح طيبة، ومناظر جميلة من كل جانب، وقام البحارة في هذا اليوم باصطياد السمك، لأنهم رأوا حشوداً لاتعد ولاتحصى من السمك الكبير، ولم يكن لديهم وسيلة للصيد سوى رمح حاد جداً برأس له ثلاث شعب، وقد وقفوا على أطراف الغليون، وعندما كانوا يرون سمكة كانوا بسرعة يصيبونها ويجلبونها، وفي الحقيقة

لقد جرحوا كثيراً، لكن الذي أمسكوه كان قليلاً، ونحو حلول المساء ضعفت ريحنا الطيبة، إنما بعد غياب الشمس عادت قوية كما كانت من قبل، واستمرت طوال الليل جيدة، ولهذا قطعنا مسافة طويلة.

وفي اليوم الثاني عشر تابعنا الابحار بريح طيبة، وكنا في أعالي البحر، بعيدين عن اليابسة، ورأينا مدينة سكودروم Scodrum التي يسمونها سكوتاروم Scutarum، وهي التي أعطاها البنادقة في السنة الماضية إلى الأتراك حتى يتخلصوا من متاعبهم، ثم اجتزنا دوراسيوم Duracium (دورازو)، التي هي الآن مدينة كبيرة عائدة للأتراك، وهي التي كان قسطنطين قد قرر فيها مضى إقامة القسطنطينية في موقعها، وهذا ماسوف أخبركم به أثناء عودتي، واجتزنا أيضاً مدينة لافيلون Lav-ilone، التي إلى جانبها يوجد نهر يجري في أراضي الأتراك، ويعبرها إلى البحر، ويبحر الأتراك من وسط بلادهم على هذا النهر، من أجل اصطياد المسيحيين، وأطلقنا طوال ذلك اليوم جميع الشراع على أمل أن يتمكن من إمساك الريح، وذلك حسبما قلناه من قبل وفعلناه في اليوم السابع، ومع غياب الشمس ازدادت ريحنا الجيدة قوة، وأنزلنا بعضاً من شراعنا خشية أن نسير مسرعين كثيراً في الظلام، وفي ذلك المساء كنا جميعاً مسرورين، ومبتهجين، وظل المزمار يلعب حتى غدت الدنيا مظلمة، وامتلكنا طوال الليل ريحاً طيبة.

وفي اليوم الثالث عشر، ازدادت الريح في المساء المبكر قوة، ثم انتقلت إلى مكان آخر، ولهذا قام القادة بنقل الأشرعة، وعندما أديرت عارضة الشراع، انعطفت السفينة بشكل مفاجىء ومالت على طرف واحد، وجرى من ثم قذف جميع الحجاج الذين كانوا مايزالون نائمين من فرشهم، وكان هناك ذعر عظيم في القمرة، لكن على السطح لم يكن هناك سبب للخوف، وعندما أشرقت الشمس رأينا على يسارنا جزيرة كورزيري Gorziri، التي يسمونها كورفو Corphu والتي هي أول بلاد

الاغـريق، واجتزنا هذه الجزيرة بسرعـة، لأن الطاعون كـان منتشراً بها، ولدى متـابعـــة إبحـارنا على طريقنـا دخلنا إلى بحـر ايبروس Epirus، وبذلك غـدت أبوليا وصقليـة على يميننا، وبتوفيق عبرنا في ذلك اليـوم عـدداً كبيراً من الجزر التركيـة، وخلفناهن وراءنـا، لكن عندمـا غـابت الشمس ضعفت ريحنا الطيبـة، ولم نقطع في تلك الليلة أية مسـافـة أبداً، الأمـر الذي أغضبنـا كثيراً، لأن يوم الأحـد بات قـريبـاً، وكنا نأمل أن نكون في ذلك اليـوم في ميتونا Metona (Modon) وأن نسمع قـداساً هناك، لكن الشيطان لم يكن راضياً بأن نفعل ذلك.

وتابعنا في اليـوم الرابع عشر سيرنـا على طريقنا، ورأينا جبـال آخيـا، قريبة من مـدينة باتراس، حيث جرى صلب القديس اندرو، وهنا وقفنا عند اشراق الشمس بلاحراك، لأننا لم نمتلك ريحا تساعدنا، وبعد تناول طعام الغداء هبت ريح ضعيفة، جعلت الغليون يحبو ببطيء باتجاه مدينة ميتـونا، التي يسمـونا مـودون، فإلى هناك رغبنـا بالذهاب، ومع اقتراب المسـاء انبعثت ريح قـوية طيبـة، حملتنا بعيـداً عن جـزر سامـافـرا Sa-mafra، وأخذتنـا نحو جبال المورة، وإلى مقـاطعة كـارنزا Carenza، ووصلنا بعدها إلى بلفنتور Belventor.

وعندمـا تأخـــر الوقت رأينا على يسـارنا بلاد آخيـــا، التي هي ملك للأتراك، ورأينا على يسـارنا جـزيرة من دون جبـال، يسمـونها ستيرفيل Stamphane) Stirvale)، ويسكن فـــوق هذه الجزيرة رهبـــان اغريق تابعين لطـريقة القديس باسيل، وهـؤلاء لم يستطع الأتراك مطلقاً طردهم من هناك، مع أنهم خاضوا ضدهم عدداً كبيراً من المعارك، لأنه ماأن يأتي الأتراك، حتى يندفع الرهبان بأسلحتهم، ويرغمون على الفرار كل من يقـابلهم، وقد فعلوا هذا مـراراً، لذلك لم يعد الأتراك يتجـرأون على الذهاب إلى هناك لمحاربتهم، وقد أبحرنا نحو هذه الجزيرة، وعندما عبرناها تركناها على يسـارنا، وعندمـا جاء الليل تراجعت ريحنا الطيبـة،

وقطعنا مسافة قصيرة جداً في تلك الليلة.

وفي الخامس عشر، الذي كان الأحد الثالث بعد التثليث، وهو يوم عيد القديس فيتوس Vitus والقديس موديستوس Modestus، وعند اشراق الشمس، بدأ عبيد الغليون بتحريك الغليون بوساطة مجاذيفهم، لأن الريح لم تكن طيبة، وكنا قاصدين ميناء ميتونا، الذي لم نكن بعيدين عنه أكثر من مسافة ميل ألماني، وبعد بذل جهد كبير دخلنا إليه، وكان ذلك في حوالي الساعة الثامنة قبل الظهر، ونزلنا مباشرة إلى القارب، وجذفنا إلى المدينة، حيث وجدنا الحجاج الذين أبحروا مع المعلم أوغسطين، وقد أخذت موالي وبعض الحجاج الآخرين إلى كنيسة الرهبان المبشرين، واستمعنا هناك إلى قداس رفيع.

وكان رئيس الدير في هذا المكان والرهبان الآخرين يعرفونني معرفة جيدة من رحلة حجي الأولى، وبعد انتهاء القداس ذهبنا إلى بيت الخباز، حيث يجري خبز البقسماط من أجل السفر البحري، وكان يسكن هناك عجوز ألماني، وقد تولى طبخ غداءنا، وتغدينا، ومضى بقية الحجاج إلى بيت السادة التيوتون، وأعدوا هناك طعاماً لأنفسهم، وذهبنا بعد تناول الغداء وصعدنا إلى أسوار البلدة، ومشينا من حولهم ونحن فوقهم، وأعجبنا بالدفاعات التي لاترام، ولم يكن الموضع جزيرة، بل جزئاً من اليابسة، وكان الجميع من ممتلكات الترك، وفي طريق عودتي سوف أحدثكم أكثر حول هذا، وفي هذا المرفأ كان غليون المعلم أوغسطين راسياً أيضاً، وكان جميع الحجاج بالمدينة، ولذلك كونّا صداقة سعيدة وبهيجة معهم، مع أن ذلك لم يفرح القبطانيين، اللذان رأيا أنه بسبب خصامهما، ولأنهما كانا متعاديين أحدهما ضد الآخر، علينا نحن أن نصاب بالداء نفسه، وبناء عليه يتوجب علينا تجنب صداقة ورفقة بعضنا بعضاً، المهم أننا جلبنا الحجاج الآخرين إلى ظهر غليوننا وأريناهم إياه، وهم بدورهم أخذونا إلى غليونهم لرؤيته، وهكذا أمضينا

النهار معا حتى حلول وقت العشاء، ونحن مسرورين مع بعضنا بعضاً، كونا التقينا في وسط البحر، لأنه قد قيل بأن مدينة مودون قائمة في وسط الطريق فيما بين البندقية وبين القدس، وفي حوالي وقت العشاء زعقت أبواق القبطانيين تدعو الحجاج إلى السفينتين، وعندما سمعنا هذه الشارة صعدنا إلى ظهري الغليونيين، وفي ذلك المساء نفسه غادر أوغسطين وحجاجه الميناء، لكننا بقينا نحن هناك حتى الصباح. ولسوف أصف هذه المدينة أثناء عودتي.

وفي اليوم السادس عشر، وقبل أن يضيء الصباح، قام العبيد بالتجذيف بالغليون وأخرجوه من الميناء، فأوصلوه حتى زاوية الجبل، حيث أودعناه بيد الريح، ودخلنا بحرماليان، واجتزنا مدينة كورونا، القائمة فوق صخرة عالية، وهبت هناك بعد منتصف النهار، ريح قوية، وقد أبحرنا مسرعين نحو جذور (كذا) ماليا Malea، من دون توقف أو عائق، وضاعفنا الرأس هناك من دون متاعب، الأمر الذي يحدث دوما: لأن الانسان يواجه في ذلك المكان المخاطر دوماً والمصاعب، وأبحرنا الليل كله بتلك الريح، واجتزنا عدداً كبيراً من الشعاب والصخور بحظ جيد، لأن ذلك البحر، من الصعب جداً الملاحة فيه من دون حظ جيد صادر عن ريح طيبة.

رأينا في اليوم السابع عشر جزيرة كريت، والخندق أو «سنتابولس Centapolis»، وفي بعد ظهر هذا اليوم تراجعت قوة الريح وصارت ضعيفة، ودفعتنا الأمواج إلى هنا وهناك دون أن نتقدم إلى الأمام، ولم نستطع الوصول إلى كريت في ذلك اليوم، وتجنب القبطان الآخر، أعني أوغسطين جزيرة كريت وأبحر من ماليا إلى جزر سيكلادس Cy-clades ، لكن قبطاننا لم ير تجاوز كريت، ذلك أنه رغب بزيارة السيد بطريرك القسطنطينية، الذي شغل منصب رئيس أساقفة كريت، وكان هذا البطريرك نفسه من أهل البندقية، وكان والد قبطاننا، ولهذا

السبب قرر التوقف في تلك الجزيرة، لكن خشية منه أن يتخذ الحجاج هذه المسألة أساساً للشكوى ضده، جلب في ذلك اليوم إليهم قطعة من القماش الحريري، اسمه أطلس atles ، تساوي قيمتها عشر دوقيات، ليلعبوا عليها الورق متراهنين، وقد ربح هذه القطعة اللورد بيرفون هوهن ريخبيرغ، وكان واحداً من موالي، وكان هناك كميات ضخمة من الأرباح المالية تمت على ظهر الغليون في مختلف الألعاب، لأن كل يوم من المقامرة العميقة والآثمة، تبدد بين النبلاء وذلك بالورق والنرد، وكان أحدهم الرابح، وآخر الخاسر، وكان في كل يوم هناك إنغماس في الملذات الحسية، إنما بدون خلافات، وإنني أعرف بعض الفرسان الشبان، والرجال النبلاء قد جلبوا معهم مبالغ كبيرة من المال، لأنه كان بنيتهم الذهاب إلى القديسة كاترين، وكان لديهم مايكفي لذلك، لكن بوسائط هذه المقامرة الملعونة أصبحوا في حالة عوز وفقر، إلى حد أنهم باتوا غير قادرين على تحمل الانفاق بالارتحال حتى القدس، ولولا أن رفاقهم ساعدوهم، لعادوا إلى الوطن دون تسلم فروسيتهم، وفي أيام الأعياد، عندما كنت أعظ بكلمة الرب، على ظهر الغليون، وجهت اللائمة إلى هؤلاء المقامرين طويلاً وبحدة، لكن الذين انتقدتهم تصلبوا أكثر في مواقفهم، وكانوا يجلسون في كل يوم من الصباح حتى المساء يقامرون بخمسين أو ستين، أو مائة أومائتي دوقية، منحنين على المنضدة مثل وتد وذلك من أجل لعبة واحدة، وعلى ذلك توفر في ذلك اليوم سرور عظيم، مثل سرور الحمقى، لأن جماعتنا ربحت قطعة من قماش الحرير.

وكان لدينا في اليوم الثامن عشر، بعد شروق الشمس، ريحاً ضعيفة، حركت سفينتنا ببطيء نحو كريت، وفي حوالي الظهر رأينا غليونا مسلحاً يتحرك تحركاً قرصانياً ليس بعيداً عنها، وقد استدعاه المسؤول العسكري لدينا بالطريقة التالية: فقد أطلق طلقة مدفع نحوه، ولدى

سماعهم الصوت، قام الذين يوجهون الغليون بعطف قيدومه نحونا، وجلبوه بالتجذيف إلى جوارنا، ثم انهم أنزلوا قاربا وجاء به القبطان والمسؤول الحربي، وصعدا إلى ظهر مركبنا، وتكلما لبعض الوقت مع قبطاننا ورجال التوجيه لدينا، لأن ذلك الغليون كان ملكاً للبندقية مثلما كان غليوننا أيضاً، وكانت هذه هي العادة في البحر، عندما يرى غليونان أو أكثر أحدهما الآخر، يقوم الذي يعدّ نفسه أعلى من الآخر، باستدعائه وفق الطريقة المتقدمة الوصف، وإذا كان الغليون بندقيا، يستدعى الأكبر الأدنى، وينبغي على الأدنى أن يقدم إلى حضرته، لكن إذا لم يكن الغليون بندقيا، مع ذلك إنه إذا قدم عندما دعي فذلك خير، لكن إذا لم يقدم،، عندها يقوم على الفور الذي استدعى بالإسراع نحوه بقدر ما يستطيع ويشتبك بالقتال معه، حيث يكون قد جهز مدافعه، وقسيه، ونشابه، ومجانيقه، وعندما يرى المركب الآخر هذا، يقوم، إذا كان خائفاً، بانزال شراعه، كشارة على الخضوع والصداقة، وإذا لم ينزل شراعه، فذلك يعني المقاومة والقتال، ويستعد المركبان للحرب.

ومع حلول المساء وصلنا إلى كريت، وبحثنا عن حانة يمكننا أن نتعشى فيها، غير أننا لم نجد حانة سوى واحدة أستحي أن أتكلم عنها، فقد كانت بيتاً سيء السمعة، تتولى إدارته امرأة ألمانية، وقامت السيدة، التي اقتدنا إليها، عندما رأت أننا مكونين من نبلاء وكهنة، أو رهبان، بتنظيف بيتها، ووضعت هذا البيت بجميع غرفه تحت خدمتنا، وكانت سيدة أديبة، ومحترمة، وامرأة عاقلة، وحصلت على كل ماالحتجناه بكميات كبيرة، وحصلنا على عشاء فاخر، مع خمرة كريتية، وهي التي نسميها مالفوسيه Malvoisie، ووجدنا في ذلك اليوم عنباً ناضجاً، من النوعين الأسود والأبيض بكميات كبيرة، لكن بما أن الريح كانت طيبة، أخبرونا بوجوب الاقلاع في تلك الليلة، وبناء عليه عندما انتهى عشاءنا عدنا إلى غليوننا وأمضينا الليل هناك.

وفي اليوم التاسع عشر، الذي كان يوم عيد القديس جيرفياس Ger-vais والقديس بروتياس Protais، عندما استيقظنا في الصباح، ونحن آملين بالاقلاع، رأينا عبيد الغليون يحملون سلعهم إلى خارج الغليون، لأخذها إلى السوق لعرضها للبيع، وعندما رأينا هذا عرفنا بأن الغليون لن يقلع، ولذلك نزلنا مباشرة إلى القارب، ودخلنا إلى المدينة، حيث سمعنا قداساً في كنيسة من كنائس الرهبان المبشرين، وذهبنا بعد القداس إلى حانتنا، وحصلنا على غداء جيد، وبعد ما تغدينا قمنا بزيارة جميع الكنائس والديرة في المدينة، ولسوف أتحدث عن هؤلاء بشكل كامل أثناء عودتي، ومع حلول المساء، استدعينا جميعاً إلى الغليون بوساطة أصوات الأبواق، وما أن أصبحنا على ظهر الغليون حتى همدت الريح الطيبة التي هبت طوال النهار، ولهذا بقينا في الميناء طوال الليل حيث كنا، مع كثير من الارهاق، والشكوى، وقلة الصبر.

وفي اليوم العشرين، وقبل اشراق الصباح، أخرجوا الغليون من ميناء كريت بالتجذيف وذلك بعد بذل جهد كبير، وأبحرنا مع ريح ضعيفة نحو جزيرة ستانديا Standia، وجزيرة ستانديا تواجه جزيرة كريت، وقد وقفنا فيما بينهما دون أن نتقدم، وعلى كل حال، قدمت في حوالي الظهر رياح طيبة وجديدة، أخرجتنا من بحر كريت إلى البحر الإيجي، وإلى جزر السيكلاد Cyclades ، حيث أبحرنا من خلالهن طوال هذا اليوم، وطوال الليلة التالية.

وفي اليوم الحادي والعشرين كنا في وسط السيكلاد، نبذل جهدنا للوصول إلى جزيرة رودس التي هي أول جزر السيكلاد والرئيسية بينهن، وواقعة على الجهة الشرقية منهن، وخرجنا في حوالي الظهيرة من دائرة السيكلاد، إلى منطقة اسمها نابوليا، وهذه المنطقة هي الأولى التي هاجمها الأتراك فبعدما جالوا حول العالم لمدة طويلة، قدموا إلى هذه المنطقة، فقتلوا واستعبدوا الذين سكنوا فيها، وبدأوا حكمهم هناك،

وعندما انطلقوا من هذه المنطقة، استولوا على آسيا الصغرى كلها، وانتزعوها من المسيحيين، وجعلوها خاضعة لهم.

وتراجعت قوة الرياح بعد منتصف النهار لمدة تقارب الساعة، غير أنها هبت بعد ذلك بقوة أعظم ودفعت بنا فخرجنا من نابوليا نحو رودس، وبسرعة وصلنا إلى جبال رودس، ونحو مدينة كولوسوس Colossus ، التي هي المدينة الرئيسية في تلك الجزيرة، وفي الوقت ذاته، غابت الشمس، وحل الليل علينا قبل أن نتمكن من الدخول إلى ميناء كولوسوس، وتمكنا —على كل حال— بعون ضوء القمر من الابحار إلى داخل الميناء، حيث ربطنا السفينة، ونمنا تلك الليلة، ووجدنا في الميناء غليون المعلم أوغسطين، الذي كان مع حجاجه قد نزلوا إلى شاطىء المدينة.

وكان اليوم الثاني والعشرين هو الأحد الرابع بعد التثليث، وكان يوم عيد العشرة آلاف شهيد، وبعدما حصلنا على إذن من المقدم الأعلى لفرسان القدس— الذي من دون إبداء موافقته مامن أحد يسمح له بالدخول إلى المدينة — غادرنا غليوننا، ودخلنا إلى مدينة كولوسوس، التي يسمونها رودس، وهنا ذهبنا إلى قلعة الفرسان وصعدنا إلى كنيسة القديس يوحنا، حيث سمعنا قداساً عالياً، وبعد القداس جاء بعض فرسان القديس يوحنا— وكانوا من النبلاء الألمان — إلى موالي، حيث قدموا التحية لهم باحترام كبير وسرور، وأروهم آثارهم المقدسة، وحضروا بعد ذلك لهم غداء فاخراً في بيت محترم، وهناك تناولنا غداءنا، وبعد الغداء، غادر المعلم أوغسطين وحجاجه، وعندما رأى قبطاننا بيرو لاندو هذا، نفخ في بوقه، واستدعانا إلى ظهر السفينة، ولذلك أسرعنا نحو ظهر غليوننا، وعلى كل حال، خلفنا وراءنا في تلك المدينة عدداً من الفرسان الجيدين والشرفاء، كانوا مريضين جداً، غير قادرين على متابعة السفر، وكان بينهم جيروثيوس فون راتزنهوزن -Je

rotheus Von Ratzenhusen، وعدداً من فرسان القديس يوحنا، الذين جاءوا من البندقية معنا، وقد حزنا جميعاً لفقدانهم، لأننا عقدنا على ظهر السفينة صداقة على درجة عالية من الجودة والتعايش، ومثلما يحدث في أماكن الدراسة، والأماكن المائية، يكون الفراق الذي يحل محزناً، وبقي هناك خلفنا المرأة الوحيدة التي كانت معنا، بسبب أنها ضاعت بذهابها إلى احدى الكنائس خارج البلدة، غير مفترضة بأن الغليون سوف يبحر في ذلك اليوم، وباستثناء زوجها، مامن أحد كان آسفا لغياب هذه المرأة، لأنها جعلت من نفسها ثقيلة الظل بدون حدود، بسبب كلامها السخيف، وفضولها حيث كانت تصطاد في القضايا الخاسرة.

وكان هناك أيضاً رجلاً فقيراً، أخذه القبطان معنا محبة للرب، لكنه ماكان يرغب بأخذه مسافة أبعد، ووقف هذا الرجل على الشاطىء وهو يبكي وينوح، لأنه سيكون غير قادر على الذهاب إلى القدس، وعطف عليه موالي، وأحضروه إلى ظهر السفينة، وقدموا النفقات من أجل رحلته ووضعوا تحت حمايتهم رجلاً آخر من بلادنا، كان غير قادر على متابعة السفر، وسددوا عنه النفقات كذلك، وبناء عليه أقلعنا في ذلك المساء.

وفي اليوم الثالث والعشرين، وفي عشية عيد القديس يوحنا المعمدان، أبحرنا أمام ريح قوية جداً، وكنا قد أبحرنا في الليلة المتقدمة وسرنا بسرعة كبيرة جداً، إلى حد أننا لم نر في الصباح يابسة، بل فقط البحر الأدرياتيكي (الايجي؟) والكاربائي، وعند غياب الشمس ولدى ازدياد الظلام، استعد بحارتنا لعمل نار القديس يوحنا على ظهر الغليون، وقد عملوها كمايلي: لقد أخذوا أكثر من أربعين مصباحاً مصنوعين من الخشب ومن قرن شفاف، وعلقوهم واحداً فوق الآخر فوق حبل طويل، ثم عندما أشعلت المصابيح، رفعوهم إلى الأعلى إلى مافوق القمة

الرئيسية، وذلك بشكل أن المصابيح المشتعلة تعلقت نزولاً من القمة الرئيسية حتى مقاعد التجذيف، وبذلك أضاءت الغليون كله، ومن أجل هذا المشهد جاء جميع الناس إلى السطح، من القمرة، والقيدوم، ومن الغرف الداخلية للغليون، ووقفوا حولها، وهناك بدأ البوقية ينفخون بأبواقهم، وغنى عبيد الغليون مع البحارة الآخرين، وطربوا، وابتهجوا، ورقصوا، وصفقوا بأيديهم، وتفاعل الذين وقفوا هناك مع صيحات السرور، والتصفيق بالأيدي، وابتهجوا للاحترام الذي أعطي للرائد المبارك جداً لربنا.

وقبل هذا لم أر ممارسة التصفيق بالأيدي للفرح، الذي تمت الاشارة إليه في المزمور السادس والأربعين، الذي جاء فيه قوله:«ياجميع الأمم صفقوا بالأيادي، اهتفوا للرب بصوت النصر»، كما أنني لم أكن أعتقد أن التصفيق العام لعدد كبير من الرجال بأيديهم في وقت واحد، عندما يكون صادراً عن السرور، سيكون له تأثير عظيم بأن يحرك عقل الانسان نحو السرور، وهكذا ابتهجنا كثيراً على ظهر الغليون حتى حوالي منتصف الليل، بينما كنا مبحرين أثناء ذلك كله بسرعة وهدوء ونحن على طريقنا، وتمددنا بعد هذا وأسلمنا أنفسنا للنوم، نحن الحجاج والبحارة معا، وتركنا السفينة مندفعة أمام الريح، لكن الريح ينبغي عدم الوثوق بها لوحدها، من دون عمل الانسان، والمراقبة أيضاً، لأنها قد تتغير في لحظة واحدة، كما سيتضح في حكايتي.

وفي اليوم الرابع والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، رأينا قبرص في الصباح الباكر، ولدى رؤية الملاحين في غليوننا لها، غضبوا غضباً عظيماً، لأنهم رأوا أنفسهم أنهم قد تاهوا، وابتعدوا عن الطريق الصحيح فوق البحر، وضيعوا طريقهم عندما كانوا نائمين، لأن الغليون انحرف بعيداً جداً نحو اليسار، ولولا أن موجه الغليون قد نام تلك الليلة، لكان الغليون في هذا الصباح في

واحد من مراسي قبرص المرغوب بها، ولهذا تفجر خلاف ونزاع فيما بين القبطان، ورجال القيادة، وتنازع المرشدون فيما بينهم أنفسهم، ووجهوا اللوم إلى الملاحين، ولذلك عطفوا الغليون نحو اليمين، بعيداً عن المنحى الذي كان يسير عليه، وعدنا في حوالي ساعة العشاء إلى مسارنا الصحيح، لكن ماأن أصبحنا على مسارنا الصحيح، حتى نامت الريح، وهكذا لم نتقدم في تلك الليلة مطلقاً.

وفي اليوم الخامس والعشرين وصلنا إلى مقابل أقدم موانىء قبرص، الذي اسمه بافوس، وهو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل الاصحاح ٦/١٣ و ١٣، ورأينا على مقربة من هناك جبل فينوس الذي سوف أحدثكم عنه في طريق عودتي، وسرنا ببطىء شديد حتى الظهيرة، وعند الظهيرة هبت ريح طيبة، حملتنا بسرعة من هناك، وبسرعة أبحرنا على طول ساحل مملكة قبرص واجتزنا مينائي بيسكوبي Piscopi، وليماسول، وفي حوالي ساعة العشاء أبحرنا إلى داخل ميناء سالينا -sal inae وجعلنا سفينتنا تتوقف بثبات بالمرساتين وبحبال الأربطة، وعلى الفور غادر القبطان وخدمه إلى الشاطىء، حيث استأجر خيولاً، وذهب إلى مدينة نيقوسيا، وهي المدينة الرئيسية في قبرص، فقد ذهب إلى بلاط المملكة، لرؤية زوجته، التي كانت السيدة المسؤولة عن غرفة نوم الملكة التي أتيت على ذكرها في ص١١٦، ولسوف أقدم وصفاً لذلك في ص١٤٣ من القسم الثاني.

وعندما تركنا القبطان، وقفنا نحن الحجاج على سطح الغليون، ننظر نحو الشاطىء، وقد وقفت معهم، أحدث الذين كانوا على مقربة مني عن جفاف هذا الميناء، وعن طبيعة البلاد، لأنني أمضيت هناك أياماً كثيرة خلال حجي الأول، وبينت لموالي الحجاج الأماكن التي أعرفها على الشاطىء، وبين أشياء أريتهم جبل الصليب المقدس، وهو أعلى جبل في مملكة قبرص، الذي توجد على قمته كنيسة معلق فيها صليب

اللص الذي صلب على الجانب الأيمن للمسيح، وحدثت هؤلاء السادة بقصـــة ذلك الصليب كلهـــا، كما سترون فيما بعـــد، وفيما وقف مـــوالي والحجاج الآخرون هناك، يتساءلون حول ذلك الصليب، وينظرون نحو الجبل، الذي كان يبعد عنا مسافة خمسة أميال ألمانية، قلت لهم:«انتبهوا يا إخـوتي الأعزاء إلى أن قبطـاننا قد ذهب إلى نيقـوسيـا، ومن الصعب أن يعود في الغـد، وسيكون لدينا في الغد يومـاً طويلاً ومتعباً، والآن، وبناء عليـه، على الذي يرغب باتباعي إلى الجبل المقـدس، أن يأتي إلى مؤخـرة الغليون، ولسوف نزور الصليب المبارك، ولسوف نعود في الغد في وقت مناسب.

ومإإن قلت هذا، حتى ذهبت إلى المؤخرة، وتبعني إلى هناك عدد كبير من النبلاء، ظانين أنني قلت ذلك وفعلته مزاحاً، وقمت وأنا واقف عند القيدوم فاكتريت خادماً يعرف الطريق إلى الصليب المقدس ووعدته بأنه سوف يتسلم قطعة نقود marcella من كل واحد من رفاقي، واكتريت أيضـاً قارباً وقـائداً له ليأخـذنا إلى الشـاطىء، وعندما رأى النبـلاء أنني كنت جاداً، تبددوا وتركوني، وبقي معي على كل حال، هؤلاء الحجاج:

— اللورد هنري أوف سكومبيرغ Schomberg وكـــان فـارســـاً نبيلاً، ورجلاً شجاعاً.

— المعلم جون، وكـان كاهنا، وشماسا رئيسا من ترانسلفـانيا -Ttan sylvania، وكان رجلاً تقيا وعالماً.

— المعلم كاسبارسيكولي Caspar siculi، وكان فارساً، وشاباً قوياً وشجاعاً.

— المعلم بوركـــارد نوسـدورفير Burchard Nusdorfer، وكـان فارساً، ورجلاً جيداً ومرحاً.

— رجل اسمه رودلف Rudolph ، وكـان سويسريا من ثورغـو

thurgau، وكان رجلاً طويلاً وأميناً.

— رجل اسمه جون، وكان تاجراً من فلاندرز، وكان رجلاً متشوقاً كثيراً.

— وأنا الراهب فيلكس، المحرك الروحي لهؤلاء جميعاً، والخادم الذي أكتريته، وكان اسمه اندرو.

وذهبنا نحن الثمانية، ونزلنا من الغليون إلى القارب، وعندما صرنا على الشاطىء، بدأنا نبحث كيف يمكننا تدبر حجنا، لأن الساعة كانت متأخرة، وكانت الشمس قد غابت، وبدأت الدنيا تصبح مظلمة، وأخذنا دليلنا وخادمنا في الظلام إلى قرية اسمها أورنيكا Ornyca، على بعد ميل واحد عن البحر، حيث أيقظ رجلاً من الريف كان يعرفه، وقدم هذا الريفي لنا الخمرة، والخبز، والجبن، وقد أكلنا وشربنا، واستأجرنا أيضاً ثمانية بغال من القرية، التي ركبناها، وانطلقنا مسرورين، وكان القمر في الوقت نفسه قد أشرق، والسرور ملأ قلوبنا، مثلما طرد النور الظلام، ذلك أننا كنا نحن الثمانية، رفقة مختارين، وكان المناخ حسناً، والمنطقة جميلة، والطريق جيداً، وبالإضافة إلى هذا كله كانت نباتات تلك الأرض تصدر روائح طيبة جداً، لأن أعشاب تلك الجزيرة كلها تقريباً كانت توابل من مختلف الأنواع، تعطي أطيب الروائح في أوقات الليل، وذلك عندما يكونوا مبللين بالندى، وتابعنا رحلتنا حتى إشراق نجمة الصبح — الزهرة — التي تتقدم على إشراق الشمس، وكان ذلك عندما وصلنا إلى قرية اسمها القديس الصليب، حيث ربطنا حيواناتنا، وأشعلنا ناراً، وكان رفاقي قد سكروا، غير أنني تماسكت، لأنني كنت أنوي الاحتفال بقداس فوق الجبل المقدس، وقد تمددنا واسترحنا لبعض الوقت، وقد نمت حتى عم الضياء، وكنا مضطجعين على الأرض إلى جانب حيواناتنا.

وفي اليوم السادس والعشرين، الذي كان عيد الشهيدين المقدسين: يوحنا وبولص، عندما استيقظنا طلبنا من الاغريق الذين استرحنا أمام بيتهم إعداد وجبة غداء جيدة لنا، لأننا عزمنا على العودة إليه من الجبل، من دون أن نكون قد تناولنا طعام الافطار، وهكذا امتطينا ظهور دوابنا وانطلقنا، حيث كان الجبل المقدس أمامنا، يرتعد في أعاليه، ووصلنا عند سفح الجبل إلى واد شهي، كان يجري في وسطه جدول ماء عذب ونقي، كان شاطئيه مليئين بأكثر الزهور جمالاً، وهي زهور لم أعرف أسماءها، وكانت هناك نباتات ذوات روائح حلوة، كما كانت هناك أشجار محملة بقرون الخروب، التي يسميها العلمانيون «خبز القديس يوحنا»،، واتخذنا من هذا الوادي طريقنا صعوداً إلى الجبل وتحت ظل بارد جداً، بسبب أن الشمس، مع أنها كانت تبعث الدفء في الجبل كله بوساطة أشعتها، لم تصل هذه الأشعة إلى الوادي، ووصلنا على الفور إلى المكان الأكثر انحداراً من الجبل، الذي لم نستطع صعوده ونحن على ظهور بغالنا، ولذلك ربطنا دوابنا إلى أشجار هناك، وتسلقنا على أقدامنا مع جهد كبير وتعرق عظيم، لأن الجبل كان مرتفعاً، وشديد الانحدار، ويقال إنه يشبه في كل شيء جبل الطور في الأرض المقدسة، الذي عليه تغيرت هيئة ربنا، وقد سمعت هذا من رجل تسلق الجبلين معا.

وعندما وصلنا إلى القمة، جثونا على ركبنا مصلين أمام الكنيسة، وجلسنا في الهواء الطلق قبل أن ندخل إلى الكنيسة، وذلك بقصد أن نسترد أنفاسنا، وأن نمسح العرق الذي كنا متجللين به، وأن نتخلص من الحر الذي كنا فيه ونبرد قليلاً، وبعدما فعلنا هذا، أعددت نفسي أولاً، كما هو لائق، ودخلت إلى الكنيسة، وقرعت الناقوس حتى يسمع الحافظ لغرفة المقدسات ويأتي، وقدم على الفور كاهن، جاهل باللغة اللاتينية، وقد أحضر كتبا لاتينية قديمة جداً من أجل القداسات، كما أحضر أشياء أخرى لها حاجة في القداس، وبعد قرع الناقوس قرأت

قداساً من أجل الصليب المقدس، مع مجموعات من أجل الشهيدين المقدسين، يوحنا وبولص ومن أجل الرحالة، وبعد القداس، أدرت نفسي نحو إخواني ورفاقي، وألقيت فيهم خطاباً، أخبرتهم فيه كيف ينبغي عليهم تقديم الاحترام الجدير للصليب لدى رؤيتهم له، وأوضحت لهم في أي المجالات يختلف هذا الصليب الذي سنراه عن صليب مخلصنا، وفي أي المجالات هو مشابه له، فضلاً عن هذا حذرتهم أن لايكونوا فضولين أكثر من اللازم عندما يروه، وأن لايرغبوا برؤية معجزة هناك، لأننا عندما سوف نأتي للضريح الأكثر قداسة لربنا في القدس سوف لن نرى معجزة، فكم سيكون الأمر أقل، الذي نتوقعه من هذا الصليب هنا؟ وقد قلت هذا بسبب أننا سمعنا حكايات غريبة وشاذة حول الصليب الذي كنا سنراه هناك، وأخذت بعد هذا شمعة مشتعلة بيدي، وذهبت إلى المكان الذي كان فيه الصليب، وتبعني حجاجي إلى هناك، وجاء الحافظ لغرفة المقدسات معهم، وعندما وصلنا إلى المكان فتحه الحافظ لغرفة المقدسات، وعلى هذا وجدنا الصليب المقدس واضحاً من الممكن لنا رؤيته بأعيننا، ثم إنني صعدت أولاً إلى الصليب، وقبلته، ونظرت إليه بدقة وحرص من الأمام ومن الخلف، وجاء بعدي رفاقي الذين قدموا له الاحترام، ونظروا إليه بحرص، واحداً بعد الآخر، وكان صليباً كبيراً إلى حدما، مغطى من الأمام بألواح من الفضة، وكان مذهبا، ولكن من الجهة التي تطل على الجدار كان غير مغطى، وكان مصنوعاً من خشب سليم، من نوع خشب الصنوبر، وقد قالوا بأن هذا الصليب هو صليب دسمه Dysma ، اللص الذي كان على الجانب الأيمن من ربنا، وهو الذي وعده بالجنة عندما كان على الصليب، ذلك أن حنة المباركة، وجدت الصلبان الثلاثة تحت جبل الجمجمة، حيث أطاحت بالصليب الذي عاد إلى جسمه Gesma، اللص الذي كان على يساره، واحتفظت بالصليب الثاني، أي صليب دسمه، أما الصليب الثالث، الذي كان صليب المسيح، فقد عرضته ليراه

العالم كله، حتـى يمكن أن يبجل بما جدير به، وقـد جلبت صليبها، أي الصليب الذي كـان صليب دسمـه، جلبتـه كامـلاً من القـدس إلى هذا الجبل، وبنـت هنا ديراً كبيراً للرهبـــان، وكنيســـة وضعت فيهـــا هذا الصليب، الذي هو أثر فائق القداسة، وقـد أمرت ببناء حجرة، أو غرفة مغلقـة في الجدار المواجـه للمـذبـح، ووضعت الصليب، وبقي الصليب هناك دونما تحريك حتى هذا اليـوم، وعلى كل حال بالنسبة للـدير نفسه جـرى اجتثـاثه حتى الأرض مـن قبل الأتراك، والمسلمين، وقـد تشتت الرهبان البندكتيون الذين سكنوا فيـه، ووضع الصليب وترتيبه في مكانه مدهش، فالصليب واقف في نافذة مظلمة، ويديه موضوعتين في فتحات معمولة في الجدار، أما قدمه فموضوع في فتحه معمولة في الأرضية، غير أن الحفر التي تحتوي على الذراعين وعلى القدم واسعة جداً، وأوسع من أي معيـــار، ولايلامس الصليـب الجدار في أي مكان، بـل هو محرراً، وبعيداً عـن ملامسة الجدار في أي مكـان وجانب، والمعجـزة المحكية في الخارج حـول الصليب، هي أنه معلـق بالهواء دون أي رباط، ومع ذلك هو واقف بشكل ثـابت، وكأنه مثبت بأقـوى المســامير، أو أنه مبني في داخل الجدار، وهو طبعـاً غير مبني بالجدار أبداً، لأن الفتحات الثـلاث واسعة جداً، إلى حـد أن انساناً يمكنه أن يضع يده فيهن، ومن ثم يدرك بالملامسة أنه لايوجـد هناك أية عملية ربط، وكـذلك لايوجد في الخلف أوعند رأس الصليب.

ولقـد كان بامكاني بالحقيقـة البحث في هذا الأمـر عن قرب أكثـر مما فعلت، غير أننـي خفت الرب، وليـس لي الحق في أن أفعل مـــامنعت الآخرين أن يفعلوه، فلقد تسلقت هذا الجبل لإظهار الاحترام نحو هذا الصليب، وليس للبحـث عما إذا كـــانت هناك معجـــزة أم لم تكن، أو لامتحان الرب، ولربما كان هذا الصليب جديراً أكثر بالاحترام، لو أنهم ضمـوا إليه قطعـة من الصليب الحقيقي للمسيح، ومعلق في هذه البيعـة

ناقـوس، قـرعنـاه قبل القـداس وبعـده، وقلت لرفـاقـي بأننا لن نسمع صـوت ناقـوس ثانيـة حتى نعـود إلى العـالم المسيحي، وكـان هذا أمـراً صحيحاً، ذلك أنني لم أسمع هنا صوت ناقوس خلال مدة أربعة أشهر، وذلك باستثناء هذا النـاقـوس، الذي نعتقـد أنه قـد وضع هنا من قبل القديسة حنة، التي وضعت الصليب هنا.

وعندمـا انتهينا من الكنيسـة، خـرجنا منهـا، ودخلنا إلى بيت الحافظ للآثار المقدسة، على أمل أن نجـد شيئاً ننعش أنفسنا به، لكن البيت كان فـارغـاً وخـاوياً، ولم يكـن فيـه شيئاً مثل البقسماط والماء البـارد، كما أن الرجل لم يكن قـادراً أن يتحدث إلينا، لأنه كان اغـريقياً صرفـاً، وكانت اللاتينية بالنسبة لـه لغة بربرية، وكانت الايطالية عـربية، والألمانية تترية، وبناء عليـه غادرنا دون أن ننعش أنفسنا، وطفنا حـول قلة الجبل، حيث وجدنا بعض الأسـوار القديمة، وهي من بقـايا معبد فينوس، الذي من حيثما نظرت منه، سـواء من عبر الجزيـرة أو طوليـا، كنت ترى البحـر، لكن بسبب الحر الشـديد، كـان الهواء رطبـاً وغـائماً، فلم نستطع رؤية الأرض المقـدسـة، كما لم نستطع رؤية جبـال أرمينيـا، أو كبـدوكيـه، أو سورية المجوفة، أو الجليل، وكل هؤلاء كان ينبغي أن نكون قادرين على رؤيتهم، لو أن الهواء كان صـافياً، ودخلنا بعـد هذا إلى الكنيسة وسلمنا على الصليب المقـــدس وقبلناه، وأسرعنا نـازلين من الجبـل إلى حيث وقفت دوابنا، وتوجهنا على ظهـورهم إلى قرية الصليب المقـدس، حيث وجدنا غـداءنا —الذي تشوقنا إليه طويـلاً —جاهزاً، وهو الذي أكلناه مع تقـديم الشكر، ولم يكـن بامكاننا مغـادرة المكان على الفـور، لأن الحرارة كـانت عـاليـة جـداً، وكـانت الشمس محرقـة مثل النار، ولذلك دخلنا إلى الكنيسـة الاغـريقية التي قـامت على مقـربة من حـانتنا، حتى نتمكن من الصـلاة فيهـا، ولكي نستريح في الظل قليـلاً، وبينما نحن جلوس جـاء رجل دين وقـال لنا باللاتينية:«مـاالذي تفعلونه في كنيسـة

اغـريقية؟ يوجـد هنا على مقربة منكـم كنيسة لاتينيـة تابعة لطقـوسكم، فهناك ينبغي أن تصلوا وأن تريحوا أنفسكـم»، وبناء عليـه نهضنا، وذهبنا معه إلى الكنيسة اللاتينية، وهنا جلب من المحفوظات ذراع القديسة حنة أم العذراء المباركة، الذي صدوراً عن الاحترام له، كان محفوظاً بالفضة، كما أنه قدم إلينا مسماراً، كان أيضاً مغطى بالطريقة نفسها بالفضة، وقال بأن هذا كـان واحـداً من مســامير المسيح، وهي المسـامير التي علق بها عندما كـان على الصليب، وقد قبلنا هذه الآثار، ولمسناهـم بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي سلف وقدمناه.

وقـد وجـدت أن رجل الدين هذا، كـان راهبـاً، الأمـر الذي لم أكن قادراً على اكتشـافه من ملابسـه لأنه كان مرتـديا لعباءة من وبر الجمل، وكان رجـلاً مسؤولاً عن الكنيستين، أي الاغريقيـة واللاتينية، وفي هذا المجـال كـان يقوم بالطقـوس للكنيستين، ففي أيام الأحـد، كـان يؤدي القداس في الكنيسـة اللاتينية، وينهيه وفـق الطريقة الغربيـة بخبز فطير، وعندمـا كـان ينتهي من هذا العمل، كـان يعبر إلى الكنيسة الاغـريقيـة، ويكمل القداس وفق الطريقة الشرقيـة بخبز مخمر، ولم يحظ هذا برضاي وأزعجني كثيراً، واعتقـدت أن هذا الكاهـن هرطيـا من أسـوأ الأنواع، ذلك أنه يقـــود الناس مضللاً لهم هنا وهناك، ذلـك أن هذين الطقسين لايمكن ممارستهما من قبل انسان واحـد، هو الشخص نفسه، كما لايجوز فعل ذلك في المدينة نفسهـا، لعـــدم توافقهما في عـدد كبير من العقـائـد الهامة، وصحيح أنه في العصـور القديمـة أن الكنيسة الرومانيـة اعتادت أن تتسـاهل تجاه الطقوس الاغـريقية، إنما حتى آنذاك لم يسمح لانسـان واحد أن يكون في الوقت ذاته اغريقيـاً ولاتينيا، وتعاظم هذا الأمر الآن عندما تدين كنيستنا الاغريق وتعدهم منشقين وهراطقة، ويقوم الاغريق في قـداسـاتهم بالنيل منا والحط ن شـأننا، ويعلنون في كل يوم أحـد إلى شعبهم بأن الكنيسة الرومـانية محرومة كنسيـا، وهم يكرهوننا ويكرهون

طقوسنا وعلى هذا الأساس تبلغ بهم الكراهية إلى حد الرغبة بموتنا جميعا، فكيف يمكن لأي رجل مستقيم، وكاثوليكي جيد أن يكون في وقت واحد لاتينيا واغريقيا؟.

ومامن واحد يتصرف هكذا، إلا لإرضاء شرهه أوحبه للسرور، ذلك أن مثل هؤلاء الناس يتقبلون كل ماهو فيه الرضا لأي من الطقسين والعقيدتين، وأن يرفض الأشياء التي هي صعبة ومزعجة لحملها سواء أكانت تابعة لهذا الجانب أو الطرف الآخر، وقام عدد كبير من الكهنة اللاتين بتحويل أنفسهم إلى العقيدة الاغريقية، حتى يمكنهم المغامرة في ميدان الزواج، ومع هذا تراهم في الوقت نفسه يرغبون بالتمتع بحرية الكهنة الموجودة في العقيدة اللاتينية، التي هي ليست عقيدتهم.

وهكذا قمنا بعد الظهيرة، عندما بدأ الحر يضعف، بامتطاء ظهور دوابنا، ومضينا نازلين نحو البحر حتى كنيسة القديس اللعازر، التي قامت على الشاطىء، في مواجهة غليوننا، وعلى بعد مسافة طويلة عن البحر، وهنا قمنا بإعادة دوابنا إلى أصحابهم، وكان هناك على الشاطىء سوق كبير، وقد اجتمع فيه حشد كبير من الناس من أجل غليوننا، الذي جلب منه ملاحونا سلعهم، وكانوا يتولون بيعهم إلى القبارصة، وكان ذلك موجوداً في كل مكان نزلوا به، وبعدما شاهدنا السوق، عدنا إلى غليوننا، إلى سادتنا ورفاقنا، الذين وجدناهم آسفين، وغاضبين بسبب أن القبطان لم يكن قد عاد بعد، وكانوا قد أمضوا نهاراً منهكاً جداً، وتحلق جميع الحجاج من حولنا ليسمعوا حول مارأيناه، وعندما سمعوا قصتنا، قالوا بأننا كنا محظوظين، وأنهم آسفين لأنهم لم يذهبوا معنا.

وفي اليوم السابع والعشرين، عندما وجدنا بأن القبطان تأخر بالعودة، قام بعض الحجاج، وكنت واحداً منهم، بالنزول بأنفسهم إلى الشاطىء لامضاء النهار هناك، وبقي الشطر الأعظم من الحجاج على ظهر

الغليون، خوفاً من هواء قبرص، الذي هو مضر بشكل عام للألمان، مالم يكونوا أقوياء، وأصحاء في أجسادهم، وبناء عليه فإن النبلاء الذين خافوا على أنفسهم ولم يغامروا بها لم ينزلوا إلى قبرص، وعندما كنا على الشاطىء ذهبنا إلى المكان الذي يعمل فيه الملح، حيث أمكننا أن نرى من خلال الخرائب، أنه قد كانت هناك مدينة ذات حجم لم يكن صغيراً، وكان خلف المدينة مكان محاط بتلال، حيث يتكون هناك عندما يفيض البحر، بحيرة صغيرة، وعندما تتراجع مياه البحر بسبب الجزر، تتعرض المياه التي تبقى هناك إلى الجفاف بسبب حرارة الشمس، والذي يبقى عبارة عن أفضل أنواع الملح، وأعظمها بياضاً وثمناً، ويحمل هذا الملح إلى كثير من البلاد للبيع، وتتلقى ملكة قبرص كثيراً من المال من الذين يتجارون بالملح.

ورأيت في أثناء حجي الأول عدداً كبيراً من الرجال يعملون في فصل الملح عن الماء، وهو الملح الذي لم يكن قد جف بعد، وقد كان هناك كثيراً من الأكوام الطويلة من الملح قائمة هناك وكأنها تلال صغيرة، لكن الآن لم يكن هناك ولا انسان واحد، وكان حيث قامت من قبل أكوام الملح، مياه عميقة إلى حدما، وعند حلول وقت العشاء عدنا إلى ظهر غليوننا، وكنا غاضبين جداً من القبطان، ووصلت في ذلك المساء، في قارب، المرأة التي خلفناها في رودس، وقد أشفقت على هذه المخلوقة المسكينة، بسبب المصاعب التي تعرضت لها، بسبب إبحار الغليون.

وفي اليوم الثامن والعشرين، جاء القبطان من نيقوسيا، قبل طلوع الشمس، مع بعض القبارصة الذين رغبوا برؤية الأماكن المقدسة في القدس، وكان بينهم امرأة تقية، من بلاط الملكة، أرادت أن تنهي حياتها في القدس في جوار الأماكن المقدسة، ورفعنا المرساتين، وأبحرنا ببطىء شديد ونحن خارجين من الميناء، لأن الريح كانت ضعيفة، وازدادت عند الظهيرة قوة، لابل صارت قذرة، ودفعنا بسرعة وبقوة إلى الخلف

إلى الساحل الصخري لجزيرة قبرص، وعندما صرنا هناك ألقينا بالدليل، فوجدنا أن المجس كان قريباً من القعر، ولهذا خشية منا من أن نواجه أية صخرة أو Bitholassumأنزلنا الأشرعة، وأبعدنا السفينة من بين أيدي الريح، وألقينا بمرساتينا وانتظرنا ريحاً طيبة، وكان هذا التأخير مزعجاً جداً لنا، لأننا كنا نتحرق شوقاً لرؤية الأرض المقدسة، عارفين أن علينا عدم رؤية بلاد أخرى قبل أن نصل إلى تلك البلاد التي تشوقنا لها.

وكان تأخرنا مزعجاً جداً، فوق كل شيء إلى القبطان مع أعوانه، الذين خشيوا من أن يكون أوغسطين الذي ذهب قبلنا مع حجاجه، قد حصل على الاذن بدخول الأرض المقدسة قبل وصولنا إلى هناك، بسبب لوأن ذلك حدث، لكنا مرغمين على المكوث في الميناء حتى ينهي أولئك حجهم، ويعودوا إلى ظهر البحر ثانية، فذلك سوف يعني الموت بالنسبة لنا، وفوق تحملنا، لأننا لو وجدناهم في ميناء الأرض المقدسة، لكنا مرغمين على العودة إلى قبرص مباشرة، وأن ننتظر هناك عودتهم، وهبت بعد غياب الشمس ريح خفيفة، عهد إليها بالسفينة، وزحفنا قاطعين مسافة قصيرة في تلك الليلة.

وفي اليوم التاسع والعشرين، الذي كان يوم عيد الرسولين المقدسين: القديس بطرس، والقديس بولص، والذي كان أيضاً الأحد الخامس بعد التثليث، دفعت بنا ريح قذرة نحو الخلف من جديد، حتى وصلنا إلى ميناء ليماسول، الذي كنا قد اجتزناه يوم الأربعاء الماضي، ورسونا هناك، وهنا حمل البحارة الفؤوس، وذهبوا بالقارب إلى الشاطىء، حيث دغلة من الأشجار، منها قطعوا بعض الأخشاب من أجل نار المطبخ، من دون أن يتذكروا، أن ذلك اليوم كان يوم عيد الرسولين، ويوم أحد أيضاً، وعندما أصبح الوقت متأخراً، رفعنا المرساة، وأبحرنا مسرعين حيث ابتعدنا عن قبرص ودخلنا إلى البحر المفتوح، حيث لم يكن

بامكاننا رؤية يابسة، لامن الأرض ولامن الجزيرة، لأننا كنا بعيدين كثيراً.

وفي يوم الثلاثين، الذين هو يوم ذكرى القديس بولص، واليوم الأخير من حزيران، أبحرنا مسرعين، وتطلعنا بشوق عظيم لنرى المشهد البهيج للبلاد المجيدة التي كنا متشوقين كثيراً لها، حتى موسى، بعدما اجتاز خلال قفار الصحراء، واقترب من أرض الميعاد، قام لشدة تشوقه بالصعود إلى قمة جبل فسجه، حيث رأى من هناك الأرض المقدسة، وذلك حسبما جاء الخبر في سفر التثنية: ٣٤/ ١، وهكذا كنا نحن الذين قدمنا من بلادنا عبر البحر الكبير، حيث تسلقنا باستمرار إلى أعلى أجزاء السفينة، لنتمكن بأعيننا من ألقاء نظرة على البلاد التي كنا قاصدين إليها، وكل من يرى هذه البلاد من البحر، يعد نفسه رجلاً سعيداً، ولهذا رجونا ورشونا صغار البحارة الذين كانوا يتولون المراقبة من القمة الأساسية، أن يديموا النظر بكل عناية من حولهم، من جميع جهات البحر، وأن ينذروننا بالصراخ، في اللحظة التي يرون فيها الأرض المقدسة، وقد نوينا أن نعطي هدية جيدة للذي سوف نسمع صوته أولاً يحمل إلينا البشائر السارة، وماكان مصدر هذا أي نوع من التفاخر، بل مجرد وصف صحيح لما حدث، وأعترف أنا شخصيا، أنني من جهتي في رحلتي حجي، كنت خلال الأيام، التي كنت متوقعاً فيها اقتراب رؤية الأرض المقدسة، لم أهتم لابالأكل ولا بالشرب، أو النوم، وكانت ساعات الظلام المعدة لاستراحة الناس مزعجة جداً بالنسبة إليّ، وكان فراشي شوكة بالنسبة إليّ، وكان مخدعي جهنما، ولم أعد قادراً لاعلى القراءة ولا على الكتابة، ولا على الحديث مع الناس مثلما كنت من قبل، بل اقتصر سروري على الجلوس فوق قيدوم الغليون، على القرنين هناك، وأن أنظر من هناك بدون توقف عبر البحر الواسع، علني أتمكن بتعب عيني من اطفاء الحمى في عقلي، وكنت حتى ألعن الليل،

لانتـزاعه مني وسـائط الرؤية، أعني الضـوء، وكنت خـلال هذه الأيام كلها أجلس فوق القيدوم قبل الفجر، الذي كنت أرحب بأشعته ببهجة، ومن ثم كنت أنتظر أشعة الشمس، حيث كنت ألقي بتيقظ بناظري عبر وجه البحـر، وأثبتها نحو الشرق، الذي لم أفترض أنه تحت الماء، بسبب ارتفـاع البحـر، ولذلـك أكن أنظر نحـو الأعلى، بل أثبت نظري دونها تحريك على ذلك الجزء من السماء الذي بـدا لي أنه متصل بالبحـر، أوهو جـزء من الأفق، وعندمـا كـانت تشرق الشمس، اعتـدت على أن أنظر بتشوق فيها إذا كنت أستطيع أن أرى أي عـائق أو جسم غير شفاف بين الجسد المضيء للشمس وبين الجسد الصافي والواضح للماء.

وعلى هذا فإن أي قـداس يعترض، لايمكن أن يكون سـوى الأرض المقدسة، التي أعرف أنها واقعـة إلى الشرق منا، لأنه عندما كان الغليون يسبح فـوق أعالي البحـار، وكانت الشمس تشرق، لقـد بدت لي وكأنها أشرقت من خلال الماء، وأن مـامن شيء يمكن رؤيته بين الشمس وبين الماء، وكـان الشيء نفسـه يحدث عند غيـاب الشمس أيضـاً، حيث كـان يبدو لي أن الشمس قد غطست في الماء، ولكـن عندما بات الغليون على بعـد حـوالي عشرين أو ثلاثين ميـلاً ألمانيـا من البـلاد، بدت الشمس لي وكأنها قادمة من جبال تلك البـلاد، ولذلك كان من الممكن رؤية الجبال في ضـوء الفجـر قبل الشمس، لأنهم قـامـوا فيما بين الشمس والبحـر، ولكن مـاأن تـرتفع الشمس فـوق الجبـال، ويمضي على ذلك سـاعتين أوثلاث ساعات، حتى تصبح هذه الجبال غير مرئية، ولهذا اعتدت على الوقـوف قـرب القيـدوم في أوقـات الغسـق المبكر، آمـلاً برؤية الأرض المقدسـة قبل اشراق الشمس، واعتـدت أيضاً على تحية الشمـس المشرقة بسرور، لأنه من دون مساعدة الشمس لايمكنني رؤية تلك البلاد، لكن عندما كنت أرى أن الشمس قـد ارتفعت عالية فـوق البحر، دون رؤية للبلاد أثناء ارتفـاعها، كنت أنصرف حـزينا، ومن ثم كنت أشغل نفسي

لبعض الوقت بمسائل أخرى، وكان هذا هو الحال أيضاً مع الحجاج الآخرين، لكن ليس الجميع، بل فقط الذين أحبوا الأرض المقدسة وتشوقوا إليها، Ach, mein Gott، كم هو عذب يمكن أن يكون حب الأرض السماوية للتقي، وباعث على الاستغراق بالتأمل، عندما يقوم بعض الحجاج المتجولين، من غير الأتقياء، والتعساء والمذنبين، بالشعور بالسرور العميق، وبالتشوق الحار إلى الأرض الدنيوية، ومثلما فعلت مريم المجدلية، وقامت وهي تتحرق بنار الحب، فانحنت بنفسها مراراً، ونظرت في الضريح، حيث كان محبوبها قد تمدد، مثل هذا يفعل الحاج المحب، حيث غالبا ماكان يقوم وهو في سفينة، ويحدق بثبات نحو الشرق، عله يرى البلاد التي فيها ضريح محبوبه، وهكذا اعتدنا أن نجلس اليوم بطوله، ننظر عبر البحر، محاولين فيها إذا كنا قادرين على رؤية شيء غير الماء، وكان بعضهم أحياناً، يتصور من خلال قوة التخيل، أنهم قد رأوا البلاد، وكانوا على ذلك يدعون الآخرين إليهم، ويطلبون منهم التطلع، وكانوا ينشغلون معهم بنقاش تقوي، حيث يعلن طرف بأنه قد رأى البلاد، وينكر الطرف الآخر ذلك، وكانوا في بعض الأحيان أثناء النقاش يقوم أحدهم بالتراهن مع آخر بأنه كان مصيباً، وكانا يحيلان القضية إلى نظر انسان آخر، كان جالساً على القمة الأساسية، وعندما كان يعطي قراره، كان أحدهما يعطي الآخر زجاجة من الخمرة المالفوسية، أوشيئاً ما آخر تراهنا عليه، وكنا بالوقت نفسه نبحر بتقدم، وكانت هناك ريح طيبة جداً، ولطيفة، ولقد بدا لنا بأن البحر المالح نفسه قد بدأ يتحول إلى عذب، وقد منحنا إبحار طيب، وأن هذا كان بسبب قربه من عذوبة تلك البلاد التي كانت تفيض بالعسل والحليب، وهكذا عبر ذلك اليوم مع الليل، ونتيجة لذلك وصل شهر حزيران إلى نهايته.

هنا انتهى الفصل الثالث

طريقة تقديم وصف الحج في الأرض المقدسة والقدس

أما والآن وقد جلبتني جولاتي، بفضل نعمة الرب، عبر البحر، إلى الأرض المقدسة، سوف أشرع في المستقبل بالحديث عن مسيرة حجنا يوما فيوماً، وأن أبدأ —كما هو معتاد— كل يوم بالمساء المتقدم، وهكذا بعدما يزور الانسان بعض الأماكن المقدسة، يأتي وصفها بعد ذلك، ومنذ الآن سوف أقوم بوصف جميع الأماكن التي امتد إليها حجنا، والتي زرناها، ولن أمزج أوصافي وأدخل فيها وصف الأماكن التي لم يذهب إليها حجاجنا، ولن أصف جميع الأرض المقدسة، أو الأوضاع القديمة لمدينة القدس، وذلك باستثناء ماأجبر على ذكره من أماكن أنا لم أرها شخصيا، وعلى كل من أراد الاطلاع على أجمل الأوصاف القديمة للبلاد المقدسة، ليقم بقراءة كتاب الراهب بوتشارد — الذي كان من طائفة الرهبان المبشرين، والذي توجد نسخة منه في مكتبة الرهبان الدومنيكان — أو الرهبان المبشرين، في أولم، ومن هذا الكتاب، قام رفيقي الحاج، اللورد ذي المولد النبيل، برنارد فون بريتنباخBraitenbach ، الذي كان عميد الكنيسة الكاتدرائية في مينز، بنسخ وصف الأرض المقدسة، حيث أقحم ذلك في كتاب يوميات رحلة حجه.



الفصل الرابع

ويحتوي على أعمال الحجاج في الأرض المقدسة خلال شهر تموز مع وصف للأماكن المقدسة في القدس وفيما حولها

كان شهر تموز شهر بهجة الحج، فهو الشهر الذي ظهرت في يومه الأول الأرض الأكثر تبجيلاً، ظهرت إلى الحجاج المذكورة أعمالهم في هذا الكتاب، فقد أبحرنا بسرعة وتقدم من بحر بامفيليا Pamphylia، إلى بحر سورية وفينيقيا، وبعدما دفعنا من هناك نحو الجنوب، وصلنا في تلك الليلة نفسها إلى بحر فلسطين المرغوب به، وما أن بدأ الفجر بالاضاءة، حتى أضاءت هناك أيضاً البلاد، التي هي أكثر نوراً من الشمس، وأعني بذلك الأرض المقدسة، التي هي بلاد كنعان، البلاد التي اسمها أعلى من كل اسم، فما أن رآها رجل المراقبة الذي كان جالساً فوق القمة الأساسية، حتى انفجر يبكي ويصرخ قائلاً: «سادتي الحجاج، انهضوا، وتعالوا إلى السطح، وانظروا إلى البلاد التي تشوقتم إلى رؤيتها بأعينكم، ولدى سماع هذا الصراخ، اندفع الجميع من كل زاوية من زوايا الغليون، رجالاً ونساء، وشيوخاً وأطفالاً، ومرضى وأصحاء، وتسلقوا نحو الأعلى، علهم يرون البلاد، التي من أجلها تركوا بلادهم، وعرضوا أنفسهم إلى كثير من المصاعب وإلى خطر الموت، وعلى كل حال بما أننا كنا مانزال على مسافة بعيدة، لم نكن قادرين على رؤية أي شيء باستثناء البحر، غير أن البحارة قد أعلنوا أنهم يستطيعون رؤية البلاد، لأنهم كانوا معتادين على البحر، ويمكنهم التمييز بين السفن واليابسة، حتى وإن كانوا مايزالون على مسافة بعيدة، وبدأنا نحن أنفسنا نرى القمم ورؤوس الجبال، منبعثة وكأنها خارجة من البحر.

وكـان ملاحـونا مايـزالون يتشككون حول أي البـلاد من الممكن أن تكون هي، فقد قـال بعضهم بأنها كانت كبدوكية، وقـال بعضهم الآخر بأنها كانت كليكيـة، وبعضهم قال بأنها سـورية الفينيقية، وصرح الشطر الأكبر منهم بأن كبـدوكيـة كانت على جهـة اليسـار منا، وأننا قـد صرنا بعيدين عنها بعدمـا اجتزناها، وعلى هذا كنا في اتجاه أنطاكية، وأن البلاد التي ظهرت على جهـة يسارنا كانت سورية الفينيقيـة، وأن الذي أمامنا، على بعـد مسـافـة كبيرة، كـانت فلسطيـا، أو فلسطين، المتصلة بالأرض المقدسـة، وقد كـانت بالفعل كذلك، وعندما لم يعـد هناك من شك بأن الذي رأيناه كـان الأرض المقـدسـة، وأن جبـالها هي التي كـانت أمـام أعيننا، عندها أمر القبطان بأن على الناس جميعاً الهدوء، وأكد عن طريق صـوت المنادي بأن هذه كـانت هي الأرض المبـاركة، التي فيهـا جـرى الحمل بيسوع المسيـح ابن الرب، وفيها ولد، وعـاش، وصلب، ومات، ودفن، وقـام ثانية من ضريحه في اليـوم الثـالـث، وذلك مانعلنه ونعتقـده بثبات، وبناء عليـه أخبرنا أنها تواجهنا، وأنه ينبغي علينا أن نقدم الشكر مباشرة لمخلصنا، وأن نغني ترنيمة نعبر بها عن سعادتنا بصوت مرتفع.

وبناء عليـه قـام الحاجـان، اللـذان كـانا كـاهنيين، وراهبين، واللذان امتلكا صـوتاً جيدا، فسـارا على مجاراة مقـاعد التجـذيف حتى مـوضع السارية، أي إلى المكان الذي جرت العادة على قراءة القداس فيه، وهناك شرعـا معـا يغنيـان بصـوت مـرتفع تـرنيمـة أمبروز وأوغسطين (Te Deum laudamus) التي شـارك فيهـا جميع رجـال الدين الآخـرين الذين كانوا بين الحضـور، وغنوها كما تغنى في الكنائس، حيث غنى كل انسـان وفقاً للحن الـذي يغنى في جوقـة مـوطنه، وأنا لم أسمع قط مثل هذه الأغنية من حيث العذوبة والمتعـة، لأنه كانت هناك أصوات كثيرة، وقـد جعلهـا تعـدد الأصـوات المتنافـرة كما لـو كـانت مـوسيقى عـذبة ومتناسقـة، لأن الجميع مثل بعضهم غنوا الكلمات نفسهـا، لكن الألحان

كـانت مختلفة، ومـع ذلك تآلفت مع بعضها بشكـل عذب، وكـان شيئاً ممتعـاً سماع مثل هذا العـدد الكبير من الكهنة يغنون الأغنيـة نفسهـا مع بعضهم صـدوراً عن السعادة في قلوبهم، وقـد كان هناك عـدد كبير من الرهبان اللاتين، والسكلافونيين، والايطاليين، واللومبارديين، والغاليين، والفـرنجـة، والألمان، والانكليـز، والايـرلنديين، والهنغـار، والسكوت، والداشيين، والبوهيميين، والاسبان، وكانت هناك أعداد كبيرة ممن تكلم اللغـة نفسها، لكنهم جـاءوا من أسقفيـات مختلفة، وانتمـوا إلى طوائف دينية مختلفة.

ولقـد غنى هؤلاء جميعاً أغنيـة Te Deum، التي شارك فيهـا حتى العلمانيـون من الحجـاج وطاقم الغليـون مع بعضهم، وصرخـوا عـاليـا لسرورهـم بحظنا السعيـد، ونفخ البـواقـون بصـوت مـرتفع، وصـوتوا بآلات الـ Shawms وواحد منهم بآلات الـ Bogadellus والـ Jon-gleur، وقرعـوا على الطبل وعلى الـ Sack but، في حين نفخ آخرون بالمزامير ومـوسيقى القـرب، وفي الوقت نفسـه طأطأ بعضهم وجـوههم نحو سطح السفينة وصلوا وهم متوجهون نحو الأرض المقدسة، وبكى آخـرون سروراً وهم يغنـون، وهكذا غنى الجميع أغنيـة جـديدة أمـام عرش الرب، وغنت الأرض والبحر مع أصواتهم، وبدا لنا ونحن نغني أن غليوننـا قد انحنى تحت أقـدامنا وأبحر بسرعـة أكبر، شاقـاً الأمواج بحـرية أعظم، وقد مـلأت الريح الشراع تمامـاً، وتحركت المياه بوسـاطة الريح، فأرسلتنا بسرعة أعظم، وعنـدما فرغنا من أغـاني شكرنا، صوت البواقون بالدعوة للغداء، وجعل كل انسان، وهو مسرور، نفسه مستعداً ليجلس إلى المائدة.

وحدث أن واحـداً من الكهنة، وكان رجـلاً ثقيلاً ومحترماً، ومتقـدما بالسنين، وكان ينام في مخدعـه على يميني، كان مسرعاً نحو مخدعـه، بعد الغناء، وعندما لمست قدمه الدرجـة الأولى من السلم، التي كانت ناعمة

جداً بوساطة العمل الدائم عليها، انزلق، وسقط بشكل عنيف نحو الأسفل في داخل القمرة، وتمدد هناك وكأنه ميت، وبناء عليه أسرعنا جميعا لمساعدة أخينا، وكان مهشم الرأس، مرتجف الأطراف، فحملناه إلى فراشه على أنه كان ميتاً، لكن بعد مضي عدة ساعات عاد إلى وعيه، وقد ربطت جراحه وعولج طبياً، وبعد مضي عدة أيام فيها بعد صار أحسن .

وبعد الغداء وقفنا على جوانب السفينة، وكان بامكاننا رؤية الجبال فقط، التي بدت لنا جرداء وبيضاء، ورأينا بعد الظهيرة جبالا عالية نحو الشمال، كان بينها وبين أنفسنا، وعلى مقربة من البحر جبل الكرمل، في مقاطعة فينيقيا، وعندما حدقت به، تذكرت كيف أن النبي المقدس اليشع قد صلى على ذلك الجبل من أجل المطر، وذلك عندما لم تمطر لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وكيف أنه وهو يصلي، ارتفعت غيمة صغيرة من هذا البحر، تشبه طبعة قدم انسان، هطل منها مطر عظيم، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الثالث — الاصحاح ١٨.

وفكرت أيضاً، كيف أن الملك شاؤول بنى فوق بناء مقبب على ذلك الجبل قوس نصر وفق طرائق الشعوب نقش عليه أخبار انتصاراته، ورفعه عالياً إلى حد يمكن رؤيته من قبل الذين يرتحلون بكل من البحر والبر، وبذلك أغضب الرب كثيراً، وذلك حسبما يمكن قراءة ذلك في الاصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الأول، وتساءلت أيضاً لماذا شبه العريس في الاصحاح السابع من أغنية سليمان رأس عروسه بهذا الجبل قائلاً:« رأسك عليك مثل الكرمل» (نشيد الانشاد٧٠/ ٥)، ومن هذا الجبل وبسبب كثرة خيراته، أطلق على البلاد المقدسة كلها اسم الكرمل، كما جاء عند إرميا الاصحاح الثاني:٧، قوله:«وأتيت بكم إلى أرض الكرمل» (في النص العربي: إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها).

ومن هذا الجبل حصل الرهبان الكرمليون على أصلهم، وفي العصور

القديمة امتلكوا ديراً كبيراً هناك، وتأسست هذه الطائفة من قبل واحد اسمه ألبرت، كان بطريرك القدس، في العصر الذي استولى فيه المسيحيون اللاتين على القدس، وأمرهم ألبرت المتقدم الذكر بارتداء رداء كهنوتي ليكون ثوباً خارجياً، وأن يكون من الحرير مع عدة خطوط أفقية عريضة لونها رمادي، وقالوا بأنهم فعلوا هذا لأن النبي الياس قد لبس ذلك، وهذا أمر، لايمكن —على كل حال— البرهنة عليه لا من النصوص الشرعية المقدسة، ولامن أي مصدر موثوق، وقام بعد أمد قصير البابا هو نيروس الثالث، فغير هذا الرداء الكهنوتي المخطط إلى رداء أبيض وأكد وجود الطائفة ووافق عليها تحت اسم «طائفة العذراء المباركة مريم الكرملية»، وهم يقولون بأن سلطان مصر قد اعتنى بهذه الطائفة وأولاها اهتمامه بمنحها احتراماً زائداً، ورعاية، مع مساعدات مالية، ومنافع أخرى، من أجل ذكرى النبي إلياس، الذي يقدره المسلمون كثيراً، غير أنه فعل ذلك طالما كانوا يرتدون ثوبهم المتقدم ذكره، لكن عندما غيروه طردهم من بلاده، ومن جميع ممالكه، وبناء عليه أرغموا على مغادرة جبل الكرمل، وعندما حدث ذلك انتشروا الآن في الخارج في جميع الأراضي المسيحية، ولولا أن الكرمليين لم يتخذوا الرداء الأبيض لكان بإمكانهم الإقامة في جبلهم حتى هذا اليوم بدون معيقات من قبل المسلمين، لأن الأردية البيضاء لها مكانة سامية بين المسلمين، حيث لايجوز لأي مسيحي استخدامهم، ولهذا السبب عندما كان الرهبان المبشرين يرتدون الأزياء البيضاء، جرى طردهم من حقل الدم، الذي شروه من السلطان مقابل كثير من الذهب، وفي هذه الأيام، إذا ماأقدم الرهبان الفرنسيسكان على لبس الأردية البيضاء، لن يدعهم المسلمون يبقون في القدس.

ويوجد عند سفح جبل الكرمل، جدول قيشون، فهناك قتل النبي إلياس أنبياء بعل، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثامن عشر من سفر

الملوك الثالث (الأول)، وعند سفحه أيضاً هناك مدن صور، وصيدا، وعكا أو بطولميس، وهي مدن عظيمة نقرأ عنها كثيراً في الكتابات المقدسة، وأخيراً تحولنا بأعيننا عن الشمال، ووجهناهن نحو الشرق، فكان أن رأينا اليهودية مع جبالها، وفوق كل شيء جبل مودين، الذين دفن المكابيون عليه، وقد بنى سمعان فوق قبورهم بناء كان عالياً لكي يشاهد عن بعد، وكان من حجارة مصقولة من الأمام ومن الخلف، وأقام هناك سبعة أهرامات، ووضع من حولهم أعمدة كبيرة، وكان منقوشاً على الأعمدة صور أسلحة لتكون ذكرى دائمة، وإلى جانب الأسلحة جرى نقش صور سفن حتى يمكن مشاهدتها من قبل الذين يبحرون في البحر، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر المكابيين الأول — الاصحاح الثالث.

وأشرت لهذا الجبل وإلى الأماكن الأخرى التي أعرفها إلى موالي، عندما كنا مانزال في البحر، وكنا في الوقت نفسه نقترب من الأرض المقدسة، والدخول إلى ميناء يافا، والرسوفيه، حيث وجدنا أن غليون المعلم أوغسطين مع حجاجه لم يصل بعد، وقد سررنا لذلك سروراً عظيماً، حيث لو أن حجاجه نزلوا إلى اليابسة لجرى اهمالنا، وعندما كنا غير بعيدين كثيراً عن غليون المعلم أوغسطين، تحرينا ووجدنا القعر، وتركنا مرساتينا وأنزلناهما، ووضعنا سفينتنا بعيداً عن صخور أندروميدا، التي تحرس ذلك الميناء، ولم نتجرأ على الاقتراب كثيراً من الشاطىء، خشية أن نثير غضب المسلمين، لأننا لم نكن قد تسلمنا جواز عبور وأمان منهم، ولكي يعرف المسملون الذين كانوا يحرسون ميناء يافا وهم من فوق الأبراج، أننا قدمنا مسالمين، أنزلنا عارضة الشراع الرئيسية، وطوينا شراعنا الرئيسي، ولم نظهر أية زينة، كما اعتدنا أن نفعل عندما كنا نحل في موانيء أخرى، ولم نرفع أية أعلام، كما لم نطلق أي مدفع، ولم ننزل أي قارب، ولم نزين غليوننا بأي شكل من الأشكال،

كما لم ننفخ بأبواقنا، أو نفرنا، أو بمزاميرنا القرنيه، بل تصرفنا مثل قوم أدباء متواضعين ودافعين للجزية إلى السيد السلطان، حيث كنا بحاجة إلى جواز وأمان منه، وكنا مثل أسرى وعبيد لدى المغاربة والمسلمين، ورسونا على بعد من أبراج يافا ننتظر تكرمهم علينا.

وكان المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخر، قد بعث رسولاً إلى رجال الأبراج في يافا، حتى يتفقوا معهم من أجل الحصول على جواز وأمان لغليونه فقط، لكن عندما فهم المسملون وأدركوا أن هناك غليون آخر كان قادماً إلى هناك مع حجاج، كانوا على غير استعداد للاصغاء للمعلم أوغسطين وطردوه من عندهم، وأرغموه على العودة إلى ظهر غليونه حتى يدخل الغليون الآخر، الأمر الذي كان معاكساً تماما لما كان في تفكير القبطانين، لأن كل واحد منهما نوى أن يقود حجاجه حول الأماكن المقدسة لوحدهم، بسبب الشكاوى والمشاعر العدائية التي حملها كل واحد منهما تجاه الآخر، وعلى كل حال رغب المسلمون، وأعدوا أنفسهم للاصغاء إلى رغبات حجاجنا، أكثر من اهتمامهم بهذين الرجلين المتخاصمين، ذلك أن الحجاج في الغليونين كانوا أصحاب موقف واحد، ورغبوا في أن يؤخذوا جميعاً معاً لرؤية الأماكن المقدسة، وهكذا انتهى اليوم الأول من تموز، ونمنا في تلك الليلة على ظهر الغليون لأننا أرغمنا على فعل ذلك.

وفي اليوم الثاني من تموز الذي كان عيد زياره مريم العذراء المباركة، أنزل ربابنة غليوننا قارباً إلى البحر، قبل اشراق الشمس، وبعث القبطان بعضاً من خدمه، ممن كان قادراً على القيام ببعض الأعمال، مثل التجذيف بالقارب إلى الشاطيء، والحصول على جواز المرور والأمان، وجرى فعل الشيء نفسه من قبل المعلم أوغسطين، أي القبطان الآخر، وكان لدى أوغسطين هذا عبد غليون من أهالي القدس، وكان مسلماً معمداً، وقد بعث به حتى يتدبر أعماله له، وهكذا ذهب خدم القبطانين

إلى الرملة، وأبلغوا عن وصول الحجاج إلى حاكم الرملة، وذهبوا بعد ذلك إلى القدس، وأوصلوا الأخبار إلى الأب المتولي لدير جبل صهيون، ورجوه أن يقوم من دون تأخير بالحصول مباشرة على جواز السفر والأمان من حكام القدس، والرملة وغزة، وأن يجلب الترجمان كالينوس Calenus مع بعض المماليك المسلمين، وأن يرسل حميراً، وسائقي حمير، وكل شيء محتاج لجلب الحجاج إلى هناك، بأقصى مايستطيع من سرعة، وأن يقدم هو شخصيا ويجلبهم إلى الشاطىء، وفي الوقت نفسه، وفيما هذه الأشياء تصنع، بقي الحجاج على ظهري سفينتيهما ينتظرون الوقت الذي سيتمكنون فيه من مغادرتها.

وفي ذلك اليوم نفسه، وفي الساعة التي كان من المعتاد إقامة القداس فيها، دعوت الحجاج الألمان للاجتماع معا، وألقيت فيهم موعظة حول حج مريم العذراء المباركة، الذي قامت به بعد زيارتها وذلك عندما ذهبت إلى المنطقة التلية من اليهودية (لوقا:١/٣٩) واستخرجت من حجها التقوي جداً، أحكاماً لحجنا، ولقد أوصيتهم بها، وأطريت الحج إلى القدس، لكنني مدحت فوق كل شيء الزيارة إلى جبل سيناء،، وقد رغبت باثارة بعضهم للقيام بذلك، خشية أن يكونوا خائفين، لأنني قد عزمت على الذهاب حاجاً إلى سيناء، لكنني لم أكن قد أخبرت أحداً بذلك، وكنت أخشى كثيراً أن لايكون بين هذه المجموعة الكبيرة من الحجاج أحداً، يرغب بالذهاب إلى سيناء، مثلما حدث لي في حجي المتقدم، وهكذا انتهى هذا اليوم، ومجدداً أمضينا الليل على ظهر الغليون.

وفكرت في اليوم الثالث، بأن الوقت قد حان وبات مناسبا لي، حتى أخبر موالي عن نيتي بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، وبناء عليه، دعوت موالي الأربعة على انفراد، بعيداً عن جميع العاملين، وقلت والدموع تنهمر من عيني، وبقلب حزين، وبهدوء: «انتبهوا واصغوا إليّ سادتي الكرماء، وأبنائي الأكثر محبة، وإخواني، ورفاقي، بأنني أعترف أنه

بلطفكم قـد جلبت إلى هاهنا، وأنه بفضلكـم قـد حصلت على الإذن بالقدوم، ولقد جرى من قبلكم دفع جميع نفقاتي طوال هذا الوقت كله، وأنا شاكر جـداً وبلا حدود مساعداتكم لي، ومع ذلـك هناك أمر واحد أقلقني كثيراً، وجعلني منشغـلاً وغير مستقـر، ذلـك أنني أملت عندمـا غـادرنا بـلادنا، أن يقـوم واحـد منكم على الأقل، إن لم تكـونوا جميعـاً، بالارتحال أبعـد، حتى جبل سيناء إلى القـديسـة كـاترين، وذلك بعـدمـا تكونوا قـد فـرغتم من زيـارة الأرض المقـدسـة، وأن أستطيع مع الذي سيرافقني بامتـلاك الفـرصة بالذهـاب إلى زيارة هذه الأماكـن المقدسـة كثيراً، لكن ويا للأسف لقـد خاب ظني فيما يتعلق بهذه القضيـة، علاوة على ماتقـدم، أنا لم أتجرأ على سؤالكم منحي الإذن بترك جماعتكم، ذلك أنه ليـس من واجبي فعل ذلـك، لأنكم سـوف تواجهـون في طـريق عودتكم مخاطر أعظم مما واجهتموه في قدومكم إلى هنا، وإذا ما تفضلتم عن طواعية منكم منحي الإذن، سوف أتلقى هذا الاحسان منكم وعدّه أعظم هدية مقبـولة، وإذا رفضتم منحي ذلك، سـوف أعـود معكم عن طواعية حتى البندقية، وفي البندقية سوف أسقط على أقداكم يا أصحاب السعـادة، وأرجوكم منحـي الوسائل للعـودة إلى هنا، هذا ولسـوف لن أعبر جبـال الألب ثانيـة قبل أن أتسلق جبل الرب، وحـورب، وسيناء، وأن أزور قبر العـذراء القـديسة كـاترين، لأننـي منذ زمن طويل مضى ربطت نفسي بعهد في أن أفعل هذا.

وعندمـا سمع موالي مـا أنويه، ورأوا أنني كنت جاداً، أخـذوا بعض الوقت لتقـدير ذلك، وبعد مضي مـدة ساعـة استدعوني للعـودة إليهم، ومنحـوني إذناً، وقـالوا: «وخشيـة أن تظن أنـك لم تكن محبـوباً من قبلنا كشماس لنا، سوف نقدم لك برهانـا عن حبنا لك عندما نفترق ولسوف نقـدم لك، ونغطي نفقاتك، وعلى كـل حال، إذا مـاأخفق هذا الحج، أو تراجعت عما عـزمت عليـه، سـوف تبقى في جماعتنا، كما كنت من قبل،

ولسـوف نعيدك إلى الوطـن ثانية»، وعندمـا سمعت هذا شكرت مـوالي بكل الاحترام الصحيـح والذي يستحقـــونه، وأعلنـت أنني اعترافـــاً بجميلهم سـوف أبقى إلى الأبد خـادمهم، ووعدتهم أيضـاً أنني سـوف أقــوم بهذا الحج، وكأننـي حـرضت من قبلهـم لأن أفعـل ذلك، وأنني أرسلت من قبلهـم، وفي الواقع كنت مسروراً لـدى تسلمي الإذن منهم في أن أقوم بها أنويه، مثلما سررت لدى وجودي في أولم، وتسلمي الإذن بالذهاب إلى القدس.

وهكذا بعدما حصلت بالنسبـة لهذه القضية على الذي طلبته، أخذت أتجول في الغليون على جميع الفـرسان الذين أعـرفهم، لأرى فيما إذا كان أياً منهم كـان ذاهبـاً للحج إلى القـديسـة كاتريـن، وقد وجـدت خمسـة فـرسان نبـلاء منتخبين، كانوا مخفين لهذه النيـة داخل صدورهم، وبعـد تناول طعـام الغـداء غـادرت الغليـون، وذهبت في القـارب الصغير إلى غليـــون المعلم أوغسطين، وكـأنني راغب بزيارة بعـض معـــارفي هناك، وعندمـا صرت بينهم، عملت استقصـاء سرياً، من خـلال الرجل الذي كنت أعـرفــه بشكل جيـد، حـول الحج إلى جبـل سيناء، ولقـد أخبرني بوجود إثني عشر حاجاً على ظهر ذلك الغليون قد تعهدوا وأقسموا على انجاز ذلك الحج، وكان واحداً منهم، الذي هو الرئيس هو اللورد جون أوف سولمس Solms، لكنهم كانوا لايودون أن ينتشر هذا في الخارج، بل أن يبقـى ذلك سراً، لأن الحجـــاج الـذين ينوون زيارة جبـل سيناء، يحافظون دومـــا على سرية نيتهـم، وذلك بقـــدرمـــا يستطيعـــون، حتى لايضحك أحد عليهم، إذا لم يتمكنوا من إنجاز رحلتهم إلى هناك.

وبذلت الآن جهـــداً عظيماً لأعـرف مبـاشرة، فيما إذا كـــان هناك أي انســان ذاهب إلى زيارة جبل سيناء، لأننـي أعـرف بالتجـربة، أنني مـالم أفعل ذلك، طـالما نحن مـــانزال على ظهـــر السفينة، ســـوف يكون من الصعب كثيراً أن أتوصل إلى معرفة الصدق حول ذلك، عندما نكون في

الأرض المقدسة، أوفي القدس، لأن الحجاج يكونون في الأرض المقدسة مشغولين كثيراً، ونادراً —إن لم يكن مطلقاً — مايلتقون مع بعضهم في الوقت نفسه، كما يكونوا منشغلين بعقولهم، ولهذا لولا أنني تدبرت هذه القضية مع موالي عندما كنا مانزال على ظهر السفينة، لكنت أنا كلياً بحاجة إلى نفسي، وعندما عرفت كيف هي الأوضاع على ظهر غليون المعلم أوغسطين، عدت مسروراً إلى غليوننا، وكنت مبتهجاً لأنني وجدت مرافقين، لكن سروري سرعان ماتحول إلى أسف، لأنني ماأن غادرت القارب، وصرت على ظهر غليوننا، وفيما أنا واقف أتحدث إلى بعض الناس أمام القيدوم، سألني القبطان الدخول إلى قمرته الخاصة، حيث وجدت جالساً فيها معه مملوكاً مسلحاً، جاء في قارب من يافا، جالباً معه أخباراً، أخبر بها القبطان، وقد رغب القبطان في أن أسمعها، وقد قال المملوك بأن البدو العرب قد دمروا دير القديسة كاترين القائم عند سفح جبل سيناء، وأنهم قتلوا جميع الرهبان هناك، وبناء عليه، من غير الممكن القيام بالحج إلى جبل سيناء في هذا العام.

فضلاً عن هذا، جاء في ذلك اليوم بعض المسلمين من المنطقة، جالبين لنا أرغفة من الخبز الجديد، وماء جديداً، وعنباً، باعوه لنا، وهم أيضاً أخبرونا بالاشاعات نفسها عن العربية، وعندما سمعت هذه الأخبار الشريرة، انزعجت كثيراً لهذه الانتكاسة، لكن بعدما فكرت بالقضية واستعرضتها تشجعت، لأنني شككت مباشرة، من خلال خبرتي، بأنها كانت مصنوعة من قبل القبطانين وأنها كانت كذباً نشراه وعمماه بين الناس، من أجل أن يخاف الحجاج، ومن ثم يتخلون عن نياتهم بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، لأن القبطانين يفقدان اثنتي عشرة دوقية مقابل كل حاج يذهب إلى جبل سيناء، وهذا بالطبع عظيم الأذى لشرههما، ولهذا اخترعا هذه الكذبة البارعة، واستعانا بالمسلمين الكذبة، وبالمرتدين المماليك لدعمهما في زيفهما.

ولذلك أوليت كلامهما قليلاً من الاهتمام، وطمأنت رفاقي، لأنني عرفت زيف ماتحدث به القبطانين حول هذه القضية، ولهذا قررت بشكل حاسم، أنه حتى ولوكان ماقالاه صدقاً، أنا ذاهب على كل حال إلى جبل سيناء، لأنه حتى لوكان البدو العرب قادرين على هدم دير القديسة كاترين ونهب ضريحها وتشعيثه، إنهم لن يتمكنوا مطلقاً من هدم جبل الرب أو إزاحته من مكانه، وكذلك جبلي حورب وسيناء، الذين كنت شخصياً متشوقاً إلى رؤيتهم، أكثر من رؤية ضريح القديسة كاترين، ولهذا شغلت طوال ذلك اليوم نفسي في محاولة لإنهاء هذه القضية، وكنت خلال هذا الوقت هادئاً، لأنني عرفت أننا ماأن ننزل من الغليون، لن نجد الوقت للبحث فيها.

وبدأت في ذلك اليوم للمرة الأولى في تذوق فواكه الأرض المقدسة، وشرب مائها، وكان ذلك المملوك الكذاب المتقدم الذكر، أي الذي تولى نشر الأخبار في غليوننا، قد جلس في القلعة مع القبطان وآخرين، يشربون الخمر، على الرغم من تحريم شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) لذلك، وغدا سكرانا إلى حد أنه لم يعد قادراً على الخروج من الغليون والنزول إلى القارب الصغير، لفقدانه لوعيه، وهكذا بقي هذا الوحش اللعين على ظهر الغليون، وأمضى الليل معنا.

وفي اليوم الرابع، حدث عندما أشرقت الشمس، أن قامت الأسماك بالسباحة على وجه البحر، وأظهروا أنفسهم على الوجه أكثر من عادتهم، ولست أدري ماهي الأحوال التي دفعتهم إلى هذا من خلال الهواء أو الماء، أو من خلال عناصر أخرى، ولقد رأينا هناك أسماكاً رائعة، حيث كان بعضها كبيراً، ومستديراً مثل مروحة الغربلة، وكان لبعضها رؤوس مثل رؤوس الكلاب مع أذنين طويلتين نحو الأسفل، ورأينا دلافين كثيرة في ذلك الصباح، وقد رأيناهم بوضوح أعظم من أي وقت مضى.

ورأينا بعد الغداء حشداً من المسلمين المسلحين جاءوا يمتطون الخيول والبغال، ونصبوا خياما وأكواخاً أمامنا على الشاطىء، وحول أبراج يافا، وفوق الجبل، وعندما رأى القبطانان هذا، ذهبا نحوهم، مفترضين بأن سادة المدن وحكامها قد جاءوا، لكن هؤلاء كانوا الخدم فقط، قد أرسلوا سلفاً لإعداد المكان، ذلك أن السادة المغاربة كانوا سيصلون في الغد، وركض هؤلاء الرجال نحو الأمام ونحو الخلف طوال النهار، على الشاطىء، مقابل المكان الذي رسونا فيه، واشتبك أحدهم مع الآخر عن طريق التدريب، وركبوا بغالهم، وساقوها وكأنهم كانوا يتحاربون، ورأينا أيضاً الكهوف التي هي فوق شاطىء البحر على طرف الجبال، والتي كنا سنساق إليها، ورأينا المسلحين طوال اليوم يذهبون إليها باستمرار ويخرجون منها، وتساءلنا عما كانوا يفعلون في مساكننا المظلمة، ولم نستطع أن نخمّن الذي كانوا يعملونه في هذه الكهوف، حتى اكتشفنا، مراغمة لأنوفنا، أنهم قد لوثوا تلك الأماكن بالغائط، كما سيتضح فيمابعد.

واجتمع هناك في اليوم الخامس حشد عظيم من الرجال المسلحين، حتى أن وجه الأرض تغطى بهم، وتساءل قبطانانا وجميع البحارة وعبيد الغليون، عن معنى جمع هذا الحشد الكبير من الناس، وقد انزعجوا لأنهم لم يروهم من قبل يأتون بمثل هذه القوة، وخشيوا من أن يكون هناك شرّ ما قيد الإعداد لنا، لوجود الحكام الثلاثة الأقوياء هناك بأشخاصهم مع أتباعهم المسلحين، وهؤلاء هم: حاكم القدس، وحاكم غزة، وحاكم الرملة، وإليهم توجه القبطانان آخذين معهما هدايا أملوا بوساطتها أن يكسبوا احسانهم، وقد حيوهم، وعرضا هداياهما، وتوسلا من أجل نزولنا، حيث طلب ذلك كل قبطان إلى حجاجه، وقد تسلموا هدايا القبطانين، ووعدوهما بالتعامل معنا باخلاص.

وسأل القبطانان سادة المغاربة، عن السبب الذي دفعهم للقدوم مع

مثل هذه القـوة، وعن الحاجـة التي توفـرت هنـاك لجلب حجـاج غير مسلحين إلى البـلاد مع هذا العـدد الكبير من الرجـال المسلحين، وعلى هذا أجـابـوا بأن البـدو العـرب قـد جـاءوا إلى البـلاد، خـارجين من الصحراء بأعداد كبيرة، وقد نهبـوا كل من واجهوه، ولم يوفروا أحداً إلاّ الذين كـانـوا أقـوى منهم أنفسهم، وأنهم قـادوا في هذا الـوقت بالذات حشداً كبيراً إلى الجبـال، ويعتقد كثيرون بأنهم قـد حشدوا هـذه الجموع مع بعضها بسبـب الحجاج المسيحيين الذين كانـوا قادمين، ولهذا السبب قدموا بالقوات التي استطاعوا جلبها، لكي يأخذوننا إلى القدس بسلام.

وقـال بعضهم الآخـر بأن هناك سبـب آخـر إلى جـانب هذا السبب، يعلل اجتماعهم مع بعضهم، وقد أخبرونا بأنه في ربيع هذا العـام، كانت هناك عاصفة عنيفة في منطقة مـدينة مكة، حيث يقوم معبد ضريح محمد (صلى الله عليـه وسلم)، وفي أثناء تلك العـاصفة، سقطت صـاعقـة من السماء أحرقت وطحنت ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم) وحولته إلى طحين مع جسـده (صلى الله عليـه وسلم) (كـذا)، وقد رأى أتبـاعـه بما حدث شـارة بأن شريعته غير المقدسـة كثيراً قد انتهت، وخـافوا من أن يتمكن المسيحيـون من السيطرة عليهم والتحكم بهم، ولهذا قـدمـوا مع قوات قـوية خوفـاً من أية محاولة يقـوم بها الحجاج، وكـلا السببين كان صحيحـاً، لكن السبب الثـاني حـول تدمير جسد محمـد (صلى الله عليـه وسلم) لم يحدثونا به بشكل مكشـوف، بل أخبرنا به بشكـل سري واحداً من المماليك.

وعلى كل حال خشيـة من أن يفقد الذين يتبعون شريعـة محمد (صلى الله عليه وسلم) إيمانهم، وييأسون ويتخلون عـن الحج الذي يقومون به كل سنة إلى مكة، اخترع رجال الدين لديهم الزيف التالي: فقد قالوا بأن الله كـان شـديد الغضب عليهم هذا العـام، وكـان على وشك تدميرهم تدميراً كـامـلاً، لكن محمـداً (صلى الله عليـه وسلـم) تدخل من أجلهم،

والتمس من الله تحويل غضبه عنهم، وأن تنزل الشرور به شخصياً، وأصغى الله إلى دعائه واستجاب وبعث صاعقة من السماء أحرقت جسد محمد (صلى الله عليه وسلم)، ونشروا هذا الزيف بين الناس، والحج الآن إلى مكة أكثر عدداً، والاقبال عليه أعظم مما كان من قبل.(*)

وفي الوقت نفسه، عندما كان قبطانينا يتحدثان مع السادة، رأينا حشداً جديداً قادماً إلى شاطىء البحر، ولم يكن في هذا الحشد خيول، بل حمير فقط، جمعت من قرى مختلفة من أجل استخداماتنا، وجاء مع هذا الحشد من الحمير عدة رجال معروفين من القدس، مثل الاثنين الكاليني Calini اللذان هما مترجمانا الأكبر والأصغر، والأب المحترم المسؤول عن دير جبل صهيون مع اثنين من رهبانه، وكان معهم بعض التجار المسيحيين De cinctura (الشرقيين الذين يرتدون مايميزهم عن اليعاقبة وعن الطوائف الأخرى).

نزول الحجاج من الغليون ودخولهم إلى الأرض المقدسة

كانت رحلتنا التي تشوق إليها عقلنا وتطلع إليها، الآن على وشك الابتداء، فبعدما تحدث القبطانان مع الحكام، ونالا موافقتهم على وجوب احضارنا إلى الشاطىء من غليوننا، ومضى إلينا في القارب، الأب المبجل بولص، رئيس الكنيسة اللاتينية في الشرق، والمسؤول عن دير جبل صهيون مع راهبيه، وكذلك مع كالينوس الأكبر، ومسلم كان رئيس مشفى للحجاج في القدس، وقد جلسوا مع قبطاننا على القيدوم، وبعدما اجتمعنا كلنا، قام الأب المسؤول عن الدير، الذي كان رجلاً محترماً ومتعلماً، وله لحية طويلة، قام بتوجيه التحية إلينا بلطف وبشكل

*— استخدم الرحالة أثناء حكيه لهذه الأقصوصة بعض العبارات النابية، فحذفتها، وتبرهن هذه الأقصوصة أن عقلية رجال الدين الكاثوليك بقيت كماهي مغرقة بالتعصب والجهل، حيث انعدم التمييز بين مكة والمدنية، وتغيب الحد الأدنى من الفهم للاسلام.

منمق باللغـة اللاتينيـة، ورحب بنا، وحثنا على أن نكون أتقيـاء، وأن نتحلى بالصبر، وأن نكون نمـوذجيين في سلوكنا، ووعـدنا أنه سـوف يعطينا بالرملة الأحكام التي ينبغي أن نقيـد أنفسنا بها، أثناء إقـامتنا بين المسلمين في الأرض المقدسة.

وحيـانا بالطريقـة نفسهـا كـالينـوس، ترجماننا، وكـان ذلك باحترام، وحرم علينا حمل أي نوع من الأسلحة — سواء أكان سيفاً أم قوساً — خارج السفينة، بل أن نذهب غير مسلحين كما قـدمنا حجاجاً، وبعـدما قـال هذا، ذهـب الأب المسؤول عن الدير مع راهبيـه وكـالينوس إلى القـارب، وطلبـوا منا الاسراع والاستعـداد للحـاق بهم، وكـان الوقت سـاعـة الغـداء، ولدى دعـوة الحجـاج إلى الغـداء، أكلنا جميعـاً وشربنا بسرعة، حتى نتمكن من النزول بشكل أسرع إلى الأرض المقـدسة، وفي أثناء الغداء، قـدم جميع موظفي الغليون واحداً بعـد الآخر، وانتقلوا من حاج إلى آخر، بكؤوس من الفضة، وطلبوا عطية العرفان بالجميل، وهو مـاندعوه مـال الشراب، وطالبـوا بذلك بوقـاحـة، وإذا مارفض انسـان منحهم، قالوا بأنهم لن يدعوه ينزل بالقارب إلى الشاطىء،

وثار اضطراب كبير على ظهر الغليون بسبب تسولهم الوقح والذي لم يعـرف الحياء، وعندمـا انتهى هذا الاضطراب، ودفعنا عطيتنا بالعرفـان بالجميل، أعددنا أنفسنا لمغادرة المركب، وأخذنا معنا قارورتين صغيرتين من الخمـرة، وأخفيناهما في حقيبـة، خشيـة أن يراهما المسلمـون، لأنهم لايسمحون بحمـل الخمرة بشكل مكشـوف، وإذا مارأوا خمرة يقـومون بكسر القـوارير إذا كانوا قـادرين، وأخـذنا بحقائبنا جبناً ولحماً مـدخناً، وجرارنا وملابس حجنا وأدواته، وخرجنا من القمرة إلى القيدوم، ومن هناك نزلنا في القـارب، ومضينا فيه نحـو الأرض المقدسـة، ونحن نغني ببهجـة عظيمـة، وبصـوت مـرتفع In Gottes Nahmen fah ren wir الخ، حسبما ورد في ص٩٧.

ولم يكن من الممكن سماع أغنيتنا هذه من قبل المسلمين على الشاطىء، لأنه قام بيننا وبين الشاطىء صخور أندروميدا، التي يضربها البحر بصوت مرتفع وحاد، كما أن أغنيتنا لم يكن بالامكان سماعها بسبب الضجيج والصخب الصادر عنها.

وعندما وصلنا إلى قرب هذه الصخور، وبينما نحن نمر من بينهم من خلال الأمواج التي تضربهم، أصبنا برذاذ الماء وتبللنا، ونجونا على كل حال من الاصطدام بالنتوءات الحادة، الأمر الذي كنا نخافه، ووصلنا إلى الشاطىء ونزلنا، وعندما وطئت أقدامنا الأرض المقدسة، ألقينا بأنفسنا أرضاً على وجوهنا وقبلنا الأرض المقدسة مع كثير من التقوى، وبمجرد ملامستنا للأرض المقدسة تلقينا غفرانا مطلقاً وتحليلاً من الذنوب، الأمر الذي قررت وضع علامة له في المحصلة مثل هذه (++) حيث جاء وضع الصليب الأول ليعني غفراناً لمدة سبع سنوات، لكن بوجود صليبين فهذا يعني غفراناً مطلقاً، يزيل كلا من الاستغفار والذنب، ويقال أيضاً الصليب الأول قائم من أجل الغفران من الذنب، والثاني للغفران بعد التوبة.

وعندما فرغنا من صلاة شكرنا، صعدنا من قلب البحر، إلى الأرض المرتفعة، وذلك فوق صخور منزلقة، البحر مطوق بها هناك، وهي تشكل شاطئه، ووقف فوقنا الأب المسؤول عن دير جبل صهيون مع راهبيه ومع حكام البلاد، وشيوخ المسلمين والمغاربة، وكذلك مع كاتب، وقد اصطفوا على الجانبين، بحيث يحتاج الحجاج إلى المرور من وسطهم، ولم يكن بامكان حاجين المرور معاً من بينهم، بل واحداً تلو الآخر، كما أنهم لم يسمحوا لنا بالمرور بشكل متواصل، بل ألقوا نظرة على كل انسان، ونظروا إليه عن قرب، وطلبوا اسمه وأم أبيه، وكان الكاتب يدون الاسمين معاً في وثائقه، وكنت أعلم كم يسبب اسمي «فيلكس» من مصاعب بالنسبة إلى لغتهم، فقد أرغمت في حجي الأول

وفي حجي هـذا على تكرار اسمي عـــدة مـــرات، حتى آنـذاك لم يكن بامكانهم لفظه أو كتابته من دون وضع بعض علامات الادغام الأجنبية أمامه، وترداد مقـاطعه وحروفه، بحيث أن لاأقـول «فيلكس»، بل كلمة أخـرى في مكانها أنا لا أستطيع لفظهـا، وقمت فيها بعـد بالبحث بدقـة أكبر حـول الصعـوبة هذه المتعلقـة بـاسمي، ذلك أنني صرت صـديقـاً لواحد من المسلمين هـو كالينوس الأصغر، الذي كـان يسألني في بعض الأحيان باللغة الايطاليـة أن أخبره باسمي، لكن عندما أخبرته لم يستطع بأي حـال من الأحـــوال لفظه، بل قـال كلمـة قبيحـــة بدلاً عنه، وقـد اندهشت تجاه ذلك، لأنني رأيت مدى براعته باللغة الايطالية.

والآن بعـد ماجـرى تدوين اسم كل حـاج مع اسم أبيه، كـان هناك بعض المسلحين مـــرتبين للامســـاك به وجـرّه إلى مـــدخل مقـــر مظلم ومنخفض تحت قـوس متهدم، وقد رمـوه مثلما اعتاد الرجـال على رمي الشـاة في داخل اصطبل من أجل الحليب، ويوجـد في هذا الكهف سبع سنوات مغفـرة (+)، يحصل عليهـا الحاج إذا مـادخل إلى الكهف بروح تقوية، وتعرف هذه الكهوف باسم زنزانات القديس بطرس، ومن أجل الحصول على هـذا الغفران، وغفرانـات أخرى كثيرة، قام عـدد كبير من الحجـاج بالاعتراف أمـامي، على ظهـر الغليـون، واعترف بعضهـم هنا، ونحن وقـوف على شـاطىء البحـر، وعندمـا دخلنا إلى هذه الكهـوف، وجـــدنا كل مــــوضع سنقيم فيـــه ملوث بشكل قبيـح، وقـــذر بسبب القـــاذورات، ولم يكن هناك مكان يمكـن الجلوس عليـــه، إلاّ فـــوق القاذورات، ولهذا وجـدَ كل واحد منا نفســه مرغماً على تنظيف مـوضع يتمـدد عليه بجسـده، وأن يزيح القـاذورات إلى وسط الغـرفـة بقدمـه، ونتيجـة لهذا قـام في وسـط مكان إقـامتنا كـومـــة كبيرة من القـاذورات والنجاسات.

ورتبنا أنفسنا على محاذاة الجدران حـول الغـرفـة كلهـا، مثلما فعلنا في

الغليون، ولقد تمددنا فوق أرض عارية ورطبة، ويا للهول، كم هو نزل تعيس، وكم هي ضيافة ضئيلة، وكم هو مقر قذر! ولولا أن الحاج كان تقياً، اعتاد على عقد حديث مع الرب، وكان يشكو بصبر تقوي، أو بالحري كان مندهشاً مستغرباً وهو يقول:«أيها الرب يسوع، بأي ضيافة غريبة استقبلت حجاجك، وضيوفك في أرضك المقدسة، الذين قدموا من وراء البحار، ومن خلف جبال الألب، ومن الأجزاء النائية من الأرض، حتى يمثلوا بأشخاصهم في بلاطك، لكي يبدو احترامهم لك، وليقدموا الولاء لك مثلما يفعل الفرسان مع ملكهم، يايسوع البالغ القداسة، أولم يكن من المتوجب عليك أن تمنح الذين تعبوا كثيراً من جراء الرحلة الطويلة جداً، وأدميت أقدامهم بعد الجولات البعيدة، فراشاً أفضل من الذي وجدوه بين القاذورات المقيتة للكفار؟ أوليس لديك فراش لنا سوى كومة النجاسات؟».

وعلى هذا كان الرب سيجيب :«من المؤكد أن العبد ليس أعظم من مولاه، ولا التلميذ أسمى من معلمه، ولا الرسول أعظم من الذي أرسله، وأنتم دعوتموني معلماً ورباً، وماقلتموه صحيحاً، لأنني بالفعل كذلك، وإذا كنت أنا قد عانيت بصبر من هذه الأشياء، ومن أشياء أسوأ من هذه، أولا تسلحون أنفسكم أيضاً بصبر مماثل، فلقد كنت غريباً وحاجاً في هذه البلاد، وفي اليوم الذي نزلت فيه أولاً على الأرض من بحر المجالس العميقة للرب، ومن سفينة رحم العذراء، لم أنزل في غرفة، بل في معلف قذر، وفي نزل صاخب، وفي حانة تعيسة، فهناك استقبلت، ولم تمددني أمي العذبة على فراش ناعم، بل مددتني في معلف قاس بين الدواب، لأنه لم تتوفر لي غرفة في أي مكان من النزل، وخلال حياتي كلها لم يكن لدي بيت خاص بي في هذه البلاد، لأنني قدمت إلى الذين هم ملكي، والذين هم ملكي لم يستقبلوني، ذلك أن الذين سكنوا في بيتي وخادماتي عدّوني غريباً، ولقد كنت غريباً بأعينهم (أيوب:١٩)،

وفي هذه البلاد للثعالب حفرهم، ولطيور الجو أعشاشهم، لكن ابن الانسان ليس لديه مكان يسند رأسه عليه، وغالباً ماأمضيت الليل في الصلاة، لكن ليس تحت مكان مسقوف بالحجارة، بل فوق الجبال وتحت السماء، لابل حتى في مدينة القدس الغنية والملكية لم يكن لدي فراش إلاّ مشنقة الصليب المخزية، وكذلك بعد الموت لم أمتلك ضريحاً خاصاً بي، بل ضريح انسان آخر، ولهذا السبب أرغم ابن الانسان على المعاناة، حتى يدخل في مجد ملكوته، وبناء عليه، حبيبي الحاج لاتحزن إذا لم يكن لديك في هذه البلاد فراشاً ناعماً، وإذا ماتمددت فوق كومة قاذورات، وإذا كان نزلك بالوعة عامة، تذكر ياهذا أن ربك أقام الفقير من بين الرغام، ونهض بالمعدم من بين القاذورات، ليجلس مع الأمراء، وليشغل عرش المجد، فعلى هذا الاساس تقبل داوود وجعله ملك اسرائيل، ولقد جلس أيوب النبيل على القاذورات مريضاً ومصاباً بقروح مخيفة، وبصبره امتلك ضعف ماكان يمتلكه من قبل، لأن غريغوري أخبرنا في تعليقاته على سفر أيوب، أنه كان مدفونا في القاذورات، لؤلؤة الرب، أي المعرفة بتفاهته، والرفض للفقر، وعلى هذا، ألاتبحث أيها الحاج عن هذه اللؤلؤة، في أثناء جلوسك فوق القاذورات»، ولدى سماع هذه الكلمات، قدم الحاج التقي الشكر، لأنه عدّ جديراً بالمعاناة مثلما فعل ربه.

وعندما كنا في هذا المكان القذر، قدم إلينا بعض المسلمين، وكانوا أناساً فقراء، قد جمعوا بعض الأعشاب وبعض أغصان الأشجار، باعوهم لنا، وقد غطينا الأرض المبللة بهم وجعلناهم فرشاً لنا، فضلاً عن هذا قدم تجار من الرملة ومن القدس، ودخلوا إلى أماكن إقامتنا، ومعهم سلع طيبة الرائحة، وعملوا سوقاً هناك، وقد جلبوا ماء ورد من دمشق في أوعية زجاجية، وكان ثميناً جداً، حيث باعوه إلى البنادقة كل قطعة ببنس، وكان مع بعضهم بلسماً، ومع بعضهم الآخر مسكاً،

وجلب بعضهم صابونا، وبعضهم أحجاراً كريمة، وبعضهم شققاً من الموصلين الناصع البياض، وقلانس، وأشياء أخرى ثمينة، وأشياء رائحتها طيبة، فلقد جلبوا هذا كله إلينا، وفي الوقت نفسه كان كل من التجار ومن المسلمين قد دهنوا أنفسهم بالمراهم العطرية، وبالعطور الخالصة، ولذلك انتشرت الروائح الطيبة من حولهم، فضلاً عن هذا قام التجار الذين لم يكن بامكانهم تحمل روائح النتن والقذارة في مسكننا، باحراق البخور والاصباغ العربية، وكانت نتيجة ذلك أن هذا المكان ذي الرائحة المقرفة، أصبح مخزناً للروائح الطيبة، كما قام الذين لوثوه، طواعية من قبل أنفسهم بتنظيف المكان، ونقلوا قاذوراته ورموها بأقدامهم أثناء مشيهم، وفي وقت قصير من الزمن وبوساطة سيرهم المستمر تحول المكان الذي كان قبل قليل قذراً إلى مكان مريح تماماً ومبهجاً ومناسباً لبني البشر، وللانسان الضعيف والمريض، فلو أنهم دخلوه لاستردوا قوتهم ثانية بشمهم للروائح الطيبة للمكان، الذي حتى الدواب سوف ترتعد لدى دخولها له.

وقد دخلنا إلى هذا المكان بضيق شديد وألم، لكن في غضون ساعة واحدة وجدنا الراحة والسرور فيه، وجاء في الوقت نفسه بعض المسلمين، كانوا قد طبخوا بيضاً في المقلاة بالزيت، وجلب بعضهم أرغفة من الخبز، وبعضهم ماء بارداً، وبعضهم فواكه، وبعضهم سلطة، وبعضهم معجنات ساخنة صنعت من البيض، وباعوا ذلك لنا، وقد اشترينا من هذه الأشياء وأكلنا، وأعددنا أنفسنا للراحة، لأن النهار انقضى تقريباً، ومأأن تمدد كل انسان منا، واضطجع في المكان الذي نوى أن ينام فيه تلك الليلة، حتى جاء إلينا مسلم شرس حامل للسلاح، وبيديه عكاز، واستخرج من كل واحد من الحجاج بنساً بندقياً، وقمنا على كل حال من أجل أن نوفر على أنفسنا المشاكل، بدفع بنس واحد من أجل إقامتنا، وعندما حل الظلام استأجرنا اثنين من

المسلمين، ليتوليا حراستنا أثناء الليل عند فم كهفنا، لكي لايدخل أحد إليه ويزعجنا، لأنه كان هناك حشد عظيم من الناس من كل نوع هناك، وهكذا أمضينا تلك الليلة، لكن ليس بدون خوف، وأعتقد أن الرجل المتقدم الذكر الذي استخرج المال منا، قد صار الآن مالك ذلك الكهف وصاحبه، وأن هذا قد شجعه لفرض ضريبة علينا بموجب حقه القانوني.

وفي اليوم السادس، الذي كان الأحد السادس بعد التثليث، وقبل أن تصبح الدنيا مضيئة تماما جاء ذلك المبتز الشرس، الذي أغضبنا في المساء الماضي، وعاد وجلس بنفسه ومعه عكازه، عند باب الكهف، وماكان ليسمح لأي انسان بالمغادرة والخروج من الكهف للأغراض الضرورية من دون أن يدفع له بنساً، وقد دفعنا له جميعاً من دون رضى كبير، لكننا لم نكن غاضبين من الرجل المبتز وحده، بل من القبطانين، ومن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون ومن الترجمان، الذين كانوا نائمين جميعاً في سرادق منصوب فوق الرابية، وتركونا نعاني من ابتزاز لم يسمع به من قبل في سجننا هنا، ذلك أنه كان من واجبهم مساعدتنا والدفاع عنا ضد أي شيء من هذا النوع.

وبعد مادفعنا البنس الذي فرض علينا، سمح لنا بمغادرة الكهف، ومع ذلك لم نجرؤ على الابتعاد عنه، لأننا كنا محاطين بمسلمين مسلحين من كل جانب، وقدم في الوقت نفسه التجار مع سلعهم، وطبخوا بأدواتهم، وعرضوا مصنوعاتهم للبيع، دون أن يعرفوا بأن ذلك اليوم كان يوم الرب، وكنت عازماً على قراءة الانجيل من أجل ذلك اليوم للحجاج في الكهف، وأن أضيف إليه قداساً، لكن كان هناك صراخاً عظيماً وصخباً صدر عن الطباخين وعن التجار، وعن حشد كبير اجتمع من المسلمين، ومن الشباب الذين كانوا يركضون إلى هنا وإلى هناك، ولذلك لم أستطع قراءة الكثير في ساعاتي من دون الكثير من العوائق،

ذلك أنهم عندما رأوني أقرأ من الكتاب، وقفوا من حولي يضحكون ويصرخون، وينظرون نحو الأحرف ويعجبون منهم، وبعد الغداء جاء إلينا في الكهف كاليتوس الأصغر، أي الرجل الذي كان نائب مدير المشفى (الفندق)، وكان رجلاً مسلماً اسمه الفحل Elphahallo، وكان رجلاً أميناً، كما ستعلم مما سيلي، وقد عرفني بشكل جيد من حجي الأول، وكان بامكانه التحدث بالايطالية، وبألمانية مشوهة، تعلمها من الحجاج الذين غالبا ماارتحل معهم إلى دير القديسة كاترين، وقد سألت هذا الرجل عن حقيقة الأمر بالنسبة لجبل سيناء، وأخبرته بالذي سمعته على ظهر الغليون، فأجابني بأن كل شيء قاله ذلك المملوك كان كذباً، وأن الحج إلى القديسة كاترين سليم الآن بقدر ماهو ممكن، وصحيح أن البدو العرب قد أزعجوا في العام الفائت رهبان القديسةكاترين، لكن السلطان قد تمكن من تسوية القضية كلها.

ولدى سماعي لهذا سررت كثيراً، واقتدت الرجل إلى موالي، وقدمتهم له، وعلى الفور طلب الرجل منا القدوم معه، واقتادنا خارجين من الكهف، ومررنا جميعاً بوسط المخيم ومن خلال خيم المسلمين، وأرانا جميع أدواتهم، والخرائب العظيمة لمدينة يافا، ومررنا ببرجين قائمين في البحر ومهدمين، وبعدما رأينا كل شيء أعادنا إلى سجننا ثانية، فوجدنا الكهف في صخب عظيم بسبب الشباب من المسلمين، الذي كانوا يقومون بازعاج الحجاج بمختلف الطرق، وكانوا يسببون لهم إهانات كثيرة، تأخذ وقتا طويلاً للحديث عنها، وكانوا ينشدون بكل دقة الفرصة المواتية لاغضاب الحاج، إذا كان ذلك ممكنا، دون اعطائه مسوغاً عظيماً لأن يكون غاضباً، وعندما يصبح غاضباً، يقومون هم أنفسهم باتخاذ غضبه سبباً للشكوى وطلب المال، وكانوا يتجولون حول الحجاج، وكل ماوجدوه سرقوه، أو نشلوه بشكل مكشوف وهربوا به.

وكان هناك رجلاً نبيلا من كريت قد جلب معه قارورة كبيرة مليئة (بالخمرة) المالفوسية الثمينة، وعلق القارورة على الجدار إلى جانبه، ولدى رؤية ذلك، ركض رجل مسلح مسلم بين وسط الحجاج، وانتشل القارورة، ومضى يركض بها، وبعد بعض الوقت عاد وأطاح بالقارورة الفارغة في مقر إقامتنا، وتعرض شاب حاج حليق الذقن من بيكاردي لمضايقاتهم العظيمة، ومن حركاتهم القذرة، ولم يتمكن من إخفاء نفسه عنهم، مع أنه حاول كثيراً التخفي بين الحجاج الآخرين، ومع ذلك لم يحصل على السلامة، فقدم شكوى حول المسألة إلى الترجمان، الذي استخف بالأمر، وقال له بأنه إذا ما آذاه أي انسان، أو ضربه، أو جرحه، هو سيقوم بحمايته والانتقام له، لكن تجاه ذلك لايمكنه فعل شيء لأن الشاب عمل مزحة، ولايمكنه منعه من المزاح، ولدى سماع ذلك الحاج هذا، وخشية منه أن يوصم بالعار ويدنس شرفه، وبما أنه كان غير قادر على تحمل أن يكون أضحوكة يومياً من قبل المسلمين، ألغى حجه، وعاد إلى ظهر الغليون، وعاش مع البحارة حتى عاد الحجاج من الأماكن المقدسة، ولأن ذلك الشاب كان جميلاً جداً ان تنظر إليه، لهذا السبب ركز المسلمون عليه، ربما من أجل اغضابه، ذلك أنهم لم يقصدوا إلحاق أي أذى به.

واخترع هؤلاء الشباب من المسلمين آلاف الطرق، أثاروا بوساطتها بكل براعة الحجاج وأغضبوهم، من أجل ان أحدهم إذا ما نسي نفسه، ووجه ضربة، يمكنهم ابتزاز غرامة مالية منه، واستشهد أنا هنا بما ورد في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى قوله:« أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر» (متى:٥/ ٣٨)، وبناء عليه كل من لايمكنه اتباع هذه النصيحة، لايمكنه الجواز بالأرض المقدسة بسلام، وهناك نص آخر مماثل في الاصحاح السادس في انجيل القديس لوقا قوله:« ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه» (لوقا:٦/ ٣٠)، وعلاوة على هذا على الانسان أن

يداوم تكرار قــوله في الاصحــاح الخامس من انجيل القــديس متى والتمسك به حـرفيـا:«من لطمـك على خـدك الأيمن فحـول له الآخـر أيضا» (متى:٥/ ٣٩).

وعندما صار الوقت متأخراً، وأخذت الدنيـا تشتد ظلاما، جاء واحد ووقف عند فم الكهـف واستـدعـاني بصــوت مـرتفع، قـائـلاً:«المعلم فيلكس، تعـال»، ولقـد خفت من هذا الاستـدعـاء وأجبت بأنني كنت أقوم براحتي، ولن أقدم، وبناء عليه شرع في التوسل إليّ، قائلاً بأن هناك حاجة كبيرة إليّ، وبناء عليه توجهت نحـو الرجل، الذي كان واحداً من رجال القارب العائد لغليوننا، بعـث به إليّ واحد كان متمدداً فوق ظهر الغليون، وهو في آلام الموت، وقد استـدعاني لسماع اعترافه، وكنت على كل حال أكره العودة إلى ظهـر الغليون، ومع ذلك ماكان لي اهمال روح واحـد من الإخـوان، وسرت نازلاً نحــو البحـر في الظلام، وركبت في القـارب، وقمت برحلة عظيمـة المخـاطر، بين الصخـور، إلى الغليـون، الذي كان يبعـد عن الشاطىء مثل المسافة التي تبعـد فيها سفلنجن -se flingenعن أولم، وأخـــذت على الفــور اعتراف الرجــل المريض، ثم حملت فراشي من القمرة إلى السطح، ومددته فـوق مقعد متصالـب، كان منه بإمكاني رؤية الشـاطىء، من أجل أنه إذا مـا جـرى اخراج الحجـاج من الكهـف، للشروع برحلتهـم، يمكنني رؤية حـركـة الحشــد، وكـان بامكاني رؤية أن الحجاج أخـذوا يتحركون، ويغـادرون المكان، بوساطة نقل المصابيح التي كـانت مضاءة قرب خيام السادة المغـاربة، لأنه جرى تعليق سـتـة مصابيـح مشتعلة على عمود طويل أمـام كل خيمـة، وذلك تشريفـاً لمحمـد (صلى الله عليـه وسلم) وصـدوراً عن الاحترام للسـادة الذين نامـوا فيهـا، ومن أجل راحة الناس، وقـد رأيت هذا من البحـر، وشعرت بشفقـة على موالي، وأتبـاعي الحجاج الذين كـانوا متمددين في الكهف القذر والمظلم، من دون أية تسهيلات بالضوء من أي نوع، بينما

كان هؤلاء المسلمون الكلاب يتمتعون بكثير غير محدود من الضياء.

وقمت في اليوم السابع، قبل اشراق الشمس بالدخول إلى القارب، وأسرعت التجذيف نحو الشاطىء، ومررت خلال المياه الهائجة، واجتزت الصخور، لأنني افترضت أننا سوف ننطلق على الفور، غير أننا تأخرنا لأن القبطانين كانا مختلفين، وكان هذا الخلاف قد بدأ في البندقية، كما رأينا في ص١٧٨، واستمر حتى وصولنا إلى هنا، ولهذا حاول كل واحد منهما إدخال حجاجه إلى الأرض المقدسة من دون الحجاج الذين كانوا مع القبطان الآخر، وقد أرادا تشكيل جماعتين، وفريقين منفصلين، ينبغي عدم التقائهما في وقت واحد، وفي المكان نفسه، غير أننا نحن الحجاج جميعاً رجونا في أن نؤخذ كلنا جميعاً، وأن يجري علينا العقد نفسه، وكانت هذه الخطة مقبولة كثيراً من قبل المسلمين، فقد كانوا لايرغبون في اختيار افتراقنا عن بعضنا بعضاً، مع أن القبطانين حثا باستمرار على وجوب القيام بعملية الفصل، وعندما رأى الأب المسؤول عن دير جبل صهيون أن هذا النزاع بين القبطانين معيقاً لانجاز الحج، وأنه جعلنا موضع ريبة لدى المسلمين، وجعلهم عديمي الصبر، دعا إلى اجتماع أعيان الناس بين الحجاج مع بعض الرجال المحترمين والمحبين للسلام بين المسلمين، وبذل جهده لوضع حد للنزاع، والذي حدث هو أنه بعد عدد كبير من الخطابات والتشجيع لم يتوصلا إلى اتفاق، وبدا القبطانين بعد كثير من النقاش أنهما معاً أشد تصلباً في غضبهما وكراهية احدهما للآخر، وطوال ذلك اليوم جرى البحث في إقامة سلام بين القبطانين.

وفي الوقت نفسه، قام الحجاج الآخرون الذين لم يشاركوا في هذا النقاش، بالشد من عزائمهم، وكانوا جريئين بمافيه الكفاية للخروج من كهفهم والنزول نحوشاطىء البحر، وإلى المكان الذي وقفت فيه الحمير مع سائقيهم، وتجولوا بين حشد المسلمين بدون خوف، واشتروا ماكانوا

يحتاجون إليه من المسلمين، وصنعوا صداقات معهم، وقمت أنا شخصياً مع بعض الرفاق بالسير على طول ساحل البحر إلى نبع ماء عذب، كان يتدفق من بين شعاب الهضاب، وشربنا هناك من ذلك الماء من دون أن ندفع، مع أننا لكثير من الأيام لم نشرب ماء إلاّ ماشريناه ودفعنا ثمنه.

وقامت تحت هذا النبع صخرة في البحر، كانت مرتفعة فوق الماء، وهي التي قيل بأن القديس بطرس الرسول قد اصطاد السمك من عليها، وأضاف البسطاء من الناس الذين لايعرفون الكتابات المقدسة ولا الانجيل، بأن هذا كان هو المكان الذي دعا منه ربنا يسوع بطرس نفسه مع أخيه من البحر قائلاً:« هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس»، فهذا مانقرأه في الفقرة التاسعة عشرة من الاصحاح الرابع، ولقد كتب فرسان علمانيون في كتبهم حول حجهم، بأن هذا حدث هنا، لكن هذا ليس صحيحاً، لأن هذه الدعوة إلى الرسولين وقعت عند بحر الجليل، علماً بأننا لم نقرأ أبداً بأن ربنا يسوع قد جاء قط إلى يافا بالجسد، هذا ونقرأ في الاصحاح التاسع من أعمال الرسل، بأن القديس بطرس كان مرة هنا، ولذلك لاأنكر إمكانية قيامه بالصيد هنا، ووجدنا على شاطىء البحر أعداداً لاتحصى من أكوام أصداف المحار، من مختلف الأشكال، وقد التقطنا بعض الذي اعتقدنا أنه الأكثر جمالاً وغرابة.

وحدث في ذلك اليوم نفسه أن قام أحد الفرسان بشراء بعض الحجارة من واحد من المسلمين باعه إياهم في الكهف بخمسة دوقيات، ولقد اعتقد أنهم أحجار كريمة، لكن في أثناء عرضهم على رفاقه، اكتشف بأنهم لم يكونوا حجارة كريمة صحيحة، بل تقليد صنع من زجاج ملون، وبناء عليه حمل قطع الزجاج إلى التاجر لإعادتهم، راغباً باسترداد ذهبه، لكن ذلك التاجر الوضيع رفض ردّ الذهب، وكذلك استرداد قطع الزجاج، ولذلك أخبر الفارس القبطان عن عملية الغش

U‡ bM Ë ¨WK d « ‡‡U 6 rK *« + ÊUD I « vJ ‡U ¨Ác Ÿ«b)«Ë

سمع الحاكم هذه الشكوى، أرسل على الفور مساعداً لـه مع عصا، إلى سجننا، حيث كـان ذلك التـاجـر جالسـاً مع سلعـه، فأخـذ منه بالقـوة الخمس دوقيات، اللائي ردهن إلى الحاج، ووجه إليه كثيراً من الضربات بعصاه، ورد إليه قطع زجاجه ثانية.

وهكذا مضى هذا اليوم مع ملل أقل من الأيام التي تقدمت عليـه، وحدث أنه عندمـا كان الوقت ليـلاً، قدم بعض السـودان الشباب، من حملة الترسة للسـادة المغاربة، وكـانوا من ذوي السلوك السيء، وأشراراً، وقـد أرادوا الدخـول إلى الكهف لاختـلاسنا وابتـزاز ا، لكن الحارسين اللذين استأجـرناهما لم يسمحا لهم بالدخـول، وقد تنازعـوا وتشاجـروا معهما لبعض الوقت أمـام باب الكهف، وعندما رأوا أنهم لن يستطيعـوا الدخـول إلى الكهف، جلسوا أمـام الباب، وأخـذوا يغنون طوال الليل، وينهقـون وينبحون، ويصرخـون مثل الحيـوانات، والكلاب، والخنازير، لأن جميع المشارقة امتلكوا أصواتاً خشنة جداً، ولايمكنهم صنع أي لحن شجي، بل إن غناءهم مثـل أصـوات التيسـة والعجـول، وهكذا أمضينا تلك الليلة مع هذه المنغصات.

وفي اليوم الثـامن سعى الأب المسؤول عن دير جبل صهيـون جاهداً ومعه الحجاج والمسلمين من خيرةالأنواع لإقـامة وئام بين قبطانينا، لكن من دون نجـاح، وعندما رأى السـادة المغـاربة والحكام هذا، أعلنوا أنهما مالم يصبحا على الفور صديقين، سـوف يضعانهما في الأغلال، ويرسلان بهما إلى غزة للسجن هناك حتى يتخذ سيدهم السلطان قراراً حول الذي ينبغي عمله معهما، وقـالوا بأن الحجـاج سـوف يسـاقـون عـائـدين إلى غليـونيهما، من دون السماح لهم بزيارة الأمـاكن المقدسـة، وسيـزودوهم بقبطانيين آخـرين، ويرسلون بهم عائـدين إلى بلادهم، وأرغم القبطانين بهذا التهديد على إنهاء خصـامهما، وتصافحـا وعملا سلامـاً بينهما،وبعد

هذا الاتفاق الذي عقداه مع السادة والحكام، من أجلنا جميعاً، جاء الفحل، أي كالينوس الأصغر، إلينا، وأخبرنا بوجوب جعل أنفسنا جاهزين للانطلاق، وهكذا تجهزنا بسرعة ووقفنا مثقلين بحقائبنا وقواريرنا ننتظر الاشارة، واصطف السادة المسلمون أمام كهفنا حتى يمكنهم تعدادنا للمرة الثانية، مثلما فعلوا عندما نزلنا من البحر، وبعدما جرى إرسال عدد كبير من الحجاج إلى الحمير، فجأة أصبحوا غاضبين، حول مالم أعرفه، ودفعوا بناعائدين إلى كهفنا، مهددين لنا بالعصي، وفصلونا عنهم وقذفوا بنا إلى الكهف وكأننا حيوانات، وانقضوا على الحجاج الذين جرى تعدادهم، ونزلوا من التل وكانوا على وشك ركوب حميرهم، وضربوهم بالعصي، وأرغموهم على الركض والدخول إلى الكهف، وهكذا أمضينا ذلك النهار، ولم نكتشف السبب الذي دفع إلى اعادتنا هكذا.

وصف ميناء يافا وقدم هذه المدينة وقداستها

وقبل أن نغادر الميناء، من المناسب أن نرى متى أقيم، وفي أية أماكن من الكتابات المقدسة ورد ذكره، خاصة وأننا نحن الحجاج لن نعود إلى هنا ثانية، لأننا في طريق عودتنا أخذنا سفينة من ميناء الاسكندرية، ولم نر هذا الميناء ثانية.

ويافا هي أقدم ميناء، والمدينة الأقدم في مقاطعة فلسطين، وكانت المدينة الثامنة في العالم، التي بنيت قبل طوفان نوح، الأمر الذي تبرهن على صحته بالعثور هناك بعد الطوفان على مذابح للأرباب التي كانوا يعبدونها قبل الطوفان، ولهذه المدينة اسمين، حيث يقال لها يافا اشتقاقاً من اسم يافث بن نوح، الذي يقال بأنه سكن فيها لبعض الوقت، وأنه أعاد عمارتها بعد الطوفان، وسميت يوبا Joppa اشتقاقاً من اسم أيوب Jop الذي كان رجلاً بسيطاً ومقدساً، والذي من المفترض أنه سكن هناك، وعندما جرى تقسيم البلاد بين الأسباط الاثني عشر لاسرائيل،

وقع هذا المكان في حصة سبط دان، وورد ذكر هذا المكان في سفر القديس إرميا، لدى ذكر «مسافات الأماكن»، حيث قال بأن يافا مدينة للفلسطينيين في ديار سبط دان، ذلك انه حتى هذا اليوم يمكن رؤية الصخور على الشاطىء، التي ربطت إليها العذراء الجنية أندروميدا، ابنة سيفيوس Cepheus ، بسبب جريمة أمها، فقد حكم عليها من قبل آمون، وبعد ربطها إلى الصخرة، قدمت إلى وحش البحر، وذلك بينما وقف والديها يبكيان على الشاطىء، لكن فيرسوس Perseus، أبو النبلاء الاغريق، وابن يوف Jov، ودانس Danis (Danae) كان لديه حصانا مجنحاً وترس بالاس Pallas ، ونعل وسيف ميركري Mer-cury، وقد طار محلقاً من فوق جبل يدوليوم Ydolium، وبينما هو طائر محلقاً في الهواء فوق فرسه المجنح رأى الفتاة مربوطة إلى صخرة، في ميناء يافا، ووحش البحر العظيم على وشك التهامها، وعندما رأى هذا طار على الفور إلى هناك، وعقد ميثاقاً مع والديها، أنه إذا ما أنقذها من الوحش، سوف تكون زوجته، وعندما وافق الوالدان على هذا، قتل الوحش الشنيع، وأطلق سراح الفتاة، واتخذها زوجة له، والآن عندما رأى فينوس Phyneus أخو سيفيوس ملك يافا هذا، ولأن أندروميدا كانت من قبل مخطوبة له، خطط ليأخذها منه بالقوة، لكن فيرسوس غلبه، وذهب إلى فارس، حيث تغلب على تلك البلاد، وأطلق عليها اسمه.

وقد تبرهن على أن سيفيوس كان ملك يافا من خلال بعض المذابح الغاية بالقدم، التي عثر عليها القدماء، ووجدوا اسمه منقوشاً عليها، وكانت عظام ذلك الوحش البحري الذي قتله فيرسوس ذات حجم كبير، وكانت معروضة على الشاطىء أمام المدينة، وقد رآها جميع الذين زاروا يافا، غير أنهم نقلوا من هناك إلى روما من قبل تيتوس وفسبسيان، وجرى تعليقهم في مكان عام للتعجب منهم، لأنهم كانوا بالفعل

جديرين بالتعجب، لأن طول كل ضلع من أضلاعه كان احدى وأربعين قدماً، ثم قام القديس سلفستر والقديسين الآخرين الذين كرسوا روما للمسيح فدمروا هذه العظام وجميع العجائب الأخرى، وذلك خشية أن يأتي الحجاج إلى هناك لرؤيتهم، وأيضاً خشية أن ينفق الحجاج الذين قدموا إلى روما من أجل تمجيد الرب ورسله، وقتهم ويضيعوه، ويبددوا الساعات التي يمكنهم تمضيتها في الصلاة، على رؤية مثل هذه الأشياء الغريبة.

وأعلن بعضهم أن تلك العظام كانت عظام الجنية العذراء أندروميدا، الأمر الذي يبدو مستحيلاً، لأن فيرسوس أخذ أندروميدا معه إلى فارس، وأمضى أيامه هناك، ولم نقرأ في أي مكان عن عودته إلى يافا، وقال يوسفيوس بأنه قد رأى السلاسل، والأطواق البرونزية التي ربطت بهم أندروميدا، وأنهم كانوا مايزالون معلقين فوق الصخور، وغالبا ما أشار جيروم إلى أندروميدا هذه، وخاصة في المكان المتقدم الذكر، وفي حج باولا المقدسة، وذكرها بوكاتيوس Boccatius أيضاً في الكتاب الثاني عشر من مصنفه «أنساب الآلهة»، وذكرها بالفصل الخامس والعشرين، مثلما فعل يوسفيوس أيضاً، علاوة على ذلك مراراً جرى الحديث عن هذا الميناء في الكتابات المقدسة الشرعية، ذلك أنه إلى هناك بعث حيرام ملك صور، خشب الأرز من لبنان عبر البحر، ومن هناك أخذ سليمان هذه الأخشاب وجلبها إلى القدس، من أجل بناء الهيكل، حسبما يمكن رؤية ذلك في سفر أخبار الأيام الثاني — الاصحاح الثاني ١٦، وفي عزرا: ٣/ ٧، فضلاً عن هذا بنى شعفاط أسطولاً في هذا الميناء، قاصداً الإبحار إلى جزيرة أوفير ophir، لإحضار الذهب من هناك، لكن السفن غرقت بقضاء من الرب، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الثالث، وإلى هذا الميناء هرب النبي يونان، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، فهنا ذهب على ظهر

سفينة علّه يهرب إلى ترشيش، أي إلى أفريقيا إلى مدينة قرطاج، التي أخبرنا جيروم بأن اسمها كان ترشيش، وعندما صار خارج الصخور تحرك البحر وصار هائجاً، وبناء عليه صار الملاحون راغبين بالعودة إلى الميناء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء حتى ألقوا بيونان في البحر، فابتعلته سمكة، وبعد مضي ثلاثة أيام تقيأت بيونان ولفظته على الشاطىء.

وأحرق يهوذا المكابي هذا الميناء مع جميع سفنه، بسبب إغراق اليهود، الذي فعله أهل يافا وتدبروه خيانة، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الثاني عشر من سفر المكابيين الثاني، وجاء القديس بطرس الرسول إلى يافا عندما جرى طرده من اليهودية، وبشر هناك، وفيها أقام تابيثا من الموت، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاحين التاسع والعاشر من أعمال الرسل، علاوة على هذا لقد أمضى أياماً كثيرة في يافا مع سمعان الصباغ الذي كان بيته على شاطىء البحر، ويرى بعضهم — ومايرونه يبدو معقولاً— بأن هذه القناطر والكهوف المقنطرة، التي حبسنا فيها، كانت فيما مضى مكان إقامة سمعان الذي كان القديس بطرس ضيفه، وكان هذا الميناء قد جرى تحصينه من قبل يوناثان وسمعان المكابيين، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الرابع عشر من سفر المكابيين الأول، لكن الرومان دمروه مرتين، وقتلوا هناك كثيراً من اليهود حتى أن دمهم جرى إلى البحر، وغطى جميع أجزاء البحر القائمة بين الصخور، وأعاد الصليبيون فيها بعد بناء الميناء، وخاضوا معارك كثيرة عنده هناك، لكن أخيراً قام المسلمون بهدم كل من الميناء ومن المدينة، ولم يتركوا شيئاً دونها هدم إلاّ برجين لحراسة الجانب المتجه نحو البحر، وكل شيء ماعدا ذلك هدموه بحفر الأساسات تحت الأسوار والجدران.

ولم أر في أي مكان مثل هذه الخرائب العظيمة هناك، وتساءلت عجباً كيف أمكنهم هدم مثل هذه الأسوار السميكة، وتركوا فقط عند المدخل الذي يجده الانسان عندما يأتي من البحر بناءين مقنطرين، واقفين هناك،

وقد قطعا من الرابية نفسها، وهما مغطيان بالتراب والخرائب، ولذلك هناك دوماً رطوبة في هذه الأقنية وهي تدلف بالمياه من الأعلى، والجدران مبللة، والأساسات موحلة، ويستخدم هذا المكان طوال العام من قبل المسلمين مكاناً للتغوط العام، وفي محل التغوط هذا يلقون بالحجاج المسيحيين، كما تقدم بنا القول، والذي يقلق الحجاج بشكل خاص، أي الذين يحبسون هناك، هو أنك عندما تدخل إلى الكهف تجد القوس محطماً، وهناك أحجار كبيرة معلقة تهدد بالسقوط على رؤوسهم، ذلك أنه بدفعة من اصبع سوف تتساقط كومة كبيرة من الحجارة، وانه تحت هذه الخرائب الخطرة أجبر الحجاج على الدخول والخروج بشكل متواصل، وبالاضافة إلى هذا، من الصعب جداً، ومن الخطورة بمكان أن يتخذ الانسان طريقاً في هذا الميناء من البحر، ولاأعتقد بوجود ميناء آخر بهذا السوء في جميع اطار البحر، لأنه مامن سفينة كبيرة قدمت من أية جهة كانت، يمكنها دخول الميناء، بل عليها التوقف في الخارج، وأن تجد مكانا ترسو به بعد قياس الأعماق، لأنه على بعد رمية سهم من البحر العميق هناك صخور ناتئة ومنزلقة، وأماكن ضحلة وصخور منبعثة من الماء ومرتفعة فوقه، يهدر البحر بينها بشكل دائم، حتى عندما يكون هادئاً في الأماكن الأخرى، وتندفع المياه وتضرب الصخور بشدة عظيمة، يتطاير الرذاذ أثرها عالياً في الهواء، ويصنع ضجة عظيمة يمكن سماعها من مسافة بعيدة سواء أكان ذلك في البر أو في البحر.

والميناء محاط بهذه الصخور، وكأنه جرى صفهم بفن انساني من أجل حمايته، بحيث لاتستطيع حتى القوارب من المرور بينهم، إلاّ من خلال مكان واحد، وذلك بين صخرتين عاليتين، تجذف القوارب بينهما بعناية عظيمة، لأن المياه تتحرك هناك جيئة وذهاباً بسرعة مدهشة، وهي تندفع وتضرب نفسها ضد جانبي الصخور، ومالم يكن الربان أو قائد القارب حذراً، من الممكن أن تتغلب المياه على القارب وتدفعه على الصخور،

وتحطمــــه إلى آلاف القطع، ولهذا على الـذين يـدخلون إلى هـذا الميناء التجـذيف خـلال الأمواج المرتفعـة بأقصى سرعـة ممكنة لمجـاذيفهم أن تعمل بها، وذلك خشيـة أن ينجرف القـارب ويخرج من وسط القناة إلى هذا الجانب أو ذاك ويصطدم بالصخور، وعلى كل حال من غير الممكن لأي قائـد قارب مهما كـان بارعاً، أن ينجـو من التبلل بالمياه المتسـاقطة، والتي تضرب الصخور بكل عنف مـن على الجانبين، وهذه هي صخور أندروميدا، كما رأيناهم.

وفي اليـوم التـاسع، جاء قبل الفجـر، إلى كهفنا مسلم معـه مصبـاح، وأيقظنا لننطلق برحلتنا، ولذلك نهضنا مسرورين، وخـرجنا من سجننا، مثلما يفعل الأسرى لدى خـروجهم مـن مكان أسرهم، ووجـد فيما بين الكهـوف والبحـر، باتجاه الشمال، طريـق يمـر نزولاً عبر الصخـور، إلى المكان الذي وقفت فيـه الحمير مع سـائقيهـا، وكـان هذا الطريق ضيقـاً جداً، بحيث لايستطيع الانسان الذهاب نحو اليمين أو نحو اليسار، بل عليه السير في وسط هذا الممـر فقط، ووقف قبطانانا مع بعض المسلمين عند هذا الطريق الضيق، يحملون مصابيح، من المشاعل والفوانيس، وقد سألوا كل حـاج، واحداً بعـد الآخر عن اسمـه وعن اسم أبيه، وبحثـوا عنه في الجدول الذي كتبـوه عنـدمـا نزلوا من السفينة، وعندمـــا كـانوا يعثـرون على اسم الحاج، كـانوا يسمحـون له بالنزول إلى الحمير، الذين وقفوا في حشد تحت، هناك قرب البحر، ولـو أن عدد الحجاج كان أكثر أو أقل مماهو بالجدول، ولم يستطع القبطـانان تقـديم تفسير لذلك، كـان لابد من رمينا ثانية في سجننا.

وهكذا ذهبنا ونزلنا إلى المكان الذي وقفت فيـه الحمير، وهناك وقف السـائقون بانتظارنا، ومـاأن كان الحاج ينزل إلى الأرض المستـوية، حتى كان أقـرب السائقين يمسكه، ويقـوده إلى حميره، ولذلك كثيراً مـاحدث أن كان هناك سائقين أوثلاثة يتجاذبون حـاجاً واحداً، يجره أحدهم بهذا

الاتجاه، وذاك بالاتجاه الآخر، لأنه عندما سمع أهل الريف في القرى المجاورة بأن حجاجاً قد جاءوا، جلبوا كثيراً من الحمير، وكان عددهم أكبر من عدد الحجاج الذين كانوا هناك، ولذلك حاول كل انسان أن يجلب حاجاً إلى حميره، لأن كل واحد من المسلمين جلب سبعة حمير أو ثمانية من نوع واحد، وكان لهذا يحدث أن لايوجد أكثر من مائتي حاج، ويكون هناك مايزيد على أربعمائة حمار، ولذلك تقاتل السائقون من أجل الحجاج، وتجاذبوهم إلى هنا وهناك، لأن الذي لم يأته حاج، جاءت رحلته مقابل لاشيء، ولم أفهم هذا عندما قمت بحجي الأول، ففي اللحظة التي كنت قد نزلت بها، ركض نحوي وقتها مغربي أسود، وجذبني بعنف محاولاً جري نحو حشد من الحمير، كان من حوله هناك صخب مدهش، ولقد خشيت من أن يكون قد نوى سرقتي، فوقفت ثابتاً في مكاني، وبقوة كبيرة خلصت نفسي منه، وعاودت بكل سرعة الصعود إلى المكان الذي وقف الحكام فيه مع مصابيحهم، وأخبرت الأب المسؤول عن دير جبل صهيون بما وقع لي، وعندما سمع هذا الأب ذلك مني قال: «انزل بسرعة، بسرعة، واذهب بارادتك مع الذي يقودك ويذهب بك، وعندما نزلت، قابلني مسلم، وصدف أنه أمسكني بيمينه من يميني، وبدأ يسعى مسرعاً، لأنه في ذلك الوقت كان الجميع قد ركبوا حميرهم، وعندما ركض أرغمت على الركض جانبيا وبشكل مربك، لأنه —كما قلت— كان ممسكاً ليميني بيمينه بشدة، ولقد ركض وهو ممسك بي فوق الصخور حيث ارتطمت بها عدة مرات، وأنا أركض جانبياً، ووقعت، وأخيراً وصل بي إلى حميره، وأعطاني حماراً صغيراً جيداً، كان كله أسود اللون، وأبدى نحوي كثيراً من اللطف والصداقة، خلال حجي الأول كله، ومع أن منظر وجهه كان قبيحا، لقد كان كله لطف، واستجاب لجميع مطالبي مثل أحسن الخدم، وفعل ذلك قبل أن يعرف مكانتي، وكان عبداً لسيد مسلم أنا لم أعرفه، كان اسمه جلاله Galela ، وكان اسم عبده قصه Cassa ، وكان كل

من أراد أن يدعو هذا العبد، قـد اعتاد على دعوته بهذين الاسمين معا:« جـلاله قصـــه»، وكـان سـائق الحمار قصـــه قـد أخبرني أنني كلما أردت دعـوته، عليّ أن أنـادي جـلاله قصـه، لأن الحاج يحتفظ بالســائق الذي يحصل عليه في يافـا، خلال الرحلة كلها في الأرض المقـدسة، ولايحصل على حمار من أي واحـد آخر، وكلما أراد الحاج أن يترك أي مكان، عليـه أن يسعى بين حشـد الحمير بحثاً عن سائقـه، داعياً إياه بالاسـم بصوت مرتفع.

وبناء عليـه، عندما نزلت في حجي الثـاني هذا من المكان الذي وقف فيـه الحكام، رغبت بالحصـول على سـائق حماري الأول، وقبل أن أصل إلى قطيع الحمير، صرخت إلى جلاله قصـه سائق حماري الأول، وعندما سمع السـائقون الآخـرون هذا، مـامن واحـد منهم حـاول جذبي نحـو حميره، لرؤيتهم أن لدي سـائق أنا أعـرفه، وفيما أنـا أصرخ جلاله، قـام سيد سائقي، الذي لم أكن أعـرفه، والذي كان مسلما مثل الملك بالمكانة، وكان جـالساً على ظهر فـرس، فقدم نحـوي ولمسني بلطف بعصاه التي أمسكهــا بيـــده، مشيراً إليّ أن أحتفظ بهدوئي، وأن أقـف على الجانب بلاحـراك، وكان الجميع الآن يركضـون إلى هنا وهناك، وكان كل حـاج وسـائق حمار في وضع فـوضـوي جـداً، وكـان كل واحـد يسرع ليعمل صفقة جيـدة لنفسه، ولهذا عندما وقفت بلا حراك، والحجـاج الآخرون كل واحـد منهـم يسعى أو يجري جره نحـو الحمير، صرت قلقاً، خشيـة أن يكون المسلم قـد نسيني، وحاولت أن أبتعد عنه، وعنـدما رأى هذا، قال لي شيئاً باللغة الكلدانية (كذا) لم أفهمه، لكنني قدرت وقتها أنه قال لي:«قف حيث أنت إلى جـانبي، أنـا جـلاله، وعبـدي قصـه سـوف يأتي بالحال إليّ، وسـوف يزودك بدابة»، وبعـد انتظار قـدم قصـه إلى سيـده، ومـاأن رآني حتى تذكـرني وعرفني، وتذكرته أنا وعـرفته وركض ليقبلني حسب طرائق المسلمين، وحيـاني بسرور عارم وببهجـة، واندهش كثيراً

لعودتي، وضحك وقـال أشياء كثيرة لي، أنا لم أفهمهـا، وكنت قد جلبت معي من أولم ركـابين معـدنيين، قـدمتهما له، وقـد تقبلهما بشكر عظيم، واقتـادني إلى حيث وقفت حميره بين القطيع، وأعطـاني أحسن دابة لديه، ودهش موالي مع الحجـاج الآخرين لرؤيتهم المسلم وهـو يعاملني بكثير من الصـداقـة، لأنهم كـانوا يعـانون من كثير من الازعـاج من سـائقي حميرهم، وذلـك بالضرب من قبلهم، والإلقـــاء عـن ظهـــور حميرهم والاستيلاء على مقتنياتهم، وقد تحررت من جميع هذه الاضطرابات، لأنه كما حدث في حجي الأول، خدمني هذا الرجـل بأمانة، وأطاع أوامري، وكأنني كنت أميراً، وغـــالبـــاً مـابـدل لي حميري حتى أحصل على حمار أفضل يرضيني، وعندما كان الحمار يصعـد إحدى التلال، كان يدعمني، وكان يمسكني عنـدما كنا ننزل طريقـاً منحدراً، أو طريقـاً وعراً، حتى لاأسقط، وكـان يعطيني شراباً من قـربتـه، ويشـاركني في الكعك الذي كان معه، وكان يتسلق فوق الجدران الحجرية للحدائق، ويجلب لي التين والعنب وفواكه أخرى منهم، وقد أعطاني المهماز الذي استخدمه لحماره، هذا ولم يعط أي من سائقي الحمير الآخرين إلى أي من الحجـاج مهاميز لحميرهم، وبسبب هذه الخدمـات التي قدمهـا لي اعتـاد النبلاء ورفـاقي على الظن أنني أعطيته كثيراً من المال بالسر، لكن هذا لم يحدث، لأنني لم أعطه شيئاً مطلقاً زيادة على ماكـان مفروضاً عليّ، وغالبـاً ماتصورت أنه افترض أنني كنت لورداً كبيراً، وكـان هـذا المعلل لخدمتـه لي بمثل هذه العناية، وفي الحقيقة كنت في خلال حجيّ محظوظاً إلى حد كبير، حيث لم أعامل بسـوء من قبل أحد من المسلمين، أو البـدو العرب، أو المدينيين، أو المماليك، والذين كـانت لي عـلاقـة بهم، ولايمكنني إخبـاركم أنني تلقيت أية ضربات أو اهانات، مع أنني غالبا مـارأيت الحجاج الآخرين يتعـرضون للضرب وللإهانة، وكـان لديّ دوماً في حجيّ دواب جيـدة، وبقيت على الدوام قوياً وصحيحاً، وللرب الحمد.

انطلاق الحجاج من شاطىء البحر وهم على ظهور حميرهم

أما وقد فرغت من حكاية جولاتي عبر البحر، ينبغي أن أنتقل إلى مايتعلق بجولاتي على اليابسة، وهكذا —كماقلت من قبل— عندما جئنا إلى قطيع الحمير، وأخذ كل انسان، بعد طول انتظار دابة وتجهز بها، امتطينا هذه الحمير عند شاطىء البحر، ووقفنا ننتظر لبعض الوقت، حتى أصبح السادة المغاربة جاهزين، وكان هناك بعض الحجاج، الذين رفضوا صدوراً عن تقواهم، أن تكون لديهم حمير، وأرادوا السعي وراء جماعتنا، وسمح لهم المسلمون بفعل ذلك، وكانوا راضين شريطة أن يركضوا بقدر ما تستطيع حميرنا أن تقطع في يوم واحد، وأن يسيروا مع الجماعة، وأن لايتأخروا خلفها، لكن عندما سرنا أسرع لم يستطيعوا مسايرتنا، بسبب المسافة التي قطعناها، ولأن الطريق الذي سرنا عليه كان طريقاً رمليا، وهكذا كانوا مرغمين بالقوة على ركب الحمير.

هذا وليست صحيحة الحكاية التي غالباً ماسمعناها في بلادنا، من أن المسلمين أرغمونا على ركب الحمير إلى القدس، وأن نمر من خلال الأرض المقدسة، لأنهم كانوا يرون أننا غير جديرين بلمس الأرض بأقدامنا، فهم لم يعبأوا أمشى الحاج على قدميه، أو ركب حماراً، مادام العقد المبرم مع القباطنة محافظ عليه وعلى الذي يمشي على قدميه عدم التأخر، ومن ثم إرغامهم على انتظاره، والسبب الذي جعلونا نأخذ به حميراً، هو أن نبقى دوماً مع بعضنا، وأن نصل إلى القدس دون أن نصاب بالمرض، لأن الحجاج لو توجب عليهم السير على أقدامهم طوال الطريق من البحر إلى القدس، وأن يعبروا خلال الأرض المقدسة في مثل هذه الأنواء الحارة، وأن يمشوا فوق الطرقات التي هي رملية في السهول، ووعرة في الجبال، لو توجب عليهم هذا، فقلة منهم هي التي سوف تبقى حية، بسبب الحرارة، والعطش، والعمل في ظل مناخ غريب، وإذا ما أرغمنا على السير على أقدامنا، خلال الأرض المقدسة،

كيف لنا أن نهرب من البدو العرب، والفلاحين في القرى، أو الصمود في وجههم عندما يهاجموننا؟ وبناء عليه إنه لصالحنا جرى تزويدنا بالدواب، وليس لضررنا كما قيل من قبل الجهلة.

وعندما بات الجميع جاهزين، ومضى القبطانان والحكام على ظهور خيولهم، وابتعدوا عن شاطىء البحر، تبعناهم، ونحن على ظهور حميرنا، وسار خدم السادة المغاربة، وهم على ظهور مطاياهم خلف الحجاج، ورافقنا سائقوا حميرنا، وسرنا نحن جميعاً وفق هذا النظام مسرعين جداً بعيداً عن البحر، وكان هناك حشد عظيم اجتمع معا من المسيحيين ومن المسلمين، وأدرنا ظهورنا إلى شاطيء البحر، الممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان ميناء يافا، بوضعه قائماً في وسطه، لأنه قام باتجاه الجنوب منه يبنى وغزة، وقام على الجانب الشمالي قيسارية فلسطين، وعكا، وصور، وبيروت، وطرابلس، وقد خلفنا هؤلاء جميعاً وراءنا على شاطىء البحر، وسرنا على طريقنا نحو الشرق، خلال أرض فلسطيا، التي لم تكن كلها منبسطة، بل تشكلت من هضاب منخفضة من مختلف الأشكال، وهذه أرض كانت من الممكن أن تكون خصبة وجيدة، لو توفر شعب يزرعها ويسكن بها، لأنه في الواقع الجزء الأكبر من الأرض المقدسة هو صحراء.

وعندما صرنا على مسافة نصف ميل عن البحر، وصلنا إلى مدينة غاث، التي كانت فيها مضى مدينة المقاتلين الأشداء جداً من العمالقة، وفيها ولد جالوت الغاثي، وتقول الأساطير أيضاً بأن القديس كريستوفر قد ولد هناك أيضاً، وإلى ملك غاث كان داوود قد هرب من وجه شاؤول، وحدثنا الإخباريون عن هذه المدينة، أنه بفضل طبيعة المكان، ولد فيها رجال قساة وشجعان، ولهذا حتى في العصور المتأخرة استولى الصليبيون عليها بعد سفك كثير من الدماء، وخاضوا معارك شديدة مع المسلمين المدافعين عنها، حتى أخيراً، بعد مذبحة عظيمة بين

المسلمين والصليبيين فقدوها للمرة الثانية، وعندما استولى عليها المسلمون هدموها وسووها بالأرض، ولهذا هي الآن قائمة حالها حال يافا.

وكانت الشمس في الوقت نفسه قد أخذت بالاشراق، وقد اجتزنا خلال أرض جميلة، مليئة بالأسوار والجدران المهدمة، ولقد دهشنا تجاه الخرائب التي رأيناها، عندما اجتزنا إلى جانب مدينة اسمها أرسوف، التي كانت قد بنيت من قبل سليمان، وذلك تبعاً لما قاله جيروم في كتابه «عن مسافات الأماكن»، وكان البدو العرب في ذلك الحين منتشرين فوق وخلال كثير من أجزاء الأرض المقدسة، ولقد قدموا ثلاث مرات لمواجهتنا، لكنهم عندما رأوا أننا كنا محميين بشكل جيد بمدافعين مسلحين، لم يتعرضوا لنا بأي عنف لا بالحجارة ولا بالفولاذ، بل التحقوا بشكل سري بحشدنا إلى طرف الحجاج، وحاولوا سرقة كتابات، وملابس وما شابه ذلك، لأنهم عرفوا أننا كنا غير مسلحين، ولهذا ركضوا من حولنا وانتشلوا كل ماسقط من الحجاج، أومالم يحرسوه بشكل دقيق، ولولا أننا سافرنا مع هذه القوة العظيمة، لكانوا انقضوا علينا، وضربونا بالحجارة، والعصي، والهراوات، كما حدث مراراً للحجاج بين يافا والرملة، وعندما لايكون بداة عرب في المنطقة، كان الفلاحون يحتشدون مع بعضهم، ويهاجمون الحجاج وهم على طريقهم، ويلحقون بهم أضراراً كثيرة، ولهذا كانت الرحلة من يافا إلى الرملة خطرة كثيراً، بسبب هذه الكمائن والإهانات الصادرة عن المسلمين.

وفيما نحن على طريقنا رأينا مدينة الرملة، فوق رابية منخفضة في منطقة فائقة الجمال، وعندما بتنا على مسافة فرلنغ (ثمن ميل) منها، أرغمنا على الترجل من على ظهور حميرنا والسير على الأقدام، وأن يحمل كل واحد منا حقائبه على كتفيه، وبناء على ذلك أعطينا حميرنا إلى السائقين، وأسرعنا نحو البلدة ونحن في ضيق عظيم، لأن الحرارة كانت

عالية جداً، وثار الغبار هناك، وكان هناك حشد كبير من الناس مع كثير من أعمال الازعاج، وكان المسلمون لايقبلون بدخول المسيحيين إلى مدنهم وبلداتهم، وهم راكبين للدواب، مالم يكن قدومهم في الظلام، لكن في وضح النهار كان هذا مرفوضاً، ولقد عدّوا مدينة الرملة ذات مكانة عالية فوق جميع المدن الأخرى، لأن القاضي Thadi ، أي أسقفهم، يسكن فيها، لذلك تراهم متمسكين في أن لايدخلها مسيحي إلاّ على قدميه، وعندما دخلنا إلى المدينة، وجدنا على مسافة قصيرة من بابها بيتاً له باب منخفض وضيق، وقف أمامه الحاكم، وتولى تعدادنا واحداً واحداً، وذلك مثلما فعلوا عندما غادرنا البحر، وطلب منا الدخول من خلال الباب الصغير، هذا ولقد كان في داخله ساحة واسعة وجميلة، مع كثير من القاعات، والغرف المقببة من مختلف الأنواع، وبركة مليئة بماء جيد وصحي.

وكان هذا البيت قد شري منذ وقت طويل مضى من قبل فيليب صاحب بيرغندي، ذي الذكرى المباركة من أجل الاستخدام من قبل الحجاج، وعهد به من قبله، إلى رهبان دير جبل صهيون، ولهذا أطلق عليه اسم مضافة الحجاج، وقد تركه رهبان دير جبل صهيون إلى واحد من المسيحيين الشرقيين سكن فيه، ولقد سمعت أنه قبل شراء هذا البيت من أجل إيواء الحجاج، كانوا قد اعتادوا على الإقامة مجبرين في نزل عام في المدينة قرب السوق، في وضع تعيس وكريه، حيث أسيئت معاملتهم كثيراً، لأن مسلمي الرملة ومغاربتها يحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين ويسيئون معاملتهم كثيراً، كما سأخبركم، وقمنا هنا بتوزيع أنفسنا على مختلف القاعات، وجلست كل جماعة لحالها، وامتلك موالي وجميع أتباعهم مأوى واسعاً، اشترينا له حصراً لتغطية الأرض، حتى لانكون مرغمين، على الجلوس، أو الاستلقاء، أو النوم، أو الأكل، فوق أرض عارية، لأنه لم يكن هناك سوى قاعة مقببة مع جدران

وأرض مبلطة، من دون أي أثاث مهما كان نوعه، باستثناء ما جلبناه وأدخلناه إلى هناك بأنفسنا.

هذا وكانت الساعة عندما دخلنا إلى المدينة هي حوالي التاسعة صباحاً، وبناء عليه أعدّ الأب المسؤول عن دير جبل صهيون، وأقام مذبحاً في الحديقة الداخلية للبيت، حيث كان بيتا القبطانين، وكان ذلك مقابل جذع نخلة عظيمة، كانت قائمة هناك، محملة بالتمور، وبعد هذا دعا جميع الحجاج إلى الدخول إلى تلك الحديقة، وفعل ذلك بعدما أغلق الأبواب، حتى لايتمكن المسلمون من مقاطعتنا، وقام واحد من الرهبان بعمل قداس، وبعد القداس قدّم الأب المسؤول موعظة طقوسية جميلة، باللاتينية، لأنه كان ايطاليا، ولايعرف الألمانية، وبما أنه لم يكن لديه، أومعه أحد فصيح مجيد للغة الألمانية، يمكنه أن يترجم موعظته لنا نحن الألمان، طلب مني أن أقف إلى جانبه، وأن أترجم موعظته إلى الحجاج الألمان، وفعلت هذا راضياً، ووقفت إلى جانبه، وعندما كان يتفوه جملة باللاتينية كنت آخذها من فمه وأعيدها باللغة الألمانية الرائجة، فضلاً عن هذا قدم إلى الحجاج بعض الوصايا في موعظته تتضمن أحكام وطرائق رؤية الأماكن المقدسة التي عليهم مراعاتها أثناء إقامتهم بين المسلمين والكفار في الأرض المقدسة، خشية أن يتعرضوا للمخاطر من خلال الجهل.

وكانت أول الأحكام والنصائح: أنه إذا كان هناك حاج قد قدم من دون الحصول على إذن واضح من البابا، وبذلك صار عرضة لقرار البابا بالحرمان الكنسي وتحت طائلته، على مثل هؤلاء الأشخاص تقديم أنفسهم له بعد القداس، وهو سيقوم بتحليلهم من ذنبهم بفضل السلطة الرسولية الممنوحة له، فالبابا كان يتخذ قراراً اجرائياً ضد كل واحد يذهب لأداء الحج في الأراضي المقدسة من دون الحصول على إذن منه، كما مرّ معنا في ص٩٥، المتقدمة، وسبب هذا الحرمان الكنسي، هو أنه

بعدما جرى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة، بقي بعض المسيحيين، حتى من أتباع الكنيسة اللاتينية هناك، وتخلفوا فيها، وتعايشوا بأنفسهم مع المسلمين، وأدوا ايمان الولاء لهم، وحدث أيضاً أن بعض الذين تركوا تلك البلاد، عادوا إلى هنا ثانية إلى الذين بقيوا هناك وصاروا رعايا لهم، وأبحروا بعد ذلك إلى البلاد المسيحية، وجلبوا منها مصنوعات حديدية، وأسلحة، كان المسلمون بحاجة إليها، وعندما رأى البابا هذا، قام بإصدار قرار حرمان كنسي بحق جميع الذين بقيوا في الأرض المقدسة مع المسلمين، أو الذين تعاونوا معهم واتفقوا، كما قام أيضاً بحرمان الذين حملوا الأسلحة والأشياء الأخرى المحتاجة إليهم، علاوة على ذلك حرم الأرض نفسها، وبناء عليه صار كل من يدخل إليها من دون إذن آثماً مرتداً، على أساس أنه لايمكنه العيش هناك من دون التعاون مع المسلمين والهراطقة، هذا وجرى استثناء أعضاء من الطوائف الدينية من الذين زاروا الأرض المقدسة من الحرمان، وكذلك كل واحد له صديق واقع بالأسر بين المسلمين، فهذا يمكنه دخول البلاد من دون الحصول على إذن من البابا، وأن يعقد صفقة مع المسلمين من أجل الحصول على حرية صديقة، وقد قرأت هذه الشروط والقرارات في كتاب قديم كتب من قبل أحد الحجاج الذين زاروا الأرض المقدسة منذ مائة وخمسين سنة مضت، ولم يمنح الرئيس الأعلى للدومنيكان إذنا لأي راهب لم يحصل أولاً على إذن من البابا.

وكانت النصيحة الثانية: وجوب عدم تجول أي حاج لوحده حول الأماكن المقدسة من دون دليل مسلم، لأن ذلك يعدّ خطراً وغير آمن، ولم أقم أنا الراهب فيلكس فابري بالتقيد تقيدا مطلقاً بهذه النصيحة كما سيتضح فيما بعد.

وكانت النصيحة الثالثة: على الحاج أن يكون حذرا ولايخطو فوق قبور المسلمين، لأنهم يغضبون غضباً عظيماً عندما يرون هذا يفعل،

ويرجمون بالحجارة كل واحد يدوس فوقهم، لأنهم يعتقدون أن الخطو فوقهم يعذب الميت ويزعجه.

وكانت النصيحة الرابعة: أنه إذا ماتعرض حاج لضربة من مسلم، عليه عدم الرد بضربه، حتى وإن كان مظلوماً، بل عليه أن يشكو الذي ضربه إلى المسؤول عن الدير أو إلى الترجمان كالينوس اللذان سيقتصان له إذا استطاعا، وإذا لم يستطيعا، وكان الفاعل شاب وقح أحياناً، وعنيد، وقتها على الحاج أن يتحملها صابراً من أجل مجد الرب، ومن أجل الحصول على ثواب أعظم.

وكانت النصيحة الخامسة: على الحجاج أن يحذروا من قطع شظايا من الضريح المقدس، ومن الأبنية في الأماكن الأخرى، ومن تشويه الحجارة المنحوتة هناك، لأن هذا محرم تحت طائلة الحرمان الكنسي، ولسوف يقال المزيد حول هذه المسألة في الورقة ٢١٧ظ.

والنصيحة السادسة،:يتوجب على الحجاج من أصل نبيل عدم تشويه الجدران برسم رنوكهم وشعاراتهم عليها، أو بكتابة أسمائهم، أو بتثبيت أوراق على الجدران عليها مرسومة رنوكهم، أو بالخربشة على الأعمدة أو الألواح الرخامية، أو حفر حفرٍ فيهم بأدوات معدنية لعمل علامات تدل على زيارتهم لهم، لأن مثل هذا التصرف يغضب المسلمين كثيراً، ويعتقدون أن الذين يفعلون مثل هذه الأفعال حمقى.

والنصيحة السابعة: هي على الحجاج السير إلى زيارة الأماكن المقدسة بطريقة نظامية، من دون فوضى أو عدم اتفاق، وينبغي أن لايقوم انسان بإبعاد آخر وأخذ مكانه، لأن هذا يولّد كثيراً من الفوضى التي تقع عند تلك الأماكن، وبذلك تتعطل التقوى ويعاق التعبد المخلص.

أما الشرط الثامن والنصيحة: هي أنه يتوجب على الحجاج عدم الضحك وهم يسيرون مع بعضهم في أرجاء القدس لرؤية الأماكن

المقـدسـة، بل عليهم أن يكـونوا جـديّين وأتقيـاء، من أجل الأمـاكن المقـدسة، وليقـدموا مثـلاً للمسلمين، وأيضاً حتى لايعتقـدون ويشكّون أننا نضحك عليهم، الأمـر الذي يغضبهم إلى أبعـد الحدود، ذلك أنهم دوماً يتشككون حول الضحك والرهج بين الحجاج.

والوصية التاسعة: هي على الحجاج أن يكونوا متيقظين فوق كل شيء تجاه المزاح أو الضحك على الأطفـال المسلمين أو الرجـال الـذين يقابلونهم، لأنه مهما كان القصد من ذلك، فإن كثيراً من السوء ينشأ من ذلك، وعلى هذا مهما صـدر عـن الصبي وكـان مضحكاً، على الحاج أن يبعد نفسه وينأى بها، وأن يبقى جاداً، وبذلك يبقى بأمان.

وأمـا الوصية العـاشرة: فعلى الحجاج عـدم التحديق بأي من النسـاء اللائي يواجهن، لأن جميـع المسلمين غيـورين إلى أبعـد الحدود، وهكذا يمكن للحـاج أن يجلـب المخـاطر على نفسـه من خـلال الجهل، حيث يغضب عليه واحداً من الأزواج الغيورين.

والوصية الحادية عشرة: إنه إذا ماحاولت أية امرأة الإيماء إلى حاج أو دعـوته بالشارات لدخـول بيت ما، عليـه عدم فعل ذلك بأي حـال من الأحوال، لأن المرأة تفعل ذلك من باب التآمر، بإثارة من بعض الرجال وتحريض، من أجل أنه عندمـا يـدخل المسيحي تتم سرقتـه، وربما قتله، فالذين لايكونون حذرين جداً في هذه الأمور قد يجنون مخاطر عظيمة.

والوصية الثانيـة عشرة: على الحاج أن يكون متيقظا فلا يعطي إلى أي مسلم خمرة عندما يسأله ويطلب منه شراباً، سـواء أكان ذلك على طرف الطريق، أو في أي مكان آخـر، لأنه بعـد شربه لجرعـة واحـدة يصبح مجنوناً، وأول رجل يقاتله هو الحاج الذي أعطاه الشراب.

والوصيـة الثـالثة عشرة: على الحاج الحفـاظ على الحمار الذي تسلمـه أولاً من سائقـه، وعليه عـدم تغييره أو مبادلتـه بحمار آخر، إلا بمـوافقة

السائق، وإلا فسينجم عن ذلك اضطراب.

والوصيـة الرابعة عشرة: على الحجـاج من أصل نبيل عدم الافصـاح عن نبـالتهم أمـام المسلمين، لأن هذا عمـلاً غير حكيم، ولايجوز فعل ذلك لأسباب كثيرة.

والوصية الخامسة عشرة: ينبغي أن لايضع أي حـاج على رأسه عمامة بيضـاء، أو يلف قطعـة قماش أبيض أو منديل حـول رأسـه في حضـور المسلمين، لأنهم يعـدون أنفسهم وحـدهـم يمتلكون امتيـاز فعل ذلك، وهي علامـة يتميزون بها عن الأمم الأخـرى، كما أنهم لايتحملون رؤية مسيحيين يرتدون أردية بيضاء، مع أن ذلك معاكسا لعقيدتهم الواردة في القرآن، حيث غالبـاً ماأطلق على المسيحيين اسم «ذوي الأردية البيضاء» (كذا) وكلما جاء ذكـرهـم فيه قيل هم «اللابسين للبياض»، وذلك حسبما قـرأنا في ترجمة القـرآن التي عملهـا نيقـولاكـوسـا Cusa ، ذلك أن المسلمين يتصرفون على عكس تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد تبنوا ثانية كثيراً من العادات التي اعتادوا على استخدامها في أيام الوثنية، مثل مايتعلـق بقضية الألبسة، ذلك أن يـرتدون ملابس خنثـوية لايتميز الرجـال فيهـا عن النساء، مثلما نقـرأ أن الملكة سميراميس قـد لبست في الماضي القـديم، عندما زحفت ضـد البكتريين Bactrians ، وهي في الوسط بين رجالها المسلحين، وقـد لبست ذلك حتى لايعرفهـا أحد فيما إذا كـانت امـرأة أو رجل، وهذه العـادة مـاتزال متبناه في الشرق، ومثل هذا كان من طرائق الكفـار أن يلفوا رؤوسهم بالأقمشـة، مثلما نقرأ بأن ذلك قـد فعله دايونيســوس Dionysus ابن سملي Semele ، الذي كان مدمنا على الشراب والرفـاهية، حيث كان كلما أصيب بصداع بعـد السكر، اعتـاد على ربط رأسه ولفـه بعمامـة، ومن ذلك نال اسـم Mitrophoros ، وقلد محمد (ﷺ) دومـا شـارب الخمـرة ذاك، بأن لـف رأسـه بعمامـة، لـكن بعـدما حـرم

الخمـرة ...(١) تبنـى عمامـة للرأس لها شكل الكرة، وترك ذلـك عـادة لأتباعه، ذلك أنهم يسيرون في هذه الأيام وهم يلبسون هذه الكرات من القماش على رؤوسهم، وكأنها تيجــان، ولايسمحــون لنـا بأردية رأس بيضاء.

والوصية السادسـة عشرة: لايجوز لأي حاج حمل خناجر أو أي شيء آخر معلقـاً من حوله، خشيـة أن تسلب منه، كما لايجوز له حمل أي نوع من أنواع السلاح.

والوصية السابعة عشرة: إذا ما أقام حاج صداقة مع أي مسلم، عليه أن يكون حذراً في عدم الوثـوق به كثيراً، لأن المسلمين خونة، وعليه أن يكون متنبها بشكل خاص فلايضع يده على لحيته مزاحاً، أولمس عمامته، لأن هذا الشيء يعــدّ إهانة بينهم، ويتم تناسي جميع المزاح، ويعــدّ ذلك تهديداً، ويتحـول إلى غضب، وبشأن هـذه الحقيقـة، كـان لي أنا الراهب فيلكس فابري تجربة.

والوصيــة الثـامنة عشرة: يتــوجب على كل حــاج أن يحرس بعناية مقتنيـاته، وأن لايدعهم ملقى بهم من حـوله في أي مكان فيـه مسلمين، وإذا حدث هذا فإن هذه المقتنيات سوف تختفي، مهما كانت.

والوصية التاسعة عشرة: إذا كـان لدى أي حاج قارورة من الخمرة، ورغب أن يشرب منها، عليه إخفاء القارورة والشرب منها بشكل سري إذا كان المسلمون حضوراً، وعليه أن يسأل رفيقه بالوقوف أمامه، أو أن يغطيــه بردائـــه، وبذلك يمكنـه أن يشرب دون أن يرى، ولأن شرب الخمـرة محرم عليهم، فإنهم يحسـدوننا عندمـا يروننا نشرب منهـا، ولهذا يقومون —إن استطاعوا— بإزعاج الذين يشربون.

---

(١) أورد الرحالة هنا بعض العبـارات النابية فأسقطتها، وواضح عـدم استناد روايته إلى أي توثيق.

والوصية العشرين: يتوجب على كل مسيحي عدم التعامل مالياً مع المسلمين، إلا في الشؤون التي يعرف أنه لن يخدع بها، لأنهم يبذلون جهدهم لغشنا، ويعتقدون أنهم يخدمون الرب بخداعنا وغشنا (كذا) وفوق كل شيء، على الحاج أن يكون حذراً من اليهود الألمان، وأن يحترس منهم، ذلك أن هدفهم الوحيد في الحياة هو خداعنا وسرقة أموالنا، وعليه أيضاً أن يكون حذراً من المسيحيين الشرقيين لدى تعامله معهم، لأنهم ليس لديهم ضمائر، وأدنى من اليهود ومن المسلمين، ويقومون بخداع الحجاج إذا استطاعوا.

والوصية الحادية والعشرين: عندما يعقد الحجاج مواثيق مع مسلمين، عليهم عدم الاختلاف معهم، ولا الإقسام لديهم، وأن لايكونوا غاضبين معهم، لأنهم يعرفون هذه الأشياء مضادة للديانة المسيحية، وعندما يرون أي شيء من هذا النوع يصرخون على الفور:«أنت مسيحي سيء»، ذلك أنهم جميعا يمكنهم قول هذا بسهولة بالايطالية أو بالألمانية، وكلما أظهر أي حاج أي سوء، يلقون باسم «مسيحي» بين أسنانهم، وكأنهم مقبلون على الاستشهاد بالنص الذي قاله القديس أوغسطين حول العقيدة المسيحية، حيث تساءل: «كيف لايمكنه أن يقول عنك مسيحي، الذي لايتصرف مثل مسيحي؟ فالمسيحية اسم يعني تطبيق العدالة، والجودة، والأمانة، وطول المعاناة، والفضيلة، والحكمة، والتفرد، واللطف، والبراءة، والتقوى»، ولذلك على الحاج أن ينتبه لنفسه حتى لايجلب العار على مثل هذا الاسم النبيل مضافاً إلى اسمه الشخصي.

والنصيحة الثانية والعشرين: على الحاج الانتباه إلى عدم الدخول إلى المساجد، أي أماكن العبادة لدى المسلمين والاعتكاف، ذلك أنه لو وجد هناك، لن ينجو مطلقاً من دون أن يتعرض للأذى، هذا إذا نجا بحياته، ولقد جرى بحث هذا الموضوع بشكل مطول في الورقة ٢٦١ وفي

الصفحات التالية.

والنصيحة الثالثة والعشرين: على الحاج أن يكون حذراً بشكل خاص من الضحك للاستهزاء من مسلم يصلي ويقوم بالسجود المطلوب في عقيدته، لأن المسلمين لايمكنهم تحمل هذا مطلقاً، لأنهم هم أنفسهم يتمنعون من الاستهزاء بنا والضحك علينا عندما نكون في صلاتنا.

والنصيحة الرابعة والعشرين: إذا ما أبقي حاج مدة أطول مما رغب في الرملة، أو في أي مكان آخر، عليه تحمل ذلك صابراً، وأن لايظن أن ذلك غلطة الأب المسؤول، بل غلطة المسلمين، الذين يفعلون مايرضيهم في هذه المسائل، وليس ماهو موائم لنا.

والنصيحة الخامسة والعشرين: ينبغي على الحجاج أن لايتذمروا من دفع المال لانقاذ أنفسهم من المنغصات الكثيرة التي تلحق بهم، إنما عندما يتوجب دفع المال، عليهم أن يدفعوا دون مناقشة وعلى الفور، هذا ولايحتاج أي واحد لدفع مال إلى سائق حماره، لأن هذا كله قد دفع من قبل القبطان، مالم يقدم أي واحد، صدوراً عن كرم منه بإعطاء سائقه بنساً لشراء علف لحماره، مع أن ذلك ليس متوجباً عليه فعله.

والنصيحة السادسة والعشرين: على الحاج دفع شيء ماإلى الحافظ لدار الضيافة التي نقف بها، من أجل ترميم البيت، والحيلولة دون خرابه.

والنصيحة السابعة والعشرين، وهي النصيحة الأخيرة: على الحجاج إظهار الاحترام نحو الدير الفقير العائد لرهبان جبل صهيون في القدس، فبمساعدة هذا الدير يجري توجيه الحجاج وإرشادهم في داخل الأرض المقدسة وخارجها، وينبغي بمساعداتهم رعاية هذا الدير ومساعدة الرهبان الذين فيه، والذين يسكنون بين المسلمين، لتقديم الراحة للحجاج، وهم على استعداد لخدمة الحجاج، وفقا لقدراتهم،

وسائلهم، إلى حد الارتماء بأنفسهم تحت أقدامهم، إذا كان ذلك ضروريا، وإذا لم تتم معاملة أي حاج وفقاً لرغباته وحاجاته، عليه عدم لوم الرهبان بسبب ذلك، لأنهم إذا ماأرغموا على اشباع كل حاج بالخبز والخمرة، سيكون الوضع أنه بعد مغادرة الحجاج سوف يجدون أنفسهم بلا مايمكّنهم من العيش، وهم —على كل حال— على استعداد لرعاية مرضى الحجاج بكل مايمكن والسهر عليهم وإنعاشهم، ومعاملتهم بالاحسان أثناء مرضهم.

وتمت قراءة هذه النصائح للحجاج بصوت مرتفع، في كل من اللاتينية والألمانية، والآن بما أن القداس قد طال أكثر من اللازم، صار المسلمون الذين أبقيوا معزولين في الساحة الخارجية بلا صبر، وضربوا على الباب بالحجارة، وكأنهم يريدون تحطيمه، وصعد آخرون فوق سطح البيت وتطلعوا على الساحة، حيث كنا، وهم يضحكون ويصرخون، وقمنا نحن الذين أزعجنا هذا، بالنظر بدورنا إلى هؤلاء الشباب بملامح جادة غاضبة، وأشرنا إليهم بالنزول، وعندما رأوا أننا كنا جادين، أوقفوا صخبهم، وابتعدوا واحداً تلو الآخر، وأكملنا القداس كله بسلام، وكان الوقت وقتها حوالي الظهيرة، ولذلك فتحنا الباب، وخرجنا إلى ساحتنا، التي وجدناها مليئة بالمسلمين، واليهود، والهراطقة، والمسيحيين الشرقيين، مع أشياء متنوعة للبيع، وبشكل خاص الأطعمة، فهناك وجدنا فراريج مطبوخة وطيوراً، وحليباً مطهواً، ومعجنات مصنوعة من الدقيق، ورزاً مطبوخاً بالحليب، وأرغفة رائعة من الخبز، وبيضاً، وعناقيد من أحلى العنب، ورماناً، وتفاحاً، وبرتقالاً، وبطيخاً، وليموناً، وتينا من كل مُن الحجم الصغير والكبير، وحلويات من اللوز والعسل، وتين جاف، وبعض المربيات بالسكر، واللوز، والتمر، والماء البارد، وجلب أحد الناس قوارير مصنوعة من الجلد مليئة بشراب مصنوع يستخدمه السادة العظام من المسلمين عوضاً عن

النبيذ، وبناء عليه شرينا الأطعمة التي راقت لنا وأكلناها في المكان الذي نمنا فيه.

وبعد الغداء في ذلك اليوم، قام كالينوس الأصغر، الذي اسمه الفحل، بقيادتنا للقيام بجولة في أرجاء مدينة الرملة، وأخذنا إلى شوارع التجار، وهناك رأينا كثيراً من المصنوعات الثمينة، ومسجداً عظيماً، وذهبنا إلى حمام ساخن، استحم فيه كثير من الحجاج برفقة المسلمين، وهذا الحمام الساخن، مثله مثل جميع حمامات المسلمين، قد بني بشكل رائع، وبطريقة بارعة، وهو قائم بين أربعة أبراج، وتأتيه الحرارة من الأسفل، وتمر عابرة على طول البلاط المعمول من رخام مصقول جميل من ألوان متعددة، ولسوف نجد كثيراً حول الحمامات الساخنة العائدة للمسلمين، وفيما إذا كان أمراً قانونيا بالنسبة للمسيحيين الاستحمام برفقة المسلمين، ومسائل أخرى، متعلقة بهذا الموضوع في القسم الثاني، وهكذا بعدما رأينا المدينة رجعنا إلى موضعنا، وعندما صار الوقت متأخراً، أخرجنا جميع التجار، وأغلقنا باب البيت، وأعددنا أنفسنا للنوم.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم عيد «الأخوة السبعة»، استيقظنا باكراً جداً في الصباح من أجل القداس، وكان ذلك قبل شروق الشمس، وقبل استيقاظ المسلمين والتجار، وأقمنا مذبحاً في ساحتنا، وأقام واحد من الرهبان القداس، وبعد القداس أخبرنا بأن علينا إعداد أنفسنا لزيارة كنيسة القديس جرجس في اللد، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي استشهد فيه ذلك القديس.

ولم يستطيعوا في حجي المتقدم أخذنا إلى هناك، لأن البدو العرب كانوا قد نصبوا كميناً في الوادي، وكانوا ينتظروننا حتى نقدم، فيسلبوننا، وعندما بتنا جاهزين، غادرنا المدينة، مثلما دخلناها، ووجدنا خارج المدينة حميرنا مع سائقيهم، وهنا ركض كل انسان بين قطيع

الحمير يصرخ بصوت مرتفع لسائقه، وكنت أصيح «جلاله قصه، جلاله قصه»، وصاح آخرون بأسماء أخرى تبعاً لتعدد أسماء سائقيهم، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا مسرعين نحو اللد، التي تبعد نحو ميلين ايطاليين عن الرملة، ووصلنا إلى ديوسبولس، التي تعرف أيضاً باسم اللد، أو الليدا، والتي كانت فيها مضى من أيام مدينة كبيرة، لكنها تعرضت للدمار على أيدي المسلمين، وهي الآن مجرد قرية صغيرة، وذهبنا إلى المكان الذي فيه استشهد القديس جرجس مع انفعالات مختلفة، وقبلنا المكان بتقوى عظيمة، ولمسناه بمجوهراتنا، وتلقينا هنا سبع سنوات غفران (+)، ورأينا هنا بحزن عميق خرائب كنيسة جميلة جداً، كانت عالية وواسعة، وهناك جانب من السدة مايزال باقياً، لكن الأقواس والسقف كانوا قد سقطوا هناك، وفي السدة موضع استشهاد القديس جرجس، وهناك مصباحان مشتعلان بشكل دائم، حيث يجري تزويدهما بالوقود من قبل المسيحيين الأرثوذكس الذين يقيمون في القرية، وكان الجزء المتبقي من الكنيسة قد فصل من عند السدة بجدار، وأقاموا في ذلك المكان مسجداً جميلاً تشريفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد زينوه ببرج مرتفع، وقام الباب في مواجهتنا، ولذلك كان بامكاننا أن نرى مافي صحن المسجد، ومافي المسجد نفسه، وكان يشبه الجنة لنظافته ولجماله.

وكان القديس بطرس قد شفى في هذه المدينة عيناس، وقام بالوعظ والتبشير هنا أيضاً، حسبما نقرأ في الاصحاح التاسع من أعمال الرسل، وفي الأيام التي كانت فيها البلاد بأيدي الصليبيين، كانت هذه مقر كرسي أسقف، وهنا كانت تقام صلوات ربانية كثيرة، وإلى جانب هذه المدينة رأينا جبل مودين، الذي كانت عليه مدينة عائدة للرجال الشجعان من المكابيين، وهناك أيضاً جرى دفن متاتياس (كذا) وأولاده، وكنت قد أتيت على ذكر قبورهم في ص ٣٢٢، ويبدو أن هذه المدينة،

كانت هي اللد، التابعة لسبط نفتالي.

وعندما فــرغنا من اللد، رجعنا إلى الرملة من أجـل الغـداء، وأكلنا هناك، وبعـــد الغــداء وقفنا مستعـــدين من أجـل الانطلاق، لكن لا القبطانين، ولا الترجمان، ولا الحكام ظهروا بيننا، ذلـك أنهم كانوا طوال ذلك اليوم قـد جلسوا في قـاعة مغلقة عليهم، يتـداولون مع بعضهم في اجتماع سري، ويتجـادل أحدهـم مع الآخر، ذلك أنهم كـانوا خـائفين، فضـلاً عن هذا لقد سمعنا بأن البـدو العـرب، كانوا قـد نشروا أنفسهم حول الطـرقات التي تؤدي إلى القـدس، ومعنى هذا أنه لم يكن بامكاننا الوصـول إلى القـدس من دون ابعادهم، فـالرب قـد قضى بوقـوع هذا الوباء وبنزوله على هذه الأرض وعلى جميع البلدان التي من حولها، لأن الأعـراب قوم عـراة، وتعساء وأشقيـاء وأناس جوالون، وهم وحـدهم لديهم القـدرة على العيش في الصحـراء، التي هي غير قـابلة للسكن من قبل الآخـرين جميعاً، وهـم يهاجمون، ويستبيحون، ويغلبـون جميع الناس سواء، حتى الملك نفســه، الذي هو السلطان الأعظم لمصر، وعن هؤلاء الأعراب سوف أتحدث بشكل مطول كثيراً، فيما يلي في مكان آخر.

وهكذا حـدث أنه في الوقت الذي كان فيـه قبطانينا والسادة المغـاربة يتشارون فيما بينهم، وقفنا هناك في السـاحة المكشوفـة في صخب شديد، لأن الساحة كانت مليئة بالتجار، وكانت هناك فوضى كبيرة واضطراب عظيم، لأن المسيئين من المسلمين من الشبـاب والشيـوخ، قـد اجتمعـوا هناك مع بعضهم، لمضـايقتنا، وقـد وقفـوا أمـامنا، وكـانوا ينظرون إلينا ويصغون إلى كلامنا.

وفعلوا هذا بشكل خاص إلى الذين لاحظوا أنهم كـانوا انفعاليين، أو إلى الذين ضحكوا استهـزاء نحو ألاعيبهم، ولسـوف يكون من الصعب بالنسبـة لي اخبـاركم عن جميع الألاعيب المزعجـة التي مـارسهـا هؤلاء الشبـاب من المسلمين، فمن بين أشيـاء وقعت قيام واحـد من الشبـاب

المزعجين باجلاس نفسه عند قدمي حاج نبيل، الذي كان رجلاً جاداً ومحترماً، ونظر من حوله ليرى فيما إذا كان يمكنه إيجاد أي انسان يساعده في لعبته، والتفت أخيراً نحو الرجل الذي جلس عند قدميه، وأمسك قدمه وشدها، وفكر الفارس أولاً أنها كانت نوعاً من المزاح المزعج، فسحب قدمه وأرجعها وكأنه لم يهتم به، لكن الفتى وقد وجد نفسه قد عومل بازدراء، أمسك بالقدم الأخرى وشدها، محاولاً قلبه على قفاه، إنما في أثناء شده لرجل الفارس بقوة، أصبح هذا الأخير غاضباً، وقام بالقدم التي كان قد شدها أولاً، فرفس المسلم بعنف كبير في معدته، جعل بها الفتى يترك قدمه التي كان يشدها، ويسقط على الأرض، رأسه على عقبيه، ويتدحرج مثل كرة في وسط الساحة المبلطة، ثم إنه نهض وهو عظيم الاضطراب، وغادر المكان، وكنا خائفين كثيراً تجاه ماحدث، وخشينا من أن يثير الناس لمهاجمتنا، لكن مامن أذى نتج عن ذلك.

وقدم إلى الساحة فتى آخر من العابثين، ووقف أمام وجه واحد من الحجاج، وكان يقوم ببعض حركات لوي أصابعه بمقاصد سيئه، الأمر الذي لم يستطع الحاج تحمله، فضرب يدي العابث بشدة بيديه، وكسر اصبع الداعر التي لعب أثناء لويه لأصابعه، وعندما رأى واحد من المسلمين المسلحين هذا، صار شديد الغضب، واندفع لمهاجمة الحاج، ولولا أنه أخفى نفسه لألقي به في السجن، لأن ذلك الرجل المسلح وقف مع أتباعه لوقت طويل هناك ينتظر، آملاً بإمساك ذلك الحاج في بقعة مناسبة، لكن ذلك الحاج لم يتحرك من مكان اختفائه.

وينبغي أن أحدثكم عن أمر آخر وقع لنا، فقد قام حاج نبيل بالتصرف كما كان يجري منذ زمن طويل، فرسم رنكه ورنوك أتباعه على جدار، كان بديعاً جداً وجميلاً، وماأن أنهى عمله هذا، الذي استغرق منه عدة ساعات طوال، حتى ركض واحد من المسلمين ويده مليئة

بالقـــاذورات، فلـوث الصــورة بشكل مهين، ومضى في طـريقـــه وهو يضحك، ولدى فعله هذا أصبح النبلاء على درجة عظيمة من الغضب، ولعنوا ذلك الشاب، لكن مامن واحد منهم تجرأ على أن يضع يده عليه، مع أنه لو فعـل مثل هذا في بلادنا لجرى تمزيقـه إلى قطـع، ولقـد تحملنا كثيراً من المنغصـــات المماثلة بطبيعتهـــا في تلك المدينـة، ومع ذلك لقـــد عـوملنا بشكل أفضل ممـاحـدث وعـوملنا به في حجي الأول، لأنهم في ذلك الحين، اعتقلوا قبطاننا، بعـدما أحضروه مـن يافا، وألقـوه بالسجن أمـام أعيننا، وتركوه مغلولاً هناك، قـائلين بأنه لايمتلك السلطة لجلب حجاج إلى البلاد، وأننا قـدمنا إلى هناك من دون جواز، ولذلك يتوجب علينا دفع جزية مضاعفة، وإذا لم نفعل ذلك، فسوف لن نشاهد القدس، بل تتـوجب عـــودتنا إلى غليـوننا، وعلينا أيضـاً لتسرعنـا بالدخـول إلى البلاد، دفع مال سيكون قدره وفقـاً لقرار السادة المغاربة، وبقينا بالرملة لمدة أربعـة أيام في هذا التأخير، الذي لم يكن بامكاننا تفسيره بسـوى أننا على وشك الإعادة إلى غليـوننا، وأننا لن نشاهد الضريح المقـدس لربنا، ولكم كان الأسف والاضطراب الذي شعرنا به في قلوبنا عظيماً، وأخيراً جرى اقتيادنا إلى البقاع المنشـودة، وهكذا انتهى الموضوع، ودعوني أعود الآن إلى سياق روايتي.

وعند حلول المسـاء، جاء واحـد من خدم القبطانين، وقـال ينبغي أن نغـادر مبـاشرة، ولهذا حملنا حقـائبنا، وخـرجنا من غـرفنا، وجلسنا على مقربـة من باب دار ضيافتنا، ننتظر حلول الوقت لانطلاقنا، وبعـد مضي سـاعة من الوقت، جـاء إلى هناك واحـد أخبرنا بأن بعض المسلحين من المماليك قد وصلوا للتو إلى هنا من القـاهرة، ونظراً لقدومهم لن يتمكن قادتنا من مغادرة المكان هـذه الليلة، ولهذا علينا العودة بهدوء إلى غرفنا، وعندما سمعنا هذا عـدنا إلى غرفنا بمشاعـر سيئة، وهنا عندما أردنا أن نجلس كما فعلنا من قبل، وجدنـا أن جميع الحصر التي اعتدنا أن نجلس

عليها ونتمدد قد ذهبت ذلك أن المسلم الذي شريناهم منه مقابل مبلغ كبير من المال قد أخذهم، لذلك أرسلنا خلفه وطلبنا منه إعادة حصرنا، لكنه رفض ذلك رفضاً مطلقاً، مالم ندفع له من جديد، قائلاً بأنه باعنا إياهم فقط للاستخدام حتى نغادر دار الضيافة، وبما أننا غادرنا غرفتنا فارغة، انتهى شرط تأجيرنا لهم، لأنه لم يكن متوقعاً عودتنا إلى الدار، وجرى نقاش عنيف مع هذا المسلم، الذي كان غاضباً جداً، وغالباً مابصق علينا أثناء خصامنا معه، وبناء عليه أقمنا في غرفتنا من دون حصرنا، لأننا لم نرغب في تشجيع جشعه باعطائه بنساً واحداً، فهو كان على استعداد لإعطائنا إياهم مقابل بنسات قليلة، غير أننا طلبنا منه المغادرة، وعندما جاء الليل، بقي بعضنا في الغرفة، ونام هناك على الأرض العارية، وذهب بعضهم وصعد إلى السقف المقبب للبيت، حيث نام المقدم كالينوس وبعض المسلمين، وهناك أعددنا أنفسنا للنوم فوق البلاط في الهواء الطلق، وقد بنيت البيوت في الشرق مع شرفات على سطح البيوت، لذلك عندما تغيب الشمس يصعد الناس إلى هناك للتمتع بالبرودة، وهناك يعملون، ويأكلون، ويضعون فرشهم وينامون، لكن عندما تكون الشمس مشرقة يعيشون في الأسفل تحت القناطر، وفي الظل.

وهكذا تمددنا على سطح البيت، لكن من المؤكد أننا لم نحصل على الراحة التي طلبناها، بسبب صراخ المسلمين الذين اسمهم السقائين Soquis الذين صرخوا وغنوا وفق طرائقهم حتى حدود منتصف الليل، ومثل هذا الذين وقفوا على الأبراج (المآذن) وصرخوا هناك، وبأيديهم مصابيح مضاءة، وأبراجهم هذه طويلة ومستديرة، يقف عليها رجال الدين المسلمين، ويقومون بالعمل الذي يؤديه الناقوس، وعملهم عمل ديني تماماً، وسوف أتناول هذا الموضوع المتعلق بواجباتهم وشعائرهم بتوسع كبير في الورقة ٩٤ من القسم الثاني، وكانت هذه

الليلة احدى ليـالي أعيادهم، ولذلك صرخوا أكثـر مما هو معتاد، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

وفي اليـوم الحادي عشر، الذي كـان يوم عيد بروكـوبيـوس المعترف، استيقظت قبل اشراق الشمـس، وأديت صلواتي فـــوق قنطرة أعلى من التي نمت فـوقهـا، حيث جلست على السطح المحـدب لأعلى الغـرف، الذي منه كان يمكنني رؤية النائمين من حولي، وعندمـا أضاءت الدنيا، استيقظ المسلمـون وطووا فرشهم، وأعـدوا مـلابسهم، ثم حنوا ركبهم تعبـداً، وصلوا بشكل جـاد تمامـاً، وقـرأوا صلواتهم بنغمـة مثل الزئير، وأيديهم متشـابكة، ثم كانوا يقفـون، وقد سجـدوا مراراً حيث لامسـوا الأرض برؤوسهم وكـانوا يمكثون وقتـاً قليـلاً في سجودهم، ثم كـانوا يقـومـون ثانيـة، وينظرون نحـو الأعلى إلى السماء، وقـد صلوا جميعـاً في وقت واحـد، وبطريقة واحـدة، وكأنهم رهبـان طائفـة واحدة، وعندمـا كانوا يفرغون من صلواتهم، كانوا يذهبون —كما اعتادوا— إلى أعمالهم، وأقيمت هذه الصـــلاة ذلك الصبـــاح في الرملة، ومثـل ذلك أقيمت في أماكن أخرى، واستيقظ الآن حجـاجنا بعد اشراق الشمس، وبدأوا على الفور بـالحديث والضحك أحدهم مع الآخـر، دون أن يقدمـوا الصلاة على ذلك.

ولذلك جلست هناك وقارنت بين ماقـام به الفريق الأول وبين ماقام به الفـريق الثاني، وأصبحت حـزينـاً، ومنزعجـاً في قلبي، برؤيتي أولئك الضالين والأناس الضائعين تماماً يقـومون بأداء صلواتهم بجدية ومهابة، مع أنهم يثيرون غضب الـرب ضـــد أنفسهم، لـدى عـــدم تقـــديرهم القـديسين والملائكة وجميع الحشـد السماوي، وهذا مـــايفعلونه بأدعيتهم التجـديفية، بينما نحن المسيحيين أكثـر الناس تعاسـة، وأعظمهم نكراناً، الذين أنقـــذنا بدم المسيح الثمين جـــداً، نقـــدم صلواتنا ونؤديها بخفـــة وبهجـــة، وبفتـور لايمكـن وصفـه في جميع الأوقـــات، وبتفكير تائـــه،

وبإرهاق، ونفعل ذلك إلى الرب الحقيقي والحي، الذي منه نأمل بإيمان ثابت بأننا سوف نتلقى النعمة والمجد، أيها السيد الرب، أية نعمة سوف تمنحنا إياها مقابل صلواتنا القصيرة والخالية من التقوى؟ وهل ياترى جرى تأدية صلواتنا الفاترة جداً مع أية درجة من الإيمان الصحيح، ثم ماذا يمكنني أن أقول؟ إنني أخشى أن عدداً كبيراً من المسيحيين يمضون اليوم كله دون أدنى عبادة للرب، أو دون أية صلاة له، الأمر الذي لايمكن حدوثه بين المسلمين، أو الأتراك، أو البرابرة، أو اليهود، أو البداة العرب، لأن جميع هؤلاء الكفار لديهم توجه ثابت وطريقة معلومة للصلاة، لايفارقونها في أي حال من الأحوال مالم يرغموا بالقوة على فعل ذلك، ومن أجل رواية كاملة عن صلواتهم وصيامهم انظر الورقة ٩٤ من القسم الثاني، مع أن مقارنتي المتقدمة بينهم وبيننا أنفسنا، أعطتني الفرصة للحديث عنهم في هذا المكان.

وعندما أشرقت الشمس، ولم نر اعدادات لانطلاقنا، عدنا إلى غرفنا، واشترينا طعاماً وأكلنا هناك، وبينما نحن جلوس هناك جاء إلينا مسلم فقير وتعيس، يحمل برتقالاً وعنباً في سلة ليبيع لنا، وجلس على الأرض ومعه سلته إلى جانبي، وأخذنا بعضاً من فواكهه، وأعطيناه خبزاً مع الذي بقي من لحمنا، فأكل ذلك مثل انسان جائع، وقد وضع على رأسه قبعة حمراء مع اللفة العائدة للمسلمين، والآن وقد بدا لي انساناً بسيطاً جيداً، أخذت قبعته من على رأسه، وبينما أنا أنظر إليها تظاهرت بأنني مصاب بالاقياء، وأنني أعاني من الدوار، وقمت بصرف رأسي وإبعاده عن القبعة التي أمسكتها بيدي، وكأنني أريد أن أتقيأ لكراهيتي لديانة المسلمين، وبصقت على قطعة القماش التي كانت ملفوفة حول القبعة، راغباً في أن أرى ما الذي سيقوله أو يفعله تجاه ذلك، وقام هذا المسلم —على كل حال— بالنظر من حوله في جميع زوايا الغرفة، وعندما لم ير من يخاف منه، انتزع قبعته، وجمع بصاقه في فمه، وبصق على اللفة

الاسلامية الموجودة عليها، ولعن العمامة، وعمل شارة الصليب بوضع سبابته اليمنى فوق اليسرى، وقبل علامة الصليب هذه التي عملها فوق يده مع كثير من الدموع، وقال أشياء كثيرة لنا لم نستطع فهمها، والذي فهمناه تماماً بأنه كان مسيحياً، وأنه أرغم على التخلي عن عقيدته، وأنه لم يكن مسلماً عربياً، بل كان مملوكاً مسكيناً، وبعد ماتغدينا بقينا في غرفتنا بهدوء، وفي الظل، وسمعنا الآن بأن أحدهم كان يعمل على الجدار الأول من جدران غرفتنا بأداة معدنية، من الخارج، وكأنه يريد أن يخرق الجدار ويمر منه، ولم نهتم بذلك، ولم نتوجس منه أي خطر، وأخيراً فتحت ثغرة بالجدار بانتزاع حجرة واحدة منه، وكان على الطرف الآخر من الجدار نساء مسلمات فتحن الثغرة حتى يتمكن من رؤية الحجاج من خلالها.

وعندما نظرن إلينا، ابتسم لهن بعض الفرسان، وقالوا بالاشارات والايماءات مالم يستطيعوا قوله بالكلمات، لكن واحداً من رهبا ن الفرنسيسكان رأى هذه الثغرة، وكان الأب المسؤول قد بعث به ليقوم بجولة على غرف الحجج، فعندما رأى ذلك قام على الفور فجلب ملاطاً وقام ببناء الثغرة، وأقسم بالرب، بأن المسلمين لو شاهدوا ذلك لتولوا تعذيب الحجاج جميعاً تعذيباً مرعباً للغاية، لأنهم غيورين بشكل مخيف، ويجتمعون كلهم مع بعضهم من دون مناقشة للانتقام من أي اعتداء على شرفهم، وفي الحقيقة بدت النساء المسلمات أنهن شهوانيات كثيراً، لأنه عندما كان بعض الفرسان الشباب يمشون وينظرون من حولهم وهم على سطوح البيت، رأوا ثلاث نساء واقفات في بيت آخر، وقد عملن اشارات لهم للنزول إليهن، ولست أدري أفعلن ذلك صدوراً عن شهوة، أو — وهو ماأعتقده— صدوراً عن نية تآمرية وشريرة، وعلى كل حال كان الخطر هو نفسه، ذلك أن القانون هو: إذا ماعثر على مسيحي يتسامر مع امرأة مسلمة، كان يعطى الخيار، إما بالتخلي عن

إيمانه، أو مواجهة الموت، وليس هناك خيار وسط بين هذين الخيارين.

وفي الوقت نفسه مرت ساعة تلو ساعة، ونحن وقوف بدون حركة هناك ننتظر بتشوق إلى الانطلاق، لأن المزاح والاهانات الصادرة عن الشباب ازدادت سوءاً كل ساعة، ورأينا أن المزيد من التأخير سيكون خطيراً علينا، لأن حاجاً بعد حاج خرجوا عن طورهم وفقدوا صبرهم بسبب الاهانات التي تلقوها، وضرب أحدهم طفلاً سيئاً، ضربة خفيفة، لأنه كان يرمي حجارة عليه، ولذلك بكى هذا الصبي، ولدى سماع صوت بكائه ركض المسلمون مع بعضهم مثلما يركض الخنازير مع بعضهم للدفاع عن رفيق نخر إليهم، ولم يستطع الحاج الذي ضرب الصبي الحصول على السلام، حتى أسكت الصبي الباكي بالمال، وفي الحقيقة كان الأطفال الأشرار في الرملة أسوأ من أطفال أي مكان آخر أقام فيه الحجاج، فهناك لم يكن مسموحاً أن يرد الانسان الضربة بالضربة، ولهذا خشية منا أن نقع في المخاطر خفنا، فذهبنا إلى القبطانين، ورجوناهما بحرارة أن يقودانا إلى خارج ذلك الأتون المحرق، وقد وعدانا بالانطلاق في غضون ساعة من الزمان.

فيمايلي:
وصف موجز لمدينة الرملة

راما أو الرملة مدينة واقعة بين فلسطين واليهودية، على حدود منطقة فلسطين، ومنطقة اليهودية، وذلك في حصة سبط يهوذا، وهي قائمة فوق رابية، ولهذا السبب حملت اسم راما الذي معناه المرتفع، ولهذا ليس هذا الموقع فقط بل كثيراً من المدن الأخرى في الأرض المقدسة، ممن بني فوق أماكن مرتفعة، أطلق عليه اسم راما، وهناك ، على كل حال، في كثير منها فوارق في نهاية الكلمة، وهكذا لدينا من راما: راماثا، وراماثيم، وراماسي، وراموث،ورامولا، وأرماثا، والرملة هذه التي أنا

بصدد الحديث عنها، غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وفيها هنا ولد صموئيل المقدس، وهي حتى الآن مدينة مكتظة السكان، وأكبر من القدس، وفيها سبل العيش ميسرة لكثير من التجار، لكنها ليست جيدة الدفاعات بأسوار من حولها، مثل مدن اسلامية كثيرة أخرى، ذلك أنها بلا أسوار، وهناك كثير من المساجد فيها ومن حولها، وهي قائمة في وسط مكان بديع جداً، وخصب، وكل شيء هناك رخيص تماما، وحلو، وفائق الجودة، إلا الناس، الذين هم أكثر الناس شروراً في تفكيرهم، ويحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين، ويسكن هناك عدد كبير من السودان الأشرار، والمغاربة، مع أناس آخرين من دون فهم، ولقد ورد ذكر هذه المدينة في سفر الملوك الثالث (الأول) — الاصحاح ١٥، وفي الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى.

مغادرة الحجاج للرملة إلى المنطقة التلية لليهودية

عندما جاء المساء في يوم عيد القديس بروكوبيوس، أعددنا أنفسنا لرحلتنا، وخرجنا من دار الضيافة وفق النظام نفسه الذي دخلنا به، ونحن نحمل أطواقاً مكتوبة حول أعناقنا، ولدى مرورنا من خلال البلد، ركض الناس مع بعضهم من جميع الأطراف، وكانت الشوارع مليئة بالناس من الجنسين معا، الذين وقفوا هناك راغبين برؤيتنا، وكان هناك حشد كبير، وقد ثار هناك غبار كثيف من الأرض، إلى حد أنه بات من الصعب على الانسان أن يرى رفيقه الذي على جانبه، وإذا مارآه من المؤكد أنه كان من الصعب التعرف عليه وتمييزه، فلقد كان الغبار كثيفاً إلى أبعد الحدود، وتغطت قبعتي السوداء بالغبار، حتى أنها لم تعد بادية سوداء، بل رمادية، ومامن انسان كان بامكانه فتح عينيه أوفمه إذا مااحتاج، ولقد تحملنا هذا خلال المنطقة كلها، إلاّ في الأجزاء الصخرية، وعندما ارتحلنا في الليل.

وتوفر في الأزقة الضيقة خطر الاختناق بسبب كثافة الغبار، وفي أثناء

هذا الضيق الشديد حدث أن دفعت على جدار مسكن هناك، وكان ذلك قرب النوافذ، ولأن الحشد تحرك ببطىء شديد وتركني محصوراً هناك، نظرت من خلال النافذة إلى المسكن، ويا للعجب، وقفت في الداخل امرأة مع أطفال صغار، عملوا علامة الصليب بأصابعهم، وقبلوهم، وبذلك جعلوني أعرف أنهم أتباع الذي صلب، ولقد اعتقدت أنهم بكوا، وإنه بالحقيقة مزعج جداً، أن يكون شعب تلك البلاد، التي فيها صلب ربنا، إذا أرادوا أن يكونوا أتباع الصليب، لا يتجرأون على لبس شارة الصليب بشكل مكشوف، لأن الصليب المجيد مكروه في تلك البلاد، وملفوظ، والشيء نفسه الذي وقع للصليب المقدس، وقع للأنبياء: ذلك أنهم بلا احترام، حتى في وطنهم (لوقا٤/ ٢٩)، ومثل هذا فإن الصليب المقدس لايتمتع بالاحترام، ولابالقبول حتى في وطنه، لكن الحجاج من الأجزاء النائية من العالم يحملون بشكل معلن، علامة الصليب، لأن نقد الصليب قد انتزع من بينهم وأبعد.

وعندما تحرك الحشد نحو الأمام، أرغمت على الابتعاد عن ذلك المكان، ووصلنا إلى خارج المدينة، وهناك وجدنا حميرنا مع سائقيهم في الحقل، وعلى مقربة منهم عساكر المسلمين، الذين كانوا سيتولون مرافقتنا وحمايتنا على طريقنا، وامتطينا دوابنا، وانطلقنا مسرعين جداً نحو الجبال، ووصلنا إلى حقل يوشع قرب مدينة بيت شمش، حيث جرى فيها قتل خمسين ألف انسان، لأنهم نظروا إلى تابوه الرب، عندما وقف هناك، وذلك حسبما نقرأ في سفر صموئيل الأول — الاصحاح الرابع، الخ.

ونصب الأعراب في هذا الحقل نفسه خيامهم، وكان هناك حوالي الثلاثمائة منهن، ولدى رؤيتنا للخيام ارتعبنا نحن ومرافقينا كثيراً، ولدى اقترابنا من الخيام، لم نشاهد أحداً فيهن إلاّ نساء على درجة عالية من التعاسة، وأطفال صغار سود عراة، وقلة من الشيوخ، لأن بقية الرجال

جميعاً كـانوا يتجولـون في المنطقة ينهبـون ويسلبـون، وهكذا مـررنا من خلال معسكرهم، ولم يكن هناك من انسان رفع يده ضدنا، وحدث أننا عندما كنا على وشك دخول المنطقة التليـة من خلال أحد الوديان، رأينا عند مدخل الوادي جمهوراً من الناس مع جمال وحمير وخيـول، كانوا قد استعـدوا للانقضـاض علينا، وبالمقـابـل قـام مـرافقـونـا بالانتظام والاصطفاف لمقاومتهم، وكانوا مضطـربين وقد امتلأوا رعباً، ذلك أنهم رأوا أن أولئك الناس كـانوا لصـوصـاً من الأعـراب، وأننا لايمكننا تجاوزهم مـن دون ضراب، ثم إنه لم يكـن بإمكاننـا الانحــراف لا إلى اليمين ولا إلى اليسـار، لأن طريقنا كـان يمـر مبـاشرة من وسطهم، من خلال واد ضيق.

وعندما اقتربنا منهم، وجدناهم قد وقفوا يحرسون المدخل إلى الوادي من الجانب الأول إلى الجانب الآخر، وكانوا ممسكين لهذا المدخل ضدنا، وكانوا مشهرين لخناجرهم، ورافعين لسيوفهم، وكانت رماحهم مركونة جاهزة وقسيهم مفوقة، ولا أذكر أنني رأيت أناساً قط مثلهم: لقد كانوا عـراة، ولونهم أسـود، أحـرقتهم حـرارة الشمس، وكـانوا يرتدون قطع قماش لاتسـاوي شيئاً حـول أوسـاطهم، وتـرستهم معلقـة من رقـابهم، وكـانوا حـادين، ومتـوحشين، ومن المرعب النظر إليهم، وعندمـا نظرنا إليهم وقـارناهم بمغـاربتنا ومسلمينا، الـذين عـددناهم حتى الآن أنهم ليسـوا بشراً، عـددنا هؤلاء الأخيرين أناسـاً متحضرين وأتقيـاء، مثلهم مثلنا أنفسنا، وعندمـا رأى مـرافقونا مـا الذي أراد الأعـراب أن يفعلوه انقضـوا عليهم بعنف، وطردوهم بقــوة السـلاح، وفتحـوا الطريق لنا، ودعونا للاندفاع بسرعة والمتابعة دون توقف، وهكذا أسرعنا مارين من خـلال الفـراغ الذي ترك لنا مفتـوحاً، وكـان أي حـاج وقع بين هؤلاء الأعـراب، كـانوا إمـا يمسكونه إمـا مـن ردائـه، أو من مخلاته، وكـانوا يشــدون ذلك حتى يتخلى عن أي منهما، ويدع الشيء يذهب، أو كــان

يشد من فوق ظهر حماره، أو كان ينقذ من قبل واحد من جماعتنا، ولهذا سقط كثير منهم من على ظهور حميرهم، ولولا أنهم أنقذوا لتولى الأعراب سلبهم، وكان هناك صراخ وعويل من على الطرفين، واندفع الناس أحدهم ضد الآخر بشكل مدهش، وكأنهم أرادوا أن ينقض أحدهم على الآخر، ويسدد الضربات له.

وفي أثناء هذا الاضطراب، وبينما هومستمر، مررنا من خلال الوادي، ووصلنا إلى التلال، وعندما رأى أعداؤنا هذا، تناولوا الحجارة من وسط الطريق، وشرعوا يرمون بها خلف مرافقينا، لكن عندما رأوا أنهم لن يستطيعوا تحصيل شيء منا بالقوة، ركضوا خلفنا، وبذل ومسكنه توسلوا إلينا حتى نعطيهم شيئاً ما، لكنهم لم يحصلوا على شيء كثير، وهكذا ابتعدنا عنهم، وليس هناك من شك، أنهم لو كانوا أقوى منا، لسلبونا جميعاً، دون تنفيذ لأماننا الذي حصلنا عليه من السلطان، ولقد نجونا دون أن يصاب أي حاج بأذى، باستثناء، بعض الذين أصيبوا بالحجارة، وقد فقد بعضهم جعبهم في أثناء الصراع، وبعضهم قبعاتهم، ولم يجرح أحد، لأن الشرقيين فيهم الفضيلة التالية وهي أنهم لايحبون سفك الدماء.

وهكذا تابعنا سيرنا في هذا الوادي الظليل، ومشينا عبر طريق في منتهى الوعورة، مع جبال صخرية عالية على طرفينا، وبعد صعود وتسلق طويل، وصلنا إلى برج، كانت هناك مياه قربه قد جمعت في بركة، ونوينا الانتظار هناك حتى الفجر لليوم المقبل، لأن الليل كان مظلماً، وذلك إلى جانب أن الوادي كان ملقياً بظلاله، وهكذا ترجلنا من على ظهور حميرنا، لكن مالبث فجأة أن حل خوف بين صفوف مرافقينا، وباتوا يخشون أن يقوم هؤلاء الأعراب بالانقضاض علينا، في أثناء نومنا، فوقتها لن يكون بإمكانهم الدفاع عنا في ذلك الممر الضيق والوعر، وبناء عليه دعونا لمعاودة ركوب حميرنا، وأن نتابع سيرنا

صعوداً في الجبال، وهكذا غادرنا البرج الذي قام عند سفح الجبال، وتسلقنا فوق ممر منحدر وخطير حتى وصلنا إلى حقل، فكروا ثانية بالاستراحة فيه، لكن كنا نحن ودوابنا عطاش، ولم يكن هناك ماء، لذلك تابعنا سيرنا في الغسق، حيث لم يكن هناك لاشمس ولاقمر لعوننا، وسرنا ودليلنا فقط ضوء قبة السماء، وأشعة النجوم الضعيفة، ولم يكن بإمكاننا رؤية الممر، لكن كل انسان تبع سائقه، وعندما وصلنا إلى القمة، نزلنا إلى الطرف الآخر من الجبل، وسرنا إلى أن وصلنا إلى قرية صغيرة، حيث كان هناك نبع ماء جيد وبارد، وهناك في حقل مليء بالحجارة تخلينا عن حميرنا وأعطيناهم إلى سائقيهم، وأجلسنا أنفسنا على الأرض، وتحلق حراسنا مع خيولهم، وسائقونا مع حميرهم، جميعاً من حول الحجاج، وبذلك أحاطوا بنا من كل جانب، وأشعلنا مصابيحاً، وأحضرنا جعبنا الخاصة بالطعام الذي شريناه في الرملة، وجلب السائقون ماء لنا، قمنا بشرائه منهم، وأحضر القرويون أرغفة من الخبز، وفواكه وماء، فاشترينا منهم مارغبنا به، وهكذا تعشينا.

وكان هذا المكان الذي عسكرنا فيه، وعراً مليئاً بالحجارة مثل الأماكن الموجودة في الألب، والقائمة فيما بين أولم وويزنستيغ Weis-sensteig، واختفى تحت الحجارة عقارب، الأمر الذي لم نعرفه، حتى أرانا الضوء إياهم، وعندما رآنا المسلمون خائفين، أخبرونا أن بإمكاننا النوم من دون خوف، لأن العقارب بالحقل لاتلدغ مثل العقارب في البيوت، ولهذا شعرنا بالراحة، ولم يتحرك واحد منا من مكانه، وفيما نحن جالسين هكذا نريح أنفسنا، أشرق القمر أمام وجوهنا، وشعرنا لدى اشراقه بسرور عظيم، لأن الذين لايمكنهم النوم يبتهجون أمام أي شيء يطرد الظلام، ويبعد الظلال، ولم يزر النوم أعيننا، كما لم يتمكن النعاس من اغلاق جفوننا، كما أن جباهنا لم ترغب بالراحة، مع أنه كان من الطبيعي لإرهاقنا بعد متاعبنا أن يجلب إلينا النوم، ولقد كنا مرهقين

ومتعبين، لكن النوم تخلى عنا، لأن كيـاننا كله قـد حلّ في قوى مـداركنا ومشـاعـرنا، وابتغت نفـوسنـا شيئاً واحـداً فقط هو التحـديق والنظر بإخـلاص من حـولنا، وعلى هذا بدت روحنا وقـد استقـرت في عينينا، واهتمت بشيء واحد فقـط هو الشعور بالمشهد، وتغلبـت انفعالاتنا على النوم، وكان ذلك لدى قراءتنا للاصحـاح الثاني والأربعين من الالهيات قـوله:«طرد التفكير النوم منهم»، لأننا كنا نتطلع إلى الغـد برغبـة حـارة جداً، عـارفين بأننا وقتها ينبغي أن نرى مدينة القـدس الجليلة، التي قال عنها طوبيـا المقدس وهو واقف على مسافـة عظيمة عنها:«سـوف أكون سعيـداً لوأن أيا من سلالتـي بقي لينظر إلى الضريح في القدس»، وقـال كـاتب آخر:«من أجل صهيـون لن أهدأ، ومن أجل القـدس لن أرتاح» (إشعيـا:٦٢/ ١)، فمن هو الذي لايرغب في رؤية المدينة المختـارة، التي نقرأ عنها في الاصحاح السادس من السفر الثاني لأخبار الأيام:«اخترت القـدس ليكون اسمي فيهـا» (أخبـار الأيام الثـاني:٦/ ٦)، لأن هذه هي المدينة التي يكون فيها الحمد وقطع العهـد للرب، حسبما جاء في المزمور الخامس والستين:«لـك ينبغي التسبيح يـارب في صهيـــون ولـك يوفى النذر»، وردد الحجاج المتشـوقين القول:«من سيمنحني أن تمر هذه الليلة وتنقضي وأن تأتي الشمس مسرعة حتى يمكننـي رؤية القدس، التي هي بهجة الأرض كلها، ومـدينة الملك العظيم، والرب الأكثر علواً»؟ آه، لو أن أحـــداً أصغى في تلك الليلة إلى صلواتنـا وحنيننا إلى اشراق الشمس ولقدوم النهار، لاحترق في داخله، كما تحرقنا شوقـاً لرؤية القدس، فلقد تمددنا على صخـور قـاسيـة، مثلما فعل يعقـوب في الاصحـــاح الثـامن والعشرين من سفـر التكوين، وكـانت العقـارب رفـاقنا في تلك الليلة، مثلما كـانت فراخ النعـام رفاق أيوب (أيوب:٣/ ٢٩)، وفي الحقيقـة، إنه بسبب كثـرة حشود العقـارب، من اللائق أن يطلق على هذا المكان اسم تلة العقارب، مثلما ورد ذكـر ذلك في الاصحاح الخامس عشر مـن سفر يشـوع، لكن قسـاوة الصخور ولدغ العقـارب كـانت لطيفـة، وجعلت

حلوة، بالحلاوة الفائقة للقدس نفسها، المتربعة على قمم تلك الجبال، والناشرة لحلاوتها، جاعلة إياهم يقطرون حلاوة، ويفيضون بالعسل والحليب، علاوة على ذلك، طردت ذكريات ماجرى صنيعه فوق هذه الجبال المقدسة، جميع السموم منا، وجعلت قساوتهم نعومة بالنسبة لنا.

فعلى هذه الجبال سكن المكابيون بعد تدنيس الهيكل يأكلون الأعشاب بدلاً عن الطعام، بين الحيوانات المتوحشة (مكابيون:٢/ ٥/ ٢٧)، وابنة يافث، عندما كانت على وشك أن تموت بسبب نذر أبيها، طلبت منه ليس أكثر ممايلي، هو أن تترك لوحدها لمدة شهرين قبل موتها، لكي تصعد إلى جبال بني اسرائيل وتنزل منها مع رفقتها، وأن تندب عذريتها، ذلك أنها اعتقدت أنها سوف تتحمل آلام الموت بسهولة أعظم، لو أنه سمح لها بتسلق هذه الجبال المقدسة قبل أن تموت (القضاة:١١/ ٣٧)، وموسى أيضاً، الذي كان صديقاً للرب، طلب أن تكون جائزته، هو أن يسمح له برؤية هذه الجبال من حيث وقف في مناطق ماوراء الأردن (العدد:٣٤) والعذراء مريم المباركة، جعلت هذه الجبال بحجها، جبالاً مقدسة بشكل خاص، وقد تقدسوا بذلك، وعن ذلك نقرأ نحن الحجاج في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا:«مريم...ذهبت بسرعة إلى الجبال» (لوقا:١/ ٣٩)، وعلى هذه الجبال اعتاد مولانا المسيح على إمضاء الليل في الصلاة، وبذلك منحهم القداسة، وخدمت هذه الجبال في القديم البطارقة. فكانت بالنسبة لهم بمثابة سور ضد الكفار، ولهذا جاء مكتوباً في الاصحاح السابع من سفر يودث:«لايعتمد بنو اسرائيل في الدفاع عن أنفسهم على قسيهم، ولاعلى الرماح، بل على الجبال التي تحميهم، وعلى التلال التي تقف أمامهم، فهذه تتولى الدفاع عنهم»، ولهذا لم يرغب الكفار بالقتال معهم على الجبال، بل قالوا:«دعونا ننهزم من اسرائيل، لأن أربابهم أرباب التلال»، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الأول:٢٠/ ٢٣، وكان

عذباً أن نقيم مؤقتا فوق هذه الجبال، وأعتقد أنه حولنا وحول حجاج المسيح الآخرين، صنعت نبوءة حزقيال منذ زمن طويل مضى حيث فيها وعد هذه الجبال بقوله:«ياجبال اسرائيل اسمعي كلمة السيد الرب... أنا جالب عليكم سيفاً وأبيد مرتفعاتكم» (حزقيال:٦/ ٢-٤)، وفي الاصحاح الخامس والستين من إشعيا قوله:«بل أخرج من يعقوب نسلاً، ومن يهوذا وارثا لجبالي» (اشعيا:٦٥/ ٩)، هذا وتتألف هذه الجبال مع بعضها من صخور عظيمة، وشعاب عالية، ذات صخور قاسية جداً، ومع ذلك بدوا ناعمين بالنسبة لنا، فقد جاء بالمزمور قوله:« صخورك مرضية لعبيدك»، ومثل ذلك صنع أيوب (أيوب:٥/ ٢٣) عهداً مع صخور ذلك المكان، وسكن في مكان الصخور (أيوب:٨)، وكان ذلك بسبب أن الرب عمل حدود الأرض المقدسة من حجارة مرضية.(اشعيا:٣٦/ ١٢).

ولقد احتضنا الصخرة نفسها، كما فعل أيوب (٢٤/ ٨)، لابل أكثر من هذا، لقد عرفت بعض الحجاج الذين أحبوا الأرض المقدسة، كانوا يداومون ليلاً ونهاراً على الانحناء بأنفسهم نحو الأرض، ويقبلونها أجمل القبل، وكانوا على استعداد لعبادة الحجارة نفسها، على أنها آثار مقدسة، وهذه الحجارة قد اختارها المسيح لمساعدته في عمل خلاصنا، ذلك أن الحمل به جرى في كهف حجري، وولد تحت الصخرة والحجر، ومدد فوق حجر عندما ولد، ووعظ وهو واقف على حجر، وصلى ثلاث مرات في كهف في صخرة حجرية، وكان قد جلد إلى جانب عمود من حجارة، ووقف على حجرة لتسلم تاجه، ووقف على حجرة أمام بيلا يطس قاضيه، وجرى صلبه فوق حجر، ومسح بالدهون فوق حجر، ودفن في حجر، وصعد إلى السماء من على حجر، وباختصار، لقد أكمل بوساطة حجارة جميع أسرار خلاصنا، ولهذا كان أن تصدعت الصخور الحجرية أثناء آلامه، فلماذا بعد هذا لايستريح المسيحيون بسرور فوق

هذه الصخور المقدسة، أكثر من استراحتهم فوق أنعم فراش؟ ومن الذي لن يجد الصخور والحجارة حلوة، التي لمست بقدمي الرب يسوع، والعذراء مريم، والبطارقة، والأنبياء، والرسل، والقديسين الذين يفوقون العدد؟.

وأوقظنا في اليوم الثاني عشر قبل شروق الشمس، وامتطينا حميرنا، ومضينا مسافرين عبر الجبال المقدسة، وبعدما تسلقنا عدة تلال، ونزلنا إلى عدد من الوديان، هاهو النهار المنتظر قد بدأ بالظهور، وصارت قبة السماء أكثر بياضاً في الشرق، ولمع القمر من هناك، وبدت الشمس تظهر فوق قمم الجبال، ونشرت أشعتها فوق الأرض، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن القدس، وارتحلنا عبر ممرات وعرة، ورأينا فقط أرضاً قاسية وصخرية، ولهذا شرع بعض الفرسان الذين صدموا لدى رؤيتهم وعورة الأرض يقولون لي:«ماالذي أخبرنا به كهنتنا؟ وما الذي وعظ به وعاظنا؟ فلقد قالوا بأن هذه البلاد أفضل البلدان جميعاً، لكن انظروا كم هو وعر الطريق، وكم هي جرداء الجبال، فلماذا اختار الرب يسوع السكن في هذه البلاد، التي هي غير مفلوحة، ومحترقة بأشعة الشمس»؟.

وفي الوقت الذي كانوا يتكلمون هكذا، بدأ حاجان بالخصام بشكل حاد، حتى بات من الصعب فصلهما عن بعضهما، ولو طال هذا الخصام أكثر، لوصلا إلى الضرب، فقد تشاجرا بشكل حاد جداً، وكانا معاً علمانيين خالصين، أولهما بليد جداً، والآخر بارع، فالبليد تشكى بمراراة ضد الأرض المقدسة، ووقف البارع ضده، وقال بأنها أفضل البلدان، وعلى كل حال، قلت لنفسي بشكل سري في قلبي:«هل ياترى هذه هي الأرض التي قيل بأنها تتدفق بالعسل والحليب، وأنا لاأرى أمامي حقلا ينتج خبزاً، ولاكرما لينتج خمراً، ولامروجاً خضراء، ولاحدائق، عجباً إنها كلها وعرة، أحرقتها الشمس، وجرداء»، وبينما كنت أردد في قرارة

نفسي هذا الكلام بشكل سري، لم يمض طويل وقت حتى جاء الجواب إليها، وهو: إن أسباب هذاالجدب، والجفاف، والوعورة، نتيجة للعنة التي أنزلها الله عليها، بسبب خرق وصاياه، وهكذا نقرأ في سفر التثنية:٢٨/ ٢٣ «وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديداً»، فضلاً عن هذا إن تذمرنا وخيبتنا مع الأرض المقدسة، قد جرى الحديث عنها منذ عدة آلاف سنين مضت وذلك حسبما نقرأ في سفر التثنية: الاصحاح ٢٩: «فيقول الجيل الأخير بنوكم الذين يقومون بعدكم، والأجنبي الذي يأتي من أرض بعيدة، حين يرون ضربات تلك الأرض وأمراضها الذي يمرضها بها الرب كبريت وملح، كل أرضها حريق لاتزرع ولاتنبت ولايطلع فيها عشب ما، كإنقلاب سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم التي قلبها الرب بغضبه وسخطه، ويقول جميع الأمم لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض. لماذا حمو هذا الغضب العظيم. فيقولون لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعه معهم»(٢٢—٢٥).

وواضح من هذا أن الأرض في الوضع الذي هددت فيه في الكتابات المقدسة، لم تكن دوماً هكذا، كما يمكننا رؤية ذلك بأعيننا، لأننا رأينا خلال هذه الجبال المهجورة، أسواراً غاية بالقدم، بنيت من حجارة عظيمة، حيث من المعتقد أنها قد بنيت من قبل بني اسرائيل، وقد حصلوا على الزيت، والقمح، وكل حاجيات الحياة من أعلى هذه الجبال وأكثرها حجارة، حتى في هذه الأيام، وعلى الرغم من كفر وشرور السكان في هذه البلاد، جميع حاجيات الحياة تنمو هناك بكميات وافرة، لأننا رأينا على منحدرات الجبال بين الأسوار القديمة، كروماً، وزيتوناً، وقمحاً، وشعيراً، ونباتاتاً أخرى نامية هناك، علاوة على ذلك، حتى وان كانت البلاد محررة من اللعنة المتقدم ذكرها، لابد أنها ستبقى قاسية وجرداء، لأنه لايوجد من يفلحها، سوى عدد ضئيل، وهم رجال سوء،

وكفـار، وكل من ينظر عن قرب ويدقـق في الكتابات المقـدسة، سـوف يحاجج بأن هذه البلاد فائقة الخصـوبة، وليست قاحلة، وقرر —على كل حال— القديس جيروم بأي منطق ينبغي أن نفهم بأن هذه البلاد تفيض بالحليب والعسـل، فقـد جـاء ذلك في رسـالتـه إلى داردانوس -Dar danus حيث بين أننا ينبغـي أن نقـدر أن هذه الأمـاديح الفـائقـة يتوجب فهمها على أنها تشير إلى مملكة السماء.

ودخلنا في الوقت نفسـه إلى واد واسع نسبيـاً، فيـه حقول مـزروعـة، وكان مطوقـاً من كل جانب بهضاب مـرتفعة، ومزينة بأشجـار الزيتون، وكـان على جـانبنا الأيسر جبـال أفـرايم، التي يشكل جبل شيلوه الجزء الأمامي منها، ويبـدو أن قمة هذا الجبل هي الأعلى بين قمم جبال تلك البـلاد، وقـام فيها مضى على جبل شيلوه هذا مـدينة جليلة، حيث أقـام تابوه الـرب هناك لمدة طويلة، ذلك أنه جلـب إلى هناك من قبل يشـوع من الجلجال، وهنا حملت حنه بصموئيل، استجـابة لصلاتها، وهنا أيضاً فـرض الكاهنان الشريران حفني وفينحاس مكوسـاً ثقيلة على الشعب، وذلك حسبما ورد مكتوباً في الاصحاح الثـاني من سفر صموئيل الأول، وهنا سمع النبي صموئيل للمـرة الأولى الرب يتكلم إليه، وسقط عالي، الكاهن الأعلى من على كـرسيـه، وذلك كما ورد مدوناً في الاصحـاحين الثالث والرابع من سفـر صموئيل الأول، وهنا اعتـاد بنو اسرائيل جميعاً على القـدوم لعبادة الرب، وكـان ذلك قبل بناء هيكل القدس، وحـدث أنه بسبب ذنوب الكهنة، جرى الاستيلاء على تابوه الرب، وقتل الكهنة، وتهديم شيلوه، وإزالتها تمامـاً، ولذلك عندما تنبأ إرميا بخـراب القدس قال:«سـوف أجعل هذا البيت كشيلوه» (إرميا:٢٦/ ٦)، ومن أجل هذه الكلمات جرى اعتقـال إرميا، وإلقـائه بالسجن، بسبب أن شيلـوه جرى تدميرها، وفي شيلـوه دفن النبي صمـوئيل، ولذلـك أطلق عليهـا اسم «مكان صموئيل المقـدس»، حتى هذا اليوم، ولربما قـد جلب جسده إلى

هنا من الرامـة حيث كان دفـن (صموئيل الأول: ٢٥/ ١) هذا وجـاءنا خبر من عند جيروم في كتـابه «Confutation of vigilantius» أنه في أيام الامبراطور أركاديوس Arcadius، جرى نقل عظام صموئيل المبـارك من اليهـودية إلى تراقيـا، في وعـاء ذهبي وهو ملفـوف بالحرير، واجتمع حشد كبير من الناس لمشـاهدة عملية النقل، فقـد تقاطر الناس من فلسطين إلى العراق، وجرى استقبال هذه الآثار بسرور عظيم، وكأن الاستقبـال لصمـوئيل نفسـه حيـاً، وغنى الناس بصـوت واحـد الشكر للمسيح.

وكان فيما مضى عند سفـح هذا الجبل مدينة جبعه، حيـث جرى قتل زوجـة اللاوي التي هي مـن بيت لحم، من خــلال زنى أهل جبعــه، وانتقـامـاً لذلك تمّ قتل آلافـاً كثيرة بالسيف، ودُمّـر سبط بنيـامين كله تقريبـاً (القضاة:١٩)، وصعـدنا فوق طريـق وعر خارج الـوادي، وكان ذلك فوق الرابيـة نحو شيلوه لأن الوادي كان ضيقاً جـداً، لم يستوعبنا، ولم نكن بعيدين من شيلوه، بـل فوق الأرض المرتفعة إلى جـانبها، ومع هذا لم يرغب أدلاؤنـا بأخـذنا إلى هناك، لأنهم كـانوا مسرعين يريدون الوصول إلى القـدس، بأقصى مايمكن من سرعة، خشيـة أن يعانوا، فيما بعد، أثناء النهار من حـرارة الشمس، وفيما مضى من أيام، كان الحجاج يقادون دوماً إلى شيلوه، وبعد صعودهم إلى هناك، كانوا من ذلك المكان يرون مـدينة القـدس ويبتهجـون، ولذلك كـان اسم هذا المكان «بهجـة الحجـاج» (جبل البهجـة)، وعندمـا كنـا أثناء سيرنا على جـانب شيلوه، رأينا خرائب كثيرة لأسـوار قديمة وكنائس، مـابرحت قائمة على حـافة الرابيـــة حتى هذا اليـــوم، وتطلعنا بأعيننا نحـــو الشرق، فـرأينا الجبل المقـدس، والجبل المجيد، الذي هو جبل الزيتـون، وكنيسة الصعـود على قمته، ومع ذلك لم نستطع رؤية المدينة المقدسة، مع أنها كانت إلينا أقرب من جبل الزيتون، وعندما رأينا ذلك الجبل الأكثـر قداسة قفزنا من على

ظهــور حميرنا، وصلينا نحـو الجبـل بتقـوى وسرور، لأن مشهــد هذه الأماكن المقدسة عن بعد يبهج النفوس بشكل رائع للناس الأتقياء.

وخلفنا بعـــد هذا شيلـوه وراءنا، وفيما نحن على طريقنـا وصلنا إلى قلعة، هـي قلعة عمواس المقـدسة، وهي التـي تبعد عن القـدس حوالي ستين غلوة، وذلك حسبما ذكـر القديـس لوقا في الاصحـاح الأخير من انجيله، وتساوي هذه المسـافة سبعة أميـال ايطالية، وميلاً ألمانيـا واحداً ونصف الميل، ذلـك أن ثلاث غلوات تســاوي سبعـة آلاف وخمسمائـة خطوة، وترجلنا قـرب هذه القلعـــة من على ظهـور حميرنا، ومضينا من خـلال سور حجـري جاف إلى المكان الذي كـان يقوم فيـه النزل الذي استقبل الرب يسـوع، وحوارييـه: لوقـا وكليوباس، وكـان ذلك في يوم قيـامة ربنا، عندمـا ذهب على شكل حـاج، فألزمـاه بالبقاء معهما، وقـد عرفاه عندما كسر الخبز.

وقبلنا هذا المكان بتقـوى عـارمـة، وتلقينا مغفـرة(+)، واعلمـوا أيها الحجاج، أنه هنـا توجد أول خطوات الرب يسوع، وأمـاكن سيره، التي ستجـدونها جديرة بالتقبيل، ومن أجـل التهدئـة والسكينة جرى إعـداد هذا المكان بشكـل مناسب من قبل القـــدرة الـربانيـــة، حيث أن الحاج التعيس، الذي هدّه التعب وهو مسرع نحـو القـدس سـوف يتقـابل مع ذلك الحاج الـرائع، أي ربنا، وهو قـــادم من هنـاك، وهو الذي إليـــه قيل:«أأنتت وحدك غريب وحاج في القدس»؟، ومن أجل انعاشه ينبغي أن يرى أولاً وقبل كل شيء الخطوات الأكثر قداسة وسعادة التي عملها جســد الرب بعـد تمجيـده، فبعـد أن ينتعش برؤيتهم ويطمئن يمكن أن يكون قـادراً في القدس على اتبـاع خطواته المقـدسـة في آلامه البغيضـة، وذلك حسبما طلب بطرس منا أن نفعل، في الاصحاح الثاني من رسالته الأولى، حيث قـال:«المسيح أيضاً تألم لأجلنا تاركـاً لنا مثالاً لكي تتبعـوا خطواته»، وفي هذا المكان جعل قلبي حوارييه يتحرقان في داخلهما، وقام

بكسر الخبـز وأعطاه لهما، الأمـر الذي قـال عنه بعض الحكماء، بأن ذلك كـان القــربان الذي احتفل به هناك للمـرة الأخيرة، وعــاد سريعـاً إلى القدس، وفي الحقيقـة يقول بعضهم بأن هـذين الحواريين كانا قـد غادرا القـدس وافترقا عن الحواريين الآخـرين، ونويا على عـدم العودة ثانيـة، غير أنه جعلهما هناك يعـودان ثانية، وهكذا عـادا في السـاعة نفسهـا إلى القدس.

وكـانت عمـواس في أيام المسيح بلـدة جميلة وغنيـة، وقـد تعـرضت للدمار، عندما جرى تدمير القـدس نفسها، وقد أعيدت عمارتها فيما بعد من قبل ماركـوس كورنيليوس، وأطلق عليها اسم نيقوبـولس، وقد قام يوليوس أفريكانوس بسفـارة من أجل إعادة عمارتها، وذلك حسبما قرأنا في «كتاب الرجال المشهورين» لجيروم، وقـد دمرها المسلمون الآن دماراً كليـاً، ولاسيما كنيسة نزل المسيح، التي من الممكن التعـرف إلى خرائبهـا من خلال أساساتها، ومايزال قائماً فيها حتى الآن خرائب بيوت مقنطرة عالية، وقليل من الناس هـم الذين يسكنون هناك.

وبعـدمـا رأينا هذا المكان المقـدس، تابعنـا السير على طريقنا، ورأينا خرائب العديد من البيع والكنـائس على التلال، وذلك أثناء سيرنا فوق المنطقـة الجبليـة، ثم نزلنا مـن المنطقـة المرتفعـة إلى واد وقع عبر طريقنا، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان علينـا نحن القادمين من الغرب والمتجهين نحــو الشرق، عبـوره، وكــان هذا وادي Elah ،أو وادي البطم، حيث غلب داوود هنـاك جـالوت وقتلـه بحجـرة اختــارها من أرض الجدول، وقطع رأسـه وجلبه إلى القدس (صمـوئيل الأول: ١٧) ووقفنـا في وسـط هـذا الـوادي، وتفحصنـا وضـع الأرض، وهـو واد خصب، ويوجد فيه في هذه الأيام كثيراً من أشجار البطم، وهذه أشجار جميلة، تنمو بشكل رئيسي في سورية، ومنها يخرج صمغ، وأشجار البطم على نوعين، أي ذكـر وانثى، وعلى هـذا يحملون نوعين من الثمار، حيث

تحمل الأشجـار المذكـرة ثماراً حمراء بحجم حبـات العـدس الصغيرة، وغـالبـاً مـارأيت كثيراً من هـذا النوع من الأشجـار، وتحمل الأشجـار المؤنثـة ثماراً ألوانها باهتـة بحجم الفول، ويستخـرج من هذه الثمار زيتـاً جيداً، وطيب الطعم.

كيف رأى الحجاج القدس المدينة المقدسة وكيف دخلوا إلى القدس تلك المدينة الأعظم حلاوة

كان السبب الرئيسي وراء رحـلاتنا هو مدينة القدس الأكثـر حلاوة، التي انتشر شذاها فعم آفاق العـالم، فجعل المؤمنين يسعون إلى هناك من كل جـانب، وهكذا تسلقنا وادي البطم، وقطعناه، وتوقفنا عن الذهاب نحو الشرق، وصعـدنا حواف رابية بـاتجاه الجنوب، ووصلنا إلى حدائق أشجار مثمـرة، وخضراوات، وتين، وكان ذلك أثناء سيرنـا بين جدران من الحجـارة الجافـة، وألقينا بأعيننا نحـو اليمين، وياللهـول، لمعت مثل ضـوء البرق، المدينة المذكـورة دومـا، والتي ستـذكـر دومـاً، إنها مـدينة القدس المقـدسة، قد أشرقت أنوارها، وكـان الجزء الذي رأيناه منها هو المتصل بجبل صهيـون، ورأينا جبـل صهيـون المقـدس نفسـه، مع جميع أبنيته وخـرائبه، وقبل كل شيء رأينا قلعة صهيـون، وهي محصنة بأسوار على درجـة عاليـة من القـوة، وبأبراج، وبدت الأسـوار العـالية القـوية والأبراج العائـدة للقلعة بوضـوح وكأنها تحيط بالمدينة كلهـا، والحجاج، أو الغـرباء، الذين لم يروا القـدس من قبل لم يكن بإمكانهم إلاّ أن يظنوا أن أسوار قلعـة صهيون تلك كـانت هي أسوار القـدس، الأمر الذي لم يكن كـذلك، وعندمـا رأينا بـأعيننا المدينة المقـدسـة التي تشـوقنا إليهـا طويلاً، ترجلنا على الفور من على ظهور حميرنـا، وتوجهنا بوجوهنا نحو الأرض، ووجهنا التحيـة أولاً إلى ملكهـا، الذي هو المولى الرب، وكـان ذلك برسم علامة الصليب، ثم خاطبناها بهذه الكلمات، أو بكلمات مثل هذه:

«مرحباً ياقدس، وحييت يا مدينة الملك العظيم، مجد الأرض كلها وتاجها، بهجة نفوس المؤمنين وسرورهم، ياقدس، ياقدس، انهضي، ارفعي عينيك، وانظري من حولك، وأبصري جميع هؤلاء الحجاج، أولادك الذين قدموا معا من أقصى أجزاء الدنيا، والذين مابرحوا يقدمون في حشود، علهم يرون سناء بريقك، ومجد الرب قائم فوقك»، وذلك كما قال النبي إشعيا—الاصحاح:٤٠، ومثلما مدحك طوبيا بهذه الكلمات:«سوف تشعين مجداً مع ضياء، وكل طرف من أطراف الدنيا سوف يتعبدك، وكل الأمم سوف تأتي من بعيد، جالبة الهدايا، وسوف تعبد ربك»(طوبيا:١٣).

ومثل هذا فعل القديس برنارد في الاصحاح الخامس من قداسه لفرسان الداوية حيث قدم التحية لمدينة القدس الأعظم مجداً بهذه الكلمات فقال:«حييت أيتها المدينة المقدسة، التي قدسك الأعظم علواً، وجعلك مثل خيمة عهد له، حتى يمكن فيك ومن خلالك انقاذ جيل عظيم، حييت يامدينة الملك العظيم، الذي منذ البداية المغرقة بالقدم، وهو يطلب أن يجعل العالم مسروراً، حييت ياسيدة الأمم، أيتها الأولى بين البلدان، ياموطن البطارقة، ويـاأم الأنبياء والرسل، وياينبوع الايمان، ويامجد شعب المسيح، الرب الذي عانى دوماً وتعرض لأن يهاجم منذ البداية، من أجل أن تكوني للرجال الشجعان وسيلة لاظهار شجاعتهم، ولربح خلاصهم كاملاً، حييت أيتها المدينة الرئيسية في أرض الميعاد، والتي فاضت في الزمن القديم بالحليب والعسل، فقط للذين سكنوا فيها، والتي تعطي الآن إلى العالم كله وسائل الخلاص، وخبز الحياة، أيتها الجيدة، أنت الأفضل في البلاد، فأنت التي تلقيت في صدرك الخصب جداً، الحبة المقدسة من التابوه، قلب الأب، وأنجبت وقدمت حصاداً لامثيل له من الشهداء من تلك البذرة السماوية، وثمرة صحيحة من تربتك الخصبة، في جميع أنواع الشعوب المؤمنة الأخرى، ستين ومائة

ضعف، في جميع أنحاء الأرض، ولهذا فإن جميع الذين شاهدوك، امتلأوا بوافر من حلاوتك، وشبعوا بثراء عظيم بذكرى فيضك العظيم، وتدفقوا ببهجتك، تراهم يتحدثون عن عظمة مجدك إلى الذين لم يروك، وينشرون ذلك حتى أقصى أجزاء الأرض، ويصفون الروائع التي فيك، وكثيراً من الأشياء الرائعة قد قيلت عنك يامدينة الرب، وعلى الفور سوف نتذوق نحن الذين قدمنا من الغرب، البهجة الموجودة فيك والتي تتدفق منك، وعندما رأيناك ذابت أرواحنا وتبددت في فيض بهجتك وإشراقك».

وعندما فرغنا من صلواتنا، امتطينا ظهور حميرنا، وعيوننا قد امتلأت بالدموع، ووجوهنا بالبشر والسرور، وشرع الكهنة والرهبان الذين كانوا بيننا يغنون te deum Laudamus لكن بصوت منخفض وخافت، حتى لانغضب حرسنا، الذين قد يثير غناء نشوتنا غضبهم إذا ما غنينا بصوت مرتفع وواضح، وعليه غنينا بصوت مرتفع فقط في قرارة نفوسنا، لأن النشوة التي شعرنا بها بداخلنا كانت عميقة وعظيمة، وقد تجاوزت كل الكلمات التي يمكن التعبير بها، ولم تنبع هذه النشوة من الآلام بل من العقل، وليس من حضور هدف مرغوب، بل من شيء يستحق الحب لأنه ثمين: ولم يكن السرور هو الذي يقود إلى الجواز بل إلى الجدّية، التي لاتحرك الانسان للضحك بل للتنهد، والتي لاتهز الجسد، بل تحني الأطراف، ولاتوسع فتحة الفم للضحك بل بالحري تجعل الوجه مربداً، يبكي كله، وكله دموع، ولاتقود إلى الكلام بل إلى الصمت، ولاتدفع الانسان نحو الأمام بين الناس، بل بالحري إلى الانزواء هادئاً، ولاتجعل الانسان يصرخ بصوت مرتفع، بل بالحري تجعله يصلي بداخله بأغاني المزامير.

وبهذا الوضع الصامت والسرور الداخلي وصلنا إلى آخر الحقول، حيث وقف ربشاقي وشتم الرب، وهو حامل ضد الذين وقفوا على

أسوار القدس (الملوك الثاني:١٨/ ١٧.إشعيا:٣٦) وفي هذا الحقل وإلى جانب القلعة التي بناها السلطان، ترجلنا من على ظهور حميرنا، وأعطيناهم إلى سائقيهم، وأخذنا جعبنا، ومشينا إثنين، إثنين نحو باب التجار، أو باب السمك ونحن نصلي بصمت، وأيدينا موضوعة فوق صدورنا، وقام بعض الحجاج، صدوراً عن التقوى، بخلع أحذيتهم ورميها جانباً، ومشى بعضهم بأقدام عارية، ذلك أننا كنا في الأرض المقدسة، وكنا بذلك نمجد الخطوات الرائعة لربنا، وللعذراء مريم المباركة ولقديسي العهد القديم والعهد الجديد.

وعندما وصلنا إلى الباب الذي اسمه باب داوود، وباب التجار، أو باب السمك عبرنا خلاله برؤوس مطأطأة، لأننا بهذا العبور وعلى هذا الشكل حصلنا على غفران دائم (++)، ومضينا من الباب وسرنا خلال الشارع الطويل، ووصلنا إلى كنيسة مغلقة عظيمة،وعندما كنا جميعا واقفين في الساحة، اعتلى واحد من رهبان دير جبل صهيون مكاناً عالياً، وخاطبنا قائلاً بأن هذه كانت أكثر الكنائس قداسة، وهي متعبدة من قبل العالم أجمع، ففيها راقد أعظم الكنوز قيمة بالنسبة إلى جميع المسيحيين، وهو ضريح ربنا، وعندما سمعنا هذا ألقينا بأنفسنا نحو الأسفل في الساحة، أمام باب الكنيسة، وصلينا وقبلنا الأرض نفسها مراراً كثيرة، ومن المؤكد أنه بدا إلى الحجاج، وهم متمددون على الأرض أن الفضيلة كانت تصدر من الأرض نفسها، وبذلك ازدادت مشاعرهم أكثر واندفعوا للمزيد من الصلوات.

أيها المولى الرب، كم هو عذب يمكن أن يكون تقبيل فمك، ذلك أننا، ولم نستطع تقبيل قدميك، وفقط قدرنا أن نقبل مكان خطواتك، فشعرنا بعذوبة ألانت قلوبنا، آه ياأخي لوكنت معي في تلك الساحة، أثناء تلك الساعة، لرأيت دموعاً كثيرة منهمرة، ولسمعت تنهدات قلبية مريرة، ونحيباً شجياً، وانفعالات عميقة، وحزنا حقيقياً، وبكاء صادراً

من داخل الصدر، وصمتاً كله سـلام وسرور، فلوملكت قلباً من حجر لذاب، ولانفجرت بفيض من الدموع مع الحجاج الذين كانوا ينتحبون، فلقـد رأيت هنـاك بعض الحجـاج وقـد تمددوا على الأرض بـلاحـراك ولاقدرة، تخلت عنهم قواهم، وكأنهم قد نسوا أنفسهم بسبب انفعالاتهم التقوية الفائقة، ورأيت آخرين يتنقلون من زاوية إلى زاوية، ومن هنا إلى هناك، وهم يضربون صـدورهم، وكأنهم قد دفعوا بـروح شريرة، وجثا بعضهم على الأرض بركب عـاريـة، وصلوا بدمـوع، ورفعـوا أذرعتهم وشبكوها على شكل صليـب، وكـان بعضهم يـرتجف ويهتـز بتنهـدات عنيفـــة إلى حـــد أنـه لم يكن بإمكانهم تمالـك أنفسهم والوقـــوف على أرجلهم، ولذلك أرغموا على الجلوس، وقـد أمسكوا رؤوسهم بأيديهم، حتى يمكنهم تحمل تنهـــداتهم الكثيفـــة، وتمدد بعضهم على طولهم على الأرض لمدة طويلة بلاحـراك، حتى بدوا كأنهم أموات، وكـان أكثر من الجميع وفـوقهم كلهم مـرافقـونا، وأخـواتنا النسـاء من الحجـاج حيث صرخن وكأنهن في آلام المخاض، ورفعن أصـواتهن عاليـاً وبكين، وفقد بعض الحجــاج، لشـدة وجــدهم وانفعـالات تقـــواهم، السيطرة على أنفسهم، ونسوا كيف عليهم أن يتصرفوا، وصـدوراً عن شدة حرصهم لإرضاء الرب قاموا بحركات صبيانية وغريبة.

وكان بالحقيقة ممتعاً أن تنظر إلى التصرفات المخلصة جداً، وفي الوقت نفســه، المتنوعـــة للحجـاج، وهم يصلون في الأمـاكن المقـــدســة، وهي الأمـاكـن التي تمتلك قـوة مـــدهشـة في جعل الانســـان يبكي، والناس يتنهـدون، مع أنهم في مكان آخر من غير الممكن إثارتهم بأي كـلام، أو نصيحة، أو نص من الكتابات المقدسة، أو بأي صورة، أو نقش، أومثل، أو وعد، أو تهديد أو ازدهار، أو انتكاسة، ومع هذا، إنه كقاعدة، لانجد جميع الذين يـزورون الأمـاكن المقـــدســـة، لاينفعلون إلى هذا الحد، بل يتحركـون فقط نحو اظهار للتعبـد والتقوى بشكل غير اعتيـادي، فلقد

رأيت بعضهم — وبودي أنني لم أرهم— كانت مشاعرهم قد تحركت هنا باتجاه معاكس لتصرفات التقاة والمؤمنين الجيدين، فلقد رأيت خلال أعمال التعبد والتقوى المتقدمة الوصف التي صدرت عن الحجاج، بعض الحجاج البليدين، والذين لانفع بهم، لابل هم بالحري بهائم متوحشة، ليست فيهم روح الرب، فهؤلاء وقفوا يبتسمون بسخرية نحو الصلوات، والدموع، والتمدد على الأرض، وضرب الصدور، وما شابه ذلك، ممافعله البقية، والذي هو حتى أكثر إدانة وخبثاً هو أن هؤلاء الرجال المتوحشين، والمحرومين من رؤية كل أنواع التقوى، والفارغين من أية مشاعر دينية، والممتلئين بكل النجاسات، أنهم كانوا ينظرون إلى الأناس الأتقياء على أنهم حمقى، ومرائين، ومنافقين، وغشاشين، ومرضى بعقولهم، ولهذا كانوا يعاملونهم بازدراء، ويتأبون من التحادث معهم، ويستخفون بهم، ويسمونهم مجانين، ومرائين، ومنافقين.

آه كم هو غير نافع وملعون الحج بالنسبة لمثل هؤلاء الناس، الذين يضحكون في مثل هذه الأماكن المقدسة، ويستخفون بالرجال المقدسين ويسيئون النظرة إلى تصرفاتهم، فمثل هؤلاء الناس أسوأ من المسلمين، أو من اليهود، مع أن هؤلاء لم يستخفوا قط بأي مسيحي أخذ نفسه بالتقوى، ذلك أننا عندما قدمنا إلى هذه الساحة المقدسة، ركض عدد كبير من الصبيان المسلمين هناك، ليضحكوا علينا، لكنهم عندما رأوا عمق اخلاص الحجاج وتقواهم، ذهبوا بعيداً، وبقي بعضهم وبكوا معنا، وتلقينا في هذه الساحة غفرانات مطلقة (++).

ونهضنا — بعدما أكملنا صلواتنا وأنهيناها — من على الأرض، وصعدنا نحو باب الكنيسة، حيث نظرنا من خلال الفتحات، التي يمر الطعام من خلالها بالعادة إلى الأوصياء على الضريح المقدس، المقفول عليهم هناك، ورأينا قائماً في وسط الكنيسة، بيعة الضريح الأعظم قداسة العائد لربنا، والطريق الصاعد نحو جبل أكرا (الجمجمة)، وانتشينا من

جديد بالمشاعر التقوية، وهناك علامة مرسومة على الأرضية الرخامية، تشير إلى المكان المقدس، الذي وقع فيه الرب يسوع، عندما كان حاملاً للصليب، حيث كان على مقربة من صخرة الجمجمة، ووقتها سقط على الأرض تحت الصليب لأنه كان منهكاً، ولقد قبلنا تلك البقعة الفائقة القداسة عدة مرات، وبللنا لطاخة الدم التي كانت عليها بدموع كثيرة، وكانت هذه ثاني آثار أقدام للرب يسوع رأيناها، ويجب ألا يخطر على بالنا، أو أن نظن أن هذه ليست بدون معاني خفية، أي أن نلتقي أولاً مع خطوات المسيح في المجد، وثانياً مع جسده عندما جلد، وعندما كان يحمل الصليب، فهنا يمكننا أن نتعلم بهذا، أن علينا ألاننشد شيئاً ما سوى المجد السماوي، الذي لايمكن لانسان الحصول عليه إلاّ بحمل صليبه.

وعندما فرغنا من صلواتنا هذه، اقتادنا الكاليني خارج الساحة أو الباحة، العائدة للضريح المقدس، وعبرنا الطريق المواجه الساحة، ومن هناك صعدنا إلى مشفى القديس يوحنا، الذي هو بناء مقنطر واسع، مهمل ومهدم، والموجود هو جزء فقط من المشفى القديم، ومكان يشبه قاعات طعام كبيرة لديرة واسعة، حيث عاش عدد كبير من الرهبان، وهنا رتب الحجاج أنفسهم وفقاً لجماعاتهم، واتخذ السادة السوابيون، أي موالي مكاناً في آخر البيت، حيث كان هناك مايشبه القاعة منفصلة عن البقية، وذلك في مكان مغلق جميل ومحترم، وذهب مولاي جون، كونت أوف سولم وجماعته، مع كالينوس الأصغر، إلى بيته، وأقاموا هناك، ولم نؤخذ في حجي الأول إلى المشفى، بل إلى بيت ميلو الكبير، عند سفح جبل صهيون، وهناك أقمنا، كما أننا لم نشاهد المشفى مطلقاً أثناء ذلك الوقت، ولم نعرف بوجود أية آثار باقية من مشفى القديس يوحنا، وعندما تدبر الحجاج إقامتهم هناك، تولى خدمتنا مسلمون، ويهود، ومسيحيون شرقيون، حيث جلبوا لنا خبزاً، وماء، وطعاماً مطبوخاً،

وفـواكـه، وذلك حسبما أخبرتكم من قبـل، ولقـد اشترينا منهم طعـامـاً وأكلناه.

وأرسل الآن الأب المسـؤول عن دير جبل صهيون اثنين من الرهبـان إلى المشفى، وأمـرهما بجلب جميع الأشخاص مـن الطوائف المقدسـة إلى جبل صهيـون، لأن العـادة جرت بأن يسكن جميـع الأشخاص التـابعين للطوائف الدينية، مع الرهبـان الفرنسيسكان على جبل صهيون، وذهبت أنا بين هؤلاء القـوم مـع اثنين من رهبـان طائفتي، أي طائفـــة الرهبـان المبشرين، كان أولهما قد جـاء من منطقة جزيرة فرنسـا، وجاء الآخر من نابل في منطقــة صقليـة، وخـرجنا مـن المشفى، وجـرى اقتيـادنا إلى دير الفــرنسيسكان فـوق جبل صهيــون، وجـرت تحيتنـا من قبلهم بلطف واستقبلنا استقبالاً حسناً، وقـد أعطونا ثلاث قلايات لنا أنفسنا، وهكذا أكلنا، وشربنا، ونمنا،وعبـــدنا الرب بمصـاحبتهم، وقــد بقيت في تلك القلايـة لأيام كثيرة، بعدما ذهـب الحجاج جميعاً، وتمتعت بهدوء كـامل، وبمعـاملة رائعة صـدرت عن لطف الآباء الفـرنسيسكان ورهبـان جبل صهيون.

زيارتنا للأماكن المقدسة على جبل صهيون ووصفهم

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان الأحد السابع بعد التثليث، وعيد العذراء القـديسة مرغـريت، أرسل الأب المسؤول بعضـا من رهبانه إلى مشفى القـديس يوحنا، ودعـا الحجاج إلى الاحتفـال بقـداس على جبل صهيون، وجـاءوا جميعاً مع هؤلاء الرهبان إلى كنيسـة صهيون، للانتظار هناك حلـول وقت القيـام بقـــداس رفيع، لأن الشمـس أشرقت الآن مبكراً، ومع ذلك لم يكن هو قد استيقظ عندمـا صعد الحجاج إلى هناك، ولكي يظهروا احترامهم للوردات الحجـاج، قام الرهبان بتـزيين السدة، والكنيســة، والمذابح بشكـل جميل، وغطوهم بمعلقـــات ثمينة، وأنا لم أشاهد في أي مكان آخـر معلقات ثمينة أكثـر من هذه المعلقات في هذا

المكان، ذلك أنها كانت مطرزة من قبل النساء، عليها رسوم تعرض حياة المسيح وموته، وفي الحقيقة جاء عدد كبير من سادة المسلمين، والأتراك والمماليك من جهات بعيدة، وطلبوا مشاهدة هذه المعلقات، أو الزرابي، وبعدما احتفى الأعيان، والحكام، والقادة في القدس بضيوف الشرف هؤلاء، اقتادوهم إلى جبل صهيون وتوجهوا بالرجاء إلى الرهبان هناك بأن يعرضوا عليهم هذه المصنوعات ويعلقوها لهم.

وصنعت هذه المعلقات لصالح الكنيسة بناء على أوامر فيليب، دوق بيرغندي، الذي قدم منحاً كثيره أضفاها على ذلك الدير، ووقف المذبح العالي وهو مكتظ بأوعية قرابين مذهبة، وبمذاخر، وكان فوق المذبح صورة، حوت رسم القديس فرانسيس، وإلى جانبه قد وقف شفيعنا المقدس، القديس دومينيك، وقد رسمت بشكل جليل تماماً، والكنيسة ليست واسعة، لأنها كانت شطراً فقط من كنيسة جبل صهيون، وفي العصور القديمة، عندما كان الصليبيون يتولون الحكم في البلاد، كانت هناك كنيسة عظيمة في تلك البقعة، قام المسلمون بتدميرها حتى النتوء أو البيعة الملاصقة لسدة الكنيسة على جهة اليمين، وهذا الجزء هو الآن الكنيسة والسدة للرهبان، وماتزال خرائب السدة القديمة والكنيسة مرئية بوضوح حتى الآن، كما سنوضح ذلك فيمايلي:

وعندما أشرقت الشمس، وحل وقت الاحتفال بالقداس، ضرب الحافظ لغرفة المقدسات على لوح خشبي، لأنه لم تكن لديهم نواقيس من أي نوع، كما أنهم لم يفكروا بالحصول عليهم من خلال المسلمين، بل عبرّوا عن حلول موعد العبادات الدينية بالضرب على ألواح خشبية، كما نحن نفعل في يوم الجمعة الحزينة، وبعدما اجتمعنا كلنا في الكنيسة رتلوا تراتيل الأول والثلثي، وبعد الثلثي صعد الأب المسؤول مع مرافقيه إلى دكة القداس العالي، وكانوا يرتدون ثياباً ثمينة، وبدأ قائد جوقة المرتلين يغني بصوت مرتفع احدى أغنيات صهيون:«Spintus

domini replevitå وساعده جميع الكهنة والقارئين للكتاب من الحجاج، وهكذا غنينا قداس الروح القدس بمهابة بهيجة، وكان هذا القداس موائما للمكان، لأن الروح القدس أرسلت إلى هناك، ونزلت على الرسل، وكانت بشكل مرئي، كما أن التوقيت كان موائماً، لأن اليوم كان هو يوم الأحد السابع بعد التثليث، الذي فيه ورد ذكر الأرغفة السبعة، التي تعني العطايا السبع للروح القدس.

وبعد القداس احتفلنا نحن الكهنة بطقوس القربان على أربعة مذابح، جرى إعدادها لنا، وأعطيت مكاناً في الاحتفال تحت في الأسفل في الرواق المغلق في بيعة القديس توما الرسول، القائمة في المكان الذي فيه قال الرب لتوما:«هات اصبعك إلى هنا» (يوحنا:٢٠/ ٢٧)، وذلك حسبما ورد في الاصحاح العشرين من انجيل القديس يوحنا، وبعد الفراغ من الانجيل في طقوس القداس العالي، استدار الأب المسؤول بنفسه نحو الناس، ووعظهم بموعظة جميلة باللاتينية، مدح فيها الأماكن المقدسة وأثنى على زيارتها التعبدية، وتمت ترجمة هذه الموعظة إلى الألمانية من قبل الأب المبجل بولص غوغلنغر Guglinger، وذلك لصالح الرجال العلمانيين، وكانت الأبواب مغلقة في أثناء القداس، وقد وقف في الخارج عدد كبير من المسلمين والتجار، وصدف في أثناء القداس أن جرى فتح الباب للسماح لأحدهم بالخروج، وعندما رأى المسلمون ذلك اندفعوا بشدة نحو المدخل، ودخلوا إلى الكنيسة، ووقفوا إلى جانب المذبح، وهم ينظرون باستغراب نحو طقوسنا، ومع ذلك لم يظهروا سوء أدب أوسلوكاً، ولم يتعد الأمر الوقوف هناك والاندهاش، وعلى كل حال أوقف الكهنة القداس حتى أخرجوا بوساطة الرهبان، الذين لم يستخدموا القوة أو قاموا بجرهم، أو تخاصموا معهم، بل أخرجوهم بهدوء، ورجوهم بالذهاب، واثر ذلك تمّ إكمال قداسنا.

فيمايلي:

المسيرة إلى الأماكن المقدسة في جبل صهيون وأولاها مكان العشاء الأخير

بعد القداس، أعدّ الرهبان الفرنسيسكان العدة من أجل مسيرة مهيبة، فقد ارتدوا ملابسهم المقدسة، ومضوا وهم يحملون معهم صليباً، وأعلاماً، وحاملات شموع، ومذاخر، ومباخر، وماء مقدساً، ولدى سيرنا معهم جميعاً في المسيرة، كان قائد الجوقة رجلاً صاحب صوت قوي، وقد بدأ يغني بشيء من النشوة ترتيلة من أغاني صهيون:

pange lingua gloriosi corporis mysterium ومع هذا الغناء سرنا، وكنا نحن الكهنة في الطليعة، وتبعنا بقية الحجاج، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى السدة ومنها إلى المذبح العالي، الذي من المعتقد أنه قد بني فوق المكان المقدس الذي أكل فيه الرب يسوع العشاء الأخير مع حوارييه، حيث حول الخبز والنبيذ إلى جسده ودمه، وأعطاهما إلى حوارييه للأكل والشرب، وحيث رسمهم كهنة حتى يتولوا أعمال القداسات، ومضينا إلى هذا المكان الفائق القداسة واحداً تلو الآخر، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الموضع تحت المذبح المفرغ من الأسفل، وتلقينا غفرانات مطلقة (++)، وانتبهوا يا خيرة الأحبة، أيها الإخوة الحجاج، هنا البيت، وهنا العلية العليا، وهنا المنضدة حيث أعطيت لكم الأعطية الفائقة القداسة بالخبز من السماء، وخبز الملائكة، الذي وحده لديه القدرة لاشعال الرغبة فينا، وأن يزرع فينا التواضع، وأن يجلب الندم، وأن يعطي الايمان، وأن يبعث الأمل، وأن يمنحنا الدفء حتى نحب، وأن ينهض بنا إلى التبجيل، وأن نذيب التفكير، وأن يسبب أحلى المشاعر، فهذا المكان جدير بأعلى تقدير —تقدير فوق جميع الأماكن المقدسة الأخرى— ذلك أن جميع الأماكن التي أخذنا

إليها، وكانت على اتصال بالرب، وجدناها كلها جديرة بالاحترام، من ذلك الناصرة مثلاً، التي تلقت حلول الرب في جسد مثل أجسادنا، وبيت لحم التي شهدت ولادته، والجمجمة التي أعطته الصلب. هذه الأماكن حقاً تستحق الاحترام، لكن هذا المكان يستحق احتراماً أكثر منها جميعاً، وهو فوقها كلها، ففي هذا الموضع جرى العشاء الرباني الأعظم انقاذاً، فهنا أعطى نفسه ليكون طعاماً، وجسده ليكون لحماً، ودمه ليكون شراباً، حتى يمكن أن يصبح طعاماً سماوياً وأرضياً مع بعضهما، لأنه قال:«إن الذي يأكل جسدي ويشرب دمي يحل بي وأنا أحل به».

وإلى جانب هذه الأسرار التي تستعصي على الوصف، أدرج هنا أضحيات وقرابين نموذجية، وختم الشريعة، وشرع قداساتاً جديدة، وهنا جعل يوحنا يتمدد فوق صدره، كما أكد هنا بأنه عرف بأن يهوذا الذي سيخونه، وأخبر هنا مقدما بطرس بسقوطه، وتنبأ هنا كيف أن حوارييه سوف يتخلون عنه ويفرون، وهنا وعظ بقداس طويل وعظيم الحلاوة، وودع حوارييه الوداع الأخير، تاركاً السلام معهم.

وهكذا بعدما فعلنا كل ماعلينا أن نفعله في ذلك المكان المقدس بشكل صحيح، حيث غنينا تراتيل، وقرأنا ماهو معد للقراءة «في مسيرات الحجاج في الأرض المقدسة» رجعنا إلى حيث كنا ونحن نقدم الحمد والشكر، وهذه المسيرات هي كتيبات صغيرة، فيها محدد جميع القصائد، والمجاميع، وعبارات الترانيم، والتراتيل، والمزامير، أي كل ماينبغي ان يقال أو يغنى في جميع الأماكن المقدسة، وخلال مسيرة أعمال الحج كلها فيما وراء البحار، وحصلت على واحد من هذه الكتيبات لنفسي، واستخدمته في الأماكن المقدسة.

غسل الأقدام الذي عمل هناك

وسرنا من ذلك المكان على شكل رتل قليلاً نحو الجزء الأيمن من

السدة، ونحن نغني تراتيل محددة من أجل يوم العشاء الأخير، ووصلنا إلى المكان المقدس، حيث غسل الرب يسوع أقدام حوارييه بعد العشاء، ويوجد هنا مذبح جميل، حيث حنينا أنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات (++)، وأرجوكم أيها الأحبة الحجاج، ألا تتركوا هذا المكان، من دون تأملات متقدمة، ليست أقل من تأملات أي مكان آخر، وانظروا وتفكروا بأهمية الذي صنع هنا وبمعانيه وآثاره، فابن الرب القدير بسبب ربوبيته الدائمة، والقدير بجمال عقل الأب، ابن الرب الذي أرسى قواعد العالم، وجعله جميلاً لينظر إليه، والذي إليه تقدم السموات والنجوم في مساراتها، الولاء، والذي هو كما قال أيوب هزّ الأرض وأخرجها من مكانها، وجعل بذلك الأعمدة ترتجف، هو انحنى نحو الأسفل، وحط من مكانة جلالته السماوية، ففي هذا المكان غسل بيديه أقدام حوارييه القذرة، والملوثة، والموحلة، مع أن هؤلاء كانوا من سوية متدنية: صيادين للسمك، ومذنبين، وخونة، وفعل ذلك حتى يقدم لنا أفضل مثال وأصحه في التواضع.

المكان الذي أنزلت فيه الروح القدس على الحواريين في يوم عيد الحصاد

بدأ بعد هذا قائد الجوقة المقدسة يغني أمتع أغنية بين أغاني صهيون وهي: Veni,creater,pinitus الخ، ولدى غنائه لهذه الأغنية خرجنا من الكنيسة ودخلنا إلى الدير الموجود فوق الرواق المغلق، لأن السدة والكنيسة قد بنيتا فوق سطح غرف أخرى، ولذلك حتى يصل الانسان إلى الكنيسة، عليه أن يصعد على الدرج من كل جانب، وعندما يخرج الانسان من الكنيسة، يمكنه أن يسير على سطح قوس الرواق أو المعبر المسقوف، حول جهات ثلاث للساحة، لأن للرواق ثلاثة أطراف فقط، فالطرف الرابع هو جدار الكنيسة، وهكذا مررنا خلال الكنيسة، ونزلنا من جهة الشرق إلى جهة الغرب، ففي النهاية الغربية للكنيسة

خرجنا منها من باب موجود على الجهة الجنوبية، ومشيناعلى الجانب الأول للرواق، ثم عطفنا أنفسنا نحو الشمال، فوصلنا إلى رأس السدة، حيث صعدنا فوق بعض الأدراج إلى علية أبوابها مغلقة بالحجارة، لأسباب سوف أذكرها على ورقة٢٩٠ظ.

وهذه العلية موجودة عند رأس السدة، ولأن السدة ليس لها نوافذ تطل نحو الشرق، لوجود هذه العلية بالطريق، هي مضاءة من جهة الجنوب فقط، وذهبنا برتل صاعدين فوق الأدراج المتقدمة الذكر، وانحنينا بأنفسنا نصلي أمام الباب الموصد، فهناك تلقينا غفرانات مطلقة(++)، وغنينا ترتيلة كنا قد بدأنا بها بلحن عذب، تردد صداها فوق جبل صهيون كله ومدينة القدس، لأن المكان لم يكن مغلقاً، وقد وقفنا فوق مكان مرتفع ، في الهواء الطلق، وغنينا بسرور فائض، متذكرين أنه في هذا المكان أمطرت السماء بحضور رب سيناء، وبحضور رب اسرائيل وجرى ارسال مطر النعمة ذاك وإنزاله على ميراث المسيح، لأن الروح القدس نزلت على الحواريين بصوت مندفع، وغيرت عقولهم الشهوانية إلى محبة له، وهكذا، في الوقت الذي ظهرت فيه ألسنة اللهب دنيوية ظاهرة، اشتعلت قلوبهم في الداخل باللهب، بسبب أنهم عندما تلقوا الرب بالشكل المرئي للنار، كانت قلوبهم تشتعل بعذوبة بالحب، لأن المسيح، عندما كان على وشك الصعود نحو الأعلى، طلب من حوارييه عدم مغادرة القدس، وأن عليهم الانتظار هناك وعد الأب، ولهذا قدموا إلى هذه العلية وأقاموا فيها وهي مغلقة عليهم، وذلك بسبب الهياج بين اليهود، وجلسوا هناك معزولين، وميتمين، وجاهلين وغير عارفين، ومرعوبين، وممتلئين خوفاً، لكن عندما نزلت الروح القدس عليهم، جلبت إليهم أعظم المواساة عذوبة، وانصبت في عقولهم الحكمة الأوضح، فأعطتهم الشجاعة الأمتن، وهكذا بالمثابرة بالنفس، وبالثبات في النعمة، تسلموا الحكم على العالم.

ولسوف أصف هذا المكان بشكل أوفى، عندما أصل إلى الحديث عن ضريح داوود.

المكان الذي قام فيه القديس توما وهو مرتاب بلمس جروح الرب

ثم إننا غادرنا هذا المكان، ونزلنا على الأدراج التي كانت قريبة إلى الرواق، وأتينا إلى بيعة القديس توما، حيث نال هذا الرسول نفسه من خلال شكوكه الفائقة المنافع، شرف لمس الندوب المتألقة لجسد المسيح، وعندما سرنا في رتل إلى ذلك المكان غنينا الترنيمة المبهجة:

((Exultet coelum laudibus resaltet terra gaudiis,)) ومجدداً انحنينا بأنفسنا نحو الأرض في هذا المكان، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، وتركز في هذا المكان تأملنا على النعمة الخاصة، التي وصلت إلى القديس توما الرسول، لأن جميع الذين قرأنا عنهم، أنهم كان لهم علاقة بجنب المسيح — ومنهم القديس توما، الذي وضع يده في جنبه، بناء على طلبه — تلقوا علامة خاصة على النعمة، فلوجينيوس العسكري غير المؤمن والمتوحش، الذي — بناء على أوامر بيلايطوس — وقف إلى جانب الصليب، وقام بإدخال رمحه في جنب المخلص، وطعن القلب الأعظم قداسة للمسيح، كان ضعيف النظر، وصدف أن عينيه لامسهما الدم الذي جرى على الرمح، وبذلك صار يرى بوضوح، وتلقى النور في كل من جسده وعقله، وتحمل استشهادا مشهوداً، ورأى القديس يوحنا الانجيلي جانبه وشاهد الماء والدم يخرج منه، فآمن وصار شاهداً لأعظم الأسرار سمواً، ورأى القديس توما جانبه ولمسه، وبذلك صار أكثر المؤمنين ثباتاً وذلك بشكل مكشوف، وسمع قولاً هو فائق الطمأنة لنا، حيث قال له ربنا:«لأنك رأيتني ياتوما آمنت، طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يوحنا:٢٠/ ٢٩).

والحواريون الآخرون، الذين أراهم الرب يديه، ورأوا جنبه، تفتحت أعينهم، وبذلك أمكنهم فهم الكتابات المقدسة، وقد امتلأوا ببهجة عصية على الوصف، وعندما كان القديس برنارد يصلي أمام تمثال المصلوب، بدا له أنه رأى المصلوب وقد فك نفسه من الصليب، وانحنى عليه وهو يصلي، وتلقاه وهو مستغرق بصلاته بين ذراعيه، ووضع فمه على جنب المصلوب، ورضع من هناك صحة العقيدة حلواً كالعسل، وانفعل القديس فرانسيس أيضاً بعمق لدى تفكيره حول جراح المسيح، فكان أن أجيز بشكل إعجازي، ورأى على جسده أنه يحمل علامات الرب يسوع، وشربت القديسة كاترين السيناوية من جنبه الأعظم قداسة، فغدت ثملة بأحلى جرعة للقداسة، ذلك أن تلك العذراء التي كانت قرينة للمسيح، كانت مرة ترعى امرأة مريضة، تعاني من قرحة مخيفة وقذرة جداً في صدرها، التي صدر عنها رائحة لاتحتمل، لذلك لم يبق أحد معها، وفي أحد الأيام عندما نزعت الفتاة المقدسة الضماد من على القرحة من أجل تنظيفها وغسلها، صدرت رائحة مخيفة لاتحتمل، حركت معدتها وجعلتها تشعر أنها مريضة تريد أن تتقيأ، وعندما شعرت الفتاة المقدسة بهذا، باتت غاضبة مع جسدها، وحلفت يميناً قائلة:« بحق حياة الأكثر علواً، القرين الأكثر حلاوة لروحي، سوف تضع في معدتك ذلك الشيء الذي تقززت منه»، وقامت على الفور بجمع غسالة القرحة والدم الخارج من ذلك الجرح القذر بوعاء، وذهبت إلى مكان منعزل وابتعلت الجميع، وعندما فعلت ذلك توقف تقززها، وليس فقط أنها لم تعد تشعر بالغثيان، بل تمتعت بسرور لايوصف.

وفي الليلة التالية ظهر لها الرب يسوع، وأراها جروحه الخمسة، التي أصيب بها وهو على الصليب وقال:«لأنك البارحة تغلبت على المشاعر الطبيعية لجسدك، بسبب حرارة حبك لي، وابتلعت الشراب المقرف،

أقول لك: بما أنك بهذا العمل ذهبت أبعد من طبيعتك، لذلك سوف أعطيك شراباً فوق الطبيعة البشرية التي اعتدت على تلقيها، ثم إنه وضع يده اليمنى فوق رقبة الفتاة، وسحبها نحو جراح جنبه وقال: «اشربي جرعتي، اشربي جرعة من جانبي، بها سوف تمتلىء روحك بحلاوة سوف تتدفق بشكل مدهش حتى إلى جسدك»، وقامت هي، وقد رأت نفسها قد وضعت إلى جانب فم نبع الحياة، فوضعت فمها الطبيعي، لابل أكثر: فمها الروحي، على ذلك الجرح الأعظم قداسة، وشربت، ليس لمدة قصيرة، لقد شربت بتشوق، وبكميات كبيرة من ذلك الشراب الاعجازي والعصي على الوصف، وأخيراً أبعدت نفسها عن النبع، وهي ممتلئة، ومع ذلك عطشى، وبدأت منذ ذلك الحين حياة جديدة، وكبرت بالنعمة، وذلك حسبما سنقرأ في حكايتها، في الفصل الرابع من القسم الثاني.

وانظر كم هي عظيمة فضائل جرح المسيح، وسنان الرمح، الذي طعن به جنب المسيح محفوظ في نورمبورغ Nuremburg حيث أنني رأيته وحملته بيدي، وله فضائل عظيمة إلى حد أن آلافاً كثيرة من الناس تتدفق على هناك، في كل سنة، في يوم الجمعة الأول، بعد اليوم الثامن من عيد الفصح، لرؤية قطعة الحديد، وعبادتها، وهي القطعة التي شقت جنبه المقدس، وعلى هذا اقتربوا أيها الأحبة الحجاج، والمسوا بقلوبكم جراحه، مثل القديس توما، وصلوا للرسول المقدس حتى يقبلكم للتعايش معه، ويقوم في هذه البيعة مذبح جميل، غالباً ماقرأت فيه ساعاتي الشرعية، عندما كنت أعيش في القدس.

المكان الذي اقتاد إليه ربنا حوارييه حتى يتمكن من التحادث معهم على انفراد وقال: قوموا دعونا نذهب من هنا

بعدما أنهينا قداس المسيرة في هذه البيعة، تحلقنا حول الممر الأسفل للرواق،وذلك حول ثلاثة جوانب منه، وانتقلنا إلى بيعة أخرى، مقدسة

كثيراً، ومظلمة جداً، وهي مخفية تحت الكنيسة نفسها، ومن المعتقد أن هذه البيعة هي المكان المنعزل، الذي إليه اقتاد الرب يسوع حوارييه، عندما قال:«قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وذلك حسبما نقرأ في الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا، ولقد حدثنا الحكماء المتعلمين من أمثال القديس توماس (الأكونيي Aqainas)، وألبرتوس ماغنوس، وهوغو، ودي ليرا، أنه بعد العشاء، وبعدما اغتسل الحواريون، وبعدما تلقوا القربان، أخذ الرب يتحدث إليهم، وهم جلوس في المكان الذي تعشوا فيه، وأخبرهم بشكل مكشوف أنه سيتعرض للخيانة، وأنه بعد وقت قصير لن يرونه بعد ذلك، وعندها أصبح الرسل مرعوبين، واضطربوا لدى سماعهم لكلماته، وتوجهوا بأبصارهم بشكل مستمر نحو باب علية العشاء الأخير، خشية وتوجساً من أن الناس سوف يأتون ويأخذون معلمهم من بينهم، ولذلك أولوا قليلاً من الاهتمام لكلماته، ولأنه رغب في أن يتابع الحديث إليهم بشدة أكبر، من أجل أن يصغوا إليه بعناية أكبر، وأن يكونوا أقل خوفا، قال لهم:«قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وبناء عليه نزلوا من غرفة العلية، إلى الغرفة القائمة تحتها، حيث أنهى قداسه، وصلاته الأكثر تقوى، التي هي موجودة في الاصحاح السابع عشر، وفي الاصحاحين اللذين يليانه من انجيل القديس يوحنا، ونحن نعتقد أن هذه الصلاة هي التي قدمها المسيح في هذا المكان، ولذلك صعدنا إلى المذبح، وتوسلنا إلى ربنا يسوع أن يجعلنا نلتحق به في صلاته هذه الفائقة التقوى، التي قدمها هناك، ولقد تلقينا غفراناً(+).

ويوجد في هذه القاعة المقدسة جزء من العمود الذي جلد المسيح عنده، حيث هو مربوط إلى الجدار بقضبان حديدية، ومع ذلك من الممكن لمسه بالأصابع، ويوجد إلى جانبه فرش للضيوف، نمت عليها أثناء حجي الأول، وهناك أيضاً قلاية لراهب من طائفة السسترشيان،

وللراهب جون الذي يمنح النـاس شارة الفروسيـة في الضريح المقدس، والذي يشغل أيضـاً وظيفـة متعهـد المؤن للـرهبـان، وصعـدنا من ذلك المكان على درج حجـري إلى الكنيسة، وبذلك أنهينا مسيرتنا، فهـذه هي الأماكن المقدسة التي موجودة في أفنية الدير، وفي الخارج هناك كثيراً من المزيد من الأماكن المقدسة، كما سنرى فيمايلي.

الغداء الذي قدمه رهبان جبل صهيون إلى الحجاج

بعـدمـا أنهينا مسيرتنا التي استغـرقت حتى حـوالي منتصف النهـار، وعندما كان الحجـاج على وشك النزول إلى المشفى، قدم الأب المسؤول والراهب يوحنا الخازن، ووجهـا الدعـوة إلى جميع الحجـاج إلى الغـداء، وقـد نصبـوا مناضـد، وألواحـاً طويلة من أجلنا في حـديقـة الدير، لأن عددنا كـان كبيراً، وكان المكان ضيقـاً، ومدوا فـوق السطح قطعة قماش غطت طول السطح كله، لتكون بمثابة مظلة من حـرارة الشمس، وكان الموضوع الذي طرزت به هذه القطعـة هو نزول الروح القدس، وهكذا جلسنا إلى المائـدة باستثناء بعض النبـلاء الذين، قـرروا القيـام بخـدمـة الموائـد، وذلك صـدوراً عن التواضع، وحينما كنا جميعـاً جـالسين، وكنا نأكل بطريقـة نظامية، جاء رجـل كان مرتديا للملابـس وضيعة، أنا لم أره من قبل بين صفـوف الحجـاج، وقـد وقف في وسطنـا ونحن نتناول الطعـام، ووعظنا بلغة لاتينيـة كـانت غنية وفصيحـة وجميلة الأداء، إلى حـد أننا تـوجهنا جميعـاً بأبصـارنـا إليـه، حتى الذين لم يفهمـوه كـانوا مندهشين تجاه تدفقـه ولغته الممتعـة، وكـان موضـوع قـداسة في ميـدان تمجيـد الأماكـن المقدسـة، وفي اطراء الحج ومـدحه، وبعـدمـا أنهى هذا الواعظ كـلامـه، أخذ مكانه اللورد جـون، بارون سيجيرن، الذي كـان رجلاً حكيماً وفصيحاً، وكـان واحداً ممن تولوا خدمة المائـدة، وقد ألقى ـــبناء على إلحاح الأب المسـؤولـــ كلمة بالألمانيـة، شكر بها، باسمـه، السـادة الحجـاج من اللوردات لجلوسهـم إلى مـائـدة الرهبـان الفقـراء،

ورجاهم أن يكونوا راضيين بطعامهم وشرابهم، وإذا ما أراد أي واحد منهم أن يسدد للرهبان ويعوضهم على لطفهم، وأن يظهر شفقة على فقرهم، يمكنه التحادث حول هذا الموضوع مع الراهب يوحنا البروسي، خازن الدير، الذي سوف يجدونه واقفاً في الرواق، لأن الأب المسؤول لن يسمح مطلقاً بجمع أية تبرعات على المائدة، كما أنه لم يرغب باعلامهم أن الراهب يوحنا سوف يتسلم مالاً باسم الرهبان، بل ان النبلاء فعلوا ذلك صدوراً عن رغبتهم، وعندما انتهى الغداء، وتغدينا جميعاً بشكل جيد، ذهبنا إلى الراهب يوحنا، وقدمنا مساعدات لها قيمتها إلى الدير، فبعضهم دفع ست دوقيات، وبعضهم خمس، وبعضهم أربع، وبعضهم ثلاث، وبعضهم دوقيتان، وأصغر مبلغ دفع من قبل أي انسان كان هو دوقية واحدة.

زيارة إلى الأماكن المقدسة على جبل صهيون من دون أحواز الدير

وعندما فرغنا من جميع الذي وصفناه، ذهبنا نحن الحجاج إلى الأب المسؤول ورجوناه أن يتفضل فيعين واحداً من الرهبان لأن يكون دليلنا إلى الأماكن المقدسة المتبقية فوق جبل صهيون، وذلك خارج الدير، ولبى طلبنا الأب المسؤول، ودهش تجاه غيرة الحجاج الكبيرة، فبعد المتاعب التي عانوا منها، مابرحوا يرغبون في تحمل المزيد من الجهود، وفي الحقيقة مامن أحد عليه أن يفكر أن زيارة الأماكن المقدسة مهمة سهلة، فقد كانت هناك حرارة هائلة صادرة عن الشمس، والسير من مكان إلى مكان، والجثو على الركب، والتمدد على الأرض، وفوق كل شيء، كانت هناك، الضغوط التي يضعها كل انسان على نفسه في نضاله بكل طاقاته بأن يرقى بنفسه إلى التقوى السليمة، وتفهم واستيعاب كل ماراه في الأماكن المقدسة،ولأن يحقق صلاة خاشعة، وتأملاً عميقاً، وهذا كله لايمكن القيام به من دون بذل جهود كبيرة، ذلك أنه حتى

يقوم بهم الانسان بشكل لائق، عليه أن يكون مرتاحاً، وليس هائماً على وجهه، ذلك أنه تناضل خلف العوائق العقلية، وأنت تتنقل جسدياً من مكان إلى مكان، عمل مرهق إلى أبعد الحدود، فبعض حجاجنا لم يستطيعوا القيام بذلك، ونزلوا إلى المشفى للراحة، ولذلك أقل من نصفهم هم الذين تابعوا واستمروا في عمل الحجاج.

وكان الأب المسؤول قد أعطانا عدداً من الرهبان بمثابة أدلاء لنا، معهم انطلقنا في طريقنا من حديقة الرهبان الداخلية، حيث كنا قد تناولنا طعام الغداء، وعندما خرجنا من الحديقة إلى الرواق، وصلنا أمام قاعة الطعام والمطبخ، إلى بركة ماء عميقة، كانت أبرد من أي ماء آخر في القدس، ويحكى بأن الماء قد نضح من هذه البركة من قبل حواريي المسيح، من أجل العشاء الرباني، أي من أجل مزج الخمرة أثناء أداء القداس، ومن أجل غسل أيديهم وأقدامهم، ومن أجل الاستخدامات الأخرى أثناء العشاء، وصدوراً عن الاحترام للحقائق المتقدم ذكرها نضحنا بعضاً من هذا الماء وشربناه بتقوى، وصرت من ذلك الوقت غالباً ماأشرب منه كميات كبيرة، أثناء شدة الحرارة وقسوتها، ولم يلحقني ضرر من ذلك، وأعتقد أن هذا واحداً من آبار الخلاص الذين ورد الحديث عنهم في الاصحاح الثاني عشر من سفر اشعيا، وهو قوله:« فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص»، وقال في فقرة تالية:«صوتي واهتفي ياساكنة صهيون».

ومضينا من هذا النبع من خلال الممر المسقوف إلى باب الدير، الذي أخذ بنا إلى طريق عام، وهذا الباب صغير ومنخفض، ومدخل ضيق منحدر، لايمكن لانسان أن يعبره من دون أن يطأطىء رأسه، ويحني ظهره، والباب حديدي قوي، وهو عندما يغلق يشد بسلاسل وبمزاليج حديدية، لأنه يخشى أثناء غضب المسلمين خلال الاضطرابات المفاجئة من اقتحام الدير ونهبه، وهو ما فعلوه في احدى المرات، ومن الممكن

رؤية آثار ذلك في المهجع قرب الحديقة والمكتبة، حيث كان هناك فيما مضى قلايات جميلة بنيت بسقوف مقنطرة، فقد قاموا بتدميرها وبتهبيط قناطرها، ولم يسمحوا لهم حتى هذا اليوم بإعادة عمارتها كما كانت من قبل، ذلك أنه من السهل جداً إثارتهم وتحريكهم لمهاجمة المسيحيين، وأن يثوروا بغضب ضدهم، ولهذا يغلق الرهبان على أنفسهم بشدة، خشية من أن يثور المسلمون ويكون هناك هياج فيتمكنوا من إلحاق بعض الأضرار بهم، ومثل هذا قام المسيحيون الشرقيون بحماية بيوتهم وإغلاقها بأبواب حديدية، وذلك للأسباب نفسها.

موضع اعتكاف العذراء مريم المباركة

وخرجنا من الدير من خلال ذلك الباب، برفقة الرهبان، إنما من دون أبهة، مسيرة مهيبة، وبدون غناء، وكان أول مكان قدمنا إليه درج حجري، صعدنا عليه إلى الكنيسة في الأعلى، وتمددنا على هذا الدرج بأنفسنا، في دعاء وتعبد للقربان المقدس والأماكن المقدسة في الداخل هناك، ثم نهضنا ومضنا إلى الزاوية الخارجية للكنيسة، حيث يوجد الموضع الذي كان فيه معتكف العذراء، مريم، ولذلك انحنينا بأنفسنا في ذلك المكان نحو الأرض، وصلينا، وتلقينا غفرانات(+)، وهناك خطر ببالنا وفكرنا كيف أن مريم العذراء المباركة، قد اعتادت في هذا المكان وفي أماكن أخرى على تقديم صلواتها المتواصلة والمتقبلة كثيراً للتشفع لدى الرب من أجلنا، وفي الحقيقة سوف تظل تقدمهم حتى نهاية الزمان، الأمر الذي هناك حاجة مستمرة لأن تفعله، لأنه مثلما هناك حاجة لأشعة الشمس على الأرض حتى تجعلها خصبة، هناك مثل ذلك حاجة لصلوات مريم من أجلنا نحن الأشقياء المذنبين، وحول هذا قال القديس برنارد:«إذا ما أبعدت الشمس التي تضيء الدنيا، أين يمكن أن يكون هناك نهار؟ وأبعد مريم —نجم البحر— ماالذي سوف يبقى في المسكونة، غير احتضان الجميع للاكتئاب، والظلام الدامس، وظلال

الموت»؟.

موضع دفن داوود وسلميان والملوك الآخرين ليهوذا والقدس

وغادرنا الآن موضع اعتكاف العذراء المباركة، الذي هو موجود —كما قلت— عند زاوية تلك الكنيسة، وذلك حيث يتصل جدار الكنيسة القادم من الشرق بالجدار القادم من الجنوب، وصعدنا من تلك الزاوية وسرنا على طول الجدار الذي يقود نحو الشرق، وصرنا فوق جدار آخر منخفض، يقود من جدار الكنيسة إلى فناء مربع الشكل هو ساحة صغيرة، وتسلقنا في هذه الساحة فوق الجدار، وعندما صرنا فوق، وجدنا باباً صغيراً في جدار الكينسة، وهو محاط بالحديد، ومغلق بعناية فائقة، وعلى هذا لم يكن بإمكاننا المرور من خلاله، لابل حتى وإن استطعنا أن نمر من خلاله، من المؤكد أننا لن نتجرأ على فعل ذلك، لأن الموضع مسجد اسلامي، وهذا مكان عظيم القداسة مبجل من قبل جميع المسيحيين واليهود، والمسلمين كذلك، لأن فيه موضع دفن الأنبياء، والأنبياء القديسين، مثل داوود، وسليمان، ورحبعام، وأبيا Abia، وآسا Asa، ويورام Joram ، والبقية، الذين وردت أسماؤهم في سفر أنساب يسوع المسيح، في الاصحاح الأول من انجيل القديس متى، وغالباً ما ورد ذكر هذا الموضع في أسفار الملوك وأخبار الأيام، كلما جرى استخدام عبارة:«وقد دفن في ضريح آبائه في مدينة داوود»، ودفن هؤلاء الملوك في هذا المكان وسط احتفال عظيم جداً، وحدثنا يوسفيوس، في الكتاب السابع من التاريخ القديم— الفصل السادس عشر— وكذلك مصنف كتاب «Scholastica Historia »، عن وفاة داوود، أنه عندما مات، وضع ابنه سليمان جسد والده في تابوت ثمين جداً، لم يصنع من الحجر أو من الخشب، بل عمله صاغة الذهب، من الذهب المحلى بالأحجار الكريمة، ودفن إلى جانبه كنز لايمكن تقدير قيمته من الذهب والفضة، وعندما توفي سليمان، دفنه ابنه رحبعام، ومعه كنز

عظيم إلى جانب تابوت داوود، وكان سليمان قد بنى مكان الضريح وفق فن حسابي بحيث لايستطيع انسان الوصول إلى هذين التابوتين.

وبعد مضي ألف وثلاثمائة سنة على وفاة سليمان، وفي أثناء وقوع القدس تحت حصار أنطيخوس ابن ديمتريوس، كان هيركانوس الكاهن الأعلى للمدينة المقدسة، وقد وجد نفسه غير قادر على تحمل استمرار الحصار مدة أطول، أو دفع العدو، وصده، وعد أنطيخوس بالمال إذا ما انصرف، ولم يجد وقتها مايكفي من مال في خزانة الهيكل، ولم يكن لدى سكان القدس الفقراء المال، فمضى —لذلك— هذا الكاهن الأعلى، وصعد إلى جبل صهيون، وفتح هذا المكان الذي تحدثت عنه، وأخذ من هناك ثلاثة آلاف قنطار من الذهب، وبهذا المبلغ أقام السلام مع أنطيخوس.

وثانية بعد مرور سنوات كثيرة، وجد هيرود نفسه بحاجة إلى المال، وسمع بأن هيركانوس قد وجد مالاً هناك، فجاء بشكل سري إلى ذلك المكان، وفعل ذلك أثناء الليل ومعه أصدقائه المعتمدين، فلم يجد هناك نقوداً مضروبة، بل استخرج بعض الكؤوس الذهبية والفضية، ودفعه هذا إلى الحفر أعمق، حتى وصل إلى جرتي حفظ جسدي داوود وسليمان وإلى تابوتيهما، وفي أثناء الحفر احترق اثنان من خدمه وتحولا إلى رماد، وكان ذلك بوساطة اللهب الذي اندفع من الأجزاء الداخلية للمكان، وعندما رأى الملك هذا، هرب مع الآخرين، ولكي يصلح ماعمله ويكفر عما اقترفه، بنى ضريحا عظيماً جدا من الحجر الأبيض.

وفيما مضى،، عدّ رهبان دير جبل صهيون هذا المكان بين ممتلكات ديرهم، وهو في الحقيقة جزء من كنيسة جبل صهيون، لأنه موجود بين الجدران نفسها، عند رأس السدة، وقد انتزع السلطان هذا المكان من الرهبان للسبب التالي: فقد توسل اليهود مراراً إلى السلطان لكي يعطيهم هذا المكان، حتى يتخذوا منه مكاناً للزيارة وللاعتكاف،

ومـابرحـــوا يترجـونه حتى هذا اليـوم، ورفض المسيحيـــون باستمـرار الاستجـابة لهم، وأخيراً سأل السلطان عن أسبـاب قداسـة ذلك المكان، وعندما أخبروه بأن داوود وملوك القدس الآخرين من سلالته مدفونين هناك قـــال:«نحن المسلمـون أيضـــاً نعـــدّ داوود مقـدســـاً، مثلما يفعل المسيحيون واليهود ونحن نؤمن بالتوراة كما يفعلون، ولذلك لن يمتلك لا اليهـود ولا النصـارى هذا المكان، بل سنتخـذه نحن لأنفسنا»، وبناء عليه قـدم إلى القدس، وأغلق الباب الذي كـان الانسان يدخل عبره إلى تلك البيعة من داخل الدير، وألغى البيعة، وأزال مذابح المسيح، وحطم التماثيل المنحوتة، وطمس الصور، وجعـل المكان مناسباً لعبادة(١) (إله) محمـد (صلى الله عليـه وسلـم)، وعمل بابا في الخارج، يمكن للمسلمين الدخول منه عندما يرغبون.

ولأن المكان الذي كـان فـوق البيعـة، أي فوق سقفهـا المقنطر، كـان ملكاً للمسيحيين والرهبان، وكـان يوجد فيـه بيعة باهظة النفقـات، كان قـد أسسها هناك ملـك فرنســا، أسسهـا في المكان الذي تحدثنا عنه وقلنا بأن الروح القدس نزلت هناك على الحواريين في يوم عيد الحصاد، لذلك أمـر السلطان أيضاً بهدم هذه البيعـة أيضـاً، وبإزالة القناطر، وباغـلاق بابها، حتى لايتمكن المسيحيـون من السير فـوق السقف المقنطر العـائـد للمسجد، وهكذا فقـد الرهبان هذين المكانين المقـدسين الثمينين، وجاء ذلك من خـلال تشوق اليهود لامتـلاك المكان المنخفض، الذي توسلوا من أجله إلى السلطان، ومـازالوا يتوسلون له حتى هذا اليـوم، ووعدوه يعطوه آلاف قناطير كثيرة من الفضـة مقـابـل ذلك، هذا وهم لايفعلون هذا لمجرد احترامهم لقبور الملوك القديسين، ولالقداسة المكان، بل انهم يأملـون بشق طريقهم إلى تـوابيت الملوك، والعثـــور على الكنوز، لأنهم يعتقـدون بأن هذه الكنوز مخزونة هنـاك، وأنه من المقـدر أن تكون لهم،

١ ـــ استخدم الرحالة عبارة نابية جداً، أبدلتها بها بين الحاصرتين.

ولذلك غالباً ماتجدهم ذاهبين إلى هناك، ويقومون بالصلاة في أثناء الليل، ويمارسون أحياناً هناك أعمال السحر وفنونه.

وتشوقت كثيراً لرؤية القسم الداخلي من ذلك المكان، ولم يخب أملي، حيث كان المسلم الحافظ للمسجد يحاول في أحد الأيام فتح الباب، وقد أغلقه بسرعة، وعطل القفل بالمفتاح، ولذلك لم يحرك المفتاح المزلاج الحديدي، ولذلك غادر تاركاً المسجد مفتوحاً، وقد بقي مفتوحاً طوال المدة التي بقيت فيها بالقدس، ودخلت إلى المسجد أكثر من عشر مرات ونظرت إلى مافيه، مع أنني كنت دوماً أدخل وأخرج وأنا خائف أرتجف، لأنه لو رآني أي مسلم هناك، لسبب ذلك لي أذى عظيماً، هذا إذا نجوت من خطر الموت، وهذه البيعة بيعة طويلة، ولها سقف مقنطر، ولها نافذتين على جهتها اليسرى، وفيها ضريح من الرخام في جانبها الشمالي، والأرضية المبلطة مغطاة بحصر، ومعلق فيه مصباحين، ولايوجد فيه مذبح، ولارسوم، ولاأعمال محفورة ومنحوته، بل جدران عارية مطلية باللون الأبيض، فهكذا جميع مساجد المسلمين فارغة وخاوية.

وأثارت الحكاية المتقدمة شكاً في عقلي، حول لماذا سمح هؤلاء الملوك القديسين بدفن كنوز معهم، لأن هذه ممارسات كافرة ولاعقلانية، ثم كيف كان سليمان قادراً على اخفاء هذه التوابيت بفن لايستطيع انسان حياله العثور عليهم؟ وجواباً للسؤال الأول أقول، بأننا ينبغي أن نؤمن بشكل يقيني بأن هؤلاء الرجال لم يفعلوا شيئاً صدوراً عن أوهام عبثية، أو حباً بالثروات الدنيوية، أو اقترافاً لآثام التفاخر، بل إنهم دفعوا من قبل الروح القدس، من أجل أنه عندما يحين الوقت، يمكن أن تكون الكنوز نافعة لاستخدام الناس بشكل عام، ولاأن تدار وتستخدم من قبل الشراهة المقيتة لليهود، أما بالنسبة للسؤال الثاني، لابد من أن أقرّ بأن يوسفيوس أخبرنا بأن سليمان أخفى هذه القبور بفنون سحرية، لكن

مؤلف كتاب « Historia scholastica » قد دفع هذه التهمة عنه، وأعلن أنه أخفاهم ببراعة أصيلة.

وبشأن قبر داوود، انظر ماقاله القديس بطرس الرسول، في الاصحاح الثاني من أعماله:«أيها الرجال الإخوة يسوغ أن يقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داوود إنه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم»، (أعمال:٢/ ٢٩)، ويبرهن هذا، أن هذا المكان كان معروفاً تماماً في أيام الرسل، واعتقد جيروم بأن داوود قد قام مع ربنا، وأسس حجته على ماقاله القديس بطرس، بأن قبر داوود كان مرئياً بوضوح، مع أنه لم يتجرأ على القول بأن داوود كان مايزال موجوداً فيه. ولقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن هذه القضايا ومايماثلها في هذا المكان، ثم قرأنا صلواتنا بتعبد ذلك أن جميع علامات صلوات مسيرة الأرض المقدسة جديرة بالقراءة هناك، وتلقينا غفرانات(+).

خيمة عهد داوود حيث المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع وحيث أصغت العذراء المباركة

وبسرعة تركنا تلك الساحة الصغيرة، ودخلنا إلى السدة القديمة لكنيسة جبل صهيون، التي كانت مهدمة بشكل كلي، باستثناء الجزء الشرقي منها، حيث مايزال قسم من الجدار قائماً مع قنطرة مهدمة معلقة فوقه، والمكان الذي بنيت فوقه هذه السدة، هو واحد من الأماكن الجديرة بالنظر إليها باحترام من قبل كل من يؤمن بالكتاب المقدس، ويقدم اليهود احتراماً خاصاً لهذا المكان، لأنهم يعتقدون —كما نحن نعتقد— بأنه قام هنا مكان اعتكاف داوود أو خيمة عهده، التي إليها جلب مع جميع بني اسرائيل تابوه الرب بصحبة الأغاني والآلات الموسيقية، والسرور العظيم، حسبما قرأنا في الاصحاح السادس من السفر الثاني لصموئيل، وفي هذا المكان كذلك تسلم الوعد بأن المسيح ينبغي أن يلد من سلالته، حسبما ورد مكتوباً في الاصحاح السابع من

السفر الثاني لصموئيل، وظل هذا المكان حتى بعد بناء الهيكل، يتردد الناس عليه بكثرة ويحبونه، ولذلك غالباً ماعتاد الرب يسوع على الوعظ فيه هناك.

وتخليداً لذكرى ذلك أقيمت حجرتان مقابل بعضهما في وسط الأرضية المبلطة، والحجرة الأولى قائمة في المكان الذي وقف فيه ربنا ووعظ، ووضعت الثانية فوق المكان الذي اعتادت العذراء المباركة أن تصغي فيه لوعظ ابنها، ولقد قبلنا هذه الأماكن مع الحجرتين، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وتلقينا غفرانات(+)، ووقفنا في هذا المكان لبعض الوقت، وبكينا على الخرائب، ونظرنا بأسف من حولنا نحو الحجارة المبعثرة العائدة للمعبد، فقد قام هنا فيما مضى كنيسة عظيمة جداً، لم يبق منها شيئاً سوى الجزء الذي اتصل فيما مضى بتلك الكنيسة العظيمة على جهة الطرف اليمين، وهذا الجزء هو في هذه الأيام سدة وكنيسة الرهبان، حسبما قلت من قبل، ومايزال رأس السدة موجوداً أيضاً، مع النافذة الشرقية، ومعها نصف قنطرتها المهدمة والتي هي مهددة بالسقوط، ويوجد فوق داخل هذه الكنيسة طريق للصعود فوق بعض الدرجات، وذلك من المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس، إلى قمة قطعة تلك القنطرة المهدمة، وصعدت فوق تلك الدرجات ووجدت فوق القنطرة المهدمة، أرضية معمولة من الرخام المصقول من مختلف الألوان، وبناء عليه إنني أفترض أنه كان هنا فيما مضى كنيسة أخرى فوق بالأعلى، على ظهر الكنيسة والسدة، وبناء عليه لابد أن كنيسة جبل صهيون قد امتلكت ثلاثة طوابق مكرسة، أي ان تقول: قبو تحت الأرض، ثم الكنيسة التي بنيت فوق الأرض، وقاعة علية أخرى كانت مزينة، فوق الكنيسة، وفي السدة القديمة مايزال المذبح العالي موجوداً، لكنه مهدم.

وذهبنا بعد ذلك نحو الطرف اليساري من السدة القديمة، حتى

نتمكن من الذهاب لزيارة أماكن مقدسة أخرى، ووجدنا هناك بعض المسيحيين الشرقيين جالسين إلى جانب حجرة مربعة، جزء منها مرتفع فوق أساس السدة القديمة، وجزء مايزال متصلاً بالجدار القديم، وعلى تلك الحجرة كان هؤلاء الشرقيين يمارسون أعمال الكهانة بوساطة أربعة أحجار صغار، وكأنهن حبات النرد، وفي الحقيقية افترضت بالبداية أنهم كانوا يلعبون بالنرد، وتعجبت من جلوسهم هناك في مكان عام، حيث لايوجد بيت للسكن، ذلك أنني لم أعرف بأن هذه الحجرة وحدها قد استخدمت من أجل كهاناتهم الواهمة، وكانوا يلتقطون أربعة أحجار صغار من الأرض، ويقوم الذي يريد رميهن بهزهن في داخل يده، مثلما يهز لاعب النرد، أحجار النرد في يده قبل أن يلقي بهن، ثم يقوم بإلقائهن فوق الحجرة المربعة، وبوساطة الشكل الذي ترسمه هذه الأحجار إثر سقوطها، يتنبؤون بالذي يودون معرفته، من ذلك على سبيل المثال، إذا شكل سقوط الأحجار خطاً مستقيماً، فهم يعتقدون بأن المسألة سوف تسير وفق الطريق الأول، لكن إذا سقطوا وفق خط متعرج، ستسير المسألة وفق طريق آخر، وإذا ماشكلت مربعاً، أوصليباً، ستسير وفق طريق آخر، وإذا كان دائرة، أيضاً وفق طريق آخر، وهكذا دواليك بالنسبة للأشكال الأخرى.

وشكل الصليب هو الشكل الرئيسي في هذه اللعبة، والأقرب إليه هو الشكل الذي يؤدي إليه ويقدر الحظ الأعظم به، وتقدر بقية الأشكال بمدى مشابهتها له، ووقفنا وضحكنا على حماقات هؤلاء الناس، لكنهم كانوا جادين تماماً، ركزوا انتباههم على كهانتهم، وكذلك تطلعاتهم نحو المستقبل.

ورأيت في بعض الأحيان أساقفة وكهنة من الكنيسة الشرقية، من ذوي الجدية والاحترام، رأيتهم جالسين هناك يلعبون ويتكهنون، وهم لايلعبون من أجل الربح، بل لمجرد أوهام الكهانة، الأمر الذي امتلأ به

الشرقيون، والحجرة كانت في ذاتها خشنة وغير مصقولة، غير أنها غدت مصقولـة جداً من جهـة وجهها بسبب ممارسـة الكهانة المستمـرة عليها، لذلك بدت وكأنها تتعرض للصقل والتلميع بشكل متواصل.

مكان المطبخ الذي فيه جرى شواء خروف الفصح مع تسخين الماء من أجل العشاء الرباني

وبعـدمـا رأينا هذه الأشيـاء، انصرفنـا من المكان الذي فيـه الحجـرة، وجئنا إلى المكان الذي افترض النـاس أنه فيـه قـام المطبخ، حيث أعـدّ الحواريون في داخله شؤون احتفال عيد الفصح، بشواء خروف الفصح، وبتقطيع الخس البري، وبتسخين الماء من أجل غسـل الأقـدام، وتنظيف الأوعية والصحـون واشعال نار من أجل احراق بقـايا خروف الفصح، من جلد وعظام، وأجـزاء أخـرى، لايمكن أكلهـا، وهذا المكان ليس خلواً من القداسة، أو تغذية، لأن الطبـاخين في ذلك المطبخ كانوا رجالاً مقدسين، والطعام الذي طهي هناك كان طعـاماً مقدساً، ولقد علمنا من خـلال الاصحاح الثـاني والعشرين من انجيل القديس لوقـا بأن بطرس ويوحنا، أكثر حواريي المسيح محبة وقـداسة، كانا الطباخين اللذان جهزا عشاء الفصح في هذا المطبخ.

عـلاوة على ذلك، كـان خروف الفصح الـذي شوي هناك مقـدسـاً، ذلك أنه نمـوذج ذلك الحمل الحقيقي الذي تألم على الصليب، وكـذلك كـان الماء مقدسـاً، أي الذي جـرى تسخينه هناك، واستخدامـه من قبل الرب يسـوع لغسل أقـدام حوارييـه، ومع أن الانجيليين لم يقـولوا شيئاً حـول تسخين الماء، من المرجح —كما هو لائق— أن الغسل لم يكن إلا بماء سـاخن، لأن الماء السـاخن يزيل الأوسـاخ أكثـر من الماء البـارد، وينعش الأقدام والأرجـل ويقويها، ويري استخدام الماء السـاخن ويعبر عن التقوى والمحبـة التي توفرت عند الذي استخدمـه، لأنه ليس برهاناً

كبيراً على الصداقة استخدام الماء البارد، في غسل قدمي الانسان، مثلما ليس دليلاً على وجود العاطفة الكبيرة تقديم ماء ساخن أو دافىء للشرب، فالانسان الذي يقدم كأساً من الماء البارد لن يخسر أجره أبداً، وذلك حسبما جاء في الاصحاح العاشر من إنجيل القديس متى، هذا ومثلما الماء البارد مرغوب به من قبل الانسان العطشان ليشربه، مثلما هذا، الماء الساخن مبهج بالنسبة للانسان المتعب لغسل قدميه به معا.

ولايمكننا أن نفترض أن المسيح قد ترك أية علامات عن الحب الكامل، حيث أنه في أثناء العشاء لم يعط حوارييه كأساً من الماء البارد، مع أن هذه علامة على الحب، ولها ثوابها، وذلك حسبما قلنا للتو، بل أعطاهم ماعبر عن حب أكثر وفرة، وهو كأس امتلأ بخمرة مزجت باعتدال بماء بارد، وكذلك عندما غسل أقدامهم، لم يفعل ذلك بماء بارد، مع أن ذلك كان يعبر عن حبه، لكنه غسلهم بماء ساخن، وهو علامة على حب أكثر وفرة، وبالمناسبة لم يكن الماء ماء ساخنا صرفاً، بل ماء كان يحتوي على حشائش عطرية مع جذور قوية الرائحة، مزجت بعطور منعشة، مع مياه مقطرة، لاظهار عاطفته الكاملة.

ونحن نعرف بأن المسيح وجه اللوم إلى الفريسيين، لعدم إعطائه ماء لغسل قدميه، ومدح المجدلية لأنها غسلت قدميه بالعطور والدموع الدافئة، هذا ولقد أحب المسيح حوارييه، أكثر مما أحبت المجدلية المسيح، لذلك كان لابدّ له من غسل أقدامهم بماء جيد، دافىء بشكل مرغوب، وممزوج بعطور ثمينة منعشة.

وهكذا وقفنا فوق المكان الذي كان فيه المطبخ المقدس، والذي مايزال قائماً فيه حتى الآن جدار قديم ومرتفع، توجد فيه قناة متجهة نحو الأعلى، وكأنه قصد منها رفع الدخان من النار، وجثونا هنا على ركبنا، وقرأنا الصلوات المناسبة، وتلقينا غفرانات(+).

مكان دفن القديس اسطفان بعد العثور على جسده

وغـادرنا المطبخ المتقـدم الذكـر، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى المكان الذي دفن فيه القديس اسطفان للمـرة الثانية، وذلك مع الآخرين الذين عثر عليهم في حقل جالبار Galabar(كذا) الذي لاأفترض أنه كان بعيداً عن عناتا، التي هي قرية قائمة فوق المكان الذي رجم فيه القديس اسطفـان، وذلك على جهـة اليسـار، وكـان هـذا حقل جماعليل، الذي سحب جسـد القـديس اسطفـان من تحت الحجـارة، وأخـذه إلى حقله، حيث دفن فيه هو نفسه، وابنه أبيبوس Abybos ، ونيقوديموس فيما بعـد، ومع مرور الأيام نسي أمـرهم، وحـدث فيما بعد، أنه كـانت هناك مجاعـة قاسيـة، بسبب الجفاف، لأنها لم تمطر على الأرض لأشهـر كثيرة، ولقد كشف إلى رجل مقدس اسمه لوكيوس Lucius بأن الرب لن يكون محسنا إلى البـلاد، مـادامت هذه الآثار متروكـة من دون تشريف، وعندما كشف له الحقل الذي رقـدوا فيه بشكل اعجازي، وبعـدما رآه، أخبر بذلك القـديس يوحنا، أسقف القدس، الذي جـاء إلى ذلك الحقل في مسيرة مهيبة، وعندمـا حفروا هناك، وجدوا جسد القـديس أسطفان وأجساد الرجـال الآخرين الذين دفنوا معـه، فحملوهم إلى كنيسة جبل صهيون المقدسة، ودفنوهم هناك للمـرة الثانية مع كل التشريف، وسقط في الساعة نفسها كثير من المطر، وأعطت الأرض ثمارها كما كان الوضع من قبل، وحدثت بعد ذلك معجزات كثيرة في تلك البقعة.

وحدث فيما بعـد أن واحداً من نبـلاء القسطنطينية، وكان رجـلاً تقيا يعتقد بالقـديس اسطفان، قدم إلى هاهنـا عبر البحر مع زوجته جـوليانا Joliana، واتخذ لنفسه بيتـاً على جبل صهيـون، مات فيـه بعد مضي سبع سنوات، وعملـت زوجتـه تابـوتاً له على غـرار تابوت القــديس اسطفان، ووضعته إلى جانب جسد القديس اسطفان، وبعد مضي بعض الوقت بعـد ذلـك رغبت جـوليـانا بالعـودة إلى القسطنطينيـة، فسألت

أسقف القـدس أن يعيد إليها جسـد زوجها، ودخل الأسقـف إلى مزار القديس أسطفان وأخـرج لها تابوتين، وطلب منها أن تأخذ منهما تابوت زوجهـا، غير أنها أخـذت تابـوت القـديس اسطفـان ظانة أنـه تابوت زوجها، واكتشفت وهي على طريق سفـرها عبر البحر، من خـلال عدد من المعجـزات، أن التـابوت الذي كـان معهـا كـان تابوت القـديس اسطفـان، وهكذا جـرى نقل هذا التابوت إلى مـدينة القسطنطينيـة، وفي آخـر الأمر تمّ نقله من القسطنطينيـة إلى روما، حيث هو راقـد الآن مع القديس لورانس.

ويقـوم الآن في المكان المتقـدم الذكـر مـذبح في الهواء الطلق، أقـامـه الرهبان هناك، وفي يوم عيده يقيمون قداساً هناك، وقرأنا في هذا المكان، ماوجهتنا كتب المسيرة أن نقرأه، وتلقينا غفرانات(+).

ثم إننا غـادرنا ذلك المكان، وتابعنا سيرنا، وعبرنـا الشـارع إلى بيت مرثا، الذي كان بيتـا لابأس باتساعه، وهو قائم في مـواجهة كنيسة جبل صهيـون، ويقطن في ذلك البيت بعض النسـوة الايطاليـات من طائفـة السسترشيان، اللائي يتبعن طقـوسنا، ويعرفن باسم مـرثاوات الرهبان، بسبب أنهن يخدمن الرهبـان محبـة في الرب، وذلك بالغسـل، والخيـاطة والغزل لصالحهم، وهن يتعبدن في كنيسة الرهبان، وهن نساء متقدمات بالسن، وعظيمات الجدية، ومحترمـات، يعشن في ظل قـاعـدة الحكم الثالث للقديس فرانسيس بصبر كبير، وتحمل عظيم، وقبل أقل من سنة من وجـودي في القـدس، اقتحم بعـض الأعـراب البـاب في الليل، واندفعـوا بهياج إلى داخل بيت هؤلاء السيـدات، ثم هربوا بعدمـا حملوا معهم كل ماوصلت إليه أيديهم، ونهبوا البيت كله، وعندما كنت أعيش هناك غسلوا لي قميصي ووشـاح الكتف، وعملوا أعمال إحسـان أخـرى لي، وتعيش السيدة التي جاءت من بلاط ملكة قبرص، والتي أتيت على ذكرها من قبل، هناك معهن.

وذهبنا من هذا البيت باتجاه الشرق، ثم انحرفنا جانباً نحو الجهة اليمنى، إلى خارج الطريق الذي يقود إلى وادي شعفاط، ووصلنا إلى بيت محمي بشكل جيد، ومغلق باحكام مثله في ذلك مثل جميع بيوت المسيحيين، وعندما قرعنا على الباب، قدم إلينا رجال سود، قد أحرقتهم الشمس، وكانوا طوال القامة، وكان على وجوههم ندوب مع آثار احتراق، وهؤلاء فتحوا الباب لنا، وكان هذا دير الهنود، فيه عاش الرهبان والنساء مع بعضهم، وهم يعيشون في ظل نظام دقيق، وإنه لغريب أن ترى انحطاط ملابسهم، وعندما دخلنا إلى هناك، اقتادونا من خلال ممر إلى قاعة سيئة الإضاءة، يوجد فيها طريق مظلم نازل من خلال صدع في صخرة، ونزلنا نحو الأسفل، حاملين مصابيح معنا، ووصلنا إلى كهف قذر موجود تحت الأرض، مغطى من قبل الصخرة، وفي الحقيقة الكهف كله هو تجويف في الصخرة، ووجدنا هناك مكاناً للصلاة، ووفقاً لخبر قديم جداً، كان هذا المكان هو الذي تاب فيه داوود من ذنبه المتعلق بوفاة أوريا، وقرأنا لذلك هناك الاصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني، الذي جاءنا فيه الخبر بأن داوود ذهب إلى مكان منعزل، حيث صام، وصلى، وبكى، وجلد نفسه بالأسواط وبالعصي، ونظم هناك سبعة مزامير توبة، غالباً ماقرأهم، وغناهم مع نحيب محزن، هذا ولم يكن هذا الكهف العائد لداوود في ذلك الحين خارج القصر الملكي، بل في داخله، لأن القصر كان واسعاً وعريضاً، وسقطنا في هذا الكهف على وجوهنا، ورجونا الرب أن يرحمنا، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي فيه حاول اليهود اختطاف جسد العذراء المباركة من الحواريين عندما كانوا حاملين له إلى الضريح

وعندما تلقينا غفراناتنا، صعدنا ثانية، وغادرنا ذلك البيت، ونزلنا نحو الوادي، وأبقينا وجوهنا متجهةنحو جبل الزيتون، أي باتجاه

الشرق، حيث كانت مدينة القدس موجودة على يسارنا، وكنيسة جبل صهيون على يميننا، وهكذا وصلنا إلى المكان الذي تآمر فيه اليهود على اقتراف الجريمة التالية: فبعد وفاة العذراء مريم الأعظم قداسة، وعندما كان جسدها محمولاً من قبل الحواريين وهم نازلين به من جبل صهيون من أجل دفنه في وادي شعفاط، وبعدما ساروا مسافة مع الغناء والسرور، فجأة، اليهود الذين عرفوا سبب هذه المسيرة، خرجوا من المدينة مع قوة مسلحة، وقد امتلأوا غضباً صدوراً عن الكراهية العمياء القديمة التي حملوها نحو العذراء المجيدة، وانقضوا على الذين كانوا مرافقين للجنازة، وسائرين إلى جانب النعش، وأجبروهم على التوقف، وكان مقصدهم الاستيلاء على الجثمان المقدس، ورميه وكأنه جسد مدنس، وارغام الحواريين على الفرار، وهكذا وقفوا على مقربة منه وصرخوا بصوت مرتفع themea Kesesa، وكان معنى ذلك «عاهرة مدنسة»، وتقدم أحدهم، وصعد بجرأة وأمسك التابوت بكلتا يديه، محاولاً رميه إلى الأرض مع الجسد المقدس الذي فيه، لكن ما أن لمس النعش بيديه، حتى ذبلت يداه مع الذراعين، وجفتا، وباتتا معلقتان من دون حراك مثل عصاتين، ومع حدوث هذه المعجزة أصيب الرجل التعيس بندم عظيم، بينما وقف بقية الحشد المهاجم مرعوبين، وقد امتلأوا خوفاً واضطراباً، ورجاهم الرجل المعطل أن يرفعوا له ذراعيه اللتان تعلقتا بدون حراك، ووضعهما فوق الجسد المقدس، فكان أن شفي على الفور، وأصبح مسيحياً، وعاد البقية مخذولين إلى المدينة، وتركوا الحواريين يحملون الجسد المقدس، إلى موضع الدفن في جيسماني، وهكذا قرأنا في هذا المكان الـ Salve Regina، وبعدما تلقينا غفرانات، مضينا في طريقنا نتابع سيرنا.

المكان الذي أخفى بطرس فيه نفسه بعد انكاره الثالث

ونزلنا بعد هذا من المكان المتقدم الذكر نحو الوادي، ووصلنا إلى

صخرة واقفة عاليـة، فتحت هذه الصخرة، جلس القديس بطرس يبكي وينتحب، ويستغفر، وكان ذلك بعد مغـادرته لبيت كيفاس، بعد إنكاره الثـالث لربه، ونال هناك غفـراناً لذنبـه واعفـاء من العقـوبة، وتلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا هناك غفـرانات مطلقـة(++)، وهنا حـدث في يوم قيامـة الرب يسوع، أنه ظهر إلى القديس بطرس وواسـاه، وقام فيما مضى على هذه البقعة كنيسة عظيمة وجميلة، لكنها مهدمة الآن تماماً، إلى حد أنه لم تبق منهـا أية آثار، حتى الصخرة التي جلـس القديس بطرس تحتها يبكي، والتي كـانت مجوفة على شكل كهف واسع، أخـذت تصغر يوميا، وهي الآن مجرد حجـرة صغيرة، لأن الحجاج كسروا قطعـاً منها، وحملوها معهم، وإلى جـانب هذه الحجـرة تتدفق ميـاه مجلوبة إلى مـدينة القـدس من جبال حبرون في مجرى مـائي، وفق طريقة مـدهشة، سـوف أتكلم عنها مطولاً في الورقـة ٢٤٩، وقائم هناك أيضاً بركـة عميقة، من الممكن سحب الماء منها، وأعتقد أنه عندما كانت هنا كنيسة، كانت هذه البركة العميقة قبو تلك الكنيسة.

المكان الذي قام فيه بيت عناس القاضي الأول للرب يسوع

وبعدمـا رأينا هذا المكان، مضينا نسير على دربنا، حيث أدرنا ظهورنا إلى الوادي، وتسلقنا ثانيـة الرابيـة التي كنا قـد نزلنا منهـا، إنما ليس عبر الطريق نفسه، لكن انحـرفنا جانباً باتجاه المدينة المقدسـة، وكان ذلك بين بيـوت مهدمـة، ووصلنا إلى بيت كـان بابه محكم الاغـلاق وبقوة، وقـد قـرعنا عليـه، وسمح لنا بالدخـول، وعنـدمـا أصبحنا بالداخل أتينا إلى كنيسة جميلة، مكرسة على شرف الملائكة المقدسين، ولذلك عرفت باسم كنيسة الملائكة المقدسين، وكان من حول هذه الكنيسة قلايات وقاعات، فيها سكـن رهبان أرمن، مع مسيحيين شرقيين، ورجـال سود محترمين، وكـان هذا المكان في أيام آلام ربنا بيـت عناس(حنان) الذي إليـه جلب الرب يسوع أولاً من الحديقـة التي اعتقل فيها، وجـرى ذكر هذا البيت

وجلب الرب يسـوع إليـه بشكل متميـز وواضح في الاصحـاح الثـامن عشر من انجيل القديس يوحنا، حيث نقـرأ فيه كيف قام عناس (حنان) الكاهن الأعلى فـاستجـوبه بازدراء، وسأله عن عقيـدته وعن تلاميـذه، وكيف قام واحد من الخدم بلطم يسوع لطمـة بالغة القسوة على وجهه، ولهذا —تبعا لبعضهم— سقطت أسنانه من فمـه، وتغطى وجهه بالدم، ولدى تلقي الرب يسوع هذه اللطمة لم يقـل شيئاً، ولم يفعل شيئاً قاسياً، كما أنه لم يقم بمعاقبـة الذي لطمه بأي شكل من الأشكـال، وحول هذا قال القديس أوغسطين:«إننا إذا مـاتفكرنا حول الذي تلقى الضربة منه، ألا يتـوجب علينا أن نفترض أن النار كـانت ينبغي أن تنزل من السماء وتحرقه، هذا الـذي وجه الضربة إليه، أو أن تنفتـح الأرض وتبتلعه، أو أن يجرى انتـزاعـه وأخـذه ليتعـذب من قبل الشيـاطين، أو أن يتعـرض لعقوبة من هـذا القبيل، إن لم يكن أكثر؟ ولم يأمر الـذي صنع العالم من قبله بأي من هذه الأشيـاء مع أنه امتلك القـدرة على تنفيـذها، ذلك أنه آثر أن يعلمنا الصبر، فبالصبر يمكن قهر العالم».

وبهذا يمكن أن ندرك فسـاد وزيف الذيـن قـالوا بأن الرب يسـوع ، عاقبه على الفـور، وضرب فوق البقعة نفسها قـائلاً له:«هنا سوف تظل واقفـا، وتكون شـاهداً على بـراءتي حتى يوم الحسـاب الأخير، ووقتهـا سـوف يتم انقاذك»، وقـالوا بأنه منذ تلك الساعـة فصاعـداً، هو واقف —لهذا السبب— هناك، وهو حي، لكنه لايأكل ولايشرب، ولاينام، بل يتطلع نحـو الأمـام بتشـوق عظيم إلى نهاية الحيـاة، حتى يمكن تحريره، وكـان دوماً يسأل القـادمين من الحجـاج، الذين يأتون إلى هناك، عما إذا مـاكانـت النساء مـازلن يحملن بالأولاد الذكـور، لأنهم يقـولون أنه مع اقتراب نهاية الدنيـا تتوقف النسـاء عن الحمل بالأولاد الذكـور، وهكذا هو واقف هناك، يتلقى أسئلـة ويجاوب عليهـا، وهذه الحكايات عـابثـة وآثمة، لأنها ضـد الكتابات المقدسـة، وضد الانجيل، ومعـاكسة للإيمان

وللصـــدق، وقـد اخترعت مـن قبل حمقى، ومشردين تستروا تحت رداء التقوى وهم يتجولون في أرجاء البـلاد، ويخترعون مثل هذه الأكاذيب، ويجذبون بذلك القـــوم التـــافهين ويضللوهم، لابل في بعض الأحيـــان يضللون حتى الناس الذين يبدون أنهم عقـلاء، وأكثر تنبها من أن يتبنوا كلامهم ويصدقوه ويعطوهم المال مقابل كذبهم.

والصـدق يرغمني على الاعتراف بأن هذا قد وقع لي شخصيـا، ففي السنة التي كنت أستعد فيها من أجل حجي الأول إلى الأرض المقدسة، قدم إلى أولم إثنان من المشردين من فلاندرز، حيث أعلنا أنهما قـدما للتو من القدس، ومن جبل سيناء، ورويا عـدداً من الحكايا ت العجيبة، وهما جالسين بين الناس البسطاء في دار الضيافـة، وقد تحلق عدد كبير حولهما من الرجـال والنساء لسماع حكاياتهما، وكـان هناك أرملة محترمة اسمهـا السيـدة آنا فـون كنغسك Kingseik ،سحـرها حديثهما إلى حـــد أنها أخـذتهما إلى بيتها، وعـاملتهما بكرم زائد، حتى تمتلك مـايكفي من وقت للتحادث معهما، ووجهت إليّ في أحـد الأيام الدعوة إلى بيتهـا لمقابلتهما، حتى أستمع لما كـانا يقولانه، لأنها كـانت تعـرف أنني كنت على وشك الشروع برحلتي إلى الأماكن المقـدسة، وشرعـا بحكايتهما الكاذبة، وكان من الواضح وبطبيعة الحال أنني لم أصـدق شيئا مما أخبراني به، ولا أريد أن أكرر الكذب الذي أخبراني به، وقـد نصحاني بعدم السفـر بحراً، بل أن أذهب على قـدمي من خـلال هنغـاريا، ودالماشيـا إلى القسطنطينيـة، حيث سيعطيني امبراطور القسطنطينيـة خمسين دوقية، لأنه كـان متعهداً بأن يدفع ذلك المبلغ إلى كل حـاج ذاهب إلى الأرض المقـدسة، وعندمـا قلت في جـــواب لهذا الاقتراح بأن هذا الامبراطور لم يكن مسيحيـــا بل كان تركيا، قام أحـدهما على الفور فتصدى لحجتي بكذبة جديدة، حيث أعلن بأن ملك القدس (كـذا) صار مسيحيـا، وأن المدينة قد تحولت إلى المسيحيـة، وأن هذا الملك لن يسمح لأي إنســان بأن يرسم فـارسـاً في

الضريح المقدس، مالم يتصارع معه ويبرهن على قوته.

وقد أعلنا أن بيعة الضريح المقدس لربنا قد سترت كلها بالذهب الأصفر، وأن مصابيحها معلقة بحوامل ذهبية، وأنه يوجد فوق البيعة الصغيرة العائدة لضريح المسيح هناك مصباح واحد يحترق باستمرار من دون اشعال حيث يتلقى النار والزيت من السماء، وأن القدس كلها قد بنيت بحجارة ثمينة، وأخرج أحدهما قطعة حجر غير مصقولة، قال بأنه وجدها في الطريق في القدس، وقال بأنه على غير استعداد لبيعها مقابل عشرين دوقية، وقال لوأن انسانا عرف الحجارة الكريمة وميزها لكان بإمكانه أن يجدها بأعداد كبيرة هناك بين الأحجار العادية لذلك المكان.

علاوة على ذلك، قام واحد منهما فكشف عن كتفه الأيمن بحضوري، وأراني ندبة حمراء مستديرة عليه، وهي لها شكل مايعرض على هامش (الكتاب)، وأخبرنا أن راعي دير القديسة كاترين على جبل سيناء لديه دولاب ذهبي، كان يضعه فوق فحم يحترق، وعندما يصبح حامياً، يرفعه بملقط ويدمغ به الحاج الذي يكون متعريا لتلقيه على كتفه الأيمن، كما أنهما لم يخافا من تكرار الحكاية الزائفة المتقدم ذكرها حول الذي لطم يسوع، بل زادا بأنهما تحادثا معه، وأنه لم يكن مسموحاً لجميع الحجاج برؤيته، وقد أخبراني بهذا وبأكاذيب أخرى كثيرة مع أنهما لم يريا القدس.

وعندما كنت —الآن— في بيت عناس (حنان)، سألت مازحاً دليلنا، وكان واحداً من الرهبان الفرنسيسكان أين وقف الرجل الذي لطم الرب يسوع؟ فاقتادني الراهب إلى خارج الكنيسة، وأشار إلى شجرة زيتون كانت نامية إلى جانبها، قائلاً:«انتبه، هذا هو الرجل، ذلك أنهم يقولون بأن أظافره قد نمت في داخل الأرض، وتعلقت لحيته على الطرف، مشيراً إلى جذور الشجرة وأغصانها، ويحترم سكان الدير، لابل في الحقيقة جميع المسيحيين الشرقيين هذه الشجرة، ويذكرون أنه كتب في

كتبهم القديمة جداً، بأن الرب يسوع وقف مربوطاً إلى تلك الشجرة، بينما أكل الموظفون وشربوا، لأن عناس كان مسروراً إلى أبعد الحدود، بسبب إلقاء القبض على الرب يسوع، وأعطى لذلك طعاماً وشراباً إلى الذين اعتقلوه، وبناء عليه قبلنا جذع الشجرة التي كانت قديمة جداً، وهكذا، ثم إننا عدنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المذكورة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

بيت كيفاس الكاهن الأعلى الذي سخر فيه من الرب يسوع المسيح

عندما غادرنا بيت عناس —الكاهن الأعلى، بادرنا مسرعين نحو بيت كيفاس، وكنا نشعر بالحزن والخشوع، ونحن نسير حيث سار الرب يسوع، وعندما وصلنا إلى البيت وجدناه مغلقاً، وعندما قرعنا على الباب فتح لنا، فدخلنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المحددة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة،(++)، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس المخلص، وهي قائمة فوق المكان الذي قام عليه بيت كيفاس، حيث يعرف كل مسيحي ماالذي عاناه يسوع في داخله وتحمله، وهناك بحثوا عن شاهد زور يشهد ضده، فلم يجدوا أحداً، وهناك أنكر بطرس ثلاث مرات أنه يعرف الرجل، وهناك ربط الرب يسوع، وغطيت عيناه، وبصق عليه، ولطم، وضرب بكفوف اليد طوال الليل كله تقريباً، وبقي هناك مسجوناً لمدة ثلاث ساعات، وبناء عليه بقينا هناك مدة طويلة نتفكر حول هذه الأشياء، ونحن نصلي، وامتلأ المكان بدموعنا، وآهاتنا وتنهداتنا.

ثم إننا بعدما قمنا من صلواتنا ونهضنا، اقتادنا كهنة هذه الكنيسة حول الأماكن المقدسة في الداخل، وجئنا أولاً إلى المذبح العالي في السدة، الذي جردوه من أغطيته المعلقة حتى نتمكن من رؤية الحجرة

التي شكلت لوح المذبح، وكانت هذه حجرة كبيرة، وسميكة، وواسعة، وهي قطعــة من الحجـرة التي دحــرجـوها مـن على فم ضريح الرب، ولذلك قرأنا الاصحاح السادس عشر مـن انجيل القديس مرقص، وقد كانت فيها مضـى حجرة كبيرة جداً، لأنه بعـد مضي سنوات كثيرة، قطع المؤمنون هذه الحجـرة إلى قسمين، وتركـوا القسم الأول قـرب الضريح المقــدس، في حين جلبـوا القسم الآخــر إلى هاهنا، إلى هذه الكنيســة، وقـرروا جعلهـا لوحـاً، أو منضدة، للمـذبح، ولقـد قبلنا هذه الحجـرة المقدسـة، ونظرنا إليها عن قرب، وفي الوقت نفسـه راقبنا كهنة الكنيسة بدقة، حتى لايقـوم واحد معاً باقتطاع شظية من الحجـرة، بآلة حديدية، لأنهم يبجلون هذه الحجـرة تبجيلاً عظيماً، وفي الحقيقة لولا وجـود هذه الحجرة لباعوا المكان منذ السنة الماضية، لأنهم كانوا رهباناً أرمن في غاية الفقر، ولشـدة عوزهم كانوا سيبيعون المكان إلى الرهبـان الفرنسيسكان، لأنهم كانوا غير قادرين على إبقاء الكنيسة والدير وترميمهما، وقد أرادوا بيع المكان شريطة أن يـأخـذوا هذه الحجـرة معهم، لأنهم كـانوا يأبون ولايوافقون مطلقاً على بيع الحجرة معه.

وحـدث في هذه السنة، أن جـاء إلى القـدس رجل أرمني غني جـداً، تولى إعـادة بناء الكنيسة المهـدمـة والدير، وقـدم يد المساعـدة إلى هؤلاء الرجــال الفقـراء، وفي اثناء حجي الأول، وصل إلى يـدي قطعـة كبيرة الحجم من هذه الحجرة، فقد اشتراها فـارس بدوقيتين من كاهن أرمني، كـان قـد دخل إلى الكنيسة مع الفـارس خلسـة، خشيـة أن يراه الأرمن الآخرون، واقتطع شظيـة من الحجرة، وقـد مات هذا الفـارس نفسه في البحر، وقد ورثت هذه الشظية منه، وأحضرتها معي إلى أولم.

وتركنا بعــد هذا المذبح، وفي مقــابل المذبح، على الجهــة اليمنى من الكنيســة، هناك مررنا من خـلال باب صغير إلى قـلاية ضيقة ومظلمـة، وهي مقامة بوساطة جـدران سميكة، وقادرة على استيعاب رجل واحد

وهو واقف، ولذلك دخلنا اليها واحداً تلو الآخر، وكانت هذه القلاية هي الزنزانة التي كان يودع فيها الرجال الذين حوكموا، أو الذين يتوجب جلبهم إلى أمام القاضي، أو احضارهم للاعدام، فهناك يسجنون حتى يحين الوقت لاحضارهم إلى المحكمة، وبناء عليه سجن الرب يسوع هناك، بعد محاكمته، ووقف هناك لمدة ثلاث ساعات، ويداه مربوطتان خلف ظهره، وعيناه أيضاً مربوطتان، وكان وجهه مبصوقاً عليه، وقد غطته الاهانات، وكان يعاني من البرد، وهنا انحينا بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا بخشوع، وقدمنا الشكر إلى مخلصنا، وخرجنا بعد هذا من الكنيسة إلى الساحة، أو الباحة في الخارج، حيث كانت هناك نار، وقف حولها بطرس مع الخدم عندما أنكر الرب، وعندما استدار الرب، وألقى نظرة عليه، فضلاً عن هذا، لقد رأينا المكان الذي وقف عليه الديك، الذي لدى صياحه عاد بطرس إلى نفسه، وقد نظرنا بخشوع نحو هذه الأماكن جميعها.

الزاوية التي وقفت عندها العذراء المباركة وهي تنظر نحو بيت كيفاس عندما كان ربنا يحاكم هناك

وخرجنا بعد هذا من ذلك البيت، وأخذنا طريقنا إلى زاوية البيت، التي منها يمكن للانسان أن ينظر بشكل مباشر نحو باب بيت كيفاس، وعليه إذا ماوقف إنسان على الجانب الأقصى من الزاوية، إنه إذا مامدّ رأسه، أو احدى عينيه، إذا ما اختار ذلك، يمكنه أن يرى باب بيت كيفاس، وهو نفسه لايمكن رؤيته من قبل أحد من الناس، لايعرف بوقوفه خلف الجدار، وينظر باحثاً متقصياً حول الزاوية، ففي هذا المكان —حسبما يقولون— وقفت العذراء المباركة، متخفية طوال ذلك الوقت، وهي تراقب الباب الذي من خلاله اقتيد المسيح مغلولاً، راغبة في أن ترى إلى أين سيأخذونه في النهاية.

آه، مع أي أية آلام ودموع، لابد أن العذراء المباركة قد وقفت تنتظر هناك! وماذا تظنون، كانت العذراء ستجيب، لوأن أحداً سألها لماذا هي واقفة هناك، أو من الذي كانت تنتظره هناك؟ لقد كانت العذراء ستجيبه: اطلاق سراح ابنها من أيدي اليهود، وهل كان لديها جواب آخر؟ وكانت ستضيف:«إنني أعرف أن ابني بارع وفصيح، وأنه لو أحضر أمام قاضي عام لربح البراءة، ولأطلق سراحه، ومع ذلك هو على العموم، لطيف، ولايؤذي، وصامت، مثل حمل أمام الذي يجز صوفه، وهو لن يفتح فمه بالدفاع عن نفسه، فضلاً عن ذلك، هو عذب، ومحبوب، ولدي أمل كبير، أنهم سوف يرحمونه، وأنه سوف يعاد إلي، ولهذا وقفت هنا، وأنا مليئة بالقلق، حتى أرى النهاية، وإلى أين سيقاد، فإن كان إلى الحياة، فأنا سأعيش معه، وإن كان إلى الموت، فلسوف أتقدم وأموت معه».

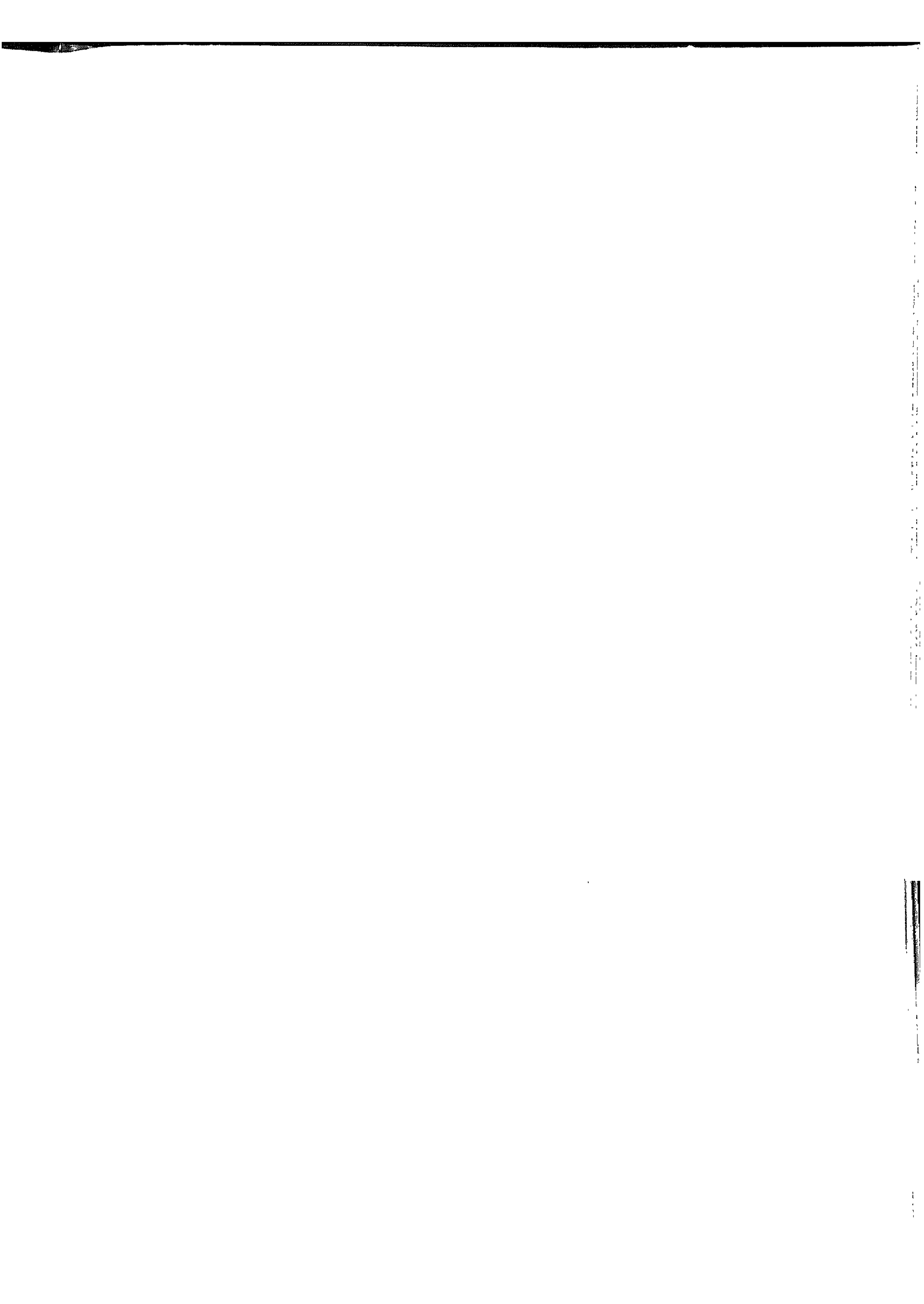
ويقول الناس الأتقياء، بأن بطرس، بعدما أنكر ربه، وخرج من ذلك البيت وهو يتأوه ويتنهد، جاء إلى هذه الزاوية، ومن خلال الخجل والحزن لم يستطع ان يتكلم مع العذراء، كما لم تستطع العذراء أن تكلمه، ولهذا ركض إلى الكهف الذي تحدثت عنه من قبل، ولقد قبلنا هذه الزاوية، وتلقينا غفرانات(+).

المحتوى

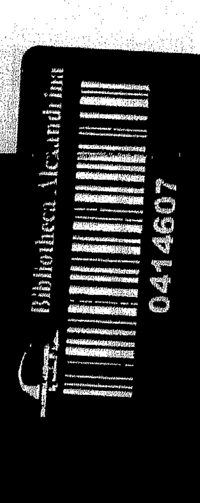











Bibliotheca Alexandrina
0414607